مفاهيم القرآن

الجزء الثالث

يبحث عن عالميّة الرسالة المحمّديّة و خاتميّتها
و أُمّية النبيّ الأكرم ﷺ، و اطّلاعه على الغيب
بإذن الله سبحانه، و حياته في القرآن

تأليف

جعفر السبحاني

لقد وافتنا رسائل من الشخصيات البارزة المتبحّرة بعلوم القرآن وتفسيره تشجّعنا على مواصلة العمل ونحن نقدم إليهم بالشكر وننشر كلماتهم فيما يأتي من الأجزاء مشفوعاً بالتقدير والإكبار.

كلمة قيّمة للمفكّر الإسلامي الكبير والمفسّر القدير العلّامة السيّد محمد حسين الطباطبائي قدس سره مؤلّف الكتاب القيّم « الميزان في تفسير القرآن ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد، فإنّ الكتاب الذي بين يديك سلسلة بحوث قيّمة في القرآن الكريم وتفسيره على أساس « الوحدات الموضوعية » فيه. ويلاحظ الباحث فيها أنّها تعتمد، قبل كل شيء على الاستفادة من نفس مفاهيم القرآن الكريم في عرض المواضيع كما يلاحظ الروح الموضوعية الهادفة والأُسلوب الفخم، والتتبع الدقيق، والإسهاب في البحث، والاستيفاء الكامل لكلّ جوانب الموضوع. فأسأل الله أن يوفّق مؤلّفنا الموفّق لتنقيح سائر المواضيع في الأجزاء الآتية، انّه سميع بصير.

محمد حسين الطباطبائي

عام 1393 هـ

قم ـ إيران

اكبار وتقدير لهذه الموسوعة القرآنية من المحقق المتتبع العلّامة الكبير الشيخ محمد تقي التستري دام ظله، صاحب كتاب « قاموس الرجال ».

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة العلّامة فخر الأيام الشيخ جعفر السبحاني دامت بركاته.

وصلني كتابكم الميمون ففتح علينا أبواب البهجة والسرور، كما وصلني مؤلّفكم القيّم « مفاهيم القرآن » وقد طالعته من أوّله إلى آخره والحق أنّكم بحثتم فيه عن موضوعات كثيرة وعالجتم فيه المسائل الإسلامية معالجة جديدة، بعيدة عمّا حولها من آراء وأفكار مهجورة فجزاكم الله عن الإسلام والدين والعلم خير الجزاء.

والعجب أنّكم رغم نشأتكم فى إيران أخذتم بناصية اللغة العربية كأديب مصري أو بغدادي، فأتيتم بتعابير عصرية رائجة، أدام الله في تأييدكم وزاد في تسديدكم.

الشيخ محمد تقي التستري

التفاتة كريمة وكتاب مبارك من الأستاذ الفذ
سماحة العلّامة الحجة الشيخ محمد الكرمي دام
ظله الوارف نقتطف منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هزتني طرّة عنوانه لأنّه مبتكر في بابه

كم بتّ أتململ ســـاعات طوالاً من الليل، وآناء كثيرة من أطراف النهار أجول بفكري في غضـــون الحياة لعلّي أطّلع من بعض منافذها على بصـــيص أجعله مناراً للخروج من حيرتي لأنّي أعرف للفضيلة مفهوماً ولا أراه بين الناس، وللدين أهمية عظمى ولا أجدها ظاهرةً بينهم .. نعم قد تقع العين أحياناً على فاضـــل متزن وكاتب متقن وكتاب متشـــخّص فيلوح في الآفاق كما تلوح النجمة اللّامعة في شاشة الظلام الأدكن ويحصل منها بصيص للدرب يهوّن على سالكه المسير فلا يكون كخابط في ليلة ظلماء.

وفي مثل هذا الوقت المتلوي والظرف الحرج يتحفني صـــديق لي حميم وهو الأســـتاذ جعفر السبحاني بالجزء الأوّل من تفسيره الموضوعي للقرآن الكريم « فهزّتني طرّة عنوانه لأنّه مبتكر في بابه » فانّ كل من كتب في التفسير كتب على طبق تسلسل السور من الفاتحة إلى المعوذة بالترتيب الموجود للمصحف الشريف، أمّا صديقنا الفاضل فقد حاول خطة أُخرى هي بنظري آصل من الخطط الدارجة وهي إلمامه بجميع ما في

القرآن من أهداف وموضـوعات تحدّث القرآن الكريم عنها وإشـخاص كل هدف في باب خاص والإفاضة عنه بالآيات التي رمت إليه في أيّة سورة كانت.

... لقد أتحفني صديقي السبحاني بالجزء الأوّل من تفسيره الموضوعي فقرأت مقدّمته لأستجلي من مجملها تفاصـيل ما دوّن أو يريد تدوينه، فوقفت على مجمل مفعم بالمطالب الدقيقة وفتحت الكتاب عفواً فوقعت عيني على عنوان " أُمّية النبي في القرآن " وسـرحتها قصـداً لترتع في هذه الجنائن الناظرة والحدائق الغنّاء فكان والحق يقال محقّقاً لمادة المطلب مفتشاً على كلّ مظنة توفي بها على ما يوخّى من بحثه وبعد ذلك مطبقاً لما علّق بنظره مبرهناً عليه طارداً للشبه والإشكالات التي توجّه إليه.

فالسبحاني وإن كان كتبَ في أبواب شتى وطرق مواضيع عديدة وساعدته الظروف فنشر ما كتب إلّا أنّه في كتابه هذا إذا وفّق لإتمامه على أُسـلوب فأنجز منه يكون قد جاء ببيت قصـيده وأسعفه الحظ بمقصوده ولا استكثر عليه ذلك.

لقد أتحفني صديقي الفاضل السبحاني كما ذكرت بالجزء الأوّل من موسوعته فرأيت لزاماً عليّ أن أقدم لجزئه الثاني الجاهز للطبع وأعرب عن الحق الذي تضـمّنه كتابه لا عن تذوقي وحده. فجدير بالناشئة المؤمنة أن تطالع هذا الكتاب وتشبع بعض نهمتها منه وجدير بالأُستاذ المؤلّف أن يتابع خطوه في إتمام هذه الموسوعة التي تتقاضى منه جداً وجهداً وزمناً وإذا ماطل هذه الصعوبات وانتصـر عليها يكون قد فاز برضـى من ربّه وهذه هي الجائزة الموقّرة ... والسّـلام عليه ورحمة الله وبركاته.

محمد الكرمي

21 / ج 1 / 1394 هـ

عواطف خالصـــة يجود بها علينا أخ في الله كريم وعلم من أعلام الفكر والدين فضـيلة الشـيخ حسـن طراد العاملي نزيل النجف الأشرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة العلّامة الجليل المجاهد الكبير سماحة الشيخ جعفر السبحاني المحترم دام حفظه وتأييده.

تحية حب وإخلاص وتقدير وإجلال.

وبعد: فقد وصلتني هديتك الثمينة التي تفضّلت بها « مفاهيم القرآن ». وقد كان لهذه الهدية الفكرية مدلول رائع ومحتوى مزدوج ســـام، فهي تعبّر من جهة فكرية عن فكر عميق ونظر دقيق وســعة اطّلاع وفصــاحة بيان وســداد منطق كما تعبّر من جهة روحية عن سموّ خلق ودماثة طبع ورحابة صــدر وسماحة نفس، ولهذا وذلك كان لهذه التحفة السَـنيّة بما عبّرت عنه ودلّت عليه أبلغ الأثر في نفسي حيث جعلت لك عندي منزلة سامية ومكانة مرموقة تستوجب التقدير والإجلال، كما بعثت وكوّنت لك في قلبي حبّاً عميقاً وإخلاصـاً وثيقاً يجذبني إليك بسـلك الوفاء والولاء وقد كان من نتائج هذا التقدير وذلك الحب مقطوعة شـــعرية نظّمتها بوحي من إعجابي بفضـــلك وتقديري

لشخصك وإخلاصي لك وهي :

سـر للأمام مؤيّداً بعزيمة كالطود لا تثنى ولا تتقهقر
وانشر من الدين الحنيف معارفاً غراء تسطع بالرشاد وتزهر
وأكشف دياجير الضلال بساطع من نور فكرك بالهدى يتموّر
فالليل لايجلوه إلّا كوكب بشعاعه ظل الدجى يتبخّر
والغي لا يمحوه إلّا كاتب بفنون دستور السما متبحّر
نشر الحقائق في العقول فأشرقت وعياً وأضحت بالهدى تتنوّر
ليظل دستور العقيدة مشرقاً تزهو بروعة ما حواه الأعصر

وختاماً أشكر هديتك القيّمة وأُقدر أخلاقك السامية وجهادك المثمر البنّاء والسلام عليك وعلى سائر الأعلام المجاهدين في حوزة قم المقدسة.

حسن طراد العاملي نزيل النجف الأشرف

7 / ربيع الآخر / 1394 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث عن التفسير الموضوعي ذو شجون وهو يقابل التفسير الترتيبي الذي يتخذ المفسّر، القرآن موضوعاً لتفسيره مبتدئاً من سورة الحمد ومنتهياً إلى سورة الناس وربّما لا يرافقه التوفيق لتفسير جميع السور فيكتفي بتفسير البعض.

وأمّا التفسير الموضوعي فيجعل المفسّر الموضوعات الواردة في الكتاب العزيز محوراً للدراسة ويجمع شتيت آياته من السور المختلفة فينظر إلى الكل بنظرة ثاقبة ويخرج بنتيجة واحدة يجعل البعض قرينة للبعض الآخر.

وكان المألوف بين المفسّرين هو النمط الثاني وإن كان النمط الأوّل غير مغفول عنه في بعض صوره، كالبحث عن الآيات الواردة حول الأحكام الفقهية من الطهارة إلى الديات، والآيات الواردة حول المثل والأخلاق.

وأوّل من فتح هذا الباب على وجه موجز في غير واحد من المواضيع هو العلّامة المجلسي قدس سره حيث أصدر في موسوعته عن هذا اللون من التفسير في جميع الأبواب في مجالي العقيدة والشريعة والحوادث الكونية غير أنّه لايخرج في تفسيرها عن إطار ما في التفاسير المعروفة كمجمع البيان للطبرسي وأنوار التنزيل للبيضاوي وغيرهما. وممّا يدعو إلى إكبار عمله أنّه قام بجمع آيات الموضوعات الواردة في القرآن الكريم مع عدم توفّر المعاجم الموجودة في عصرنا هذا، فإنّها بلا شك خير معين لمن يريد الخوض في هذا المجال.

وقد قمت بحمد الله بهذا العبء الفادح حسب المستطاع فجعلت العقيدة هي المحور الأوّل للتفسير مقدماً لها على الأحكام والأخلاق وما يرجع إلى الكون والطبيعة وخلق الإنسان.

والجزء الأوّل يحتوي على مباحث في التوحيد وأقسامه، والشرك وألوانهولـمّا انتهينا في هذا الجزء إلى التوحيد في الحكومة وأنّه لا حاكم في المجتمع البشري سوى الله سبحانه وأنّ حكومة غيره لابدّ أن تكون مستمدة من حكومته سبحانه وتعالى. خصّصنا الجزء الثاني من هذا الموسوعة في الحكومة الإسلامية، وما ورد حولها من الآيات في مواضيع مختلفة.

وكان الأنسب للبحث في الجزء الثالث هو دراسة أسمائه وصفاته، ثمّ البحث عن النبوّة العامّة إلى أن ننتهي إلى معالم النبوّة الخاصة ولكن كانت الحاجة في المجتمع الإسلامي ماسّة للبحث عن النبوّة الخاصة ركّزنا البحث على مواضيع ترجع إليها واستغرقت تلك البحوث الجزء الثالث والرابع والخامس نعم درسنا صفاته سبحانه في الجزء السادس دراسة معمّقة تليق بها ودرسنا حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في القرآن في الجزء السابع.

وما ذكرنا فهرس موجز لهذه الأجزاء السبعة وأرجو منه سبحانه أن يوفّقني لدراسة المواضيع الباقية من العقائد والمعارف. إنّه قريب مجيب.

وها نحن نعيد طبع الجزء الثالث في حلّة قشيبة وقد مضى على الطبع الأوّل قرابة عشرين سنة وما زال الطلب يصل إلينا ويشجعنا على مداومة العمل. واستيعاب المواضيع الباقية في المعارف الواردة في القرآن الكريم ونرجو الله تعالى أن يوفقنا لإكمال هذه الموسوعة التي تهدف إلى التعرّف على الأُصول والعقائد عن طريق الوحي والتنزيل.

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

جعفر السبحاني

3 شهر رمضان المبارك عام 1413

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن

كتاب القرون والأجيال

القرآن معجزة خالدة

لـــمّا كانت رسالة النبي الكريم محمد ﷺ أبديّة خالدة إلى يوم القيامة، لأنّها خاتمة الرسالات، ونبوّته خاتمة النبوّات .. وكانت النبوّة والرســـالة الخالدة بحاجة إلى المعجزة الخالدة لاقناع الأجيال المتلاحقة، امتازت معجزة الرســـول الكريم محمد ﷺ عن معاجز غيره من الرســـل الكرام بكونها خالدة خلود النبوّة المحمديّة، باقية بقاء الرسالة الإسلاميّة، التي هي خاتمة الرسالات والحلقة الأخيرة المتكاملة في سلسلة الشرائع الإلهية.

وهذا أمر يؤيّده العقل، ويؤكده البرهان. فالأنبياء والرســل الســابقون، رغم أنّهم كانوا أصــحاب معاجز كثيرة وعديدة، لكن تلك المعاجز كانت مؤقتة، لأنّ رسالتهم كانت منحصرة على عصورهم وأجيالهم أو تمتد إلى عصور بعدهم بقليل ولذلك كانت معاجزهم باقية في الأذهان بقدر طول مدة نبوّتهم ورسالتهم فكانت تختفي بانتهاء مدة

نبوّاتهم: ولم يبق منها إلّا أخبار وقصص في بطون الكتب، وطيّات التاريخ المدوّن.

أمّا الرسالة التي كلّف بإبلاغها الرسول الخاتم ﷺ فإذ لم تكن محدودة بزمن دون آخر، ولا مقصورة على جيل دون آخر، فهي الرسالة الخالدة وهي الدعوى الموجهة إلى جميع الأجيال البشرية إلى يوم القيامة، كان من الضروري والبديهي أن تقترن بمعجزة خالدة، تشهد على صدق صاحب الدعوة وحامل تلك الرسالة، في جميع القرون والأعصار، ولتكون (حجة) على جميع الأجيال المخاطبة بها، والمدعوّة إليها، لأنّ المعجزة وثيقة إثبات لا يمكن تصديق رسالة ونبوّة بدونها.

وكانت هذه المعجزة الخالدة التي زوّد الله تعالى بها خاتم الأنبياء محمداً ﷺ هي (القرآن الكريم) الذي بقى على مرّ العصور والأزمنة يشهد ـــ بقوّة ووضوح ـــ على صدق النبوّة المحمدية وعلى صلته ﷺ بالله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر أنّ إعجاز القرآن الكريم لا يقتصر على جهة دون جهة، بل هو معجزة بمجموعه وفي جهات شتى نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

أوجه الإعجاز القرآني

انّ القرآن الكريم معجزة مستمرة وخالدة :

أوّلا / من حيث فصاحته وبلاغته التي أخرست البلغاء والفصحاء، لا في عصر نزوله خاصة، بل في جميع الأزمنة والدهور، وأعجزتهم عن معارضته، وتحدّتهم في معاقلهم، وعقر دورهم.

ثانياً / من حيث احتوائه على أفضل القوانين والنظم، وأرقى التشريعات في جميع المجالات الحيوية، وإتيانه بما عجز عن الإتيان به أرقى الحضارات البشرية حتى يومنا هذا.

ثالثاً / من حيث إخباره بالأمور المستقبلية واحتوائه على الأمور الغيبية، إذ أخبر

عن وقائع وحوادث مستقبلية تحقّقت بعده حرفاً بحرف.

رابعاً / من حيث سلامته عن التناقض والاختلاف في النظم والأُسلوب، وفي المعنى والمضمون رغم تدرّجه في النزول على النبي ﷺ وتنزّله في ظروف مختلفة متباينة كيفاً وحالاً، وخلال ثلاث وعشرين سنة محفوفة بالمشاكل الجسيمة، والتطورات العنيفة.

خامساً / من حيث تناوله الدقيق للوقائع التاريخية الماضية، حيث قصّها على نحو خال عن شائبة الأساطير والخرافات، وهو أمر يمكن معرفته بمقارنة القرآن الكريم مع التوراة والإنجيل.

سادساً / من حيث اشتماله على إشارات رائعة عميقة إلى حقائق كثيرة من العلوم الطبيعية التي توصّل إليها العلم الحديث ـ في هذا العصر ـ بفضل الجهود الطويلة المضنية، وبواسطة المختبرات، والوسائل العلمية والتجارب والاختبارات العديدة.

سابعاً / من حيث قوّة احتجاجه على خصومه ومعارضيه، وما جاء به من حجج لم يسبق لها نظير في علم المناظرة والاحتجاج وكانت ـ ولا تزال ـ أنجح الحجج في إفحام الخصوم وإسكات المجادلين، والمشكّكين، بل وهدايتهم في أغلب الأحيان.

ثامناً / من جهة ما جاء به في مجال الأخلاق والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع حيث استقصى الأخلاق الفاضلة وحثّ على التزيّن بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب، وأحصى الأخلاق الرذيلة وزجر عن التلوّث بها بما توجبه الحكمة، ويقتضيه الاصلاح من التخويف والتنفير وسلك في ذلك كلّه طريقة فريدة لها أبلغ الأثر حتى في أشد القلوب قساوة.

تاسعاً / من حيث روحانيته البالغة التي تنفذ إلى الأعماق، وتأخذ بمجامع القلوب، وتستميل المشاعر، فإذا بآياته روح تحيا بها نفوس الخلق، ونور يضيء الوجود الإنساني كما تضيء الشمس الآفاق، فتنشط الأحياء، وتتحرك الطبيعة.

عاشراً / من حيث تناوله لأدق المعارف العقلية، والقضايا الاعتقادية الرفيعة التي لا تصل إليها أفكار البشر، ولا تبلغها علومهم، ممّا يتعلّق بالله سبحانه وصفاته وأسمائه وأفعاله، وما أخبر به من عوالم غيبية في الملأ الأعلى، والنشأة الأُخرى.

إلى غير ذلك من الجهات والوجوه التي يقصـــر البيان عن الإحاطة بها، وإحصـــائها في هذا المختصر.

غير أنّ الجهة الأخيرة من هذه الجهات وهي التي كان يتوجب تناولها بالدراسـة الوافية والتحليل الشامل، وخاصة في عصرنا الحاضر، قد أُهملت في مؤلّفات المفسّرين غالباً فهم لم يدرسوها بجامعية تليق بالموضوع وتناسب أهميته، وتعطي حقه من العناية والبحث.

ولعلّ عذرهم في ذلك هو أنّ تفسيرهم للكتاب العزيز كان على وجه التفسير التدريجي للقرآن، أي التفسـير سـورة فسـورة، وآية فآية، ولم يتبادر إلى أذهانهم إنّ هناك نوعاً آخر من التفسـير هو التفسـير الموضـوعي الذي يفسّـر الكتاب العزيز حسـب المفاهيم والموضـوعات، وهو النمط الذي أشرنا إليه في مقدمة الجزء الأوّل من هذه السلسلة القرآنية.

* * *

لزوم الاهتمام بالمعارف الإلهية

وإنّما ينبغي إعطاء المزيد من الاهتمام بالمعارف الإلهية التي ترتبط بالله سبحانه، وأسمائه وصـفاته وأفعاله وغير ذلك ممّا تناوله القرآن بالدقة المشـهودة، لأنّ تناول القرآن لهذه المعارف بهذا الشـكل يدلّ ـ بوضوح لا يقبل الجدل ـ على أنّ النبيّ الأُمّي صلى الله عليه وآله لم يأخذ هذه المعارف إلّا من مستقى (الوحي)، إذ من المستحيل لابن الجزيرة الخالية من أيّة حضارة وثقافة أن يأتي ـ في كتابه ـ بما أبهر عقول الفلاسـفة والمفكّرين، في القديم والحديث، وذلك من لدن نفسـه وصـنع فكره، أو يكون قد تلقّاها في مدرسة، أو اقتبسها من معلّم في أرض لم يعرف أهلها إلّا الأوهام، ولم يؤمنوا إلّا بالخرافة، فلا ثقافة

ولا مثقّفين، اللّهمّ إلّا بضعة أشخاص [1] لم ينالوا من الثقافة إلّا صبابات هي إلى الجهل أقرب منها إلى العلم والمعرفة.

إنّ القرآن جاء بأُصـــول وأفكار في مجال المعارف العقلية العليا لم يقف عليها حتى النوابغ من الفلاسفة، في الشرق والغرب، إلّا عن طريق ذلك الكتاب الإلهي وهدايته.

إنّ من الظلم الفضيع إهمال دراسة هذه المعارف العليا بحجة أنّها مسائل غيبية يجب الاعتقاد بها إجمالاً، وترك دراستها ومناقشتها وتحليلها.

والعجب أنّه روي عن الإمام مالك أنّه جاء إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوى ؟

فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء. ثمّ قال :

« الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلّا مبتدعاً ».

فأمر به أن يخرج [2].

ونحن نعتقد أنّه كان على الإمام أن يجيب على سؤال السائل ويهديه إلى مراده سبحانه من هذه الآية بدل رميه بالابتداع وإخراجه من المجلس.

كما أنّ من الظلم أيضاً ما يرتكبه بعض كتّابنا المسلمين المعاصرين، حيث أخذ يفسّر هذه المعارف العقلية الإلهية بالأُمور المحسوسة ويحاول تطبيقها على الشؤون المادية فصار فعله بذلك من أوضح مصاديق (تفسير القرآن بالرأي) الذي تواترت الأحاديث

---

(1) لقد نقل البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » أنّ الذين كانوا يعرفون الكتابة في مكّة ــ آنذاك ــ لا يتجاوزون سبعة عشر شخصاً، وفي المدينة أحد عشر شخصاً، وإليك نصّ ما قاله في هذا المجال :

« دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب » ثمّ عدهم وذكر أسماءهم وقال :

« كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلين ... فجاء الإســـلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون » ثمّ ذكر أسماءهم راجع فتوح البلدان ص 456 ـ 459 باب في أمر الخط.

(2) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، ج 1، ص 443.

الشريفة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله على نهيه.

من أجل هذا، ولكي نسلم من التخبّط والعشوائية في معرفة هذه المعارف والقضايا الاعتقادية يتعيّن علينا أن ندرسها بعناية بالغة على نمط (التفسير الموضوعي) من دون فرق بين موضوع وآخر، حتى نقف ــ من هذا السبيل ــ على واحدة من أهم جهات الإعجاز القرآني، ونكون من المتعمّقين في القرآن ومعارفه. وما روي عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام إذ قال، لـمّا سئل عن التوحيد :

« إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فمن رام وراء ذلك فقد هلك ». [1]

أقول: إنّ ما روي عنه عليه السلام لا يعني أنّ الإمام أراد حصر الآيات الباحثة عن المعارف والقضايا الاعتقادية في هذه الآيات، بل لـمّا كان ما جاء في هذه الآيات في القمّة من تلك المعارف، أشار إليها الإمام خاصة دون إرادة الحصر.

ولأجل هذا جعلنا وجهة البحث في تفسيرنا منذ أن شرعنا في هذا النمط صوب: (المعارف الاعتقادية) على ضوء القرآن، مبتدئين بالتوحيد وماضين في هذا السبيل إلى ما شاء الله ...

* * *

تقديم مباحث النبوّة على الصفات

ولما انتهى البحث عن (التوحيد) وأقسامه في الجزء الأوّل من كتابنا الذي انتشر باسم « معالم التوحيد في القرآن الكريم »، وفرغنا من عرض أهم أصل من أُصول الدين الإسلامي، وانجرّ البحث عن توحيد حاكميته سبحانه إلى توضيح صيغة الحكومة الإسلامية وخصصنا لبيانها جزءاً مستقلاً وانتشر باسم: « معالم الحكومة الإسلامية » كان البحث الضروري والمهم بعد ذلك الفصل هو البحث عن معالم النبوّة مطلقاً، ونبوّة

---

(1) الكافي، ج 1، باب النسبة، الحديث 3.

نبيّنا محمد ﷺ خاصّة واستعراض ما جاء حولهما من المسائل والمباحث التي يجب الاعتقاد بها حسب نصوص القرآن الكريم وآياته.

نعم كان اللازم بعد البحث عن وجوده سبحانه وتوحيده هو البحث عن سائر صفاته الجمالية من علمه وقدرته وحياته إلى غير ذلك من الصفات الثبوتية، أو البحث عن صفاته الجلالية من كونه ليس بجسم، ولا عرض، إلى غير ذلك من الصفات السلبية [1].

نعم كان اللازم تقديم البحث عن صفاته على بحث النبوّة، غير أنّه لما كان أهم صفاته هو التوحيد وقد أشبعنا الكلام فيه ضمن فصول، قدّمنا بحث النبوّة.

وإنّما اخترنا مبحث النبوّة، بعد استيفاء البحث في توحيد الله سبحانه، لأنّه الأصل الثاني لتحقّق الإسلام، حيث كان الرسول الأعظم ﷺ يقبل إسلام من يعترف بالشهادتين: الشهادة بتوحيد الله سبحانه، والشهادة برسالة نبيّه ﷺ .

نعم سنقوم، بعد استيفاء البحث عن النبوّة، بالبحث عن (المعاد في يوم القيامة) لأنّ أي مسلك ودين لا يمكن أن يصطبغ بصبغة الدين الالهي بدون الاعتقاد بـ (المعاد).

وتدل على انحصار المهم من الاعتقاد في هذه الأُمور والأُصول الثلاثة روايات وأحاديث منها ما عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنّه قال :

« لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر » [2].

كما روي أنّ رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله بجارية له سوداء فقال: « يا رسول الله علي رقبة مؤمنة أفأعتق هذه ؟ فقال لها رسول الله :

---

(1) خصصنا الجزء السادس بالبحث عن أسمائه وصفاته سبحانه كما خصصنا الجزء السابع لبيان دعوة النبيّ الأكرم وحياته في القرآن.

(2) أخرجه الترمذي راجع جامع الأصول، 1، ص 145.

أتشهدين أن لا اله إلّا الله ؟

قالت: نعم.

قال: أتشهدين أنّ محمداً رسول الله ؟

قالت: نعم.

قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟

قالت: نعم.

قال رسول الله: اعتقها » [1].

مباحث النبوّة

إنّ البحث عن (النبوّة) يقع في موردين :

1. النبوّة العامّة.
2. النبوّة الخاصّة.

والمراد من البحث في (النبوّة العامّة) هو دراسة ظاهرة « النبوّة »، ذلك الفيض الإلهي الجاري من جانب الله سبحانه إلى البشر بواسطة الأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وآله .

وفي مجال النبوّة العامّة لابدّ من البحث في الأُمور التالية التي يتكفل مجموعها شرح هذه الحقيقة الكبرى، وبيانها :

الأوّل: لزوم بعث الأنبياء إلى البشر.

الثاني: الشرائط العامّة اللازمة في النبي كالعصمة والخلو عن النقص والعيب.

الثالث: كيفية أخذ الأنبياء الأحكام عن الله سبحانه، وما هو الوحي.

الرابع: ما يعرف به النبي الحقيقي ويمتاز عن مدّعي النبوّة كذباً، ومنتحلها

---

(1) أخرجه صاحب الموطأ راجع، ج 1، ص 145.

زوراً، ويبحث فيه عمّا يسمّى بدلائل النبوّة التي منها « المعاجز ».

تلك هي عناوين الأبحاث في « النبوّة العامّة » التي تعرّض لها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من سوره وآياته.

وإنما يجب البحث عن الموضـــوع الأوّل (أعني: لزوم إرســـال الرســـل وبعث الأنبياء) دفعاً للمزاعم الواهية المنقولة عن البراهمة والبوذيين الذين أنكروا ضرورة إرسال الرسل بوجوه ذكرها علماء الكلام في مؤلّفاتهم الاعتقادية [1].

وأمّا البحث عن الموضـوع الثاني فلأجل توضـيح أنّ النبوة لا تعطى إلّا لمن تتوفّر فيه صـفات خاصّـة، ومؤهّلات معيّنة وهو بحث يتطلبه مبحث النبوّة العامّة لمعرفة أهمية مسـألة النبوّة، وأنّه هذا المنصب العظيم لم يعهد إلّا لمن تتوفّر فيه صفات معيّنة.

ويتناول العنوان الثالث بالبحث لمعرفة أنّ أهميّة النبوّة وامتيازها عن أيّة ظاهرة فكرية بشـــرية إنّما هي بالوحي، الذي هو كيفية اتصـال الأنبياء بالله سبحانه، وهو الأمر الذي يدحض الزعم الباطل القائل بأنّ الأنبياء مجرد نوابغ وأنّ ما يأتي به الأنبياء نظريات بشرية نابعة من صميم أفكارهم.

ويتناول الموضـوع الرابع بالدراسـة لأنّ معرفة النبيّ الصـادق عن المتنبئ الكاذب متوقف على ما يتحقق على يد النبي من معاجز تثبت تأييد الله ســـبحانه له وإن كانت هناك طرق أُخرى لتمييز النبي الحقيقي عن المتنبئ أيضاً وسيوافيك بيانها في محلها.

وهذه العناوين وإن كان البحث عنها مهماً وضرورياً لمعرفة حقيقة النبوّة بصورة عامة لكنّنا نقدم الحديث عن معالم النبوّة الخاصّة ــ أعني نبوّة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله ــ نظراً لشدة الحاجة إلى ذلك فعلاً، وسـنردف البحث هذا، بدراسـة الفصـول، والمسـائل المتعلّقة بالنبوّة العامّة التي ذكرناها عمّا قريب.

---

(1) ذكر بعضها المحقق الطوسي في تجريد الاعتقاد وشرحه تلميذه العلّامة الحلي في كشف المراد راجع ذلك الكتاب، ص 275، طبعة صيدا.

نعم كان الأولى في البحث عن النبوّة الخاصّة تقديم البحث عن دلائل نبوّة سيدنا محمد ﷺ .

غير أنّه لما كتبت في هذا الموضوع مؤلّفات، ورسائل، وكان البحث عن إعجاز القرآن بوجوهها العشرة الماضية أحسن دليل على صحة رسالته ﷺ وقد استوفى علماؤنا البحث عن ذلك قديماً وحديثاً وجدنا قرّاءنا في غنى عن تكراره.

ولأجل ذلك طرحنا بحوثاً أُخرى ترجع إلى صفات رسالته ونبوّته أو إلى حالاته الخاصة الواردة في الكتاب العزيز، والتي لم تبحث إلى الآن بصورة مشبعة ومنقّحة.

فلأجل ذلك نبحث في هذا الجزء عن الأُمور التالية :

1. رسالته ﷺ عالمية وليست إقليمية ولا قومية وأنّه مبعوث إلى البشر كافة.
2. إنّ رسالته خاتمة الرسالات ونبوّته خاتمة النبوّات، وكتابه خاتم الكتب.

وهذان البحثان يرجعان إلى البحث عن أوصاف رسالته، من عموميتها وخصوصيتها.

3. أنّه ﷺ كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب.
4. أنّه ﷺ كان مطّلعاً على الغيب بإذنه سبحانه.

وهذا البحثان يرجعان إلى أوصافه الواردة في القرآن الكريم.

5. بيان أسمائه وصفاته ﷺ الواردة في القرآن الكريم.

نسأل الله سبحانه أن يوفّقنا لتوضيح هذه المعالم التي نوّه بها سبحانه وذكرها في كتابه العزيز، وأن يوفّق قرّاءنا للاستفادة من هذه البحوث القرآنية انّه خير معين.

قم المشرفة

10 ربيع الثاني من شهور عام 1402

مقدمة الطبعة الأُولى

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج متكامل

في

عالم التفسير

الإسـلام دين الله الأبدي الخالد وشـريعته الدائمة الباقية مع مرّ العصـور والأزمان، ولابد لهذه الشريعة الباقية من سند قوي يسندها، ودليل واضح يدل على أنّها حق لا يتسرّب إليه أي شك أو شـبهة، فكان ذلك السـند والدليل هو القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو المعجزة الخالدة التي ستبقى سنداً حياً للشريعة الإسلامية إلى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين.

لقد كانت المعاجز التي ظهرت على أيدي موسى بن عمران والمسيح بن مريم عليهما السلام ، معاجز تخص عصرهما، فلم يشاهد منها شيء في العصور المتأخّرة عنهما، ذلك لأنّ شريعتيهما كانتا خاصّة بفترة زمنية معيّنة محدودة بحدود مؤقتة، فكانت معاجزهما كافية لتلك الفترة التي تسري فيها شريعتهما.

أمّا نبوّة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله التي هي آخر النبوّات، وشريعته التي هي خاتمة الشرائع، فلابد لها من معجزة تناسبها، وتواكب سيرها الزمني لتكون النبراس الذي

يضيء الطريق للجيل المعاصر للرسول والأجيال التي ستأتي بعده إلى ماشاء الله تعالى. يمحو صدأ الشكوك عن أذهان كافة البشر، ويدلّهم دلالة واضحة إلى طريق الحق اللاحب والصراط المستقيم.

القرآن وآفاقه اللامتناهية

لم يمض من نزول القرآن نصف قرن، إلّا وقد وضع علماء الإسلام علوماً جمة لفهمه وكشف أسراره ومعانيه، ولو أمعنا النظر لرأينا أنّ كثيراً من العلوم، وضعت أوّلياتها لاستيضاح مداليل آيات القرآن وما يمكن أن يستخرج من جملها وعباراتها وذلك كالنحو، والصرف، واللغة، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءة، والتجويد، وقصص القرآن، وشأن نزول الآيات.

مع هذه الجهود الجبارة المبذولة من قبل أعلام العلماء طيلة القرون الأربعة عشر الماضية، ومئات المؤلفات الكبيرة والصغيرة المدوّنة في سبيل الكشف عن الأسرار الكامنة في الآيات القرآنية.

مع كل هذه المساعي، لم يصلوا إلى أعماق ما في القرآن من عجائب الأسرار وغرائب الحكم الكامنة فيه.

يسير الانسان حثيثاً في استجلاء معارف القرآن الفكرية وقوانينه الاجتماعية والأخلاقية وسائر تعاليمه العالية. ولكنه لم يزل، يجد الجديد فيه عندما يتعمق في البحث، ويرى ما قد غفل عنه الأقدمون ولم يصلوا إليه. كأنه أمام بحر مواج بالحقائق العلمية لا يدرك غوره، ولا يتوصل إلى أعماقه، ولا يمكن معرفة ما فيه من الأسرار والعجائب.

كأنّ القرآن الكريم، هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة، الواسع الأطراف، الذي لا يزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه وأسراره، إلّا معرفة أنّه لا يزال الانسان في الخطوات الأُولى من التوصل إلى مكامنه الخفية في أغواره. فإنّ كتاب الله تعالى كذلك ،

لا يتوصل إلى كل ما فيه من الحقائق والاسرار، لأنّه منزل من عند الله الذي لا تتصور له نهاية، ولا يمكن تحديده بحدود وأبعاد، فيجب أن تكون في كتابه لمعة من لمعاته، ويثبت بنفسه أنّه من عنده، ويتوفر فيه ما يدل على أنّه كتاب سماوي ليس من صنع البشر، وهو خالد إلى ما شاء الله تعالى.

أنّ نبي الإسلام العظيم ﷺ هو أوّل من لفت الأنظار إلى تلكم المزيّة وأنّ هذه المزيّة من أهم خصائصه، حيث يقول في وصفه له: « له ظهر وبطن وظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة » [1].

وبعد النبي يأتي دور أول تلميذ لمدرسته وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليصف القرآن بقوله: « أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره ... ـ إلى أن قال ـ: وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغضيها الواردون » [2].

وسأل رجل علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلّا غضاضة ؟ فقال: « إنّ الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة » [3]. نرى أن الرضا عليه السلام لا يشير في هذا الحديث إلى موضوع خلود القرآن فقط، بل يشير أيضاً إلى سر خلوده وبقائه غضاً جديداً لا يتطرق إليه البلى والذبول.

ويجب أن نذكّر القارئ بأنّ النبي وأئمّة أهل البيت: لم يكونوا وحدهم هم الذين لفتوا الأنظار إلى موضوع آفاقه اللامتناهية، بل عظماء العرب والعارفون منهم

---

(1) الكافي، كتاب القرآن، ج 2، ص 599.
(2) شرح نهج البلاغه لعبده، ج 2، ص 202.
(3) البرهان في تفسير القرآن، ج 1، ص 28.

أدركوا هذه الحقيقة في أيام الإسلام الأُولى، واعترفوا بعجزهم عن الوصول إلى أغوراه، والتوصل إلى ما فيه من الأسرار والحكم.

هذا الوليد بن المغيرة حكيم العرب وريحانتهم وخطيبهم المنطيق يجلس إلى النبي ليستمع ما كان يتلوه من آيات « سورة غافر »، وبعد هنيئة ذهب إلى قومه « بني مخزوم » ليقول لهم مصارحاً: (والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وأنّ له لحلاوة، وأنّ عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وأنّ أسفله لمغدق، وأنّه ليعلوا وما يعلى) [1].

يمكن اعتبار قول الوليد هذا، أول تقريظ بشري صدر من انسان واع أدرك بفطرته وذوقه السليم أنّ القرآن (أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وأنّه يعلو وما يعلى).

التفسير في مختلف الاتجاهات

في القرن الثالث الهجري ـــ عندما قطعت العلوم الإسلامية أشواطاً بعيدة، ووصلت إلى مراحل عالية من النضج والرقي ـــ حدث في علم التفسير تطوّر ملموس، فإنّه قبل هذه الفترة كان التفسير منحصراً بنقل أحاديث مروية عن النبي صلى الله عليه وآله أو آراء بعض الصحابة والتابعين وأحياناً بعض أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام، أمّا في هذا القرآن وما بعده فقد أدخل كل ذي اختصاص المباحث العائدة إلى موضوع اختصاصه، في التفسير، بل ربّما لا يكتب بعضهم إلّا ما يدخل في إطار العلم الذي أصبح له اليد الطولى فيه.

فأعلام الأدب العربي خصصوا كتبهم التي تتناول القرآن بمباحث الاعراب واللغة والاشتقاق، كما صنع الزجاج والواحدي مؤلّف كتاب « البسيط » وأبو حيّان مؤلّف كتاب « البحر والنهر ».

وشيوخ البلاغة اهتموا بصورة خاصّة بما يتعلّق بفصاحة القرآن وأسراره البلاغية

---

(1) مجمع البيان، ج 10، ص 387.

التي كانت العرب تدركها بفطرتها السليمة، وذوقها المرهف، وحاول هؤلاء الشيوخ إثبات إعجاز القرآن من هذه الزاوية التي تعود إلى اللفظ والتركيب. ومن باب المثال نذكر منهم الزمخشري وكتابه « الكشّاف ».

والفلاسفة والمتكلّمون والمتصوفة أطالوا الكلام في الآيات التي توافق اتجاههم الفكري ولم يهتموا اهتماماً كبيراً بالجوانب الأُخرى من المباحث التفسيرية، بل نرى في كثير من كتاباتهم أنّهم أوّلوا بعض الآيات تأويلات بعيدة لا يحتملها الذوق الخالي عن المسبقات الذهنية الفلسفية والكلامية والصوفية، وذلك كما صنع الفخر الرازي في كتابه « مفاتيح الغيب » ومحيي الدين ابن العربي في التفسير المنسوب إليه، وعبد الرزاق الكاشاني في كتابه « تأويل الآيات » وقبلهم اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة.

والفقهاء توفروا في تفاسيرهم على آيات الأحكام فأشبعوها بحثاً ودراسة، ومرّوا على بقية الآيات مروراً سريعاً كما صنع القرطبي في تفسيره، بل خص جماعة من الفقهاء كتبهم بتفسير آيات الأحكام فقط ولم يتناولوا بقية الآيات أصلا كالجصّاص والفاضل المقداد والمقدس الأردبيلي والشيخ أحمد الجزائري.

وجماعة آخرون خدموا القرآن بجمع قصصه وما يتعلّق بأسباب نزول الآيات والقراءات واختلاف القرّاء والقواعد التجويدية، كالواحدي في كتابه « أسباب النزول » والداني في كتابه « التيسير » والجزري في « المقدمة الجزرية » والسجاوندي في كتابه « الوقوف » وغيرهم.

وقد خطا فريق من المفسّرين خطوات أوسع، فحاولوا التوفّر على كل هذه الأبحاث ودرجها بصورة مختصرة في تفاسيرهم، ومن هؤلاء الشيخ الطوسي في « التبيان » والطبرسي في « مجمع البيان » والنيسابوري في « غرائب القرآن » والآلوسي في « روح البيان ».

المنهج الصحيح في التفسير

المفسّر الحقيقي هو الذي يتجرّد عن ميوله الخاصّة، وعقائده الشخصية تجرّداً

كاملاً ويعرض آراءه على الآيات القرآنية لا الآيات على ما يعتقده.

والطريق المفيد لتفسير القرآن، أن لا يروم المفسّر، تفسير كتاب الله سبحانه وقلبه ممتلئ بآراء وأفكار تخصّه، ولا يتقدم إليه باحثاً عمّا قد يؤيد آراءه وأفكاره بل أن يتقدم إليه ليكتشف مقاصده ومراميه، فإنّ العقيدة التي يمتلئ بها الشخص تملك عليه كل تفكيره، ولا تترك له سبيلا إلى المقاصد التي يستهدفها الكتاب.

إنّ أحسن المناهج المتّبعة في التفسير، عرض بعض الآيات على بعضها والاستمداد من الأحاديث الإسلامية الصحيحة لاستخراج المعاني والمفاهيم القرآنية استخراجاً صحيحاً. فيجب لاتّباع الطريقة المستقيمة في التفسير مراعاة الشرطين التاليين :

1. تفسير القرآن بالقرآن :

إنّ القرآن الكريم يؤكد بأنّه تبيان لكل شيء حيث يقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل: 89)، فالقرآن حيث يكون موضّحاً لكل شيء كما هو مصرّح في هذه الآية، فهو موضّح لنفسه أيضاً، إذ لا معنى لأن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه فلابد أن يوضح أيضاً ما يبدو أنّه غامض في نفسه، ومعنى هذا، أنّه يمكن استيضاح بعض الآيات لفهم المراد من البعض الآخر.

القرآن كلّه « هدى » و « بيّنة » و « فرقان » و « نور » كما في قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: 185) وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: 174).

والكتاب الذي يحتوي على هذه المزايا لا محيص من الاعتراف بأنّه يرفع عن نفسه ما يظن فيه من الالتباس والغموض، ذلك لأنّه لا يمكن أن يكون كتاباً فارقاً بين الحق والباطل، ونوراً هادياً للبشرية، وبرهاناً مرشداً إلى ما فيه الصواب ثمّ يكون في جملة من آياته تعقيد يتيه الانسان في فهمه والتوصل إلى مفاهيمه. وعليه يجب الرجوع إلى الآيات نفسها لفهم ما أُشكل من الآيات الأُخرى التي تشبهها.

قال النبي ﷺ : « إنّ القرآن يصدق بعضه بعضاً ».

وقال منعاً لحشر الآراء والنظريات الشخصية في التفسير وحملها على الآيات حملاً: « من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار » [1].

إنّ تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض، وعرض الآيات على ما يشبهها في المنطوق أو الهدف، هو الطريقة المأثورة عن أئمّة أهل البيت: فإنّ الدقة في الأحاديث التفسيرية المروية عن الأئمة تثبت بوضوح ما نقول، وتدل على أنّ هذا المنهج كان المنهج المحبّب إليهم في إيضاح النصوص القرآنية لتلامذة مدرستهم.

إنّ الاحاديث التفسيرية المروية عن أئمّة أهل البيت: تدلّ دلالة واضحة على أنّهم استعانوا بنفس الآيات وعرض بعضها على بعض، في تفسيرها وبيان معانيها وإيضاح مداليلها ومفاهيمها ولم يتصدوا في وقت من الأوقات لحمل آرائهم الشخصية على الآيات الكريمة حملاً، بل استنتجوا من مقارنة الجمل والكلمات والألفاظ الموجودة في بعض الآيات استيضاح آيات أُخرى مشابهة لها في المنطوق أو المفهوم.

يقول عليٌّ عليه السلام في كلام له يصف فيه القرآن: « كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله » [2].

ولا بأس أن نقدم هنا نموذجاً من تفسير القرآن بعضه ببعض ليرى القارئ الكريم كيف يمكن رفع الالتباس عن الآيات بهذه الطريقة :

يقول تعالى في سورة الشعراء ـــ 173 في قوم لوط: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أنّ هذه الآية واضحة كل الوضوح من جهة المفهوم ولكن فيها غموض من جهة المصداق، فإنّ الانسان يتحيّر من المعنى المراد من المطر السوء، إلّا أنّ الآية

---

(1) حديث متفق عليه بين الفريقين.

(2) نهج البلاغه، ج 2، ص 22، الخطبة 129.

74 من سورة الحجر، تبيّن هذا المعنى عندما تقول: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

إنّ اتّباع هذه الطريقة يكشف كثيراً من الحقائق الخفية ويلقي أضواء على ما أُبهم من الآيات، شريطة أن يجعل الإنسان الصبر على البحث، والدقة الكاملة والتأنّي في إصدار الحكم، رائداً له.

2. على ضوء الأحاديث الإسلامية الصحيحة :

إنّ بعض الآيات تصرح بأنّ النبي الكريم ﷺ هو المبيّن للقرآن والمعلّم لآياته، فيقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: 44) ويقول: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ (الجمعة: 2).

من هاتين الآيتين نعرف أنّ ما أُبهم من القرآن لمصالح لا نعلمها نحن، يجب الرجوع للكشف عن غوامضها إلى النبي وأهل بيته الذين هم عدل القرآن بشهادة حديث الثقلين المتفق على روايته عن الرسول ﷺ .

ولابد هنا أن نلفت الأنظار إلى أهمية معرفة الأحاديث الصحيحة، والتمييز بينها وبين الأحاديث غير الصحيحة، وأنّه لا يمكن الاعتماد على ما نقل عن الصحابة والتابعين في التفسير بصورة مرسلة غير مسندة، بل يجب التثبت فيها والتأكد من أنّها واجدة لشرائط الحجية التي هي مذكورة في محالها من مباحث علوم الحديث، وإلّا فلا يحسن الاستناد إليها في كشف ما أُبهم من القرآن، بسبب بعد العهد من عصر الوحي أو كون الآيات نزلت مجملة كذلك لمصالح خاصة ليس هنا محل تفصيلها [1].

ولقد أثرت عن أهل البيت: في هذا المجال أحاديث لوحظ في أكثرها جانب التربية والتعليم والمحاولة لتقريب استفادة المعاني والنكات إلى الأذهان، (من

---

(1) مثل الآيات التي ذكرت فيها الصلاة والصوم والزكاة والحج و ...

دون حشر رأي خاص فيها وحمله على الذي يستعرضه) بتدبّر ودقة، وهذا موضوع يتضح جلياً لمن أمعن النظر في تلك الأحاديث التفسيرية. وهذه الأحاديث لها قيمتها الخاصة وإن لم يصح إسناد بعضها، لمجانبتها عن التفسير التعبدي ومحاولتها التعليم وإرشاد القارئ إلى كيفية استفادة المعاني من الآية نفسها من دون إستناد إلى شيء آخر.

تأثير الحضارة الغربية في المنهج التفسيري

لقد أثّرت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها إلى العربية في فهم معاني الآيات والمفاهيم القرآنية تأثيراً بعيد المدى، فقد ادخلت في التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية التي لا تمت إليه بصلة، وحملت عليه حملاً لا يمكن تقبّلها لو تجردنا عن الاتجاه الفلسفي اليوناني الوافد.

إنّ بعض المفسّرين أوّلوا كثيراً من الآيات حسب المفاهيم الفلسفية الوافدة من المشائيين والاشراقيين وعلى ضوء القواعد البطليموسية في الهيئة القديمة وعلم الفلك، وللتوفيق بين هذه الآراء والآيات القرآنية والأحاديث التفسيرية، تشبّثوا بنظريات بعيدة كل البعد عن السياق والمفهوم القرآني، وكانت محاولتهم فاشلة، بعد تبدّل النظريات العلمية والمكتشفات التجريبية.

وقد واجه القرآن هذه المشكلة أيضاً بل أعمق منها بكثير عندما وسّعت أُوربا الخطوات إلى المدنية الحاضرة وكانت لها آراء حديثة في النظريات الفلكية والطبيعية والرياضية وغيرها وسخّرت بمكتشفاتها العلمية الجديدة البحار والوديان، وراحت لتسيطر على ما في أجواء السماء.

وانتقل كثير من هذه النظريات الحديثة إلى الشرق ممزوجاً بشيء من سوء الظن بالنسبة إلى المسائل الدينية والأُصول المذهبية، ذلك لأنّ أُوربا اتخذت التجربة والحس قاعدة أساسية لعلومها، وأهملت إهمالاً كليّاً كل ما يتعلّق بما وراء الطبيعة وربّما عملت على إنكارها وإبادتها وإبعادها عن المجادلات العلمية.

إنّ وفود هذا النوع من الفكر المزيج بسوء الظن بالمسائل الغيبية والمعارف الإلهية، دعا البعض إلى الابتعاد عن الدين، والالحاد فيه، كما دعا البعض الآخر إلى تأويل الآيات بما يوافق الاتجاه الفكري المعاصر، وآل بهم الأمر إلى أن يأوّلوا الآيات المصرّحه بمعاجز الأنبياء، والروح، والجن، والبرزخ، بتأويل يوافق الأُسس المادية والطبيعية [1].

كما أنّ تقدم العلوم الطبيعية في مجالات مختلفة، دفع بعض الباحثين إلى أن يفرطوا في تأويل الآيات حسب الأُسس الطبيعية والنواميس الكونية، كأنّ القرآن كتاب في الكيمياء والفيزياء وليس له أهداف أُخرى.

وفي مطاوي بعض الكتب التفسيرية المؤلّفة في هذا القرن، نرى الاتّجاه العلمي والفكري الغربي بوضوح، في عرض المسائل القرآنية وتحليلها، وهي تحاول بكل ما تملك من القوى أن توفق بين المفاهيم القرآنية الاجتماعية والأخلاقية، وبين النظريات الغربية، كأنّها كتبت للتوفيق بين المدرسة الإلهية والمدرسة الأُوروبية المعاصرة.

أنّ هذا الفريق من الباحثين جلبتهم العقيدة الدينية بالقرآن الكريم وتقديسه والإذعان به، وانجرفوا من جهة أُخرى فى تيار المدنية الغربية المبنية على أساس إنكار المقدسات والمعنويات أو إرضاء لميولهم الخاصة نحو هذه المدنية، عملوا جادين في تأويل الآيات بالطريقة التي ذكرناها.

نزول القرآن نجوماً

لا شك أنّ الآيات القرآنية نزلت تدريجياً، على قلب الرسول صلى الله عليه وآله طيلة ثلاث وعشرين سنة، ولا نريد في هذا المجال، الحديث عن علة نزول القرآن هكذا، لأنّه

---

(1) هذه الظاهرة المادية تبرز بوضوح في تفسير السيد أحمد خان الهندي والطنطاوي وفي « المنار » وتلامذة مدرسته قليلاً.

تحدّث هو عن هذا في بعض الآيات [1].

وإنّما الذي يهمّنا الحديث عنه هنا هو: أنّ القرآن لم يكن كتاباً من صنع البشر يتكوّن من أبواب وفصول ويبحث في كل موضوع عن نقطة خاصة، وإنّما هو كتاب سماوي أنزله الله تعالى لإرشاد البشر إلى المبدأ والمعاد والتكامل الروحي والجسمي، ولا يحتاج مثل هذا الكتاب إلى التنظيم والالتزامات المتبعة في المؤلّفات الأُخرى ولأجل ذلك فله خصائص لا توجد في غيره ونشير إلى بعضها فيما يلي :

1. تنتقل الآيات من موضوع إلى موضوع آخر لمناسبات تستدعي الانتقال إذ ربّما تذكر عدة مواضيع في سورة واحدة، هدفها الوعظ، والإرشاد، وإيقاظ الضمير، والعطف نحو العقل والحكمة، فجاءت تلكم المواضيع واحدة بعد أُخرى، يجمعها ذلك الهدف الخاص، ولكن يسبق إلى أذهان بعض أنّه لا ربط وثيق بينها، إلّا أنّه يجد عند الدقة والتدبّر، نوعاً خاصاً من الارتباط الذي يسلك عقودها في سلك واحد ووجود هذا القسم من الآيات الكثيرة، من الوفرة بحيث يغنينا عن التمثيل لها هنا.

2. أهمية توجيه الفكر الإنساني، وفطرته نحو الهدى والحق من جانب وإيقاظ الضمائر الميتة الكامنة في نفوس مريضة من جانب آخر، تستدعي تكرار بعض الموضوعات في مناسبات شتى، والعود إليها بمختلف الأساليب البيانية، وهذا في تكرار الخطابات من الأهمية بمكان وهو من المحسنات التي لابد منها في الكلام الموجه إلى الناس بشكل عام.

مثلاً أنّنا نرى القرآن الكريم يكرّر في مناسبات شتى موضوع الاعتبار من حياة الأُمم السالفة والملوك والجبابرة والطغاة الماضين كما أنّه يذكر موضوع: ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ في أكثر من مناسبة واحدة، وفلسفة هذا التكرار والعود إلى الموضوع مرّة بعد أُخرى هي ما ذكرناه.

---

(1) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان . 32).

3. ربّما يتحدّث القرآن الكريم في سورة عن جانب خاص من جوانب قصة أو موضوع متعدد الجوانب، واسع الأطراف لتعلّق ذاك الجانب الخاص فقط بما يقصده من الكلام دون سائر جزئياتها وتفاصيلها، ثمّ يعود في سورة أُخرى إلى تلك القصة أو ذلك الموضوع ليذكرها بتفاصيلها وجزئياتها. وأكثر ما نشاهد هذا في قصص الأُمم الماضية للاعتبار بها، وهذه طريقة ضرورية لكتاب أُنزل لهداية الناس وانتشالهم من الضلال.

4. يتبع القرآن طريقة التدرّج، في بيان مفاهيمه العقلية ومعارفه التربوية فيستدل مثلاً على مفهوم من مفاهيمه في بعض السور باستدلال، ثم يعود إلى استدلال آخر لنفس المفهوم في سورة أُخرى. وبهذا توزع الأدلّة في عدة أمكنة وتذكر حسب المناسبات التي تقتضي ذلك.

مثلاً أنّ موضوع المعاد والرجوع إلى حياة جديدة من المسائل الإسلامية والقرآنية المهمة التي ركّز على إثباتها القرآن، فاستدل له بأدلّة ستة [1] ولكنّها موزّعة، لكل واحدة

---

(1) انّ الفكرة تتضح أبعادها، وتنكشف جوانبها، إذا تعددت الاستدلالات عليها من طرق شتى، والمثال على ذلك حديث البعث والمعاد في القرآن الكريم، فقد استدل القرآن على إمكان وقوعه بطرق ستة، ونحن نذكرها في المقام على وجه الاجمال ونكتفي في بيان كل طريق، بآية واحدة، مع كثرتها في كل باب :

1. الاستدلال بعموم قدرته على كل شيء كما في قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ المَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف . 33).

2. قياس الاعادة على الابتداء كما في قوله سبحانه: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ (الانبياء . 104).

3. الاستدلال على امكان احياء الموتى، باحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات كما في قوله سبحانه: ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم . 19).

4. قياس قدرة الاعادة على قدرة اخراج النار من الشجر الأخضر كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس: 79 ـ 80).

منها في مكانها نكتة خاصة.

* * *

هذه الخصائص القرآنية التي استعرضنا بعضها، تدفعنا إلى أن نشبّه القرآن الكريم بحديقة غنّاء مليئة بالأزهار الملوّنة، والورود المنوّعة، وقد وزعت توزيعاً طبيعياً جميلاً تأخذ بالأبصار، فهي بالرغم من أنّها موزّعة إلّا أنّ فيها طرافة وظرافة، لأنّ كل واحد منها وضع في مكانه اللائق به.

الجمود فى التفسير

انّ استعراض كتب التفسير وملاحظتها بشيء من الإمعان، يوصلنا إلى حقيقة غير خافية، وهي: أنّ علماء الإسلام مع شدّة اهتمامهم بالتفسير وفهم الآيات والكشف عن معانيها، لم تتطور مؤلّفاتهم التفسيرية بالقدر الذي يجب أن تتطور طيلة القرون الأربع عشر الماضية.

فمع غض النظر عن طائفة من التفاسير المهمة المعاصرة، نرى أنّ التفسير لم يتم ولم يتكامل عند السنّة والشيعة منذ تفسير « الطبري » إلى « المنار » وتفسير « التبيان » إلى « الميزان ».

ومن العوامل التي سبّبت الجمود المذكور، أنّ التفاسير سارت على وتيرة واحدة في تفسير القرآن سورة فسورة، ففسّروها من البدء إلى الختم أو فسّروا بعضها على

وسيوافيك في بحث المعاد أنّ للآية معنى آخر ألطف بكثير مما ذكره المفسرون، ورائدنا فيه التدبير في ذيل الآية، وما كشفه العلم الحديث في حقيقة الحرارة الكامنة في الأشجار وحقيقة انطلاقها منها عند الاحتراق.

5. الاستدلال بالوقوع على الامكان فإنّ أدل دليل على امكان الشيء وقوعه ولأجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة بني إسرائيل (البقرة: 67 ـ 73)، وحديث عزير (البقرة ـ 259).

6. الاستدلال ببعض المنامات الطويلة التي امتدت ثلاثمائة سنين فإنّ النوم أخو الموت ولا سيما الطويل منه كما أنّ القيام منه يشبه تجدد الحياة وتطورها.

الترتيب المذكور، ولم يهتمّوا في كتابة التفسير بالتفسير الموضوعي [1] الذي يقتضي نزول الآيات نجوماً وتوزع الآيات الراجعة إلى أكثر الموضوعات في أمكنة وسور القرآن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

وما ذكرنا حول نزول القرآن التدريجي وألمعنا إلى ما فيه من الخصائص يقتضي أن يفسّر القرآن أيضاً حسب الموضوع إلى جانب تفسيره على ترتيب السور، فتجمع آيات كل موضوع في مكان وتفسر مجموعتها لئلاّ تتشتت الجوانب المختلفة.

مثلاً المفسّر الذي يحاول التعمّق في الحديث عن السماء والأرض على ضوء القرآن الكريم، أو يريد أن يبحث بحثاً مستوفى عن المعاد، أو يستعرض قصص بني إسرائيل، أو يحكم في أفعال الإنسان من جهة الجبر والاختيار، أو يكشف عن المعارف الإسلامية المتعلّقة بأفعال الله تعالى من قبيل الإرادة والهداية والضلال والقضاء والقدر ... لابد أن يتبع الطريقة الموضوعية التي ذكرناها ليتمكن من جمع أطراف الموضوع جمعاً كاملاً شاملاً.

من جملة الأسباب التي دعت إلى ظهور عقائد مختلفة بين المسلمين، وتشبّث كل صاحب عقيدة بطائفة من الآيات، أنّهم وجهوا اهتمامهم إلى آيات خاصة لتركيز معتقداتهم، وأهملوا الآيات التي تكشف لهم آفاقاً أُخرى، وتوضح لهم النقاط التي زلّوا فيها، ولو أنّهم كانوا يلاحظون في كل مسألة من المسائل العقائدية الآيات بمجموعها لدرأوا عن أنفسهم الوقوع في هذه المهاوي السحيقة.

ومن باب المثال نذكر بهذا الصدد أصحاب مذهب الجبر في أفعال الانسان أو مذهب التفويض فيها فإنّهم ابتلوا بما ذكرناه وخبطوا خبط عشواء في فهم المقاصد الإلهية وتفسيرها.

---

(1) نريد من « التفسير الموضوعي » تفسير القرآن على حسب الموضوعات التي وردت فيه وبحث القرآن في مواضع مختلفة مقابل تفسيره على حسب السور والآيات.

أجل يمكن القول بأنّ العلّامة المجلسي هو أوّل من استعمل إجمالاً هذه الطريقة (التفسير حسب الموضوع)، فإنّه في كتابه « بحار الأنوار » جمع الآيات المربوطة بكل موضوع في أوّل الأبواب، وفسّرها تفسيراً سريعاً بلا استنتاج منه. وهذه الخطوة القصيرة خطوة جليلة في عالم التفسير نأسف على أنّ المفسرين بعده لم يسيروا على ضوئها، ولا يمكن تفسير القرآن بالقرآن، والاستفادة الكاملة منه وتلقّي مفاهيمه العالية الصحيحة إلّا بالمنهج المذكور.

أوّليات الطريقة الموضوعية في التفسير

لا شك أنّ الطريقة الموضوعية فى التفسير التي نتحدّث عنها في هذا المجال طريقة، لم ينهجها علماء التفسير حتى الآن، كما قلناه وعليه نعتقد أنّ فيها كثيراً من الصعوبات التي تعترض سيرها، فإنّ تنظيم الآيات وتقسيمها حسب الموضوعات أمر لا يتم بعمل فردي، بل لابد من لجنة تتولّى هذا العمل، ويجب أن يكون أعضاء اللجنة أُناساً علماء لهم الخبرة الطويلة، والاختصاص في الفروع العلمية المختلفة. وممارسة طويلة في الآيات القرآنية وفهم معانيها واستنباط مقاصدها ودرك مفاهيمها العالية.

ونقترح أن تتبع هذه اللجنة الإرشادات التالية :

1. تقرأ الآيات واحدة واحدة بدقة وإمعان لافرازها موضوعياً، ثمّ يهيّأ فهرس دقيق للموضوعات الواردة في القرآن والمبحوث عنها في آياتها ليعلم بصورة مؤكدة عدد ما جاء فيها من المباحث المختلفة، وما ورد في كل واحد منها، من الآيات.

2. تهيّأ بطاقات خاصة بكل موضوع، لتكتب فيها آياته. والأحسن في هذا أن تصور هذه البطاقات في عدة نسخ، لتوضع في متناول أيدي الباحثين والمحقّقين ليقرأوها ثم يبدوا ملاحظاتهم وانتقاداتهم، وبعد المداولة في شأنها من قبل العلماء، تطبع بصورة نشرات حسب الحروف الهجائية وتوزّع في إطار واسع ليطّلع عليها المعنيون في

الأقطار.

3. وبعد أن تنتهي اللجنة من فهرسة الآيات كما ذكرناه، يدعى كبار الشخصيات الإسلامية العلمية ليتولّى كل واحد منهم، موضوعاً حسب اختصاصه، فتقدم اللجنة لهم الموضوعات التي تم فهرستها، ليختار هو الموضوع الذي جمعت آياته في البطاقات الخاصة به، ويكتب حولها ما يرى من البحوث والدراسات.

والنتيجة الحاصلة من هذه الجهود المشتركة المبذولة من قبل كبار علماء الإسلام أنّه تكتب للقرآن الكريم دائرة معارف كبيرة ملؤها التحقيق والبحث العلمي لتبرز ما فيه من الحقائق التي لا زالت خفية حتى الآن.

انّ هذا العمل الجبار (بالاضافة إلى ما يحتاج من ميزانية ضخمة) رهن لجنة مركزية تكون حلقة وصل بين علماء الإسلام القاطنين في أقطار نائية بعيدة الأطراف فإنّه لا يتم عمل كبير كهذا العمل إلّا باللجنة المركزية، فهي التي تنتخب الأعضاء الذين يقومون بفهرسة الآيات، وهي التي تصوّر البطاقات وتعرضها على الباحثين والناقدين وبعد التنسيق الدقيق تنشرها في نشرات متسلسلة، وهي التي تتصل بالشخصيات العلمية لكتابة التفسير كما ذكرناه.

إنّ هذا الاقتراح ربّما يكون كبيراً وغير قابل التنفيذ في رأي البعض، إلّا أنّه بسيط عند ذوي الهمم العالية والعاملين في حقول العلم والثقافة، فقد قامت جمعيات دينية قبل هذا بأعمال مشابهة، لكتبهم المنسوبة إلى السماء، وكان جهدهم من الطرافة بحيث أظهر كتبهم المحرّفة بحلل زاهية تأخذ بالأبصار وتثير إعجاب القارئين لها.

ونحن نأمل أن يتصدى مراجع الدين وكبار العلماء لتحقيق هذه الأُمنية، فيتداولوا بينهم الأمر لإزالة العوائق عن الطريق وتيسير المقدّمات الأوّلية وتعيين نقطة الانطلاق لهذا المشروع الديني العلمي.

منهجنا في هذا الكتاب

بعد أن أمضى مؤلّف هذا الكتاب خمس عشرة [1] سنة في دراسة القرآن الكريم دراسة مستوعبة وكتابة تفاسير لبعض السور، أجمع عزمه على كتابة نماذج من التفسير الموضوعي المقترح، ليعبّد الطريق للمحققين الذين يحلو لهم السير في هذا السبيل ومن الطبيعي أنّ مثل هذا العمل الإسلامي الكبير خارج عن نطاق شخص واحد، ويحتاج إلى ذوي الاختصاص من العلماء كما ذكر سابقاً، ولكن بدأ به من زاوية، كان المؤلف قد أشبعها بحثاً ودراسة وهيّأ موادها من ذي قبل.

انّه فكّر في نفسه، ربّما لا يتحقق هذا الأمل الجديد، أو لا يسعفه الأجل في أن يرى انجازه كما يتصوره ويود إنجازه، فعزم على أن يخطو خطوة نحوه ورائده « الميسور لا يسقط بالمعسور » وعند ما يهيّئ الله تعالى جماعة من محققي الإسلام لهذا المشروع، يمكنهم اعتبار هذا الكتاب جزءاً من دائرة معارف القرآن بعد سد ما يرون فيه من النقص الذي هو من لوازم عمل الفرد.

لقد اخترنا من بين الموضوعات الكثيرة التي ترجع إلى النبيّ الأكرم هذه المواضيع :

1. الإسلام شريعة عالمية لا إقليمية.
2. الخاتمية في الذكر الحكيم وأنّ الرسول الأعظم هو خاتم الأنبياء.
3. النبي الأُمّي في القرآن المجيد.
4. علم الغيب في الكتاب العزيز.
5. أسماء النبي وصفاته في القرآن العزيز.

---

(1) بدأ المؤلف بالبحث عن خصوص هذا النمط من التفسير منذ عام 1388 هـ بعد ما صرف شطراً من عمره في تفسيره على النمط الآخر أعني تفسير القرآن على حسب السور.

ولما خرج هذا الجزء إلى البياض، عرضته على الأستاذ العلّامة، المفكّر الإسلامي الكبير السيّد محمد حسين الطباطبائي مؤلّف الكتاب القيّم « الميزان في تفسير القرآن » وغيره من الآثار الخالدة، فقدّره واستحسنه وشجعني على مواصلة العمل، وتفضّل بكلمة [1] سجلتها في صدر الكتاب لتبقى ذكرى خالدة من عواطفه الكريمة المبذولة لأحد تلامذة مدرسته وللأُستاذ ـ روحي فداه ـ منّي تحيّة عبقة وتمنيات خالصة.

وفي الختام لو ترتب ثواب على عملي الضئيل فإنّما أهديه :

إلى من أنا مدين له في كل شيء حتى في هذه الدراسات التي بين يديك.

إلى أوّل من فتح قلبي على أشعة نور القرآن وأرشد عقلي إلى الاهتداء بهداه.

إلى سيدي الوالد آية الله الشيخ محمد حسين السبحاني [2] تغمده الله برحمته والله ولي التوفيق ...

قم ـ إيران

جعفر السبحاني

20 جمادى الآخر 1393 هـ

---

(1) وقد أتتنا كتب ورسائل من الشخصيات العلمية بعد انتشار هذا الجزء لأوّل مرة نشرنا بعضها في مقدّمة الجزء الثاني وقد وافاك بعضها في أول هذا الجزء من هذه الطبعة.

(2) لبّى دعوة ربّه ضحوة يوم الحادي عشر من شهر شوال عام 1392 هـ، سعيداً نقي الصحيفة ودفن في مقبرة العلماء بقم بعد أن شيّع جنازته الزكية حشد من العلماء وشيوخ الحوزه العلمية وقد حك على صخرة قبره هذان البيتان :

إنّ الذي صنع الجميل مخلّد ... لا سيما في العلم والعرفان

فإذا انقضت أيام مدة عمره ... فجميل صنع المرء عمر ثان

تجد ترجمته الضافية في مقدمة كتابه « نخبة الأزهار » بقلم العلّامة الحجة السيد أحمد الأشكوري دام ظله، رحم الله الماضين من علمائنا العاملين ووفقنا للاهتداء بهداهم والسير على ضوء تعاليمهم. والله خير موفق ومعين.

الفصل الأوّل

عالمية الإسلام

على

ضوء القرآن الكريم

الحديث عن دعوة الرسول ﷺ متعددة الجوانب، واسع الأبعاد، بعيد الأغوار، وبالرغم من سعة مجالات القول، وجوانب البحث فيها، فانّنا نحاول بهذه النظرة الثاقبة الفاحصة، أن نتحدّث عن ناحية خاصة لدعوة الرسول ﷺ وأنّها دعوة عالمية لا إقليمية، وهي من أبرز الخطوط التي يستهدفها القرآن بشأن دعوته ورسالته.

نحن في رحاب القرآن الكريم، نسمع نداءه العالمي، وإن فصلتنا عنه حقب بعيدة من الزمان، ونعي صراحته ومجاهرته: بأنّ الإسلام عقيدة لا ينفرد بها شعب أو مجتمع بعينه، ولا يختص ببلد، أو بلاد معينة، بل هو دين ذو قوانين تسري على الأفراد على اختلافهم: في العنصر، والوطن، واللسان، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الانسان، ولا يعترف بأية فواصل وتحديدات جنسية، أو اقليمية.

فهذا تاريخ دعوته، وسيرته في نشر دينه، نتطلّع إليه بشوق ولهفة، حيث يبدد الدياجير من أمام أبصارنا، وبصيرتنا، ويقرّب لنا الواقع دونما تكلّف، أو اصطناع.

كانت دعوة الرسول ﷺ في بدء أمرها تدور بين أهله وعشيرته، ممتثلاً لما أمره الله سبحانه بذلك، بقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء ـــ 214)، والسر في ذلك أنّ النفوذ في الآل والعشيرة ألزم وأسهل من الأجانب والأباعد.

مضى رسول الله في دعوته السرية ثلاث سنين، وهو ينذر طيلة تلك المدة قومه وعشيرته، ويؤمي إلى عموم دعوته تارة، ويجاهر بذلك أُخرى، ويستنتج أنّ دعوته وشريعته عالمية، سوف تعم العالم كله، ولا تحبس بإطار خاص.

قال ﷺ في خطاب ألقاه في داره، حينما وفد إليه أعمامه وأخواله ومن كانت له به صلة :

« والله الذي لا إله إلّا هو، أنيّ رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة [1] والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وأنّها الجنّة أبداً، والنار أبداً » [2].

ثمّ إنّه كان ينتهز الفرص، التي تسنح له للاجهار بدعوته، إلى أن أمره تعالى بأن يصدع بما أُمر به، وأن ينادي الناس عامّة باتباع دينه وشريعته، امتثالاً لما أمره سبحانه به، بقوله :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر . 94).

فصعد رسول الله ﷺ على الصفا وهو يهتف ويقول: واصباحاه ! فاجتمع الناس حوله، فقال: إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تكذّبوني ؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، فقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار، فإنيّ لا أُغني عنكم من الله شيئاً، انيّ لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد، إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله فخشى أن

---

(1) أليس هذا تصريحاً بعمومية رسالته في بدء دعوته.

(2) الكامل لابن الأثير، ج 2، ص 41.

يسبقوه إلى أهله، فجعل يقول: يا صباحاه يا صباحاه اوتيتم اوتيتم [1].

هكذا بدأت الدعوة الإسلامية، وهو ﷺ يخطو خطوات قصيرة، يجابه ضوضاء الالحاد بحكمه وعظاته حتى دخل في الإسلام بعض الشخصيات البارزة ممن كانت لهم مكانة مرموقة بين الناس، وانجذبت إليه قلوب كثير من الشبان وأصبحت أفئدتهم تهوى إليه، غير أنّ الجو المفعم بالاحن والضغائن عرقل خطا دعوته، وتفاقمت جرائم قريش نحوه، فأجمعوا أمرهم على أن يخنقوا نداءه، بإنهاء حياته وإطفاء نوره، حيث اجتمع سادتهم في دار الندوة، وأجمعوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، ويسلّموا له سيفاً صارماً، وأوصوا هؤلاء الشباب بأن يضربوه ضربة رجل واحد، حتى يموت، فيستريحوا منه، وبذلك يتفرّق دمه في القبائل جميعاً، ولا يقدر بنو هاشم، على حربهم.

ولكنّ الله ردّ كيدهم، وصدّهم عن ذلك، وخيّب حيلتهم، وأخبر الرسول ﷺ عن المكيدة الداهمة، فغادر مكة متوجهاً إلى « يثرب » حتى دخلها، فاجتمع حوله رجال من الأوس والخزرج، وبايعوه، ووعدوه بالنصر، والمؤازرة والحراسة.

والرسول ﷺ وإن غادر مكة، وترك قومه، إلّا أنّ قومه لم يتركوه، بل أجّجوا نار الشحناء عليه، ودارت بينهم وبين الرسول حروب دامية، وحملات طاحنة، وبذلت قريش آخر ما في وسعها، ورمت كل ما في كنانتها، وبالغت في تقويض الإسلام، وهدم بنائه، إلى أن دخل العام السادس، من الهجرة، فتعاهد الفريقان في أرض الحديبية على هدنة تدوم عشر سنوات، بشروط خاصة.

هذا الصلح الذي تصالح به المسلمون في الحديبية، انقلب الى فتح مبين للإسلام، فانتهز الرسول ﷺ الفرصة لنشر دعوته في البلاد البعيدة، فبعث سفراءه وفي أيدي كل واحد كتاب خاص إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، وعظيم القبط، وملك الحبشة، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة ،

---

(1) السيرة الحلبية، ج 1، ص 321 المقصود: هوجمتم من قبل العدو.

بل إلى رؤساء العرب، وشيوخ القبائل، والاساقفة، والمرازبة، والعمال، يدعوهم إلى دين الإسلام، الذي هو دين السلام، ورسالته من الله وما أُنزل إليه من ربّه.

وهذه المكاتيب أول دليل على أنّ رسالته، عالمية لا تحدد بحد، بل تجعل الأرض كلها مجالاً لإقامة هذا الدين، ودونك نماذج ممّا ورد في تلكم الرسائل :

1. كتب إلى كسرى ملك فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى ... أدعوك بدعاية الله فإنّي أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأُنذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » [1].

2. وكتب ﷺ إلى قيصر ملك الروم :

« بسم الله الرحمن الرحيم، إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الاريسيين » [2].

وما ذكرناه نماذج من رسائله، وكتاباته الإبلاغية، وفيه وفي غيره مصارحة شديدة بأنّه رسول الله إلى العرب والعجم، وإلى الناس كلهم، من غير فرق بين اللون والجنس، والعنصر والوطن، ويمتد شعاع رسالته بامتداد الحضارة، ووجود الانسان، وأنّه ﷺ يكافح كل مبدأ يضاد دينه، وكل رساله تغاير رسالته، وقد جرى الرسول ﷺ عليه طيلة حياته الرسالية، حتى التحق بالرفيق الأعلى.

يقول السير توماس ارنولد: « انّ هذه الكتب قد بدت في نظر من أُرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنّها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام ».

---

(1) تاريخ الطبري، ج 2، ص 295، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 61 وغيرهما.

(2) السيره الحلبية، ج 2، ص 275، مسند أحمد، ج 1، ص 263 وغيرهما.

فقد قال الله تعالى في سورة ص 87 ـ 88: ﴿ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

وفي سورة يس 69 . 70: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وفي سورة الفرقان 1: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ: 28.

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾. سورة الأعراف 158.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾. سورة آل عمران: 85.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾. سورة النساء: 125.

وقال سبحانه: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾. التوبة: 29 . 33 [1].

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص 34.

تأثير تلكم الكتب :

وممّا يدل على أنّ هذه الكتب لم تصدر عن حماسة جوفاء، أنّه قد كان لها أثر بديع في أكثر هذه الأوساط، إذ تجاوبت معها شعور كثير منهم، فنبهتهم من رقدتهم، وانهضتهم من كبوتهم، فأصبحوا متفكّرين من ملبّ لدعوته، وخاضع لرسالته، ومؤمن بما أتاه، إلى معظّم لرسله، ومجيز لهم، ومكبّر إيّاه بإرسال التحف الثمينة، ودونك صورة مصغّرة ممّا أثارته تلكم الكتب في هذه البيئات، وقد روى أصحاب السير والتاريخ أُموراً كثيرة يطول بنا المقام بذكرها :

قال قيصر لأخيه ـ حين أمره برمي الكتاب ـ: أترى أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، وقال لأبي سفيان: إن كان ما تقول حقّاً فإنّه نبي، ليبلغنّ ملكه ما تحتي قدمي.

وخرج ضغاطر أسقف الروم بعد قراءة الكتاب، إلى الكنيسة وقال في حشد من الناس: يا معشر الروم أنّه قد جاءنا كتاب أحمد، يدعونا إلى الله وأنّي أشهد أن لا إلهَ إلّا الله وأنّ أحمد رسول الله.

وقال المقوقس: إنّي قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده ساحراً ضالاّ، ولا كاهناً كذّاباً.

وكتب فروة عامل قيصر بعمان إلى رسول الله كتاباً، أظهر فيه إسلامه، فلمّا اطّلع عليه قيصر أخذه واستتابه، فأبى فأمر بقتله، فقال حينما يقتل :

بلّغ سراة المسلمين بأنّني سلم لربّي أعظمي وبناني

وكتب هوذة بن علي ملك اليمامة إلى رسول الله: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله.

ولبّي المنذر بن ساوى ملك البحرين دعوة الرسول وأظهر إسلامه.

وأجابه ملوك حمير، وأساقفة نجران، ولبّاه عمّال كسرى باليمن، واقيال

حضرموت، وملك ايلة ويهود مقنا بالإسلام، أو بإعطاء الجزية.

وكتب النجاشي ملك الحبشة، كتابه المعروف، وأظهر إسلامه إلى درجة صلّى عليه النّبي ﷺ عندما بلغه موته [1].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، من تأثير دعوته العالمية ورسالته العامّة.

نعم قد شذ منهم كسرى ـــ ومن لفّ لفه ـــ وهو ذلك الملك الذي ورث السلطة والحكم عن أجداده من آل ساسان، فأبى أن يكون تابعاً للعرب، وخشى من هذا الدين على شخصه وملكه.

ولأجل ذلك لا تعجب إذا ثارت ثائرة كسرى، فمزّق كتاب الرسول، وأرسل إلى باذان، عامله باليمن، وكتب إليه: « ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين فليأتياني به » [2].

هذه صورة اجمالية من بدء دعوته إلى ختامها، أتينا بها بصورة مصغّرة، ليقف القارئ على أنّ دعوته لم تكن مقصورة على بلد خاص، أو شعب خاص بل كانت عالمية غير محدودة، وأنّ مرماه كان هو القضاء على جميع النزعات الاقليمية والمحلية والأديان السالفة وتذويبها في اطار رسالته العالمية الواسعة النطاق، وأنّه ﷺ كان يصرّح بذلك في بدء دعوته، وأثنائها ... ومختتم أمره.

النصوص القرآنية في عالمية رسالته :

هلم معنا نتلو عليك نصوص القرآن الدالّة على أنّ رسالته، رسالة عالمية وأنّ دعوته لا تختص بإقليم خاص، أو أُمّة معيّنة، وإنّ مرماه هو إصلاح المجتمع البشري على وجه الاطلاق، ويمكن الاستدلال على ذلك بوجوه :

---

(1) راجع لمعرفة نصوص ما دار بينهم وبين الرسول ﷺ إلى كتاب « مكاتيب الرسول ».

(2) الكامل، ج 2، ص 81، السيرة الحلبية، ج 3، ص 278، إلى غير ذلك.

الأوّل: إنّ كثيراً من الآيات تصرّح بأنّ رسالته عالمية، وأنّه رسول الله إلى الناس جميعاً، وأنّ الله أرسله رحمة للعالمين، وأنّه بشير ونذير للناس كافة، وأنّه ينذر بقرآنه كل من بلغه كتابه وهتافه، من غير فرق بين شخص وشخص، أو عنصر وآخر، ودونك بعض النصوص من هذا القسم :

1. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف . 158).
2. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ . 28).
3. ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء / 79).
4. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء . 107).
5. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان . 1).
6. ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ... ﴾ (الأنعام . 19).

. أي كل من بلغه القرآن، ووصلت إليه هدايته في أقطار الأرض ..

7. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ (الصف . 9).
8. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ... ﴾ (النساء . 170).
9. ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ (إبراهيم . 1).
10. ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران . 138).

وهذه الآيات ونظائرها ممّا لم ننقلها، صريحة في أنّ هتاف النبي ﷺ لا يختص بأُمّة دون أُمّة، وأنّه بعث إلى الناس كافة مبشّراً ومنذراً لهم جميعاً.

الثاني: إنّ القرآن كثيراً ما يوجّه خطاباته إلى الناس غير مقيّدة بشيء، وهذا دليل

واضح على أنّ هتافاته وتوجيهاته تعم الناس كافة، ودونك نماذج من هذا القسم.

1. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة . 21).

2. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّـــيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة . 168) إلى غير ذلك ...

فترى أنّه يخاطب الناس، ويقول: يا أيّها الناس ... تصريحاً منه على أنّ رسالته السماوية إلى الناس كلهم، لا إلى صنف خاص منهم.

فلو كان الإسلام ديناً اقليمياً، ورسالته طائفية، فلماذا تأتي هتافاته بلفظ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ؟!.

فقد تكرر هذا النداء في الكتاب ست عشرة مرة.

بل لماذا يخاطب أهل الكتاب وينادِيهم بقوله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ ؟ فقد ورد هذا الخطاب في الذكر الحكيم اثنتي عشرة مرة.

وربّما يستدل في المقام بالخطابات الواردة في القرآن موجهة إلى بني آدم لكن الاستدلال بها لا يخلو من الاشكال، كما سيوافيك بيانه عند البحث عن ختم الدين والرسالة [1].

الثالث: إنّ القرآن ربّما يأخذ العنوان العام موضوعاً لكثير من أحكامه، من غير تقييد بلون، أو عنصر، أو شعب أرض خاصة، وهذا يكشف عن أنّه بعث إلى إصلاح المجتمع البشري في مشارق الأرض ومغاربها، وأنّ الرسالة التي أُلقيت على عاتقه لا تحدد بحد، ودونك نماذج من هذا القسم :

1. ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران . 97).

فقد أوجب حج البيت على الناس إذا استطاعوا إليه، عرباً كانوا، أم غير عرب ،

---

(1) لاحظ الفصل الثاني . في هذا الكتاب . ص 113.

فلم يقل: لله على الأُمّة العربية ـ مثلاً ـ حج بيته.

2. ﴿ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ (الحج ـ 25).

3. ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (لقمان ـ 6). فالجملة الخبرية بمعنى الانشاء وتحريم الاشتراء ولذا استدل الفقهاء بها على حرمة كسب المغنيّات تبعاً للسنّة [1].

فذم سبحانه كل من اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله كائناً من كان إلى غير ذلك من الآيات.

الرابع: يقضي صريح القرآن بأنّ هدايته لا تختص بمجتمع خاص، بل تعم كل من تظلّه السماء، وتقلّه الأرض. ودونك بعضها :

1. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: 174).

2. ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ... ﴾ (البقرة ـ 185).

3. ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: 27).

4. ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (إبراهيم ـ 1).

أليست هذه الآيات صريحة في أنّ القرآن نور وهدى للناس كلّهم، لا للعرب خاصة، ومع ذلك كيف يمكن أن نحمل رسالته على أنّها مختصة بأُمّة دون أُمّة ؟! هذا ونجد سبحانه يقول: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (الجمعة: 3) وما المراد من الـ: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ ـ أي من المؤمنين ـ ؟ أليس المراد كل من جاء بعد

---

(1) راجع المكاسب، ص 38، للشيخ الأعظم الأنصاري.

الصـــحابة إلى يوم القيامة من العرب والعجم ؟ [1] فالآية دالة على عمومية الرســـالة مضـــافاً إلى خاتميتها.

هذه جوانب تلقي ضـــوءاً على البحث، وتهدف إلى أمر واحد: وهو أنّ رســـالته ذات نزعة عالمية، غير محدودة بحد، فلا يحدها قطر، ولا يقيّدها شـــيء آخر من ألوان التحديد والتقييد، نعم مبدأ البرهان في كل واحد منها يختلف مع ما في الآخر .كما يظهر ذلك بالإمعان والتدبّر . [2].

البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر :

وهناك لون آخر من البحث يتصـل اتصـالاً وثيقاً بطبيعة الإسـلام، وبفكرته الكلية، عن الكون والحياة والإنسان، ونظرته الوسيعة الثاقبة في التقنين والتشريع وإن شئت فاجعله خامس الوجوه.

بيانه: أنّ الحقائق الراهنة التي جاء بها الصـــادع بالحق، في مختلف الأبواب والفصـــول، لا تستهدف سوى تبنّي الواقع، ولا تأخذ غيره دعامة، ولا تخضع لشرط من الشرائط الزمانية إلّا لنفس الأمر.

وإن شئت فقل: إنّ الإسلام لا يعتمد في أحكامه وتشريعاته وما يرجع إلى الانسان في معاشه ومعاده، إلّا على مقتضى الفطرة التي فطر عليها كلّ بني الإنسان والسائدة في كافة أفراده، في عامة أقطار الأرض جميعاً، وإذا كان الحكم والتشـريع موضـوعاً على طبق الفطرة الانسـانية السـائدة في جميع الأقطار والأفراد، فلا وجه

---

(1) مجمع البيان، ج 5، ص 284.

(2) هذه الوجوه الأربعة تختلف في طريق البرهنة على المطلب، فقد اســتدل في الوجه الأوّل بتصــريح القرآن على عموم رســالته، واعتمد في الثانية على شمولية هتافات القرآن وعمومية خطاباته في الفروع والأُصــول، وفي ثالثها على أنّ القرآن كثيراً ما يتخذ العنوان العام لموضوع أحكامه، وفي رابعها على نص القرآن بأنّ هدايته وانذاره لا يختص بشعب خاص.

لاختصاصه بإقليم دون إقليم، أو بشعب دون شعب. [1]

ولا يجد الباحث ــ مهما أُوتي من مقدرة علمية كبيرة ــ في ما جاء به نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ، على سعة نطاقه، وبحثه في شتى الجهات، ومختلف النقاط أيّ طابع إقليمي، أو صبغة طائفية، وتلك آية واضحة على أنّ دعوته دعوة عالمية لا تتحيز إلى فئة معيّنة، ولا تنجرف إلى طائفة خاصة.

هذا هو الإسلام وتعاليمه القيّمة ومعارفه الاعتقادية، وسننه التشريعية فأمعن فيها النظرة مرة بعد أُخرى، فهل تجد فيه ما يشير إلى كونه ديناً إقليماً خاص، أو شريعة لفئة محدودة ؟ فإنّ للدين الإقليمي علائم وأمارات، أهمها أنّه يعتمد في معارفه وتشريعاته على خصوصيات بيئية، أو ظروف محلية، بحيث لو انقلبت تلكم الخصوصيات إلى غيرها، أصبحت السنن والطقوس المعتمد عليها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وصار النافع منها ضاراً، فهل تجد أيّها الباحث في ما جاء به الإسلام شيئاً من تلكم الامارات.

هلم معي نحاسب بعض ما جاء به الإسلام في مجالات العلم والعمل، ونضعها على طاولة الحساب، فنكون على بصيرة كاملة في هذا الموضوع: فقبل كل شيء، لاحظ كتاب الله العزيز، ومعجزة الإسلام الخالدة، فقد انبثق نوره منذ أربعة عشر قرناً، حين كانت البشرية تسبح في ظلام دامس مخيف، ضاعت فيه كرامة الانسان وحريته، وساد العداء والتنازع بين الناس، وكان نظام الغاب وحده، مفزعاً للناس وملجأ إليهم.

وفي تلك الظروف جاء القرآن نوراً يستضيء به العالم، ويعيد للانسان كرامته ومكانته وحريته، مؤسّساً لمجتمع قائم على أساس وطيد من العدالة الاجتماعية، سواء في ذلك انسان الجزيرة العربية أم غيرها.

هلم معي نستعرض تعاليمه، فهل نرى آية من آياته الباهرة، أو قانوناً من قوانينه، أو حكمة من حكمه ومعارفه، أو سننه من سنة، أو فريضة من فرائضه تنفع في

---

(1) سوف نرجع إليه في ختام البحث، ونجعله دليلاً مستقلاً على عمومية رسالته.

مجتمع دون آخر ؟ تفيد في إقليم دون إقليم ؟ تبلغ بمجتمع خاص إلى قمّة الرقي والحضارة، وتسف بجماعة أُخرى إلى هوة الضلال والجهل ؟!

ليت شعري ماذا يريد القائل من كلمته القارصة، أو فريته الشائنة ؟: « الإسلام دين طائفي، أو مبدأ إصلاح إقليمي، لا يصلح لعامة المجتمعات، ولا يصلح لعامة القارات، ولا تسعد به الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها ».

ليت شعري ماذا يريد منها ؟ أيريد معارفه العليا في باب الصانع وصفاته، وما جاء في ذلك الباب من الحقائق الغيبية، والكنوز العلمية، التي لم تحم حولها فكرة انسان قبله، ولم توجد في زبر الاوّلين مثلها، أو شبهها.

فلو أراد ذلك، فتلك فرية بيّنة، إذ الإسلام قد أتى بفلسفة صحيحة وعرفان رصين وتوحيد خالص، فيه دواء المجتمع البشري في الأقطار كلها.

ترى ويرى كل من له إلمام بالإسلام أنّه كافح كل لون من ألوان الشرك، كافح عبدة الأصنام والأجرام السماوية، كافح كل تعلّق بغيره سبحانه، وتخضع لشيء دون الخالق، وأنقذ المجتمع البشري من مخالب الشرك، ومصائد الضلال، ونهاه عن عبادة حجر لا يعقل أو شجر لا يفهم، أو حيوان لا يدفع عن نفسه، أو انسان محتاج مثله، أو غيرها من الأرباب الكاذبة، فأعاد للانسان كرامته وحريته ومكانته المرموقة سواء في ذلك انسان الجزيرة أم غيره.

أيحسب هذا القائل أنّ ذلك التوحيد، وهذا العرفان مختصان بقوم دون قوم كيف ؟ فإذا كان النبي لا يستهدف سوى الواقع ولا يتبنّى غيره، وبعبارة صحيحة: إذا كان لا يوحى إليه سوى الحقيقة المجردة عن شوب كذب، فلا وجه لأن يختص بأُمّة دون أُمّة.

ودونك سورة الحديد والآيات التي وقعت في صدرها، فاقرأها بإمعان وتدبّر فهل يعلق الشك بضميرك الحر، بأنّها تعاليم ومعارف تختص بمنطقة خاصة ولا تصلح للتطبيق في مناطق أُخرى، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في العقائد والمعارف.

أم يريد أنّ أحكام الإسلام وتشريعاته في العبادات والمعاملات والأخلاق

وغيرها، قوانين إقليمية، لا تصلح إلّا لظروف خاصة، ولا تفيد إلّا في شبه الجزيرة العربية، ولا يسعد بها إلّا انسانها، دون اناس المناطق الأُخرى، إلّا أنّ تلك فرية بيّنة ليست فيها مسحة من الحق أو لمسة من الصدق، فهذه فروعه ودساتيره وفرائضه لا تجد فيها أثراً للطائفية أو أمارة للإقليمية.

ضع يدك على النظام الاجتماعي الذي جاء به الإسلام في أبواب النكاح والزواج، وأحكام الأولاد والنشوز والطلاق والفرائض، وإصلاح حال اليتامى وإنفاذ الوصايا، والإصلاح بين الناس، وأداء الأمانة، وحسن السلوك معهم، والتعاون والاحسان، إلى غير ذلك ممّا يجده الباحث في النظام الاجتماعي للإسلام.

ضع يدك على النظام الأخلاقي الذي فاق به الإسلام، كافة الأنظمة الخلقية التي كانت قبله، أو تأسّست بعده، فأمر بالصدق وأداء الأمانة، والصبر والثبات وحسن الظن بالناس، والعفو والغفران والقرى والضيافة، والتواضع، والشكر والتوكل، والاخلاق في العمل إلى غير ذلك ممّا أمر به، أو ما نهى عنه كالبخل والاختيال، والبهتان والغضب، والاثرة، والحسد، والغش والبغي والخمر والميسر، والجبن والغيبة والكذب، والاستكبار والرياء، والعجب والتنابز بالألقاب والانتحار والغدر و ... .

ضع يدك على نظامه السياسي في باب الحكم والسياسة، وما أتى به في اصلاح نظام الحرب، ودفع مفاسدها، وقصرها على مافيه من الخير للبشر، وايثار السلم على الحرب، وعلى الأنظمة والقوانين التي جاء بها في أبواب العقود والمعاملات، فأوجب حفظ المال عن الضياع والاقتصاد فيه وجعل فيه حقوقاً مفروضة ومندوبة، وأحلّ البيع وحرّم الربا، ونهى عن الغش والتطفيف، إلى غير ذلك ممّا يجده المتعمّق في كتب الفقه والأحكام.

قل لي بربّك هل تجد في هذه الأنظمة، أو في ثنايا هذه الأبواب والأحكام حكماً أو أحكاماً فيها تفكير طائفي أو نزعة اقليمية ؟ وإن كنت في ريب فاقرأ الآيات التالية ومئات نظائرها، تجدها دواء المجتمع الانساني في الأقطار كلها :

1. ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـــانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَـــاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل . 90). أليست هذه القوانين عماد الاصلاح، وسناد الفلاح في عامة القارات ؟

2. هلاّ كان منه قوله سـبحانه ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء . 58).

وقد ندد الله باليهود لتجويزهم خيانة الأُميين، يعني العرب المشركين ومن ليس في دينهم، وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران . 75).

وليس هذا إلّا لأنّ دينهم على زعمهم كان طائفياً، فالحرام عندهم هو خيانة يهودي ليهودي مثله لا غير، وأمّا الإسـلام فلمّا كان ديناً عالمياً غير مختص بطائفة دون أُخرى، فحرّم الخيانة مطلقاً على المسلم والكافر، وذلك آية كونه عالمياً لا طائفياً ولا إقليمياً.

3. أو ليس منه قوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن منكُمْ أُمّة يَدعُونَ إلى الخيرِ ويأمُرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عن المنكرِ ﴾ (آل عمران . 104).

وقد عرضنا هذه الآيات على سبيل التنويه، فليس معنى هذا، أنّ ما جاء به الإسلام في طريق إصـلاح المجتمع، محصـور في هذا النطاق، فإنّ في كثير من الآيات التي لم نأت بها تنويهاً بمختلف الأخلاق الفاضلة الإنسانية، والشخصية والاجتماعية من صدق، وعدل، وبر، وأمانة، وصلة رحم، ولين جانب، ووفاء عهد، ووعد، ورحمة للضعيف، ومساعدة للمحتاج، ونصرة للمظلوم، وصبر، ودعوة إلى الخير، وتواص بالحق، وعدم اللجاج فيه، والانفاق لله، والدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والتعاون على البر والتقوى، والرغبة في السلم.

كما احتوت آيات كثيرة تنديداً بمختلف الأخلاق السيئة والخصال المذمومة من

كذب، وظلم، وبغي، واثم، وقتل نفس، وارتكاب فاحشـــة، وانتهاك عرض وافك وزور، وعربدة سـكر، وإسـراف وتبذير، وخيانة ونكث غدر، وخديعة، وقطع رحم، وأكل أموال الناس بالباطل، وجبن، وشـــح وأمر بمنكر وغلظة قلب، وفظاظة خلق، ورياء ومكابرة وانتقام باغ، وتناقض بين القول والعمل وغرور، وصـــد عن الحق، إلى غير ذلك من مســـاوئ الأخلاق ومحاســـنها التي تجد نصـــوصـــها مبثوثة في القرآن الكريم. وتســـهل عليك مراجعتها والاهتداء والتدبّر في معانيها إذا لا حظت كتاب « تفصـــيل آيات القرآن الكريم » [1]، « والمعجم المفهرس » [2] وغيرهما من الكتب والمعاجم.

هذا وقد عاشت الأُمّة الإسلامية بل الانسانية جمعاء [3] في ظل هذه الدساتير ونظائرها الوافرة في أجيال متتابعة، وفي حقب من الزمان والمكان، فلو كانت مختصـــة بإقليم خاص، لأدّت إلى التناحر والاندحار في الأقاليم الأُخر، لا إلى الرقي والحضارة [4].

الدعوة إلى الفطرة، أساس الأحكام الإسلامية :

لقد بنى الإســـلام أحكامه وتوجيهه في العلم والعمل على الفطرة الإنســـانية الســـائدة في جميع الأقطار والأفراد، فدعا إلى التوحيد المطلق، وقرّر مبادئ العدالة والحرية والمواساة والاخاء بين الناس كافة والديمقراطية الحقة، ونشر العلم والحضارة

---

(1) تأليف المسيو جول لابوم، وقد وضع كتاباً باللغة الفرنسية، جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلا منها في باب أو أبواب خاصة، حسب ما فهم منها، ولكنّه أخطأ في كثير من معانيها، فإنّه اكتفى في ترتيبه وتنسيقه بما فهمه من ظواهر الآيات حسب اللغة العربية وقواعدها، من دون أن يرجع إلى أسباب النزول، وسنّة النبي وسيرته والأئمّة من بعده.

(2) تأليف محمد فؤاد عبد الباقي المصري.

(3) اعترف به المستشرق غوستاف لوبون في آخر كتابه.

(4) نعم كل أُمّة ركنت إلى الدعة والراحة، وحنت إلى تقليد عادات الأجانب في معترك الحياة، ونسيت مكانتها ورسالتها وقوانينها وأخذت بغيرها، رجعت إلى ورائها القهقرى وعلى هذا الأساس تعيش الأُمّة الإسلامية في هذا العصر في أنحاء العالم، فتراها متفرقة الكلمة ممزّقة، تأكلها حثالات الأرض.

وقضى على الرذائل والمنكرات، والشهوات الجامحة، والتقاليد البالية، والخرافات الكاذبة، والرهبانية المبتدعة، وأمر بالفضائل والصدق في القول والوفاء بالعهد، والاجتناب عن العزوبة بنكاح الحرائر إلى غير ذلك من الوف الأحكام والتشريعات التي أشرنا إلى كثير منها وتعتبر بمجموعها دعائم الاصلاح في العالم كله، ولا تنازع الفطرة بل تطابقها ولا تتخلّف عنها قدر شعرة.

فإذا كانت الفطرة الإنسانية واحدة في الجميع، وكانت الأحكام الإسلامية مبنية عليها في جانب التشريع، فلا وجه لأن تختص بقوم دون قوم، وهذا بحث لطيف سوف نرجع إليه إن شاء الله عند البحث عن كون نبي الإسلام خاتم النبيين، ودينه خاتم الأديان وبه نجيب على الاشكال الدارج على ألسنة بعض المستهترين ممّن لا يؤمن بصريح القرآن في مسألة الخاتمية ويقول: « إنّ النصوص الشرعية في الكتاب والسنّة محدودة، وحوادث الناس ومقاصدهم متجددة ومتغيّرة ولا يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث المتجددة الطارئة » فارتقب حتى يأتيك الجواب والبيان.

الإسلام يكافح المبادئ الرجعية :

وأدل دليل على أنّ الإسلام رسالة عالمية، أنّه يكافح النزعات الاقليمية والطائفية ولا يفرق بين اللون والجنس والعنصر ولا يفضّل أحداً إلّا بالتقوى، ويزيّف كل مقياس سواه ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات . 13).

كفى له فخراً أنّه أوّل من حارب العصبية والنعرات الطائفية ودعا إلى الاخوة الانسانية، والزمالة البشرية، والانضواء تحت لواء واحد وهو لواء التوحيد المطلق.

أجل حارب العصبية، والنعرات الطائفية في ظل وحدات ثمان، وهو أوّل من أسّسها وأشاد بنيانها، أعني: وحدة الأمّة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع، وحدة الاخوة الروحية، وحدة الجنسية الدولية، وحدة القضاء، بل وحدة اللغة

الدينية [1].

وقد بلغت بها الأُمّة الإسلامية في العصور السالفة المزدهرة، الذروة من المجد والعظمة، فأصبحت ساسة البلاد وحكّام العباد.

أو ليس الرسول ﷺ وهو قائل تلكم الكلم الدرية التالية، القاضية على كل نعرة طائفية، والانتماء إلى فئة خاصة والاتجاه إلى نجاح شعب خاص، فكيف ترمى شريعته بالطائفية وانقاذ جماعة معينة دون غيرها ؟

1. قال ﷺ : « أيّها الناس إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ألا إنّكم من آدم وآدم من طين، ألا إنّ خير عباد الله، عبد إتّقاه » [2].

2. « ألا إنّ العربية ليست بأب والد، ولكنّها لسان ناطق، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه » [3].

3. « إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا، مثل أسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى » [4].

4. « إنّما الناس رجلان: مؤمن تقي، كريم على الله; وفاجر شقي، هيّن على الله » [5].

وللدكتور حسن إبراهيم حسن هنا كلمة قيّمة، يقول :

« ينكر بعض المؤرخين أنّ الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البيّنات ومن بينهم « وليم ميور » إذ يقول :

« إنّ فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وأنّ هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنّه فكّر فيها ،

---

(1) كل ذلك دليل على عالمية تشريعه، وسعة نطاق رسالته، ويجد الباحث في الذكر الحكيم والأحاديث الإسلامية دلائل واضحة على كل واحدة من هذه الوحدات، فلا نقوم بذكرها لئلاّ يطول بنا المقام وقد بحثنا عنها في الجزء الثاني.

(2 و 3 و 4 و 5) راجع للوقوف على مصادر هذه الكلمات: روضة الكافي، ص 248، سيرة ابن هشام ج 2، ص 412، بحار الأنوار، ج 21، ص 105، والشرح الحديدي، ج 17، ص 281، وقد أوردنا شطراً آخر من هذه الأحاديث في الجزء الثاني.

كان تفكيره تفكيراً غامضاً، فإنّ عالمه الّذي كان يفكّر فيه إنّما كان بلاد العرب كما أنّ هذا الدين الجديد لم يهيأ إلّا لها، وأنّ محمداً لم يوجّه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلّا للعرب دون غيرهم، وهكذا نرى أنّ نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانّما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج ».

وكذلك شـــك « كيتاني » في أن يكون النبي قد تخطّى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أُمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين.

ومن الغريب أن يشك « وليم ميور » في صحة دعوى عموم الرسالة، وأن يبني شكه هذا على أنّ محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة، وأنّها كانت عالمه الذي لم يفكّر في ســـواه، وأنّ هذا الدين لم يهيأ إلّا لتلك البلاد، وأنّ محمداً منذ بعث إلى أن مات لم يوجّه دعوته إلّا للعرب دون غيرهم، فهل خفيت على ذلك المؤرّخ صـــلة قريش بدول ذلك العهد، وما أتاحته لها التجارة من دراية وخبرة بشؤون هذه الأُمم وأحوالهم، وأنّ محمداً بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة إلى بلاد الشام، فقد سافر وهو صبي مع عمه « أبي طالب » في تجاراته حتى إذا بلغ خديجة ما بلغها عن خبرته وأمانته، ألقت بمالها بين يديه، فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها، ثم ظل يشـــتغل بالتجارة حتى بعث، فبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد أنّه كان لا يعرف غير بلاد العرب وهو رجل عصامي لم يكسب مركزه الممتاز في مكّة قبيل البعثة إلّا من ذكاء عقله وكفاية مواهبه.

هل يســتبعد على محمد الذي خرج من مكّة ناجياً بنفســه ونفس صــاحبه أن يتخطفها الناس لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصــروه، ثم صــبر وصــابر حتى عاد إلى مكة بعد ثماني ســنين وهو الســـيد الآمر فيها وفي الجزيرة، تحوم حول شـــخصـــه مائة ألف من القلوب أو تزيد، ومن ورائهم كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤســـاؤها وأكابرها هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظره إلى ما وراء الجزيرة ليبســـط عليه ســـلطانه، إن كان من محبي الســـلطة والحكم أو ليفيض عليها من

الذي غمر الجزيرة وملأها عدلاً وأمناً ودعة وحبّاً ؟

لو قيل أنّ الاسكندر المقدوني كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كلّه وتجعله يلتف حول هذا الشـــاب الإغريقي لصـــدقنا، ولو قيل أنّ « نابليون » كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد، ليجلس على عرشها الفتي لصدقنا.

أمّا إذا قيل أنّ محمد بن عبد الله ﷺ فكّر في أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتّصلين بقريش ـ اتصالاً تعيش عليه قريش وينبني على أساسه كلّ شيء في البنية القرشية ـ فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر (بزعم « وليم ميور ») أن يقبله إلّا أن يكون تفكير ذلك النبي في هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض.

وأمّا القول بأنّ ذلك الدين لم يهيأ إلّا لبلاد العرب، فإنّ ذلك لم يمنع محمداً من التفكير في تعميم دينه، لأنّ هذا التفكير ســـواء أتحقق أم لم يتحقق، إنّما يعتمد على اعتقاده أن دينه صـــالح لذلك، وقد ثبت من القرآن أنّه كان يعتقد أنّ الإســـلام قد هيّئ لكلّ حالة، وأنّ القرآن قد تكفّل بتبيان كلّ شيء، إذ يقول الله تعالى لرسوله في غير آية: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النحل ـ 89).

ويؤيد دعوى عموم الرسـالة للجنس البشـري قول محمد ﷺ أنّ بلالاً أوّل ثمار الحبشـة، وأنّ صهيباً أوّل ثمار الروم، وكذلك ما قاله عن سلمان الذي كان أوّل من أسلم من الفرس، فكان عبداً نصـرانياً بالمدينة اعتنق هذا الدين الجديد في السـنة الأُولى من الهجرة، وهكذا صـرّح الرسـول في وضـوح وجلاء، أنّ الإسـلام ليس مقصـوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شـيء يتعلّق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم في تلك الآيات البينات » [1].

---

(1) تاريخ الإسلام السياسي ـ الطبعة الخامسة ـ ج 1، ص 167 ـ 170، وذكر في المقام بعض الآيات التي تدل على عمومية رسالته.

نظرة في الآيات

المشعرة بعدم العمومية

قد عرفت ما هو الحق في المقام بأنّ القرآن الكريم والسـنّة النبوية، وسـيرتها تدل بوضـوح على عمومية رسالته لكل من في الأرض جميعاً.

غير أنّ هناك آيات ربّما يسـتشـم منها عدم عمومية رسـالته، وقد وقعت هذه الآيات سـنداً للخصم، فنحن نذكر تلك الآيات ونوضح المقصود منها.

1. آيات الانذار :

انّ بعض الآيات في هذا الصدد توجه انذار النبي ﷺ إلى قومه وربّما تشعر باختصاص الرسالة ودونك هذه الآيات :

1. ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (القصص ـــ 46).
2. ﴿ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (السجدة . 3).
3. ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس . 6).
4. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (مريم . 97).

فهذه الآيات ونظائرها تخص انذار النبي ﷺ بقوم خاص، وبذلك تضيق دائرة الدعوة.

الجواب :

إنّ الإجابة على الاستدلال بهذه الآيات سهلة بعد الوقوف على ما ذكرنا من الآيات المصرحّة بعمومية الرسالة.

لأنّها أوّلاً: لا تخرج من حدّ الاشعار الضعيف الذي لا يعتمد عليه في مقابل الآيات المصرّحة بأشد التصريح بعمومية الدعوة.

وثانياً: إنّ هناك آيات بهذا الصدد تصرّح بعمومية الانذار، ففي سورة يس التي ورد فيها: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ قوله سبحانه: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (يس ـ 70).

فهذه الآية تشعر بأنّ دائرة الانذار تشمل كلّ حي يعقل ويخاطب به وهو يعم كلّ مستعد للهداية سواء أكان من قومه وممن يعيش في الجزيرة العربية أم لا.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾ (الكهف ـ 4).

وهم يعم أُمّة الكليم والمسيح الذين قالوا: اتّخذ الله ولداً.

فاليهود قالوا بأنّ الله اتّخذ عزيراً ولداً.

والنصارى قالوا: بأنّ الله اتّخذ المسيح ولداً.

وبذلك يظهر أنّ كلّ ما ورد في هذا الصدد من آيات الانذار لا يدل على التخصيص بل هو خطاب بمقتضى المقام.

فقد تقتضي البلاغة توجيه الكلام إلى قسم خاص كما تقتضي المصلحة في مقام آخر توجيه الكلام لكلّ من بعث لانذاره فلاحظ الآيات التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ (الأنبياء ـ 45).

بينما يخص الانذار بالمخاطبين في هذه الآية يعمّم الانذار لكلّ الناس في آية أُخرى ويقول: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ (يونس. 2).

2. عد بعض أهل الكتاب من الصالحين :

انّ القرآن الكريم يعد بعض أهل الكتاب من الصالحين حيث يقول :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: 113. 114).

فلو كانت رسالة النبي الأكرم ﷺ عالمية يجب أن يرجع إلى شريعتها كلّ من يعيش تحت السماء من أصحاب الشرائع السماوية فعندئذ كيف يعد بعض من لم يرجع إليها من الصالحين ويصفهم بالأوصاف المذكورة في هاتين الآيتين ؟

الجواب :

انّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة بعد الرجوع إلى سياق الآيات فانّه سبحانه لـمّا وصف أهل الكتاب بأنّ أكثرهم الفاسقون وقال :

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وقال: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾.

وقال في حق اليهود :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ... ﴾ (آل عمران: الآيات110، 111، 112).

أراد سبحانه أن لا يبخس حق الأقلّية الصالحة منهم، تمشّياً مع الحقيقة، ووفاء للحق. وقال :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ... ﴾.

أي ليس الجميع ـ من أهل الكتاب ـ على وتيرة واحدة، وأنّه يوجد بينهم من يستقيم على دينه، ويثبت على أمر الله، ويتلوا آيات الله فهم الذين يعدّون من الصالحين أي الذين صلحت نفوسهم فاستقامت أحوالهم وحسنت أعمالهم.

ومن المعلوم أنّ توصيف ثلة قليلة بالصلاح إنّما هو في مقابل الأكثرية الموصوفة بالفسق والطغيان وقتل الأنبياء والاعتداء.

وهذا التحسين النسبي لا يدل على إقرار شريعتهم وعدم نسخه بالإسلام وأنّهم لو عملوا بشريعتهم لكانوا من الناجحين.

ويدل على ذلك أنّه سبحانه يصرّح في الآية 110 بلزوم إيمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون ويقول :

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾.

وعلى ذلك يتّضح مساق الآية وهدفها.

إجابة أُخرى :

غير أنّ المفسرين فسّروا الآية على وجه آخر وقالوا: لما أسلم عبد الله بن سلام وجماعة قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد إلّا شرارنا فأنزل الله: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ... ـ إلى قوله ـ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

روي ذلك عن ابن عباس وقتادة وابن جريح.

وقيل انّها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم [1].

غير أنّ هذا التفسير لا يلائم ظاهر الآية فالظاهر أنّ الموصوفين بالصلاح من أهل الكتاب حين نزول الآية كما هو ظاهر قوله: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ولو كان المراد هو المؤمنون المسلمون لما عبّر عنهم بهذا العنوان ولا ينافي ما ذكرنا توصيفهم

---

(1) مجمع البيان ج 4 ص 488، راجع الدر المنثور ج 2 ص 64 و 65.

بأنّهم يتلون آيات الله آناء الليل إذ عندهم من المناجات والأدعية له الشيء الكثير لا سيّما في زبور داود.

3. تخصيص الانذار بأُمّ القرى ومن حولها :

وهناك بعض الآيات تخص الانذار بأُمّ القرى ومن حولها حيث يقول :

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (الأنعام . 92).

وقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى . 7).

فهاتان الآيتان يستظهر منهما اختصاص نطاق رسالته في إطار أُمّ القرى ومن حولها.

وأُمّ القرى أمّا علم من اعلام مكّة أو كلّي اطلق عليها في هذه الآية.

وعلى أي تقدير فتشعر باختصاص الرسالة بما ذكر فيها.

الجواب :

غير خفي على القارئ النابه أنّ ما ادّعاه من الظهور ضعيف جداً، ولو سلم فلا يتجاوز حد الاشعار الابتدائي [1] ولا يعتنى به اتّجاه الحجّج الدامغة الدالّة على سعة نطاق رسالته وعدم محدوديتها بشيء من الحدود والقيود، كما وافاك بيانها.

---

(1) بل ذيل نفس الآية دليل على عموم رسالته، حيث أنّه سبحانه قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وظاهره أنّ كل من يؤمن بالآخرة من العرب والعجم يؤمن بهذا الكتاب، وإنّه منزّل من ربّهم: مصدّق لما تقدمه من الكتب، فلو كانت دعوته اقليمية أو طائفية لما كان لإيمان من ليس من تلك الطائفة أو لا يعيش في الجزيرة العربية معنى صحيح.

نحن نسأله لماذا نسي أو تناسى قوله سبحانه في نفس هذه السورة (الأنعام) الدالّ على عمومية رسالته، وأنّ الله سبحانه أمره أن ينذر بكتابه كلّ من بلغه هتافه في أقطار الأرض وأرجاء العالم. وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام . 19).

وصريح هذه الآية أنّه ﷺ أمرلينذر بقرآنه كلّ من بلغه ووصل إليه هتافه، عربياً كان أو أعجمياً، شرقياً كان أم غربياً، فلماذا أخذ الكاتب بالإشعار الضعيف وترك التصريح على خلافه مع كونهما في سورة واحدة ؟!

فلو أنّه كتب ما كتب بدافع التحقيق والبخوع للحقائق، فلماذا فتح بصره وألقى أسدالاً على بصيرته فاعتمد على الاشعار ورفض التصريح.

ومن المتحتمل أنّه رأى الآيتين، لكنّه حسب أنّ الله تعالى نقض كلامه الوارد في ابتداء السورة بختامها وهو سبحانه يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء . 82).

نحن لا نميط الستر عن نواياه وضمائره وهو قد وقف على هذه الآية وغيرها مما سردناه من الآيات الدالّة على عالمية رسالته، لكن الظاهر أنّه لا يستهدف بذلك إلّا تعكير الصفو وبث بذور الشك في قلوب السذّج والبسطاء من الأُمّة الإسلامية لغاية هو أعرف بها وإن كان لا يفوتنا عرفانها.

والحق أنّه ﷺ لم يكن في دعوته وانذاره بدعاً من الرسل، فقد مشى في ابلاغه على سنن من قبله من المرسلين، فالمسيح كان رسول الله، إلى أُمّة كبيرة أوسع من بني إسرائيل [1]، ومع ذلك كلّه فقد بدأ هتافه بكونه رسولاً إلى بني إسرائيل مع أنّه رسول

---

(1) نعم لم يثبت كون المسيح مبعوثاً إلى الناس أجمع، كما سيوافيك بيانه في هذا البحث بل كان مبعوثاً إلى أُمّة كبيرة أوسع من بني اسرائيل، لما ثبت من بعثه عليه السلام رسلاً من حواريه وتلاميذه إلى الأُمم التي لا تمت إلى بني إسرائيل بصلة، وهو دليل على أوسعية نطاق رسالته من بني اسرائيل.

إليهم وإلى غيرهم وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْـرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَـدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴾ (الصف ـ 6).

فخصّ خطابه ورسالته ببني إسرائيل مع كونه رسول الله إلى غيرهم أيضاً ولا ضير في ذلك لأنّ كونه رسولاً إليهم لا ينافي كونه رسولاً إلى غيرهم فإنّ اثبات الحكم لموضوع لا يلازم نفيه عن غيره.

وقد ضارعه نبي الإسلام، فهو مع كونه رسول الله إلى الناس جميعاً، ومع أنّه أمره الله أن ينذر بقرآنه قومه وكلّ من بلغه كتابه في مشارق الأرض ومغاربها [1] أمره الله سبحانه أن يقول: ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام ــ 92، الشورى ــ 7) فإنّ كونه مبعوثاً لانذار الأُمّة العربية القاطنة في عاصمتها مكة ومناطقها التابعة لها، لا ينافي كونه مبعوثاً إلى غيرها أيضاً ومنذراً بكتابه سواها.

وقد حذى الرسول حذو القرآن في خطاباته الشخصية في اندية الانذار والابلاغ، فقال ﷺ حينما وفدت إلى داره عشيرته وأقربوه: « انّي رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامّة » وهو في الوقت نفسه حينما صعد على الصفا خص قريشاً بالخطاب وقال: « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار ».

وقد وافيناكم بتلك الدرية في صدر البحث [2].

هذه سيرة الرسول وسيرة من قبله، من أُولي العزم من الرسل، فهم يقتفون في توجيهاتهم ودعواتهم مقتضى الحال، مراعين في ذلك شرائط البلاغة، وإلقاء الكلام على وفق الحكمة، فربّما دعت المصلحة إلى توجيه الكلام إلى مجتمع خاص، كما أنّه ربّما اقتضت توجيهه إلى الناس عامة من دون أي تنافر وتناكر في التوجيهين.

وإن شئت قلت: انّه ﷺ بُعث إلى عشيرته والعرب والناس جميعاً على سبيل « تعدد المطلوب » كما قال: « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار » وقال: « انّي رسول

---

(1) الأنعام ـ 119.

(2) أنظر ص 135 من كتابنا هذا.

الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة » وكانت كلّ واحدة من هذه الطوائف الثلاثة صالحة لأن يبعث إليهم رسول خاص. وعلى ذلك فله أن يصرّح حسب مقتضيات المقام بأحد الأغراض التي أُرسل لأجلها ويسكت عن الآخرين بلا استنكار.

ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : « بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي، فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي، فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي، فإلي وحدي » [1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام :

« إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى:: التوحيد والاخلاص وخلع الانداد والفطرة الحنيفية السمحة ولا رهبانية ولا سياحة إلى أن قال: ونصره بالرعب وجعل له الأرض مسجداً وطهوراً وأرسله كافة إلى الأبيض والأسود والجن والانس » [2].

ونظير ذلك لو بعثت انساناً لينجز لك أُموراً مختلفة، وكان كلّ واحد منها صالحاً لأن يبعث لانجازه شخص خاص، فعند ذلك يصح لك أن تقول: بعثته ليعمل كذا وتذكر أحد الأُمور التي بعث لأجلها وتسكت عن ذكر الباقي كما يصح للمبعوث أن يقول: بعثت لأفعل كذا ويذكر أحد الأهداف التي بعث لتحقيقها من دون أن يذكر الأمرين الآخرين وهكذا ...

على أنّ الآية التي استدل بها القائل على ضيق نطاق رسالته، مكية، وردت في سورتي الأنعام والشورى المكيتين، ولم تكن الظروف في مكة تبيح له الاجهار غالباً بنفس رسالته، فضلاً عن الاجهار بعالميتها، فلا عتب عليه لو خص خطابه بجمع دون جمع. مع سعة نطاقها في نفس الأمر، إذا اقتضت المصلحة ذلك لأنّ المرمى الأهم في هذه البيئة، الاجهار بنفس الرسالة لا كمّها ولا كيفها وإن كان يصلح أن يصرّح في بعض

---

(1) الطبقات الكبرى ج 1 ص 192.

(2) الكافي ج 2 ص 17 وسيوافيك بعض الروايات عند البحث عن « الخاتمية في الأحاديث ».

الأوقات بعالمية رسالته إذا كان الظرف في مكّة صالحاً. كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (القلم ـ 52) والآية مكية بلا كلام. وكما في قوله: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام ـــ 19) والسورة مكية، وإن شئت قلت: انّ الظروف في مكّة كانت مختلفة متلوّنة، ولم تكن حياة الرسول رخاءاً وشدة على نسق واحد، فتارة كانت بيئة مكة قاسية عنيفة لا تسمح بالجهر بنفس رسالته، فضلاً عن المصارحة بكيفها وكمّها، والمسلمون من جانب ــ اضطهاد قريش لهم ـــ كانوا يعيشون في حالة عصيبة وأُخرى كانت الأزمة قليلة مخففة بحلول أشهر الحج أو طروء حوادث تمنع العصابة المشركة المجرمة وتكفّهم عن إيذاء المسلمين.

وعند ذاك كان يفسح المجال أمام النبي وأصحابه بأن يبلغوا الدعوة وفق الظروف وحسب المقتضيات شدة وضعفاً، فنراه في مواقفه بمكة يصرّح بجانب من جوانب الدعوة على صعيد خاص كقوله: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم ... وأُخرى ينادي بعموم دعوته مما يستفاد من أنّه بعث إلى الناس كافة ولأجل ذلك نواجه في سورة واحدة لونين من طريقة الدعوة، فنرى أنّها في صدرها تأخذ بجميع جوانب دعوته وتصرّح بعموم دعوته وعالمية رسالته، وأنّه ﷺ أُمر من جانبه سبحانه أن ينذر بقرآنه قريشاً وكلّ من بلغه كتابه وانذاره حيث قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ وفي الوقت نفسه نرى في خلال السورة، لوناً خاصاً من الدعوة حيث تخصّها بمن في أُمّ القرى ومن حولها ويقول: ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ فيعلم من ذلك أنّه ﷺ كان يوجّه دعوته حسب ما تقتضيه المصلحة تبعاً للأحوال المختلفة وتبدل الظروف الزمانية والمكانية من دون توهّم تناقض في طريق الدعوة ولونها.

جواب آخر عن الشبهة :

جاء بعض المعاصرين من الأجلاّء، في تعاليقه القيّمة على كتاب « الابطال » بجواب آخر [1] مبني على أمرين :

---

(1) ترى اجمال هذا الجواب في مجمع البيان ج 3، ص 334، و ج 5، ص 22 والمفردات للراغب مادة « أم ».

الأوّل: انّ المراد من « القرى » في قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ما يعم المدن الواسعة، وقد أطلق لفظ القرية في القرآن على المدينة أيضاً كقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (يوسف ـ 82) والقرية التي اقترح أبناء يعقوب على أبيهم أن يسألها، هي مدينة « مصر » وقد كانت يوم ذاك مدينة كبيرة، ذات أبواب متفرّقة، لقوله سبحانه: ﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (يوسف ـ 67).

الثاني: قد استفاضت الروايات من مهبط الوحي والتنزيل على أنّ الله سبحانه دحى الأرض يوم دحاها، من تحت مكة، والمراد من الدحو من تحتها أنّ أرض مكة هي أوّل قطعة من الأرض اخرجت من الماء، بعد ما كانت الأرض بعامة أجزائها مغمورة بالماء، ثمّ برز سائر اجزائها، عن تحت الماء تدريجاً، وبذلك صارت مكة أُمّاً لسائر البلاد، وأصلاً لسائر القرى ومركزاً تكوينياً للأرض.

قال: إذا كان إطلاق أُمّ القرى على مكة بهذه المناسبة، فيصير المراد من « أُمّ القرى »، أي أُمّ البلاد الموجودة في العالم ومركزها التكويني كما يصير المراد من ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ عامة من يعيش في نواحي الأرض وسائر أقطارها كلّها وإليه ذهب حبر الأُمّة عبد الله بن عباس، وفسّره الإمام الطبرسي بقوله: « من سائر الناس وقرى الأرض كلّها » [1] فتصير الآية من الأدلّة الدالّة على عالمية رسالته.

وفي هذا الجواب مجال للنظر والبحث :

أمّا أوّلاً: فلأنّ أُمّ القرى ليست علماً لمكّة، بل كلّياً أُطلق عليها في هذه الآية بما أنّها إحدى مصاديقه، كيف وقد قال سبحانه مبيّناً لسنّته في الأُمم الماضية جميعاً: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ (القصص ـــ 59) أي حتى يبعث في أُمّ تلك القرى رسولاً يبلّغ رسالات الله عليهم. وهذه سنّة الله تعالى في ابادة الأُمم الطاغية مطلقاً، غير مختصة بالأُمّة العائشة بمكّة ومن حولها.

---

(1) مجمع البيان ج 5 ص 22.

وهذا إمام اللغة ابن فارس، يقول في مقاييسه: « أُمّ القرى، مكّة، وكلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى ».

قال ابن فندق في تاريخه: إذا تركّزت أُمور منطقة خاصة في محل، يقال له باعتبار القرى والقصبات التابعة له، أُمّ القرى، ثم أتى بأمثلة وقال: فصنعاء أُمّ القرى في اليمن، « وبغداد » أُمّ القرى في العراق، بعد ما كانت « البصرة » يوماً أُمّ القرى ومرو أُمّ القرى في خراسان وهكذا ... [1].

فهذا التركيب (أُمّ القُرى ومن حولها) ليس من مصطلحات القرآن واختصاصاته بل كان دارجاً في عصر الرسالة وقبله وبعده، وقد نزل القرآن بلسان النبي الذي هو لسان قومه وليس له في هذا التركيب اصطلاح خاص، بل هو والعرف في ذلك سواسية، فلا يصلح أن يحمل على غير ما هو المتفاهم عندهم. فإذا قيل: ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وقامت القرينة على أنّ المراد من أُمّ القرى مكة، فلا يراد منه وممّا عطف عليه إلّا ما يراد في نظائرها، فإذا قيل: هذا إمام البصرة أو سائسها ومن حولها، فلا يراد إلّا نفوذ حكمه في نفس البصرة والمناطق التابعة لها، حكماً وسياسة واقتصاداً، أو غيرها من وشائج الارتباط ودوافع التبعية، لا أنّه إمام الأرض شرقاً وغرباً، وهكذا إذا قيل: بعث نبي الإسلام لينذر مكّة ومن حولها، لا يراد منه إلّا أنّه بعث لينذر من يعيش في مكة والمناطق التابعة لها عرفاً، سياسة وحكماً أو اقتصاداً وتجارة، أو غيرها من القرى القريبة المتاخمة لها، القائمة عند حدودها والمناطق التابعة لها في العلاقات الاجتماعية لا أنّه بعث لينذر أهل العالم كلّه، فإنّ إرادة هذا المعنى من هذا التركيب غير معهود، لو لم يكن مستهجناً.

وأمّا ثانياً: فلأنّ ما ذكره من حديث دحو الأرض إلى آخره، صحيح، غير أنّ إطلاق أُمّ القرى على مكة بهذه المناسبة التكوينية يحتاج إلى دليل، ودون اثباته خرط القتاد، والعرب الجاهليون كانوا يطلقون أُمّ القرى، على مكّة، من غير أن يكون لهم علم

---

(1) تاريخ بيهق ج ص 22 بتعريب منّا.

ولا عهد بهذه المعارف، وليس إطلاقها عليها من خصـــائص القرآن، بل هو يتبع في ذلك لما هو الدارج، والحق في الجواب ما أوضحناه.

4. كلّ نبي مبعوث بلسان قومه

جرت سـنّة الله على بعث رسـله بلسـان قومهم، وهذا هو الأصـل لو كان الرسـول مبعوثاً إلى خصوص إنقاذ قومه.

أمّا إذا كان مبعوثاً إلى أُمّة أوسـع من قومه، وكان كلّ قوم يتكلّمون بلسـانهم الخاص فعند ذلك لا حاجة إلى نزول كتابه بجميع الألسـنة، لأنّ الترجمة تنوب عن ذلك مع ما في نزوله بلســانين أو أزيد من التطويل، وامكان تطرّق التحريف والتبديل والتنازع والاختلاف. فبقي أن ينزل بلســان واحد. وأولى الألسنة لسان قوم النبي ولغتهم لأنّهم أقرب إليه، ولا معنى لرفض هدايتهم والتوجّه إلى غيرهم.

على أنّ إيمان قومه به، وخضــوعهم له، ربّما يثير رغبة الآخرين بالإيمان به كما أنّ إعراض قومه جيمعاً عن دعوته ورغبتهم عنه، تثير روح الشك والترديد في قلوب البعداء عنه، قائلين بأنّه لو كان في دعوته خير لما أعرض عنه قومه.

على أنّ في إرسـال رسـول الله ﷺ بلسـان قومه نكتة أُخرى وهو أنّ قومه ﷺ كانوا يملكون نفسيّة خاصة وهو عدم رضوخهم واستجابتهم بسهولة لعادات غيرهم وألسنتهم.

فلو أنزل الله سـبحانه كتابه إليهم بغير لسـانهم لما آمنوا به كما قال سـبحانه: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشـعراء: 198 ـــ 199) فلأجل ذلك بعثه الله سبحانه بلسان قومه حتى يسد باب العذيرة عليهم.

ولأجل هذه المهمة الاجتماعية يجب على الرسول صرف همّته أوّلاً في هداية قومه وانقاذهم حتى يتسنّى له هداية الآخرين، وهذه سنّة متبعة في الأُمور العادية، فضلاً عن المبادئ العامّة.

وإلى ذلك تهدف الآية التالية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم ـ 4) ومفاد الآية أنّه سبحانه لم يجر في بعث رسله مجرى الاعجاز وخرق العادة، ولا فوّض إلى رسله من الهداية والضلال شيئاً، بل أرسلهم بلسانهم العادي الذي يتحاورون به كل يوم مع أقوامهم ليبيّنوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلّا بيان ما أُمروا به وأمّا الغاية من بعثهم، أعني الاهتداء فهو بيد الله سبحانه، لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره.

وعلى ذلك فليست في الآية دلالة ولا إشعار بلزوم اتحاد لغة الرسول مع لغة من أُرسل إليهم، حتى يلزم منهم اختصاص دعوته ﷺ بقومه. إذ الآية تصرّح بلزوم موافقة لغة الرسول مع لسان قومه، لا اتّحاد لغته مع لسان كل من أُرسل إليهم، كما هو أساس الشبهة، ومن الممكن المتحقق أن يكون المرسل إليه أوسع من قومه كما هو الحال في ثلّة جليلة من الرسل، فقد دعا إبراهيم عرب الحجاز إلى الحج، والوفود إلى زيارة بيته، وأمر سبحانه كليمه بدعوة فرعون إلى الإيمان به، ودعا نبيّنا أُمّتي اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالته، فآمن منهم من آمن. وبقي منهم من بقي.

مغالطة أُخرى حول الآية

نرى بعض من فسّر الآية بأنّ مفادها: « أنّ كلّ رسول من الله يوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم »، جاء بمغالطة شوهاء في مفاد الآية، وقال: إذا كان معنى الآية ما ذكر فهو ينعكس بعكس النقيض إلى قولنا، من لا يوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم ليس رسولاً منه سبحانه. فلو فرضنا أنّ نبيّنا ﷺ كان مبعوثاً إلى العالمين كلّهم مع اختلافهم في اللسان، يلزم منه كونه غير مبعوث من الله سبحانه أصلاً.

وعلى الجملة: تنتج عالمية رسالته، وسعة نطاق دينه، كونه غير مرسل من جانبه عزّ وجلّ.

ومنشأ هذه المغالطة ما تخيّله المغالط من مفاد الآية، إذ ليس مفادها ما تصوّره من

أنّ كلّ رسول يوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم حتى يصح ما بني عليه، بل مفاده: أنّ كلّ رسول يوافق لسانه لسان قومه، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون مبعوثاً إلى أزيد من قومه [1] أو إلى قومه فقط.

نعم تنعكس الآية إلى قولنا: من لا يوافق لسانه، لسان قومه ليس رسولاً من الله سبحانه، وهو صحيح، وأمّا نبي الإسلام فالمفروض أنّ لسان كتابه ولغة دعوته موافقة مع لسان قومه.

وعلى أي تقدير فالمراد من القوم هم الذين عاش فيهم الرسول وخالطهم ولا يختص بالذين هو منهم نسباً، والشاهد على ذلك أنّه سبحانه صرّح بمهاجرة لوط من « كلدة » وهم سريانيو اللسان، إلى المؤتفكات وأهلها عبرانيون، وفي الوقت نفسه سمّاهم قومه، وأرسله إليهم، ثم أنجاه وأهله إلّا امرأته [2].

---

(1) هذا أحد الاحتمالات في أُولي العزم، أعني من أُرسل إلى أزيد من أُمّة، راجع الميزان ج 12 ص 13 وسوف نحقق معنى هذه الكلمة على ضوء ما ورد في الذكر الحكيم في فصول هذا الكتاب.

(2) الميزان ج 12 ص 13.

هل كانت

نبوّة نوح والكليم والمسيح

عالمية ؟

قد اتضح من هذا البحث الضافي أنّ رسالة النبي الأكرم ﷺ رسالة عالمية، فهو مبعوث إلى شرق الأرض وغربها.

غير أنّه اكمالاً للبحث نبحث عن نبوّة ورسالة الأنبياء الثلاثة، فهل كانت نبواتهم ورسالاتهم عالمية أم كانت تقتصر على أقوامهم، أو المناطق التي ظهروا فيها ؟

ونبحث في المقام عما يفيده القرآن في هذا الموضوع مع غض النظر عمّا يوجد في التوراة والانجيل وما يدعيه علما ء اليهود والنصارى لأنّ البحث في المقام قرآني ينظر إلى الموضوع من زاوية خاصة، فيقع الكلام في مقامات :

الأوّل: في عمومية نبوّة نوح وعدمها.

الثاني: في عمومية نبوّة الكليم وعدمها.

الثالث: في عمومية نبوّة المسيح وعدمها.

ويتضح ممّا ذكرنا حال رسالة الخليل عليه السلام أيضاً.

وليكن القارئ الكريم على ذكر من نكتة، وهي أنّ ما سنذكره من الآيات ونستدل بها لا يعدو عن كونها اشعارات واستظهارات ولا يمكن أن يستدل بكلّ واحدة منها على المقصود، نعم يمكن اعتبار مجموعها دليلاً مفيداً للاطمئنان.

على أنّ تلك الاشعارات إنّما تتم إذا لم يكن هناك دليل صريح على خلافها وإلّا فتكون النسبة بين تلك الاشعارات وما يدل على خلافها من قبيل نسبة الأصل إلى الدليل الاجتهادي الحاكم بالاشتغال.

فيرتفع الأصل بموضوعه عند وجود الدليل الاجتهادي.

هل رسالة نوح كانت مختصّة بقومه ؟

يمكن استظهار الاختصاص من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (نوح ـــ 1)، فهو يشعر باختصاص رسالته بقومه [1].

وأمّا صيرورة رسالته بعد الطوفان عالمية، لانحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس، فإنّما هو لأمر عارض لا يضر بخصوصية رسالته.

أضف إلى ذلك أنّ قدر المسلم هو أنّ الطوفان لم يكن عالمياً بل خاصاً بمنطقة من الأرض التي كان يعيش فيها قومه، ويؤيد ذلك أنّه لا وجه لتعذيب غيرهم واهلاكهم بتكذيب قومه خاصة.

فانّ الظاهر من القرآن هو أنّ التعذيب كان لتكذيب قومه، قال سبحانه: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلّا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (هود: 36 ـــ 37) أضف إلى ذلك أنّ عمومية الرسالة تتطلب وجود امكانيات تمكن الرسول من إيصال نداء رسالته وصوت دعوته إلى جميع أنحاء العالم، وذلك لم يكن متوفراً في عهد نوح، كما سيوافيك بيانه مفصّلاً.

تحقيق وتنقيب :

إنّ العلّامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) قد طرح مسألة عمومية نبوّة نوح

---

(1) لاحظ الآيات 25 ـ 48 من سورة هود، ترى فيها اشعارات كثيرة باختصاص رسالته بقومه.

عليه السلام في الجزء العاشر من تفسيره القيّم « الميزان » فقال :

المعروف عند الشيعة عموم رسالته عليه السلام وأمّا أهل السنّة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظاهر الآيات الناطقة لشمول الطوفان لأهل الأرض كلّهم كقوله سبحانه: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح ـ 26)، وقوله تعالى: ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلّا مَن رَّحِمَ ﴾ (هود ـ 43) وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ (الصافات ـ 77).

وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة: أنّ نوحاً أوّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولازم ذلك كونه مبعوثاً إليهم كافة.

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن النبي: « وكان كلّ نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ».

وأجابوا عن الآيات بأنّها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كان يسكنها نوح وقومه، وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ﴾ (يونس ـ 78).

فمعنى الآية الأُولى: لا تذر على هذه الأرض من كافري قومي ديّاراً، وكذا المراد بالثانية: « لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله » وكذا المراد بالثالثة: « وجعلنا ذريته هم الباقين » من قومه.

ثمّ انّه ـ قدّس الله سرّه ـ أفاد أنّه لم يستوفوا حقّ الكلام في هذا البحث ... ثمّ اختار هو عموميّة نبوّته ورسالته بتقديم مقدّمة حاصلها :

أنّ الواجب في عناية الله أن يهدي الانسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه، ولا يكفي في هدايته ما جهز به الإنسان من العقل البشري، بل لابد من طريق آخر لهدايته وسوقه إلى قمة الكمال وهو تعليم الإنسان شريعة الحق، ومنهج الكمال والسعادة، وهو طريق الوحي، وهو نوع تكليم إلهي يعلم الانسان ما يفوز بالعمل به، والاعتقاد به في حياته الدنيوية والاخروية فطريق النبوّة ممّا لا

مناص منه في تربية النوع البشري بالنظر إلى العناية الإلهية.

وإن شئت قلت: الواجب في عناية الله تزويد المجتمع الانساني بشريعة يأخذ بها في حياته الاجتماعية دون أن يخص بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية له بهم، ولازمه أن يكون أوّل شريعة نزلت على البشر شريعة عامّة، وقد أخبر الله سبحانه أنّ شريعة نوح هي أوّل شريعة نزلت على المجتمع البشري قال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى. 13)، ومقام الامتنان يقتضي بأنّ الشرائع الإلهية المنزلة على البشر عبارة عمّا جاء ذكرها في هذه الآية، وأوّل ما نزلت من الشرائع هي شريعة نوح، ولو لم تكن عامة للبشر، بل كانت خاصة بقومه لكان هناك أمّا نبي آخر، وشريعة أُخرى لغير قوم نوح والحال أنّه لم يذكر في هذه الآية ولا في موضع آخر من كلامه سبحانه.

وأمّا اهمال سائر الناس غير قومه في زمنه وبعده إلى حين [1].

ملاحظات في كلام العلّامة الطباطبائي

وفيما ذكره ﷺ ملاحظات نلفت نظر القارئ الكريم إليها :

أمّا أوّلاً: فإنّ ما ذكره من أنّه يجب في عناية الله تكميل الأنواع وأنّ الشريعة الإلهية تكمل النوع الانساني، وأنّ التشريع تكميل للتكوين ممّا لا كلام فيه، غير أنّ الكلام هو في قابلية سائر العناصر البشرية الأُخرى المعاصرة لنوح، الساكنة في مناطق أُخرى لتلقي الشريعة وأخذها والعمل بها، فإنّه من المحتمل أن لا تكون تلك العناصر والأفراد لبداوتها وبساطة شعورها وحياتها أهلاً لارسال الشريعة إليهم وعدم بلوغهم بعد إلى حد يستأهلون معه للتعليم الإلهي، فإنّه من البديهي أنّ البلوغ الجسماني وحده لا يكفي في تلقي الشريعة والعمل بها، بل يجب أن يكون معه مقدرة فكرية واستعداد نفسي يؤهّله لاستقبال الشريعة، والدخول في مدرسة الوحي الإلهي. فمثل بعض المجتمعات قبل أن

---

(1) الميزان ج 10 ص 271 ـ 272.

تصل إلى هذه المرتبة مثل الطفل الناشئ لا يستأهل ولم يصبح صالحاً للدخول في المدرسة وتلقي التربية المدرسية.

وثانياً: فإنّ ما استفاده ﷺ من الآية بـ « أنّ شريعة نوح أوّل شريعة نزلت إلى البشر » اشعار كسائر الاشعارات فمن المحتمل أن تكون هناك شريعة أُخرى نزلت قبل نوح ولكن لم تذكر لعدم بلوغها إلى مرتبة الشرائع المذكورة في هذه الآية.

وأمّا ثالثاً: انّ من الممكن أن يكون هناك شريعة في عرض شريعة نوح تختص بقوم آخر لكنّه لم يذكرها القرآن، كيف لا وأنّ القرآن صرّح بأنّه لم يستوعب قصص جميع الأنبياء حيث قال: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر ـــ 78) وقال سبحانه: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء ـ 164).

وفي الختام أنّ ما ذكرناه حول دعوة نوح كمثل ما نذكره حول الكليم والمسيح مجرد نظرية منبعثة من التدبّر في آيات الذكر الحكيم فمن المحتمل أن لا تكون صائبة، والعصمة لله سبحانه ولرسوله والأئمّة الهداة.

ثم إنّه دام ظله رتب على مختاره في تعميم رسالة نوح أنّ الطوفان كان عاماً لجميع الأرض حيث قال: تبين الجواب عن السؤال: هل الطوفان كان عاماً لجميع الأرض فإنّ عموم دعوته يقضي بعموم العذاب.

ثمّ أيّده بما جاء في كلامه تعالى أنّه أمر نوحاً أن يحمل من كلّ زوجين اثنين ابقاء على الأنواع الحيوانية فلو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق ـ كما قيل ـ لم تكن هناك أية حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين [1].

وقد تبيّن ممّا ذكرناه من اختصاص دعوة نوح وعدم عموميتها عدم صحة ما اعتمدت عليه النظرية.

---

(1) الميزان ج 10 ص 272 ـ 273.

وأمّا ما استشهد به فيمكن أن يكون للحفاظ على الحيوانات في منطقته إذ كان من العسير انتقال الحيوانات التي تعيش في مناطق أُخرى إلى قومه، والله سبحانه هو العالم.

هل كانت نبوّة الكليم عالمية ؟

إنّ تنقيح الموضوع يتوقّف على البحث في مقامين :

الأوّل: في عموم دعوته إلى التوحيد.

الثاني: في عموم شريعته وشمول أحكامه.

ونعني من عموم دعوته في مسألة التوحيد أنّه كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل وغيرهم، في دعوتهم جميعاً إلى توحيده سبحانه وكسر كلّ صنم ووثن.

كما أنّه نعني من عموم شريعته شمول كلّ ما جاء به موسى في التوراة من الفروع والأحكام لبني إسرائيل وغيرهم [1] وعموم دعوته إلى التوحيد لا يلازم عموم شريعته، دون العكس [2] ولأجل ذلك جعلنا البحث في مقامين، فنقول :

المقام الأوّل: في عموم دعوته في أصل التوحيد ورفض الأوثان والأصنام كلّها.

الظاهر من الآيات الواردة حول دعوة الكليم، أنّه كان مبعوثاً إلى خصوص بني إسرائيل مثل قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (البقرة ـ 92).

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ (الصف ـ 5).

---

(1) وللفرق بين المقامين يعبّر عن الأوّل بعموم الدعوة والنبوّة وعن الثاني بعموم الشريعة والرسالة فلاحظ.

(2) لامكان انحصار دعوته بالنسبة إلى قوم في الأُصول ولا يمكن العكس إذ لا تصح الدعوة إلى الفروع منفكة عن الدعوة إلى الأُصول.

وهذه الآيات الكثيرة تشعر باختصاص دعوته بقوم موسى وإنّما قلنا « تشعر » لوضوح أنّ ارساله إلى قومه، لا يدل على عدم إرساله إلى غيرهم، فإنّ شعيباً كان مرسلاً من جانبه سبحانه إلى أهل مدين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف . 85).

وفي الوقت نفسه كان مبعوثاً إلى أصحاب الايكة كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء 176 . 177).

ولأجل ذلك قلنا انّ ما نستدل به لا يعدو عن كونه استظهارات واشعارات إذا توفرت تفيد الاطمئنان ولو كان هناك دليل صريح على عموم دعوته ونبوّته، لسقطت هذه الاستظهارات عن الاعتبار.

موقف دعوة الكليم من القبطيين

يمكن أن يقال: بأنّ دعوة موسى في مسألة التوحيد، كانت تعم بني إسرائيل والقبطيين.

وتستفاد عمومية دعوته إليهم أيضاً من بعض الآيات مثل قوله سبحانه: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلّا الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الاعراف . 105).

وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الأعراف . 134).

وقوله سبحانه: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ... فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ ﴾ (طه: 43 و 44 . 47).

وقوله سبحانه: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء: 16 ـ 17).

وقوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء ـ 27).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزخرف ـ 46).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ (المزمل 15 ـ 16).

وقوله سبحانه: ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الذاريات ـ 38).

وهذه الآيات وما يشابهها تفيد أنّ دعوته إلى عبادة الله والانخلاع عن عبادة الأوثان كانت تعم بني إسرائيل والقبطيين ولأجل ذلك ضرب مع رئيسهم فرعون موعداً لا يخلفه هو ولا ذاك، فاتفقا على أن يكون موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فلما ألقى موسى ما ألقى وتلقف ما صنعوا من الكيد والسحر، القي السحرة ساجدين قائلين بأنّهم آمنوا بربّ موسى وهارون [1].

هذا كلّه يفيد بوضوح شمول دعوته للقبطيين أيضاً وأنّه كان مأموراً من الله بدعوة فرعون وملائه إلى الايمان بالله سبحانه وترك عبادة البشر والاستعلاء على عباد الله واستضعافهم، ويؤيده أنّه لـمّا أدركه الغرق قال فرعون: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ (يونس ـــ 90) ولم يك ينفع إيمانه ذلك الوقت ولأجله خاطبه سبحانه بقوله: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ (يونس ـ 91).

ومع ذلك كلّه ففي النفس من شمول دعوته ـ حتى بهذا المعنى للقبطيين، شيء.

أمّا أوّلاً: فلأنّه يحتمل أنّه كان نبيّاً ورسولاً إلى أُمّة بني إسرائيل فقط ليخلصهم

---

(1) راجع سورة طه: الآيات 42 ـ 70.

وينجيهم من فرعون وأعوانه، غير أنّ انجائهم من أيديهم لـــــمّا كان متوقفاً على اثبات نبوّته وأنّه مأمور من جانب الله سبحانه، أخذ يحاور فرعون ويرضيه بانجاء بني اسرائيل، ولو كان إنجاؤهم غير موقوف على هذه المحاورات لما تحمّل هذه المشاق ويؤيده أنّه سبحانه بعدما قال :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ـ 4) عقبها بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص ـ 5).

وظاهره يفيد أنّ الغاية من بعث موســى إلى فرعون هو اطلاق ســراح المســتضــعفين من بني إسرائيل في الأرض.

وإن شـئت قلت: أنّ محاورته مع فرعون وقيامه ضـده وضـد ملائه وعرض بيّناته واحتجاجاته عليهم، كانت مقدمة لانقاذ بني إسرائيل وإرجاعهم إلى الأرض المقدسة ولو كان المطلوب حاصلاً بلا مشاجرة ونزاع معهم لما نهض بين يديه محتجاً بآياته وبيّناته ؟

وثانياً: انّه كلّما حاور مع فرعون واحتج عليه بأنّه رســـول ربّ العالمين عقب كلامه بقوله: فارسـل معي بني إسـرائيل حيث قال سـبحانه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الأعراف ــ 105) وقال سبحانه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ (طه ـ 47).

والظاهر من الآيتين أنّ الهدف الأقصى من بعث موسى هو انقاذ بني إسرائيل غير أنّه لما كان متوقّفاً على المحاورة مع فرعون واثبات أنّه رســول من الله ســبحانه كلمه بأنّي رســول ربّك ويقرب ذلك أنّه سـبحانه لما آخذ آل فرعون بالسـنين ونقص من الثمرات وأوقع عليهم الرجز جعلوا جزاء موسى ــ إذا استجيبت دعوته ــ أنّهم يؤمنون به ويرسلون معه بني إسرائيل كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الاعراف . 134).

وعلى ذلك فالمراد من إيمانهم بموسى، إيمانهم بأنّه مبعوث من الله سبحانه لهداية بني إسرائيل وانقاذهم من العذاب، لا إيمانهم بأنّه نبي بعث إلى القبطيين وبني إسرائيل جميعاً كما هو المدّعى.

ولقائل أن يقول: إنّه إذا لم يكن مبعوثاً إلى فرعون وملائه فلماذا أمر الله سبحانه موسى وأخاه هارون بقوله: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه ـــ 44) وقوله: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (النازعات: 17 . 19).

وتمكن الاجابة عنه بأنّ الذهاب إليه وتذكيره وتحذيره لأجل أن يعلم فرعون بأنّ موسى مبعوث من جانبه سبحانه لإنقاذ قومه حتى يرسل معه بني اسرائيل، كما يفيده ذيل الآيات: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾، لاحظ سورة طه الآيات 43 . 47، خصوصاً بالنظر إلى ما فرع على قوله: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾، قوله: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

ويؤيد ذلك أيضاً أنّه لـمّا لم ينجح النبي موسى في انقاذ قومه من سلطان فرعون وعساكره، أراد سبحانه أن ينجيهم بأسباب غير عادية كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴾ (طه . 77).

وقوله: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ (الأعراف . 138).

وقوله سبحانه: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ (يونس . 90).

وقوله سبحانه: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ

جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (الدخان23 . 24).

وذلك يدلّ على أنّ الغاية من الرسالة هو انقاذ بني إسرائيل فقط لا ارشاد فرعون وملائه.

ثالثاً: انّ قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ [1] رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (يونس 74 . 75).

يفيد أنّ رسالة الأنبياء الذين تتراوح دعوتهم بين نوح وموسى بشهادة قوله: ﴿ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ (أي نوح) رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كانت مختصة بقومهم حتى إبراهيم كما أنّ دعوة موسى كانت مختصة بقومه لا تعدوهم إلى فرعون أيضاً وملائه وعلى ذلك تصير دعوة كلّ من نوح وإبراهيم وموسى غير عالمية لا تتعدى دعوة موسى بني إسرائيل أو القبطيين.

موقف دعوة الكليم من غير القبطيين

الظاهر أنّه لم تكن دعوته شاملة لغيرهم لو فرضنا شمولها لهم ويشعر بذلك أنّهم لما نجّاهم سبحانه من فرعون وجاوز بهم البحر فرأوا في ذلك الجانب، من ضفة البحر قوماً يعكفون على أصنام فطلب منه قومه أن يجعل لهم الهاً كما لهم آلهة فرد عليهم موسى بأنّكم قوم تجهلون [2] ولم يتعرض موسى لعبدة الأصنام [3] لا بالنقد والرد ولا بالمنع ولم يكن خضوعهم للأصنام أقل ضرراً من عبادة قوم فرعون له وإنّما تعرض لعمل فرعون دون عمل هذه الجماعة لأجل أنّ انقاذ بني إسرائيل من مخالب فرعون وقومه كان متوقفاً على المحاورة معه والاحتجاج عليه بأنّه رسول ربّ العالمين، دون المقام، فانّ العاكفين

---

(1) والضمير في قوله « من بعده » يرجع إلى نوح.

(2) راجع الآية 138 من سورة الأعراف.

(3) بحكم سكوت القرآن عن ذلك وإن كان السكوت لا يكون دليلاً على عدم التعرض لكنه مشعر بذلك.

على الأصنام في ضفة البحر لم يكونوا مزاحمين لموسى وقومه ولذلك تركهم وشأنهم، ولم ينكر عليهم بحكم سكوت القرآن وعدم اظهار أي ردة فعل بالنسبة إليهم. وهذا يؤيد ما استظهرناه من عدم عمومية دعوته للقبطيين أيضاً.

نعم ما نذكره من السكوت اشعار بالمدّعى لا أنّه دليل قطعي.

ويؤيد خصوصية الدعوة أنّه لم يعهد منه بعد انجاء قومه من فرعون، أنّه دعا أقواماً آخرين، بل لما عبر موسى بهم البحر وهلك فرعون، أمرهم الله بدخول الأرض المقدسة، فلمّا نزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول فيها كما حكى الله سبحانه عن موسى قائلاً: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (المائدة: 21 . 22).

فأوحى الله إليه أنّهم يتيهون في الأرض أربعين سنة فبقوا في التيه أربعين سنة وكان ينزل عليهم المن والسلوى ومات النقباء غير يوشع بن نون ومات أكثرهم ونشأ ذراريهم وتوفّي موسى وهارون في التيه، توفّي هارون قبل موسى بسنة وقد فتحها يوشع بعد موت موسى، وقيل فتحها موسى وكان يوشع في مقدمته [1].

ولم يرد في القرآن شيء يستشم منه أنّه دعا الأُمم الأُخرى طول حياته في التيه، بل كان يعاشر قومه فقط ويرشدهم حسب استعدادهم وامكاناتهم.

أضف إلى ذلك فقدان الامكانيات وضعف المواصلات في تلكم الأيام، فتشريع نبوّة عامة تشمل العالم أجمع مع فقدان الامكانيات اللازمة وقلّة الترابط بين الأُمم أمر غير مفيد.

مضافاً إلى أنّ تشريع النبوّة على صعيد عالمي فرع التهيّؤ في روح المجتمع الانساني لقبولها، فانّ الناس كانوا عصابات وأقواماً متنافرة يتعصّب كل منهم تجاه الآخر

---

(1) مجمع البيان: ج 2 ص 179.

ولا ينزل واحد منهم على حكم الآخر ولا لنبي من قوم آخر، فالطريق الأصلح لهذا هو بعث الأنبياء في داخل الأمم كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل ـ 36) [1].

أضف إلى ذلك أنّ الأُمم اليهودية يخصون نبوّة موسى بأنفسهم ولذا لا ترى منهم التبليغ والتبشير في مجتمعات العالم [2].

ومع هذه الوجوه كيف يمكن القول بعمومية دعوته وعالميتها في عصره إلى أن يبعث الله نبياً مثله.

وترشدك إلى ما ذكرناه، قصة موسى مع من آتاه الله الرحمة وعلّمه من لدنه علماً وقال سبحانه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف 65 ـ 66) [3].

ووصفه بما ورد في الآية من الأوصاف يدل على كونه ولياً من أوليائه بل نبياً مثله ـ ومع ذلك ـ كيف تكون نبوّة موسى عالمية مع عدم شمول نبوّتها لمصاحبه ولا لأُمّته إذا فرضنا للمصاحب أُمّة وليس من البعيد أن يكون ذلك المصاحب العائش في زمن موسى مثل لوط المعاصر لإبراهيم وكلّ مبعوث إلى أُمّة دون أُمّة، وتعاصر النبيين يكشف عن ضيق نطاق نبوّتهم وعدم شمول احدى النبوّتين، بما تشمله الأُخرى.

قال سبحانه: ﴿ولمّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ

---

(1) نعم ذابت هذه التعصّبات القومية في المجتمع الانساني إلى حد استعد مزاج الانسانية لبعث نبي عالمي وكمل استعدادهم لقبول النداء العالمي ولأجل ذلك لم يمض ربع قرن إلّا وقد ضرب الإسلام بجرانه في شرق الأرض وغربها.

(2) وإن كان قول اليهود وفعلهم ليسا بحجة فإنّهم خصّوا الله سبحانه بأنّه اله شعبهم فما ظنّك بهم في رسالة موسى عليه السلام.

(3) واحتمال أنّه كان من أُمّة موسى ولكن الله جعل عنده علماً خاصاً لم يؤته موسى فصار موسى مأموراً بالتعلّم منه، رجم بالغيب وموجب لزيادة الفرع على الأصل واعلمية بعض الأُمّة من نبيّها مع أنّ سياق الآيات لا يناسب ذلك الاحتمال.

الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت 31 . 32).

المقام الثاني في عموم شريعته [1] :

هل كانت الشريعة التي أتى بها موسى في الألواح التي يصفها الله سبحانه بقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف . 145).

مختصـــة بقومه أم تعم غيرهم ؟ ظاهر بعض الآيات، يفيد كون كتابه حجة على الناس كلهم حيث وصـــفه بكونه، هدى ونوراً للناس وقال: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَـــىٰ نُورًا وَهُدىً لِّلنَّاسِ ﴾ (الأنعام . 91).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأنبياء . 48).

فإذن هو ضياء وذكر للمتقين سواء أكانوا من بني إسرائيل أم غيرهم وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَـــمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَـــىٰ مُصَـــدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الاحقاف . 30).

فإنّ وزان الآية، وزان قوله ســبحانه: ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَـــمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْـــدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (الجن 1 . 2).

فإنّ وصـــف الجن للقرآن بأنّه نزل من بعد كتاب موســـى مع كون القرآن ومن جاء به مبعوثين إلى الانس والجن، يشـعر بكون كتاب موسـى مثله أيضـاً نزلا إلى كلّ من الفريقين، فكيف تجتمع خصوصية رسالته مع كون كتابه دليلاً وحجة على الكلّ ؟

---

(1) البحث عن عموم شـريعته، فرع ثبوت سـعة دعوته في مسـألة عبادة الله وخلع عبادة الأوثان وقد عرفت عدم ثبوتها، فالبحث عن عموم شريعته مبني على ثبوت عموم دعوته في جانب الأُصول.

ويمكن الاجابة عن الاستدلال بهذه الآيات أوّلاً: بأنّ كون الكتاب نوراً وهدى للناس، لا يفيد تعميم شريعة موسى وأحكامه لغير بني اسرائيل، إذ من الممكن أن يستفيد الغير مما ورد في ذلك الكتاب من عظات وحكم وإن لم يكن تابعاً لأحكام ذلك الكتاب. فنحن المسلمون، نستفيد في هذا اليوم مما في التوراة والانجيل من المواعظ ولسنا تابعين لشريعة من انزلا إليه.

فبذلك يظهر الجواب عن الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأنبياء ـ 48).

وثانياً: إنّ الظاهر من بعض الآيات اختصاص كتاب موسى بقومه مثل قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الإسراء ـــ 2) وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ (غافر ـ 53).

فلو كان كتابه حجة على الناس كلّهم لورثه الناس كلّهم دون بني إسرائيل وحدهم [1].

وقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة ـ 32).

وقد كتبه سبحانه عليهم في التوراة.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (الجاثية ـ 16).

وإن أردت أن تتوسع في البحث فلاحظ الآيات التالية فانّها تخص بني إسرائيل

---

(1) نعم يمكن أن يقال: انّ تخصيص بني إسرائيل بأنّهم الوارثون لكتاب موسى لأجل أنّ بني إسرائيل وأنبياءهم، هم القائمون بأمر الكتاب وحفظه دون سائر الناس، فلأجل ذلك خصهم بالميراث، وإن كانت الشريعة عامة.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر ـــ 32) فورّث الكتاب العباد المصطفون وإن كانت الشريعة عامة، على أنّه يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، هو الوعد الذي وعده الله لإبراهيم وموسى بأن يدخلهم الأرض التي كتبها الله لهم.

بأنّهم هم الذين أُوتوا الكتاب، فإنّ كونهم ممّن أُوتوا الكتاب وإن كان لا يعارض كون غيرهم كذلك، إلّا أنّ تكرار توصـــيفهم بأنّهم، هم الذين أُوتوا الكتاب يوجب ظهورها في نفيه عن غيرهم [1] مثل: قوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ (البقرة ـ 121).

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة ـ 144).

وقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ (الأنعام ـــ 20).

وقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص ـ 52).

وقوله ســبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (الأنعام ـ 114).

وقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (الرعد ـ 36).

وقوله سبحانه: ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (العنكبوت ـ 47).

وقوله سبحانه حكاية عن المشركين بأنّه نزل الكتاب على الطائفتين المسيحية واليهودية ولم ينزل علينا: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ (الأنعام 156 ـ 157).

فبهذه الآيات وما تقدمها يمكن تفسير ما تقدمها من الآيات المفيدة المشعرة بكون التوراة نازلة إلى الناس كلّهم بحمل ما دلّ على سعة التشريع، على الاستغراق

---

(1) اللّهمّ إلّا أن يحمل التأكيد بأنّهم هم الذين أُوتوا الكتاب على كون الكتاب نزل على بني إسـرائيل وليس معناه أنّه لا يجوز لغيرهم العمل به.

العرفي، دون العقلي، فيراد من قوله سبحانه: نوراً وهدى للناس، أو ضياء وذكراً للمتقين، الكتلة المتماسكة من بني اسرائيل.

نعم، يمكن أن يقال بعكس ذلك، فيقال: انّ تخصيص بني إسرائيل بالذكر لأجل أنّ التوراة كانت هدى لبني إسرائيل قبل أن تكون لغيرهم بشهادة بعث موسى فيهم وتولّده ونشوئه بينهم ولأجل ذلك خص الله ذلك القوم بالذكر وقال: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الإسراء . 2).

ولمّا مات وترك بينهم ذلك الكتاب الكريم، كانت تلك الطائفة أولى بميراث نبيّهم ولأجل ذلك قال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ (غافر . 53).

ولكن يؤيد الحمل الأول، أعني كون الاستغراق عرفياً لا عقلياً، قوله سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ ﴾ (المائدة . 45) وقد كتب الله لهم هذا الحكم في التوراة وتقييد الكتابة بلفظ (عليهم) يؤيد كون الكتاب نازلاً لهدايتهم خاصة.

ويؤيد الحمل الثاني قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ (المائدة . 44).

فظاهر الآية أنّ التوراة كانت محكمة بعد موسى عبر القرون يحكم بها النبيون فالآية تفيد سعة نطاق كتابه وشريعته.

ومع ذلك كلّه فالامعان في الآية لا يفيد إلّا كون الكتاب حجة لبني إسرائيل ومحكماً عليهم والأنبياء الذين كانوا يحكمون به كانوا من بني إسرائيل لا من غيرهم ولقد بعثوا لهدايتهم وذلك لأنّ الله يقول: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ (لا لغيرهم) الذي هو المطلوب.

هذا ما بلغ إليه فهمنا القاصر من التدبّر في آيات الذكر الحكيم ولما كانت في المقام أسئلة حول المختار عقدنا لها الفصل التالي.

أسئلة وأجوبة

السؤال الأوّل :

ربّما يستدل على كون دعوة نوح والخليل والكليم والمسيح عالمية بقوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى ـــ 13) ويستند في كيفية الاستدلال إلى ما أفاده العلّامة الطباطبائي حيث قال :

يستفاد من الآية أُمور :

أحدها: إنّ السياق بما أنّه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية، والآية التالية يعطي أنّ الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة ـ 48) لأنّ كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها.

الثاني: إنّ الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنّما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحقّ الجامعية المذكورة.

ولازم ذلك أوّلاً: أنْ لا شريعة قبل نوح عليه السلام بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الانساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية، وقد تقدّم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة ـ 213).

وثانياً: أنّ الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا.

الثالث: إنّ الأنبياء أصحاب الشرائع وأُولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورين في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب ـ 7) [1].

الجواب :

إنّ ما ذكره (رضوان الله عليه) وإن كان صحيحاً لكنّه لا يدل على عمومية نبوّة هؤلاء الأربعة ومنشأ الاشتباه (في الاستدلال بالآية وأضرابها على عمومية الدعوة) هو الخلط بين عمومية دعوتهم وتداول شريعتهم بعدهم، فقد جرت سنّة الله على بعث أنبياء غير صاحبي شريعة في المناطق التي بعث فيها نفس أصحاب الشرائع وهؤلاء المبعوثون كانوا يحملون النبوّة والوحي، ويتشرّفون بالبيّنات والمعجزات من دون أن تكون لهم شريعة مستقلة، بل كانوا تابعين لإحدى الشرائع الأربع المتقدمة أو المتعاصرة وناشرين لها، وكانت نبوّتهم مختصة بقومهم ومنطقتهم غير أنّ ظهور كل واحد منهم من منطقة من المناطق، كان دليلاً على انتهاء نبوّة النبي صاحب الشريعة عند بعث النبي اللاحق، بل كان دليلاً على عدم سعتها من بدء الأمر، كما إذا كان النبي المروّج معاصراً للنبي صاحب الشريعة مثل لوط بالنسبة لإبراهيم عليه السلام .

وهذا، هو القرآن يحكي عن أنبياء مروّجين معاصرين لصاحب الشريعة أو تالين له، آخذين بشريعته.

فقد بعث الله هوداً إلى عاد بشريعة مثل شريعة نوح التي كانت بسيطة غاية البساطة، كما بعث صالحاً إلى ثمود، بمثل ما بعث به هوداً.

وقد بعث الله لوطاً إلى قومه، دون أن تكون له شريعة بل كان يتبع شريعة إبراهيم وكانا يعيشان في عصر واحد، كما بعث شعيباً إلى أصحاب مدين والأيكة، فأهلك

---

(1) الميزان: ج 18 ص 28.

مدين بصيحة جبرئيل، والايكة بعذاب يوم الظلّة ولم تكن له شريعة مستقلة، بل كان يتّبع شريعة الخليل ويروّجها وينشرها.

وقد بعث الله يونس إلى مائة ألف أو يزيدون وكان يعمل بشريعة موسى، وهكذا حكم سائر الأنبياء المبعوثين في الآونة بعد الآونة، في ثنايا أزمنة أصحاب الشرائع.

فهؤلاء الأنبياء المروّجون لم يكونوا من علماء الأُمّة حتّى يكونوا مشمولين لدعوة أصحاب الشرائع، بل كانوا ذوي دعوة وارشاد، ووحي واعجاز، خارجين عن دعوة من تقدمهم، داعين إلى أنفسهم ونبوّتهم وإن كانوا آخذين بشريعته وكانت الأُمّة التي بعث هؤلاء إليهم مكلّفة بتلبية نداء هذا النبي الجديد، والاقتداء بهداه والاتباع لقوله وفعله وهذا دليل على انقطاع نبوّة النبي السالف ورسالته أو عدم سعته من أوّل الأمر كما إذا كانا متعاصرين مثل لوط وإبراهيم.

نعم، لم تكن هذه الجماعة كنفس أصحاب الشرائع أيضاً، أنبياء عالميين بعثوا لهداية من في الشرق والغرب، بل كانوا أنبياء محليين [1] مبعوثين إلى أقوامهم ومناطقهم المستعدة للبعث كنفس أصحاب الشرائع.

فثبت بذلك أنّ نبوّة مثل موسى كانت محدودة بأمرين :

الأوّل: انّ نبوّته كانت اقليمية لا عالمية.

الثاني: انّ نبوّته كانت منقطعة، ببعث نبي بعده، وإن لم يكن صاحب شريعة، بل مروّجاً وتابعاً لشريعته، وبقاء الشريعة، غير عمومية النبوّة.

نعم، النبوّة بمعنى الصفات الحاصلة للنبي مثل علمه، لا ترتفع بموته، لبقاء روحه المقدسة ونفسه الكريمة، والنبوّة بهذا المعنى لا ترتفع إلى الأبد، بل المراد ما تستتبعه هذه الصفات من كونه قائداً رسمياً من جانب الله سبحانه، يجب على الناس الانتماء والانتساب إليه، بحيث يعد الانسان من تابعيه واقعاً، وهذا المعنى أمر قابل

---

(1) سيوافيك توضيحه عند الاجابة عن السؤال الثاني.

للارتفاع بعد ظهور النبي اللاحق وإن كانت الشريعة باقية.

على أنّ الظاهر من بعض الآيات، تخصيص كلّ نبي لاحق وإن كان تابعاً لشريعة من قبله، بشيء من الحكم، لم يكن موجوداً في شريعة من قبله، فلم يكن وزانهم وزان العلماء بحيث لا يزيدون ولا ينقصون، بل كان لهم بعض الخصائص من الأحكام والتعاليم، كما يفيده قوله سبحانه :

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ـ 84).

فظهور الآية في استقلالهم بالنبوّة واختصاص كلّ واحد بشيء من الوحي، ممّا لا ينكر ؟

نعم كون شريعة نوح محدودة ببعث إبراهيم أو كون شريعة الأخير محدودة ببعث موسى: لا ينافي كون الأُمّة المحمدية مأمورة باتباع ملّة إبراهيم لا لأجل بقاء نبوّته أو شريعته بل لأجل وحدة الشريعتين في الجوهر والأُصول التي أهمّها التوحيد ورفض الأوثان والأصنام، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ـ 68).

وقوله: ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران ـ 95).

إلى غير ذلك ممّا ورد من الأمر بالاتباع لملّة إبراهيم، وهذا لا يدل على بقاء الشريعة، بل لما كان إبراهيم، هو البطل الوحيد في كسر شوكة الأصنام وتحطيم انوف المشركين وعبدة الأوثان وقد بعث النبي الأعظم محمد ﷺ بنفس ما بعث به إبراهيم، أمر سبحانه بالاتباع لملّته وطريقته قال: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج ـ 78).

ولأجل هذه الملاحظة، يقول يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (يوسف ـ 38).

وما هذا إلّا بقاء جوهر الدين في الشرائع السماوية كلّها فالأُمّة المسلمة كانت خليلية إلى أن صارت موسوية، فعيسوية فمحمدية على المعنى الذي عرفته.

السؤال الثاني :

لو كانت نبوّة موسى والمسيح اقليمية فماذا يعني الحديث التالي، وإلى ماذا يشير :

« إنّما سمّي أُولوا العزم، لأنّهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أنّ كل نبي كان بعد نوح، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه، إلى زمن إبراهيم الخليل وكلّ نبي كان في أيام إبراهيم الخليل وبعده، كان على شريعة إبراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى عليه السلام وكلّ نبي كان في زمن موسى وبعده، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن عيسى عليه السلام وكلّ نبي كان في أيام عيسى وبعده، كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، فهؤلاء الخمسة أُولوا العزم وهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده » [1].

الجواب المستفاد من الحديث أمران :

الأوّل: الحديث يدلّ بصراحة على وجود أنبياء في زمن هؤلاء الأربعة وهذا أقوى شاهد على عدم كون نبوّتهم عالمية، إذ لا وجه لبعث نبيين إلى أُمّة واحدة ولم يثبت الاشتراك في النبوّة إلّا في موسى لقوله سبحانه: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ (طه . 32).

وقوله سبحانه: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ (القصص . 34).

الثاني: إنّ الأنبياء المبعوثين في زمنهم أو بعدهم، كانوا متمسكين بشرائع هؤلاء الأربعة وكانت شريعتهم متداولة بينهم.

والثابت تداول شريعتهم في المناطق التي بعث فيها هؤلاء ولعلّ تداول شريعتهم بين الأُمم السالفة، من دون تبديل، صار سبباً لتوهّم كون نبوّتهم عالمية لا اقليمية. ولكنّه لم يثبت تداول شريعتهم بين أُمم الأرض جميعاً وإنّما القدر المتيقّن تداولها في

---

(1) بحار الأنوار: ج 15 ص 145، ورواه الكافي في باب الشرائع ج 2 ص 17 بأدنى اختلاف.

الشرق الأوسط وما ضاهاه لا أقطار الأرض جميعاً، نعم دلّت الآيات القرآنية على أنّه لم تخل أرض معمورة من نبي أو نذير قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر ـ 24).

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل ـ 36).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد ـ 7).

وهذه الآيات وما يشابهها تدل على شمول فيض النبوّة لأقطار الأرض وأممها وأنّه لم تخل أُمّة من تلك النعمة الإلهية ويؤيد ذلك ما عن أمير المؤمنين: اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته [1].

وعند ذلك يتوجّه السؤال التالي :

السؤال الثالث :

لو كانت نبوّة هؤلاء الأربعة اقليمية وشريعتهم متداولة في الشرق الأوسط، فمن الذي بعثه الله إلى هؤلاء الأُمم المبعثرة في أقطار الأرض وأرجائها ومن هم حجج الله وبيّناته بين ظهرانيهم ؟

الجواب: إنّ القرآن لم يقصص قصص الأنبياء عامة ولم يأت بأسمائهم جميعاً والمذكور منهم لا يتجاوز عن ستة وعشرين نفراً، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر ـ 78).

وقال سبحانه: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء ـ 164).

---

(1) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم 147.

ولم تحصل لنا الإحاطة بكل من بعثه الله إلى الأُمم، وقيّضهم لهداية الناس.

وقد روى الفريقان عن النبي أنّ عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وقد جاء في التواريخ والأدعية قسم كبير من أسماء الأنبياء لا نعرف عن أحوالهم إلّا شيئاً يسيراً فلعلّه كانت هناك جماعة كبيرة وعظيمة من الأنبياء مبعوثين إلى هداية الناس ودعوتهم إلى الله من دون أن نسمع لهم ذكراً أو نعرف لهم حالاً وقد سأل السائل صادق الأُمّة وإمامها وقال: فاخبرني عن المجوس أفبعث الله إليهم نبياً فانّي أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة وأمثالاً شافية يقرّون بالثواب والعقاب ولهم شرائع يعملون بها ؟

قال عليه السلام : ما من أُمّة إلّا خلا فيها نذير وقد بعث إليهم نبياً بكتاب من عند الله فأنكروه ومجدوا كتابه [1].

فلو كانت نبوّة المجوس بعد موسى وقبل المسيح لما أمكن أن تكون نبوّة موسى عالمية.

---

(1) الاحتجاج: ج 2 ص 91.

هل كانت

نبوّة المسيح عالمية ؟

بعد أن أســـفر وجه الحقيقة من ثنايا البحث وظهر أنّ الحق هو أنّ نبوّة موســـى كانت لقوم خاص، وإن كانت شـريعته متداولة بين المبعوثين من بعده من الذين بعثوا في الأقوام التي بعث فيها نفس الكليم فلنشرع في تحقيق حال نبوّة المسيح سعة وضيقاً فنقول :

ظاهر بعض الآيات يفيد أنّ رسـالته كانت لقوم خاص أيضـاً وأنّه كان مبعوثاً إلى بني إسـرائيل خاصـة قال سـبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْـرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (الصف ـ 6).

وقال سبحانه: ﴿ولـمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (الزخرف ـ 57) ﴿ إِنْ هُوَ إِلّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الزخرف ـ 59) ﴿ولـمّا جَاءَ عِيسَـــىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الزخرف ـ 63).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ ﴾ (المائدة ـــ 44) ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (المائدة ـ 46).

فانّ تقفية النبيين الذين كانت نبوّتهم لقوم خاص قطعاً بعيسى بن مريم وكونه مصدقاً للتوارة المختصة ببني إسرائيل تشعر بكون نبوّته مثلهم أيضاً، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ـ 72).

وقال سبحانه: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ (آل عمران ـ 49).

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة ـ 70) ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ـ 72).

ولا يخفى على القارئ ما فيها من الدلالة على كونه مبعوثاً إلى بني إسرائيل حيث جعل محور الكلام في الآيتين، المرسلين إلى بني إسرائيل وقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ﴾ ثم حكم بكفر من قال بأنّ الله هو المسيح بن مريم مشعراً بذلك بأنّ المسيح كان من المبعوثين إليهم وهم الذين ألبسوه لباس الالوهية وجعلوه إلهاً.

أضف إلى ذلك أنّ المسيح جعل محور الخطاب قوم بني إسرائيل وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ـ 72).

نعم ظاهر بعض الآيات يفيد عمومية نبوّته ودعوته كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران ـ 3 ـ 4) ويعالج الاختلاف بما عالجنا به ما ورد في حق الكليم والتوراة، بأنّ الاستغراق في قوله: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ عرفي لا عقلي ويراد من قومه: الكثيرون.

وقال العلّامة في شرح التجريد: ذهب قوم من النصارى إلى أنّ محمداً ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة [1].

---

(1) كشف المراد: ص 283 ط قم.

فهذا إقرار منهم على عدم عمومية رسالة المسيح.

وقال الطبرسي [1] في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم ... ﴾.

أي اذكر إذ قال عيسى بن مريم لقومه الذين بعث إليهم.

وقال العلّامة في تهذيبه عند البحث عن تعبّد النبي، قبل بعثته بدينه لا بدين من قبله من الرسل: الأقرب انّه عليه السلام قبل النبوّة لم يكن متعبّداً بشرع أحد وإلّا لاشتهر ولافتخر به أربابها ونمنع عموم دعوة من سبقه عليه السلام [2].

وقد عدّ العلّامة ذلك من خصائص بعثته إلى الناس كافة [3].

وها هنا سؤال: وهو أنّه إن كانت نبوّة المسيح مختصة ببني إسرائيل فلماذا جعل النبي نصارى العرب من أهل الذمة مثل يهود العرب وعامل النصارى واليهود معاملة واحدة مع أنّه ثبت أنّ الكليم كان مبعوثاً إلى خصوص بني إسرائيل ؟ والاجابة عن هذا السؤال سهلة: لأنّ من المحتمل جداً أنّ الرسول كان مأموراً بالحكم على كل متمسّك بالكتاب السماوي احتراماً للعنوان، لا لكون الكتاب نازلاً فيه كما هو الحال في اتباع المجوس، فعامل الرسول مع المتمسّكين بدين « زرادشت » معاملة المتمسّك بدين المجوس مع أنّ أهل الكتاب هو الثاني دون الأوّل.

ويؤيد كون رسالة المسيح عليه السلام لقوم خاص أُمور :

1. إنّ أجداد النبي وأُسرة البيت الهاشمي وجميع الأحناف في الجزيرة العربية، كانوا على دين إبراهيم ولم ينقل أحد من أهل السير تهوّدهم أو تنصّرهم.

قال الزرقاني: إنّ العرب من عهد إبراهيم كانوا على دينه ولم يكفر أحد منهم إلى

---

(1) مجمع البيان: ج 5 ص 279 طبع صيدا.

(2) تهذيب الأصول إلى علم الأصول: ص 56 الطبع الحجري.

(3) التذكرة: ج 2 اوائل كتاب النكاح والمطبوع منها غير مرقم.

أن جاء عمرو بن لحي فهو أوّل من عبد الأصـــنام وغيّر دين إبراهيم وكان قريباً من كنانة جد النبي [1].

2. يظهر مما أنشأه عبد المطّلب في قصة أصحاب الفيل أنّه وقومه كانوا متحرّزين من النصارى على وجه الاطلاق حيث أنّه بعد ما رجع من عند « قائد الجيش » « إبرهة » آيساً من إنصرافه عن هدم الكعبة، أخذ بحلقة الباب قائلاً :

لا يـغـلـبنّ صـــلـيـبـهـم ومحـا لهـــم عـــدواً محـــالـــك [2]

3. ما رواه الحافظ البخاري: عن النبي ﷺ أنّه قال: « أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي ... وأُعطيت الشـــفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » [3] وفي بعض ألفاظ الحديث: « وكان كلّ نبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى كل أحمر وأسود ».

وقال الشيخ منصور علي ناصف في كتابه القيّم « التاج الجامع للأُصول » روي عن جابر عن النبي قال: « أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من قبل، نصرت بالرعب مسيرت شهر وجعلت لي الأرض مسـجداً وطهوراً وأُعطيت الشـفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصـة وبعثت إلى الناس عامة »، رواه الخمسة إلّا أبا داود [4].

4. روى الكليني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : انّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجعلت له الأرض مسـجداً وطهوراً وأرسـله كافة إلى الأبيض والأسـود والجن والإنس [5].

فقد ظهر من هذا البحث الحديثي، أنّه لم تكن نبوّة الكليم والمسيح فضلاً عمّن كان قبلهم من إبراهيم ونوح تعم العالم كلّه، بل كانت دعوتهم اقليمية أو لقوم خاص

---

(1) سيرة ابن هشام: ج 1 ص 79.
(2) بحار الأنوار: ج 15 ص 145 نقلاً عن مناقب آل أبي طالب.
(3) صحيح البخاري في مختلف كتبه، التيمم الباب الأوّل، الغسل الباب 36 الصلاة الباب 54.
(4) يعني رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة راجع ج 1 ص 30.
(5) الكافي: ج 2 باب الشرائع ص 17 طبعة دار الكتب الإسلامية.

ليس غير وأمّا الدعوة العالمية فتختص بالنبي الخاتم كما أوضحناه [1].

فان قلت: إنّ آدم قد بعث إلى الناس كافة كما أنّ نوحاً كان مبعوثاً إلى أهل الأرض كافة بعد الطوفان لأنّه لم يبق معه إلّا من آمن به، وعليه فينتقض الحصـــر في الحديث المتفق عليه بين الفريقين.

قلت: الحديث منصـــرف عن بدء الخلقة وعن النبي الذي لم يكن على أديم الأرض إلّا نفســه وولده، أمّا نوح فقد تضافرت الآيات أنّه كان مبعوثاً إلى قومه كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (نوح . 1).

وأمّا صـيرورة رسـالته عالمية بعد الطوفان، لانحصـار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس، فإنّما هو لأمر عارض لا يضر بخصوصية رسالته.

أضـــف إلى ذلك أنّ القدر المســـلم هو أنّ الطوفان لم يكن عالمياً، بل كان خاصـــاً بمنطقة من الأرض التي كان يعيش فيها قومه ويؤيد ذلك أنّه إذا كان مبعوثاً إلى قومه خاصـــة لم يكن وجه لتعذيب غيرهم وإهلاكهم بتكذيب قومه إذا لم تصلهم دعوته كما هو الظاهر [2].

هيهنا سؤال :

إذا كانت نبوّة كلّ واحد من هؤلاء الأربعة اقليمية أو مختصـــة بقوم خاص، فما معنى « أُولوا العزم من الرسل » الذي وصف الله به عدة من الرسل ؟ فإنّ المشهور أنّ المقصود منهم من كانت رسالته عالمية موجهة إلى الناس كافة.

ولأجل الاجابة على هذا السؤال عقدنا البحث التالي.

---

(1) راجع صفحات 37 ـ 56 من هذا الكتاب.

(2) وقد وقفت على حقيقة الحال عند البحث عن حقيقة نبوّة نوح عليه السلام .

ما المراد بأُولي العزم

من الرسل

لقد وصف الله بعض رسله أو كلهم بكونهم [1] أُولي العزم من الرسل حيث قال: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الاحقاف . 35).

فأمر نبيّه بالصبر والوقوف في وجه العدو كوقوفهم في وجه معانديهم ومخالفيهم وعندئذ يجب أن نتعرف على ما هو المراد من توصيفهم به وقبل كل شيء نأتي بنصوص أهل اللغة في معنى العزم :

1. يظهر من ابن فارس في مقاييسه أنّ لهذا اللفظ معنى واحداً وهو القطع ضد الوصل وإليه يرجع معناه الآخر وهو العزم وكأنّه يقطع التحيّر والشك قال: « عزم » له أصل واحد صحيح يدل على الصريمة والقطع يقال: عزمت أعزم عزماً ـ إلى أن قال ـ قال الخليل: العزم ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله أي متيقّنه ويقال: ما لفلان عزيمة أي ما يعزم عليه كأنّه لا يمكنه أن يصرم الأمر بل يختلط فيه ويتردد ومن قولهم: عزمت على الجنى وذلك أن تقرأ عليه من عزائم القرآن وهي الآيات التي يرجى قطع الآفة عن المؤوف واعتزم السائر إذا سلك القصد قاطعاً له والرجل يعتزم الطريق: يمضي

---

(1) الترديد مبني على كون لفظة « من » تبعيضية أو بيانية وإن كان الظاهر هو الأوّل.

فيه لا ينثني.

وأُولوا العزم من الرســـل الذين قطعوا العلائق [1] بينهم وبين من لم يؤمن من الذين بعثوا إليهم كنوح عليه السلام إذ قال: ﴿ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وكمحمّد صلى الله عليه وآله إذ تبرّأ من الكافر وبرّأه الله تعالى منهم وأمره بقتالهم في براءة من الله ورسوله [2].

2. وفسّره الراغب بالقصد وعقد القلب، من غير إشارة إلى أصله الذي اخذ منه هذا المعنى وقال: العزم والعزيمة عقد القلب على امضاء الأمر قال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾، ﴿ وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾، ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ ﴾، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾، ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أي محافظة على ما أُمر به وعزيمة على القيام، والعزيمة تعويذ كأنّه تصوّر أنّك قد عقدت بها من الشيطان أن يمضي ارادته فيك وجمعها العزائم.

3. وفسّره الفيروز آبادي بقوله: عزم على الأمر أراد فعله وقطع عليه، أو جدّ في الأمر ـــ إلى أن قال ـــ: وأُولوا العزم من الرسل الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم، ونقل عن الزمخشري: أُولوا الجد والثبات والصبر.

والمحصّل من هذه النقول أنّ المعنى الأصيل لهذا اللفظ هو القطع ضد الوصل، ثم يستعمل لأجل المناسبة في عقد القلب والثبات والصبر.

أمّا القرآن فالظاهر أنّه لم يستعمل فيه إلّا بمعنى عقد القلب مثل قوله :

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ (محمد . 21).

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ (آل عمران . 159).

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ ﴾ (البقرة . 227).

﴿ وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ (البقرة . 235).

---

(1) هذا التفسير لم يعهد من المفسرين.

(2) المقاييس ج 4 ص 308.

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (آل عمران . 186).

أي أنّ الصـــبر والتقى من الأُمور التي بان رشـــدها ويجب أن يعزم وينعقد القلب عليها وعقد القلب عليها يستلزم الصبر ويتوقف على الثبات في معارك الحياة، فالصبر لازم العزم.

ومثله قوله ســبحانه: ﴿ وَاصْــبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَــابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (لقمان . 17).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (الشورى . 43).

والتدبر في الآيتين الأخيرتين يعطي أن العزم ليس مرادفاً للصبر والثبات وإن فسّره به الزمخشري في كشافه حيث قال في تفسيره: « أُولوا العزم أي أُولوا الجد والثبات والصبر » [1].

وذلك لأنّ اسم الإشارة في آية سورة لقمان امّا راجع إلى خصوص الصبر كما هو مقتضى الأقربية أو إلى كل ما أوصى به لقمان من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصابه وعلى أي تقدير لا يصح أن يفسّر العزم بالصبر والثبات إذ يصير معنى الآية حينئذ: أنّ الصبر وحده أو هو مع غيره من عزم الأُمور.

وبذلك يظهر الحال في آية سورة الشورى فلاحظ.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه ــ 115).

والمقصود لم نجد له عزماً حافظاً على عهده الذي عاهدناه.

نعم العزم على الشـــيء والمحافظة على عقد القلب في طول الحياة لا ينفك عن الثبات والجد والوقوف في وجه المشاكل.

هذا معنى العزم في القرآن وبذلك يظهر معنى العزم في الآية التي نحن بصدد

---

(1) الكشّاف: ج 3 ص 126.

رفع الستر عن وجهها أعني قوله سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾. فانّه بمعنى أصحاب العزائم والقصود المؤكدة التي لا تنفصم أصلاً وتدعو إلى العمل والسعي في سبيل الله سبحانه.

من هم أُولي العزم من الرسل ؟

يجد القارئ الكريم حول الآية وجوهاً ومعاني حملت على الآية والآية لا تحتملها ودونك تلك الوجوه :

الوجه الأوّل :

1. هم الذين بعثوا إلى شرق الأرض وغربها جنّها وانّسها [1].

هذا المعنى أحد الوجوه التي تفسّر بها الآية وعلى هذا يجب عدّ رسالة كلّ من قام الاجماع على كونه من الرسل أُولي العزم أو عدّ منهم في الأخبار الصحاح رسالة عالمية لا اقليمية وبما أنّ موسى والمسيح قامت الضرورة على كونهم من أُولي العزم يجب أن يكون رسالتهم عالمية حسب هذا القول.

وقد عرفت ضعف هذا القول في البحث الماضي وأنّ الآيات تفيد كون رسالة الكليم والمسيح مختصة بقومهما وبالمناطق التي بعثا فيها فضلاً عن كون رسالة نوح والخليل عليهما السلام عالمية.

وعلى ذلك فهذا الاحتمال في تفسير الآية لا يمكن الركون إليه فلنبحث عن المحتملات الأُخر حول الموضوع.

الوجه الثاني :

أن يراد من أُولي العزم كل الرسل ولم يبعث الله رسولاً إلّا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال وعقل وعلى هذا فلفظة « من » في قوله: ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ تبيين لا تبعيض كما يقال :

---

(1) حق اليقين لشبر: ص 111 ناقلاً عن كامل الزيارت.

كسيته من الخز، وكأنّه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بالعزم لأجل صبرهم وثباتهم [1].

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب . 7).

فإنّ اضافة الميثاق إلى النبيين دليل على أنّ الميثاق المأخوذ منهم بوصف كونهم من النبيين غير الميثاق المأخود منهم بوصف كونهم من بني آدم الذي يشير إلى ذلك الميثاق قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (الأعراف . 172).

فالآية الأُولى تدل على أخذ الميثاق من النبيين عامة وأخذ الميثاق وإن كان لا يدل على العزم الراسخ لكن سكوت القرآن عن نقضهم لهذا الميثاق وبما هم أنبياء معصومون من كل عصيان، يشعر أو يدل على قيامهم بالميثاق الغليظ الذي يتوقف على العزم الراسخ والإرادة القوية التي تستتبع الصبر والثبات.

وأمّا تخصيص الخمسة بالذكر فهو لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب لا لانحصار ذاك الوصف فيهم، كما يمكن أن يتوهم فقد خصّ الله سبحانه هؤلاء الخمسة بالذكر في مورد آخر وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى . 13).

وقد أشار سبحانه إلى أخذ الميثاق من الأنبياء جميعاً في قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾ (آل عمران . 81) [2].

---

(1) مجمع البيان: ج 5 ص 94.

(2) وقد بسّط الطبرسي الكلام في تفسير الآية فراجع ج 1 ص 468.

وهذه الآية تحتمل معنيين :

الأوّل: أنّه سبحانه أخذ الميثاق من النبيين ولم يذكر متعلّق الميثاق عندئذ وقوله: ﴿ لَمَا آتَيْتُكُم ﴾ ليس متعلّقاً لأخذ الميثاق منهم، لكون اللام مفتوحة توطئة للقسم وقوله لتؤمنن جواب له، وعند ذلك يحتمل أن يكون الميثاق المأخوذ منهم هو وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه وإليه تؤمى آية سورة الشورى أعني قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا ﴾ (الشورى . 13).

الثاني: انّه سبحانه أخذ الميثاق من الأُمم على أنبيائهم على تصديقهم والاقتداء بهم وعلى ذلك تخرج عمّا نحن بصدد البحث عنه والمعنى الأوّل أظهر.

الوجه الثالث :

أن يكون « من » للتبعيض ويراد من « أُولوا العزم » بعض الأنبياء، قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسحاق على الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى إذ قال له قومه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وداود يبكي على زلته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال: إنّها معبرة فاعبروها ولا تعمروها، وقال الله تعالى في آدم: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾، وفي يونس: ﴿ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [1].

وهذا القول أقرب الأقوال لولا أنّ فيه مسحة إسرائيلية حيث عد إسحاق ذبيحاً مع أنّ الذبيح هو إسماعيل ولكنّه لا يضر بأصل المعنى ويؤيده كما أُشير إليه نفي العزم عن آدم بعد ما عهد إليه ونسي ما عهد، والنسيان كناية عن الترك أُطلق السبب وأُريد المسبّب لأنّ الشيء إذا نسي ترك، والمراد من العهد هو النهي عن أكل الشجرة بمثل قوله: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (الأعراف . 19).

---

(1) مجمع البيان: ج 5 ص 194 . واحتمله الفخر راجع ج 7 ص 468.

وعلى ذلك فالعزم أمّا بمعنى القصد الجازم كما هو الحق أو الصبر والثبات ويؤيده ما رواه القمي في تفسير الآية حيث قال: وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، ومعنى أُولوا العزم: أنّهم سبقوا الأنبياء إلى الإقرار بالله وأقروا بكل نبي كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب لهم والأذى [1].

ولا يرد على هذه الرواية ما أوردناه على السابقة، نعم انحصاره في الخمسة المذكورة في الرواية يحتاج إلى دليل قاطع.

ومع ذلك فهذا القول أقرب الأقوال لكن بتصرف فيه وهو أنّ جعل « أُولوا العزم » من الرسل حيث قال: أُولوا العزم من الرسل يدل على أنّ عزمهم القوي كان في تبليغ رسالتهم ونشرها بين الناس، لا مجرد إبتلائهم بالشدائد والبلايا ولو في غير طريق نشر الدين، فابتلاء يعقوب ويوسف وأيوب وغيرهم لا يجعلهم داخلاً في « أُولوا العزم من الرسل » بما هم رسل ذووا رسالة من الله سبحانه إلى عباده.

ويؤيده أنّ الآية بصدد تحريض النبي على تحمل المشاق في طريق دعوته ورسالته، والقرآن يصف نوحاً وإبراهيم وموسى بكونهم ذوي عزائم قوية في سبيل الدعوة وتبليغ الدين ولعلّ ههنا من يصفه القرآن بهذا الوصف أو هو كذلك وإن لم يصفه القرآن ولكنّا غير واقفين عليه.

الوجه الرابع :

من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدمه وهم خمسة اوّلهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلى الله عليه وآله روي عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: وهم سادة النبيين وعليهم دارت رحى المرسلين[2].

---

(1) تفسير القمي: ج 2 ص 300.

(2) مجمع البيان: ج 5 ص 194.

غير أنّه لم يثبت نسخ كلّ شريعة لاحقة لما تقدمها.

فذا هو عيسى بن مريم يبيّن الغاية من بعثته بقوله: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ (الزخرف . 63).

فإنّ معنى ذلك أنّ المسيح جاء مبيّناً لا ناسخاً لما تقدمه من الشرائع.

الوجه الخامس :

هم الذين أُمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا في الدين. نقل عن السدي والكلبي [1].

وهذا لوجه ينطبق مع بعض المعاني المتقدمة خصوصاً الثالث.

الوجه السادس :

إنّ العزم بمعنى الوجوب والحتم وأُولوا العزم من الرسل هم الذين شرعوا التشريع وأوجبوا على الناس الأخذ بها والانقطاع عن غيرها وخصهم القائل بأربعة أعني نوحاً وهوداً وإبراهيم ومحمداً صلى الله عليه وآله [2].

وهذا المعنى مبني على كون العزم بمعنى الحكم والشريعة مقابل الرخصة وهو الذي يؤيده بعض الروايات المروية عن أهل البيت: وقد روي في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: « إنّما سمّي أُولوا العزم أُولي العزم لأنّهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أنّ كلّ نبي كان بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل » [3].

الوجه السابع :

المقصود هم الرسل الثمانية المذكورون في قوله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

---

(1) و (2) مجمع البيان: ج 5 ص 194.

(3) العيون: ج 12 الباب 32 ص 80 ونور الثقلين: ج 5 ص 22.

إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (الأنعام: 83 . 84).

والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام . 90).

وهذا المعنى من أبعد الأقوال عن الحق لأنّه سبحانه لم يخص الاهتداء بالثمانية إلّا وقد أشار إلى آبائهم بقوله: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام . 87).

ثمّ قال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

فيجب أن يكون الكل أُولي العزم.

وهناك أقوال أُخر يرجع إلى الاختلاف في عددهم بين كونه تسعة أو سبعة أو ستة أو خمسة أو أربعة وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً.

وعرفت أنّ الحق هو الوجه الثالث بالتصرف الذي عرفته فيه وأوضحنا أنّ هذه اللفظة ليس علماً لعدة معيّنة بل هي وصف يشير إلى الجماعة الذين صبروا في طريق رسالاتهم وتبليغ دين الله سبحانه، وقد عرفت أنّ القرآن يصف ثلاثة من الرسل بهذا العنوان وهم عبارة عن نوح والخليل والكليم ولعلّ هناك من صبر في هذا الطريق، وعرفه القرآن ولم نقف عليه، عصمك الله وإيّانا من الزلل في القول والعمل وجعلنا من أصحاب العزائم القوية في نشر الحق.

شبهة واهية في المقام :

ذهب بعض المعترضين ممّن لا إلمام له بحقيقة التعاليم الإسلامية ولا معرفة له بأُصول الدين المحمدي وفروعه إلى انكار عالمية الإسلام، تمسّكاً بالأمر التالي وهو :

إنّ الإسلام جاء بضرائب على الابل والبقر والغنم بمقادير دقيقة في غاية الدقة لأنّ الجزيرة العربية كانت يوم ذاك تكثر فيها الجمال والمواشي دون غيرها من البلاد

والقارات وذلك آية كونه ديناً اقليمياً لا عالمياً، بل آية على أنّ تخطيطاته الاقتصـــادية، وقوانينه في الضـرائب وغيرها تناسـب عصـر الجمال والمواشـي، لا عصـر الصـاروخ والطائرة، والمعامل الكبرى، والمصانع الضخمة، والأعمال التجارية الهائلة.

قلت: هذه شـبهة يتمسّـك بها تارة على نفي كون الإسـلام ديناً عالمياً، وأُخرى على نفي كونه ديناً أبدياً وخاتماً لرسالات السماء بحجّة أنّ ما جاء به الإسلام من تشريع في مجال الضرائب ناقص لا يفي بالحاجات المتجددة في العصور المتطورة والحضارات المتقدمة، والنفقات المتزايدة.

وقد أجبنا عن هذه الشـبهة مفصّـلاً في الجزء الثاني من هذه الموسـوعة عند البحث عن (المنابع المالية للحكومة الإسلامية) فلاحظ تجد فيها ما يقطع جذور الشبهة من أساسها.

الفصل الثاني

الخاتمية

في

الذكر الحكيم

اتفقت الأُمّة الإســـلامية عن بكرة أبيها على أنّ نبيّهم محمداً خاتم النبيين، وأنّ دينه خاتم الأديان، وكتابه خاتم الكتب والصحف، فهو ﷺ آخر السفراء الالهيين، أوصد به باب الرسالة والنبوّة، وختمت به رسالة السماء إلى الأرض.

لقد اتفق المســـلمون كافة على أنّ دين نبيّهم، دين الله الأبدي، وكتابه، كتاب الله الخالد، ودستوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد أنهى الله إليه كلّ تشريع وأودع فيه أُصول كلّ رقي، وأناط به كلّ سعادة ورخاء، فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض.

توضيحه: أنّ الشـريعة الحقة الالهية التي أنزلها الله إلى أوّل سفرائه لا تفترق جوهراً عمّا أنزله على آخرهم، بل كانت الشريعة السماوية في بدء أمرها كنواة قابلة للنمو والنشوء، فأخذت تنمو وتستكمل عبر القرون والأجيال، حسب تطور الزمان وتكامل

الأمم، وتسرب الحصافة إلى عقولهم، وتسلل الحضارة إلى حياتهم.

ويفصح عمّا ذكرنا قوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ... ﴾ (الشورى ـ 13) فقد وصّى نبيّنا محمداً بما وصّى به نوحاً، من توحيده سبحانه وتنزيهه عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والتنديد بالجرائم الخلقية، والقضاء على أسبابها، إلى غير ذلك ممّا تجده في صحف الأوّلين والآخرين.

وتتجلى تلك الحقيقة الناصعة، أي وحدة الشرائع السماوية، جوهراً من مختلف الآيات في شتى المواضع، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران ـ 19) وظاهر الآية يعطي أنّ الدين عند الله ـ لم يزل ولن يزال ـ هو الإسلام في طول القرون والأجيال، ويعاضدها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران ـ 85).

وقد نبّه سبحانه في مورد آخر على خطأ اليهود والنصارى في رمي ـــ بطل التوحيد ـــ إبراهيم باليهودية والنصرانية، وقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران ـ 67).

نعم المراد من الإسلام في الآيتين هو التسليم لله والامتثال لأوامره ونواهيه لا المعنى العلمي منه، الذي يقابل اليهودية والنصرانية.

وقد سئل عليٌّ عليه السلام عن حقيقة الإسلام، فقال: « لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين » [1] ففسّر الإسلام بالتسليم له سبحانه، وحقيقة التسليم هنا هو إرجاع الأمر والنهي إليه سبحانه، فالواجب ما أمر به والحرام ما نهى عنه، لا ما أمر به الأحبار والرهبان، أو نهوا عنه، ولا يتحقق التسليم إلّا برفض تحكيم الرجال في الشريعة، ورد آراء الناس والأحبار والرهبان في الحلال والحرام.

فحقيقة الشرائع السماوية في جميع الأدوار والأجيال كانت أمراً واحداً وهو

---

(1) نهج البلاغة: المختار من الحكم 125.

التسليم لله في فرائضه وعزائمه وحده.

ولأجل ذلك كتب الرسول إلى قيصر عندما دعاه إلى الإسلام، قوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [1].

وقد أمر سبحانه في آية أُخرى رسوله بدعوة معشر اليهود أو الناس جميعاً إلى اتباع ملّة إبراهيم، قال سبحانه: ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران ـ 95).

وصرّح سبحانه بأنّ كلّ نبي جاء عقب نبي آخر، كان يصرّح بأنّه مصدّق بوجود ذلك النبي المتقدم عليه وكتابه ودينه، فالمسيح مصدّق لما بين يديه من التوراة ومحمّد ﷺ مصدّق لما بين يديه من الكتب وكتابه مهيمن عليه، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: 46، 48).

وهذه النصوص كلّها تعبّر عن وحدة أُصول الشرائع وجذورها ولبابها.

وعلى هذه فرسالة السماء إلى الأرض، رسالة واحدة في الحقيقة مقولة بالتشكيك، متكاملة عبر القرون، جاءت بها الرسل طوال الأجيال، وكلّهم يحملون إلى المجتمع البشري رسالة واحدة لتصعد بهم إلى مدارج الكمال، وتهديهم إلى معالم الهداية ومكارم الأخلاق.

نعم كان البشر في أوّليات حياتهم يعيشون في غاية البساطة والسذاجة، فما كانت لهم دولة تسوسهم، ولا مجتمع يخدمهم ولا ذرائع تربطهم، وكانت أواصر الوحدة ووشائج الارتباط بينهم ضعيفة جداً، فلأجل ذاك القصور في العقل، وقلة التقدم، وضعف الرقي، كانت تعاليم أنبيائهم، والأحكام المشروعة لهم، طفيفة في غاية البساطة، فلما أخذت الانسانية بالتقدم والرقي، وكثرت المسائل يوماً فيوماً، اتسع نطاق الشريعة

---

(1) السيرة الحلبية: ج 2 ص 275، مسند أحمد: ج 1 ص 262.

واكتملت الأحكام تلو هذه الأحوال والتطورات.

فهذه الشـــرائع (مع اختلافها في بعض الفروع والأحكام نظراً إلى الأحوال الأُممية والشـــؤون الجغرافية) لا تختلف في أُصـولها ولبابها، بل كلها تهدف إلى أمر واحد، وتسـوق المجتمع إلى هدف مفرد، والاختلاف إنّما هو في الشريعة والمنهاج لا في المقاصد والغايات كما قال سبحانه: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِـــرْ عَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَـــاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ (المائدة ـ 48) [1].

وقال ســـبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَـــرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية ـ 18).

وخلاصة القول: إنّ السنن مختلفة، للتوراة شريعة، وللانجيل شريعة، وللقرآن شريعة ولكن الدين هو الأُصول والعقائد والأحكام التي تساير الفطرة الإنسانية ولا تخالفها، واحد.

وهاتان الآيتان لا تهدفان إلى اختلاف الشـــرائع في جميع موادها، ومواردها اختلافاً كلّياً بحيث يكون من النسبة بينها نسبة التباين، كيف وهو سبحانه يأمر نبيّه بالاقتداء بهدى أنبيائه السالفين ويقول: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام ـ 90).

وتخصيص الاقتداء بالتبعية لسننهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم إلى الدين والصبر على أذاهم كما في قوله سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف ـ 35) تخصيص بلا وجه.

فالقول باختلاف الشرائع وتباينها في جميع الموارد لا يرتضيه القرآن والقول باتحاد الشرائع باطل بالضرورة قال سبحانه: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا

---

(1) أي جعلنا لكل من موسى وعيسى ومحمد ﷺ أو لكل من أُمم التوراة والانجيل والقرآن شريعة وطريقاً خاصاً إلى ما هو الهدف الأقصى من بعث الرسل ومنهاجاً واضحاً، والاختلاف بين الكتب والشرائع جزئي لا كلي، والنسخ في بعض الأحكام لا في جميعها.

يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ ﴾ (الحج ـ 67).

والقول الوسط هو الأوسط، والشريعة الكاملة السمحة الصالحة لكلّ زمان وكلّ مكان هي الشريعة التي جاء بها الإسلام ونبيّه الأكرم ﷺ .

ثم إنّه سبحانه يصرح بحكمة اختلاف الشرائع وتعددها بقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة ـ 48).

فإنّ الشريعة الواحدة إنّما تصلح لأُمّة مخلوقة على استعداد واحد، وحالة واحدة كسائر أنواع الخلق التي يقف استعدادها عند حد معين كالطير والنمل والنحل، وأمّا النوع الممتاز كالانسان الذي يرتقي في اطوار الحياة بالتدريج وعلى سنّة الارتقاء فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من أطوار حياته، فشدة أحكام الانجيل في الزهد وترك الدنيا والخضوع لكل حاكم وكل معتد لا يمكن أن يؤخذ به في هذا العصر، ومثله ما في التوراة من أحكام شديدة كما لا يخفى.

نعم جاءت الرسل تترى، وتواصلت حلقات النبوّة في الأدوار الماضية إلى أن بعث الله آخر سفرائه، فأتم به نعمته وأكمل به دينه، فأصبح المجتمع البشري في ظل دينه الكامل وكتابه الجامع، غنياً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوّة، وأصبح البشر غير محتاجين إلى ارسال أي رسول بعده، إذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكل ما يحتاج إليه البشر في أدوار حياتهم وأنواع تطوّراتهم وفي الوقت نفسه فيها مرونة تتمشى مع جميع الأزمنة والأجيال، من دون أن تمس جوهر الرسالة الأصلي بتحوير وتحريف.

ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الأبحاث الآتية.

النصوص القرآنية الدالّة على ختم النبوّة :

لقد نص القرآن الكريم على ذلك تنصيصاً لا يقبل الشك والترديد، ولا يرتاب فيه من له أدنى إلمام باللغة العربية، وذلك في مواضع :

النص الأوّل: قوله سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب ـ 40).

توضيحه: تبنّى رسول الله زيداً قبل عصر الرسالة، وكان العرب ينزّلون الادعياء منزلة الأبناء في أحكام الزواج والميراث، فأراد الله سبحانه أن ينسخ تلك السنّة الجاهلية، فأمر رسوله أن يتزوّج زينب زوجة زيد بعد مفارقته لها، فلمّا تزوّجها رسول الله، أوجد ذلك الزواج ضَجّة بين المنافقين والمتوغلين في النزعات الجاهليّة، والمنساقين وراءها، فردّ الله سبحانه مزاعمهم وطعنهم بقوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ من الذين لم يلدهم ومنهم زيد ولكنّه ﴿ رَسُولَ اللهِ ﴾ وهو لا يترك ما أمره الله به ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وآخرهم ختمت به النبوّة فلا نبي بعده ولا شريعة سوى شريعته، فنبوّته أبدية وشريعته باقية إلى يوم الدين.

الخاتم وما يراد منه :

الخاتم (سواء كان بفتح التاء كما عليه « عاصم » أم بكسرها، كما عليه الباقون وعلى الفتح سواء أقلنا أنّه فعل كضارب بمعنى ختمهم، أم اسم بمعنى آخرهم، أو بمعنى ما يختم به أي المختوم به باب النبوّة، كما يختم بالطابع) لا يفهم منه في المقام إلّا معنى واحد وهو أنّه قد ختم به باب النبوّة وأوصد بوجوده ودينه وكتابه باب الرسالة فلا نبي بعده أصلاً.

وقد أصفقت على هذا كتب اللغة والتفسير والتاريخ طيلة أربعة عشر قرناً ولم يختلف فيه اثنان، ولم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، فهذه معاجم اللغة وكتب التفسير المؤلفة في العهود الإسلامية السابقة، بيد أساطين اللغة وفطاحلها وأئمّة التفسير وأبطاله، ضع يدك على أي واحد منها، تجدها متضافرة على ما قلناه وسوف ننقل بعض نصوصهم.

والأولى أن نرجع قبل كل شيء إلى نفس القرآن وموارد استعمال هذه المادة فيه، حتى نستعين بالقرآن الكريم نفسه، في رفع الابهام :

1. ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ (المطففين ـــ 25) أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه، تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك، أو مختوم بابه بشي مثل الشمع وغيره، وذلك آية خلوصه.

2. ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين ـــ 26) مقطعه رائحة مسك إذا شرب.

3. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (الشوري ـ 24).

4. ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ (يس ـــــ 65) أي طبع على أفواههم فتوصّد أفواههم وتتكلم أيديهم.

5. ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَـــلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَـــمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ (الجاثية ـ 23).

6. ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (البقرة ـ 7).

7. ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام ـ 46).

فإذا انتهى الكافر من كفره إلى حالة يعلم الله أنّه لا يؤمن، يطبع الله على قلبه كما يطبع على الشيء بالشمع والطين فيصير قلبه كالمختوم عليه، لا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء، فلا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر.

فالختم على الشيء، بمعنى الطبع عليه كناية عن ختم أمره، فالختم على القلب يلازم انتهاء أمره وامتلاءه بالكفر والالحاد فلم يبق فيه موضع لنور الحق وكلماته، كما أنّ ختم الورقة وطبعها بالطابع علامة أنّ الكاتب بلغ ما أراد من كتابته فيها، وانتهى غرضه

ومقصده.

والختم على النبوّة عبارة عن أنّه أوصـد باب النبوّة وطبع على بابها، فهو مقفل إلى يوم القيامة، لا يفتح في وجه أحد.

وعلى أي تقدير فالناظر في هذه الآيات لا يتلقّى من تلك المادة إلّا معنى واحداً وهو الانتهاء، أو ما يلازمه من الطبع على الشيء.

وقد أوضحه إمام اللغة ابن فارس في معجمه وقال: « الختم » له أصل واحد وهو البلوغ آخر الشيء، يقال ختمت العمل، وختم القارئ السورة، فأمّا الختم وهو الطبع على الشيء، فذلك من هذا الباب أيضـاً، لأنّ الطبع على الشـيء لا يكون إلّا بعد بلوغ آخره في الإحراز، والخاتم مشـتق من الختم، لأنّه به يختم، ويقال: الخاتم بالكسر، والخاتام والخيتام.

والنبي ﷺ خاتم الأنبياء لأنّه آخرهم، وختام كل مشـــروب، آخره، قال الله تعالى: ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾، أي أنّ آخر ما يجدونه عند شربهم إياه رائحة المسك.

وقال أبو البقاء العكبري: الخاتم بفتح التاء على معنى المصـــدر، أو هو فعل مثل قاتل بمعنى ختمهم، وقال الآخرون: اسم بمعنى آخرهم، وقيل: هو بمعنى المختوم به النبيون، كما يختم بالطابع ويقرأ بكسرها، بمعنى آخرهم [1].

وقال الجوهري في صحاحه: ختمه ويختمه ختماً وختاماً، طبع على قلبه: جعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شـــيء، وختم الشـــيء: بلغ آخره، والختام ككتاب: الطين يختم به على الشـــيء، والخاتم ما يوضع على الطينة، وحلي للاصبع ...

قال الفيروز آبادي في قاموسه: ختمت الشـيء ختماً فهو مختوم ومختم، شـدّد للمبالغة، وختم الله له بخير منه، وختمت القرآن: بلغت آخره، واختتمت الشيء: نقيض افتتحته، وإلخاتم بكسر التاء وفتحها، والخيتام والخاتام: كلّها بمعنى واحد ،

---

(1) التبيان في اعراب القرآن: ج 2 ص 100.

والجمع الخواتيم، وتختمت: إذا ألبسته، وخاتمة الشيء: آخره.

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء.

والختام، الطين الذي يختم به، وقوله تعالى: ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي آخره، لأنّ آخر ما يجدونه رائحة المسك.

قال ابن منظور في لسان العرب: ختام القوم، أقصاهم، ختام القوم وخاتمهم آخرهم، محمد ﷺ خاتم الأنبياء، والخاتم من أسماء النبي ﷺ ففي التنزيل: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾، أي آخرهم، وقد قرأوا « خاتم » بالفتح، ومن أسمائه « العاقب » أيضاً ومعناه آخر الأنبياء.

قال أبو محمد الدميري في منظومته :

والخاتم الفاعل قل بالكسر وما به يختم، فتحاً يجري [1]

وقال البيضاوي: وخاتم النبيين آخرهم الذي ختمهم، أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح.

وفي تفسير الجلالين: وفي قراءة بفتح التاء، كآلة الختم، أي به ختموا.

وقال الراغب في مفرداته: يطلق الختم على البلوغ إلى آخر الشيء، نحو ختمت القرآن، أي انتهيت إلى آخره، وخاتم النبيين، لانّه ختم النبوّة أي تممها بمجيئه.

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة والنصوص الدالة على تظافر اللغة والتفسير على معنى واحد، ولباب هذه النصوص: أنّ لمادة هذه الكلمة معنى واحداً وهو الانتهاء والوصول إلى آخره، وأمّا الخاتم المشتق منها فعلى الكسر بمعنى الآخر، وعلى الفتح أمّا فعل كضارب، أو اسم بمعنى ما به يختم.

وأمّا اطلاقه على الحلية التي تزيّن بها الاصبع، فلأجل أنّ الدارج في عهد الرسالة طبع الكتاب بالخاتم، فكانت خواتيمهم طوابعهم، لا أنّه وضع لها ابتداء.

---

(1) التيسير في علوم التفسير: ص 90.

ويدل على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته: انّ رسول الله أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتاباً، فقيل يا رسول الله أنّ الملوك لا يقرؤن كتاباً إلّا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة ـ فصّه منه ـ نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب [1].

قال ابن خلدون في مقدمته عند البحث عن شارات الملوك: أمّا الخاتم فهو من الخطط السلطانيةوالوظائف الملوكية، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده، وقد ثبت في الصحيحين، أنّ النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر، فقيل له: إنّ العجم لا يقبلون الكتاب، إلّا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: محمد رسول الله.

قال البخاري: جعل ثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال: لا ينقش أحد مثله، قال: وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس ...

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه :

وذلك أنّ الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم: إذا لبسه، ومنه ختمت الأمر: إذا بلغته، وختمت القرآن، ومنه خاتم النبيين، وخاتم الأمر، ويطلق على السد الذي يسد به الأواني والدنان، ويقال: ختام، وقد غلط من فسّر هذا بالنهاية والتمام، قال: آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك، وليس المعنى عليه وإنّما هو من الختام الذي هو السداد، لأنّ الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار، يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأنّ سدادها من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا ..

وأنّ الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في دواة من الطين أو المداد، ووضع على صفح القرطاس بقى أكثر الكلمات في ذلك الصفح، وكذلك إذا طبع به على جسم ليّن كالشمع فإنّه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه ... إلى أن قال :

---

(1) الطبقات الكبرى: ج 1 ص 258.

ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صـــحة ذلك المكتوب ونفوذه كأنّ الكتاب إنّما يتم العمل به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام، ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصـوم أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه ومنه خاتم السـلطان أو الخليفة، أي علامته ... إلى آخر ما أفاده.

كل ما ذكره ذلك الفيلسـوف الخبير بأسـرار التاريخ، شـواهد على ما ذكرنا فراجع بقية كلامه [1].

تشكيكان حول دلالة الآية على كون نبي الإسلام خاتماً :

البهائية حزب سـياسـي، لها طابع المذهب، قد اختلقها الميرزا حسـين علي النوري المتوفّى عام 1309 هـ ق في عكا، ويليهم في العقيدة والغاية « القاديانية » ومؤسسها « غلام أحمد القادياني » ينسـب إلى إحدى قرى البنجاب (قاديان)، كان في الرعيل الأوّل من فضـلاء البنجاب وعلمائهم، لكنّه ادّعى عام 1892 أنّه المجدد للقرن الرابع عشر الهجري، وفق الحديث النبوي: « سـيأتي على رأس كل مائة سـنة رجل يجدد لها دينها »، قال: أنا المبعوث لهذا القرن، فاتبعوني لعلّكم تفلحون، فأطاعته عدة من الخواص والعوام زرافات ووحداناً، ولما أحس بروح التبعية فيهم، ادّعى أنّه المهدي والمسـيح الموعود، ثم ادّعى لنفسـه النبوّة وأنّه نبي كمثل أنبياء بني إسـرائيل الذين كانوا معه، وأنّه نبي الأُمّة الإسـلامية بغير مصـحف، وعند ذلك هجم الناس عليه ليقتلوه، لولا تدخل الحكومة الانكليزية، وبقي على ما ادّعى إلى أن اخترمته المنية عام 1908 ولم يسـتخلف أحداً، فحدث بينهم خلاف عظيم، فمالت فئة من أتباعه إلى ابنه « بشـير الدين أحمد » وتبعت فئة قليلة منهم « الأمير محمد علي » الذي شـد أزر غلام أحمد من ابتداء الأمر، وقرروا أن يجعلوا لهم جميعة أُخرى، ويجتنبوا اتباع ابن غلام أحمد، وجعلوا مركزهم في « لاهور » عاصـمة البنجاب، واشتهروا باسم الأحمدية اللاهورية، ومحمد علي هو مترجم

---

(1) مقدمة ابن خلدون: ج 1 ص 220.

القرآن بالانكليزية.

وبين الطائفتين اختلاف في الأُصول والفروع، فالأحمدية منهم مؤمنة بأنّ النبي خاتم الأنبياء ولا يؤمنون بنبوّة غلام أحمد ولا يكفّرون المسلمين مهما كانت عقائدهم، وهو واتباعه يصلّون خلف كل مسلم، بشرط أن لا يكفّرهم، وأمّا القاديانية منهم، فهم يعتقدون أنّ غلام أحمد كان نبياً بلا كتاب سماوي، كأنبياء بني اسرائيل، ويؤوّلون آية: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ تأويلاً يتوافق على زعم الطائفة المضلة. على ما سيأتي.

نعم تشترك الفئتان في الاعتقاد بحرمة الجهاد، لأنّ مسيحهما قد بعث وجاء لنشر السلام العام والمحبة، ولزوم الخضوع والطاعة لمن تسلّط، والكد والكدح في اكتساب الأموال والنقود، وأنّ الوحي مستمر إلى الأبد، إلى غير ذلك من المخازي لتضليل بسطاء الأُمّة عن الإسلام، وعند التحقيق يظهر أنّ الاستعمار خلق « البابية والقاديانية » لإيجاد التشكيك بين عوام الشيعة والسنّة، وكلا الاخوين « حية بطن واد » [1].

ولما أرادت الفرقة الضالّة المضلّة البهائية أن تعرّف زعيمها وقائدها، رسولاً من الله إلى الناس، كسائر المرسلين، من موسى والمسيح ومحمد ﷺ حاولت لتدعيم مدعاها أن تشكك في دلالة الآية على ما اتفق عليه المسلمون منذ نزولها إلى الآن، وقد جاءت في ذلك بتشكيكين لا يقصران عن شبه السوفسطائية في بداهة الأُمور ودونك بيانهما مع دحضهما بأوضح الوجوه :

التشكيك الأوّل :

خلاصة هذا الوجه ترجع إلى التصرف في معنى « الخاتم » كما أنّ التشكيك الثاني

---

(1) وقد تحدثت مجلة العرفان عن الأحمدية والقاديانية في عدة من أعدادها، فراجع المجلد الثامن عشر في مقال تحت عنوان: « الإسلام في الهند » والمجلد التاسع عشر ص 94 والعشرين ص 233 و 352 و 489 وفيها مقالات بأقلام جماعة من الباحثين تشرح لنا هوية هذه الفئة.

يرجع إلى التصرف في معنى « النبيين ».

بيانه أنّ قوله سبحانه: ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ لا يدل على انتهاء النبوّة بوجوده ﷺ لاحتمال كون المراد من « الخاتم » الحلية التي تزين بها الاصبع وعندئذ يصير الهدف من اطلاق « الخاتم » عليه ﷺ واستعارته له هو تشبيه نبي الإسلام بالخاتم في الزينة وأنّه ﷺ بلغ من الكمال مبلغاً حتى صار زينة الأنبياء، فهو بين تلك العصابة كالخاتم في يد لابسه.

وهنا احتمال آخر تسقط معه أيضاً دلالة الآية على ما يرتأيه المسلمون من اختتام النبوّة به ﷺ وهو جواز أن يكون المراد من خاتم النبيين أنّه مصدق للنبيين وما أُنزل إليهم من الصحف والكتب، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة ــ 48) وقد تقدمت تصاريح التاريخ على أنّ الدارج في عصر الرسالة هو طبع الكتاب وتصديق ما فيه بالخاتم، فيصير اطلاق الخاتم عليه ﷺ واستعارته له، لأجل أنّه ﷺ خاتم النبيين ومصدقهم كالخاتم الذي هو مصدق لمضامين الكتب والصحف، فأين الدلالة على انسداد باب النبوّة [1].

الجواب :

إنّ هذا التشكيك بمعزل عن التحقيق، بل لا يستحق أن يطلق عليه اسم التشكيك والشبهة، ولا يعرج عليه أي عربي أصيل، وأي عارف باللغة العربية، بل أي شخص له أدنى إلمام بها ولا يتردد في مخيلة أي ابن انثى، إذا كان ذا فكر سليم وذوق مستقيم، ولا يجود احتماله في كلمات القدامى والمتأخّرين.

إذ لم تعهد استعارة الخاتم في مصطلح العرف للشخص، لغاية الزينة والتصديق على وجه المجاز، أو استعماله فيهما على وجه الحقيقة منذ عصر الرسالة إلى يومنا هذا.

وقد عرفت المعنى الحقيقي لتلك الكلمة، ولم تكن الزينة أو التصديق أحد

---

(1) الخاتمية: ص 23.

معانيه، وأمّا استعماله فيهما مجازاً، فيتوقف على حصول أمرين :

الأوّل: أن يكون الاستعمال متعارفاً ودارجاً بين أهل اللسان، أو يكون ممّا يستحسنه الطبع والذوق، وكلاهما منتفيان [1].

الثاني: وجود قرينة مقالية أو حالية صارفة عن المعنى الحقيقي، وإلا فيحمل على المعنى الموضوع له، وهي أيضاً منتفية.

ولما كانت هذه الشبهة أشبه شيء بحديث خرافة، وشبه السوفسطائية لم يلتفت إليه أحد من مناوئي الإسلام، حتى مؤسس الفرقة الضالّة وزعيمها الأكبر، بل فسّر هو نفسه في بعض كتبه [2] ﴿ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ على خلاف ما ذكر في الشبهة، وقال: « والصلاة والسلام على سيد العالم، ومربي الأُمم، الذي به انتهت الرسالة والنبوّة وعلى آله وأصحابه دائماً سرمداً ... ».

وصرّح بذلك في « ايقانه » [3] وفسره بالختم والانتهاء، نعم أتى بعد ذلك بتأويلات باردة يشمئز منها الطبع، وإنّما اوّل ما اوّل ليمهد الطريق لدعوى نبوّته وسفارته من الله سبحانه.

هلم معي نسأل مبدع الشبهة عن أنّه لماذا خص سبحانه « الخاتم » بالاستعارة، مع أنّ التاج والاكليل، أولى وأبلغ في بيان المقصود (الزينة) ؟

هلم نسأله عن أنّه لو صح ما أراد (من أنّ المراد أنّه ﷺ مصدق النبيين) ولن يصح، ولو صحت الأحلام، فلماذا عدل سبحانه عن أوضح التعابير وأفصحها، ولم يقل « مصدق النبيين » كما عبّر به في غير واحد من السور [4] عندما أراد توصيف النبي بكونه

---

(1) ولأجل ذلك لا تجد في الآداب العربية ولا الفارسية ولا غيرها من اللغات استعارة الخاتم للزينة والتصديق.

(2) اشراقات: ص 292.

(3) ايقان: ص 136.

(4) سورة البقرة: 41 و 91 و 97 . آل عمران: 3 وغيرها.

مصدقاً لمن تقدم عليه وأتى في المقام بتعبير غير مألوف ولا مأنوس.

نحن نسأله: انّ تصديق من مضى من النبيين، ليس صفة خاصة له ﷺ فانّ المسيح كان أيضاً مصدقاً للماضين منهم، وما معهم من الكتب والصحف، كما حكى عنه سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف ـ 6)، وعند ذاك فلماذا عرّفه سبحانه بوصف مشترك بين الأنبياء جميعاً.

ماذا يجينا المبدع إذا سألناه، وقلنا له: إنّ تشبيه الرسول الأعظم بالخاتم في التصديق وليد الأحلام الباطلة، وشتان بينه ﷺ وبين الخاتم، حتى في نفس وجه الشبه الذي اختلقه المبدع، فانّ الخاتم ليس هو نفسه مصدقاً، وإنّما هو آلة التصديق وما يصدق به، وإنّما المصدق انّما هو كاتب الصحيفة، وهذا بخلاف النبي ﷺ فإنّه هو المصدق نفسه.

لا أدري ماذا يجيب المشكك عن هذه الأسئلة ؟

نعم اختلقت هذا التشكيك بعض الأقلام المستأجرة، لتأييد أقاويل تلك الفئة وتسويل أباطيلهم، والكاتب أعرف ببطلانها، وقد عرفته الأُمّة، وعرفت نواياه، وما تخلّق به من روحيات ونفسيات.

التشكيك الثاني :

إنّ منصب النبوّة غير الرسالة، وما هو المختوم إنّما هو الأوّل دون الثاني فباب النبوّة وإن كان مختوماً بنص الآية، لكن باب الرسالة مفتوح على مصراعيه في وجه الأُمّة، ولم يوصد ولن يوصد أبداً.

واجلاء الحق في هذا المقام يتوقف على الوقوف على ما هو المقصود من النبي والرسول في الكتاب العزيز، وقد عقدنا لبيان الفرق بين النبي والرسول فصلاً خاصاً [1]

---

(1) سيوافيك هذا الفصل في الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

وأوضحنا فيه حال هذا التشكيك وجعلناه في مدحرة البطلان وأقمنا الدليل على أنّ ختم النبوّة يلازم ختم الرسالة.

وخلاصة ما قلناه هناك: إنّ النبي حسب ما يظهر من آيات الذكر الحكيم وكلمات اعلام اللغة، هو الانسان الموحى إليه من الله باحدى الطرق المعروفة، وأمّا الرسول فهو الانسان [1] القائم بالسفارة من الله بابلاغ قول أو تنفيذ عمل وإن شئت قلت: النبوّة منصب معنوي يستدعي الاتصال بالغيب باحدى الطرق المألوفة، والرسالة سفارة للمرسل (بالفتح) من جانبه سبحانه لتنفيذ ما تحمله منه في الخارج أو ابلاغه إلى المرسل إليهم.

وبعبارة ثالثة: النبوّة تحمل الأنباء من الله والرسالة تنفيذ ما تحمله من الانباء بالتبشير والانذار والتبليغ وإلتنفيذ.

ولأجل ذلك يقترن لفظ الوحي بلفظ « النبيين » ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ (النساء ـ 163).

ولو اقترن لفظ الوحي بالرسول في آية أُخرى، فلمناسبة أُخرى اقتضت العدول فيه كما أنّه يقترن في القرآن إلزام الانسان بتبليغ كلام عنه سبحانه أو تنفيذ عمل في الخارج بلفظ « الرسول » ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة ـ 67).

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ (مريم ـ 19).

وعلى ذلك فالنبي أمّا صيغة لازم بمعنى صاحب النبأ ومتحمله، أو صيغة متعد بمعنى المخبر عنه سبحانه، والرسول هو الموظّف لتحقيق ما تحمله النبي من جانب الله سبحانه عن طريق الوحي.

فلو فرض أنّه أوصد باب النبوّة وختم نزول الوحي إلى أي انسان كما يصرح به

---

(1) المقصود هو الرسول المصطلح فلا ينافي اطلاقه على الملك والشخص العادي في القرآن الكريم.

لفظ « خاتم النبيين » فعند ذاك يختم باب الرسالة الالهية أيضاً بلا ريب، لأنّ الرسالة لا تهدف سوى تنفيذ ما يتحمله النبي من جانب الله عن طريق الوحي فإذا انقطع الوحي والاتصال بالمبدأ الاولى والاطلاع على ماعنده، لا يبقى موضوع للرسالة أبداً، فإذا كان محمد ﷺ خاتماً للنبيين أي مختوماً به الوحي والاتصال فهو خاتم الرسل والمرسلين طبعاً، لأنّ رسالة الانسان من جانب الله سبحانه، عبارة عن بيان أو تنفيذ ما أخذه عن طريق الوحي، فلا تستقيم رسالة أي انسان من جانبه سبحانه إذا انقطع الوحي والاتصال به تعالى ولا يقدر أن يقول أي ابن أُنثى بالرسالة من ناحيته سبحانه إذا كانت النبوّة موصدة باعترافه.

هذا خلاصة ما قلناه هناك وسيوافيك تفصيله بدلائله وشواهده من الكتاب والسنّة وكلمات اعلام اللغة.

التنصيص الثاني [1] على الخاتمية :

هلم معي نقرأ النصوص الباقية الدالة على كون نبيّنا خاتم الرسل، وانّ رسالته خاتمة الرسالات حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره، فمن النصوص قوله سبحانه :

---

(1) الهدف الأسمى من الاستدلال بهذه الآية وما تليها، هو نفي قسم خاص من أقسام النبوّة، أي النبوّة التشريعية الناسخة، فهذه الآية وأمثالها تكذّب كل من ادّعى لنفسه منصب النبوّة التشريعية، وادّعى أنّه نبي كموسى وعيسى ومحمد، وانّ له كتاباً وشريعة ناسخة لما قبلها من الكتب والشرائع، إذ لا يعقل أن يكون لمجتمع واحد كتابان مختلفا الأهداف والأغراض، أو نذيران متعددا الغايات.

فلا يصح أن يكون الفرقان والقرآن نذيراً لهم، وفي الوقت نفسه يكون كتاب آخر، يخالفه في المضمون نذيراً لهم أيضاً، وقس على ذلك سائر ما يرد عليك من الآيات.

نعم هذه الآية ونظائرها لا تفي بنفي النبوّة التبليغية المحضة، أو التشريعية غير الناسخة، بأن تكون النسبة بين الشريعتين نسبة الأقل إلى الأكثر، أو المجمل إلى المفصل، والدليل الوحيد في القرآن، على انسداد أبواب النبوّة على اطلاقها، هي الآية المتقدمة، وما سيوافيك من الأحاديث المتواترة، الدالة على اغلاق باب النبوّة على وجه الأمة بعامة أنواعها واقسامها فلاحظ.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان ـ 1).

وصريح النص أنّ الغاية من تنزيل الفرقان على عبده (رسولنا) كون القرآن نذيراً للعالمين، أي الخلائق كلها من بدء نزوله إلى يوم يبعثون.

قال « الراغب » في مفرداته: العالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض وهو في الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم، لما يطبع به وما يختم به، وجعل بناءه على هذه الصفة، لكونه كالآلة والعالم آلة، في الدلالة لصانعه، وأمّا جمعه فلأن كل نوع من هذه قد يسمى عالماً، فيقال عالم الانسان وعالم الماء، وعالم النار، وأمّا جمعه على السلامة فلكون الناس من جملتهم والانسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب عليه حكمه، وقيل إنّما جمع هذا الجمع لأنّه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والناس دون غيرها وروي هذا عن ابن عباس وقال جعفر بن محمد عنى به الناس، وجعل كل واحد عالماً [1].

وقال: العالم عالمان: الكبير وهو الفلك بما فيه والصغير لأنّه مخلوق على هيئة العالم [2].

قال الزمخشري: العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض، وجمع ليشمل كل جنس مما سمّي به، وأمّا جمعه بالواو والنون مع كونه اسماً غير صفة وإنّما يجمع بها صفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، فلأجل معنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم [3].

---

(1) هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، ويشهد له ما نقله سبحانه، عن قوم لوط في خطابهم له، عند نزول ضيوفه: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحجر: 68 ـ 70) أي قالوا في جوابه: أوليس كنا قد نهيناك عن أن تستضيف أحداً من الناس، ولا معنى لأن ينهوه عن الأجرام السماوية، أو الجن والملائكة.

ونظيره قوله سبحانه ـ حكاية عن لوط في الرد على قومه ـ: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء ـ 165) فالمراد من العالمين فيه هو الناس بلا ريب.

(2) المفردات للراغب: ص 349.

(3) الكشاف: ج 1 ص 6.

وعلى أي تقدير ســـواء أكان المراد من العالمين في الآيات الآخر جميع المخلوقات التي يحويها الفلك من الجواهر والأعراض، أم كان المراد الإنس والجن، فالمراد منه في الآية بقرينة كونه « نذيراً » خصـوص الانسـان أو مطلق من يعقل، فالآية صـريحة في أنّ انذاره لا يختص بناس دون ناس، أو بزمان دون زمان، فهو على اطلاقه يعطي كونه نذيراً للأُمّة البشرية بلا قيد ولا حد.

ولقائل أن يعترض ويقول: ربّما يطلق « العالمون » ويراد منه الجم الغفير من الناس كما في قوله سبحانه في تفضيل بني اسرائيل: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة ـــ 47) ويقال رأيت عالماً من الناس يراد به الكثرة وعند ذاك لا تكون الآية صريحة فيما نرتئيه.

والجواب: انّ المتبادر من العالمين في مصطلح العرف والقرآن هو المعنى العام وهو عبارة أمّا عن الخلائق عامة كما عليه قوله سبحانه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء 23 ـ 24).

وغيره من الآيات الكثيرة التي استعملت فيها كلمة « العالمين » في الخلق كلّه، أو نوع ما يعقل من الملائكة والإنس والجن وعليه قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة ـ 251).

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـــ 108)، أو خصـوص الإنس وعليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـ 96).

وقوله سبحانه: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء ـ 165).

وقوله سبحانه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف ـ 80، وقريب منها ما في العنكبوت ـ 28).

وعلى ما ذكرنا فلا يسـوغ أن يحمل هذ اللفظ على غير هذه المعاني، إلّا بقرينة صـارفة عن ظاهره وهي غير موجودة في المقام.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فليس ظاهراً فيما فسره صاحب الكشاف، من الجم الغفير، ولأجل ذلك فسّره حبر الأُمّة بأهل عالمي زمانهم كلهم، لا بالجم الغفير، كما فسّر به قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـ 42).

وعلى أي حال سواء أفسّرناه بالجم الغفير أم خصصناه بأهل عالمي زمانهم فإنّما هو لقرينة صارفة عن ظاهره، حيث دل القرآن على أنّ الأُمّة الإسلامية أفضل الأُمم، لقوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ (آل عمران ـ 110).

ونظير تلك الآية ما دل على اصطفاء مريم على نساء العالمين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـ 42) فالمراد منه هو نساء عالمي أهل زمانها، لما أثر عن النبي وآله من عدم فضلها على ابنته فاطمة عليها السلام .

أخرج ابن سعد، عن مسروق، عن عائشة في حديث: انّ النبي صلى الله عليه وآله أسر إلى فاطمة عند مرضه وقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأُمّة، أو نساء العالمين [1].

ورواه أبو نعيم الاصفهاني أيضاً بهذه العبارة [2].

وأخرج مسلم والترمذي والبخاري في صحاحهم عن عائشة، قالت: إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لفاطمة في أُخريات أيامه: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأُمّة [3].

روى الحديث بألفاظه المختلفة العلّامة المجلسي في بحاره، فراجع [4].

ولولا هذه المأثورات عمّن نزل عليه القرآن لكان الواجب الأخذ بظاهرها والحكم

---

(1) و (2) الطبقات الكبرى: ج 8 ص 27، حلية الأولياء ج 2 ص 40.

(3) التاج الجامع للأُصول: ج 3 ص 314.

(4) بحار الأنوار: ج 43 ص 36.

بتفضيلها (مريم) على نساء العالمين جميعاً.

على أنّه يمكن الأخذ باطلاق قوله سبحانه: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ والقول بتفضيلهم على الناس كلّهم بتقريب أنّ ملاك فضلهم على غيرهم، تخصيصهم بأشياء من بين الأُمم إذ انزل عليهم المنّ والسلوى، وبعث فيهم رسلاً، وأنزل عليهم الكتب ونجّاهم من فرعون وملائه إلى غير ذلك مما خص به تلك الأُمّة من بين الناس ولا يلزم منه تفضيل واحد منهم على غيرهم [1].

وعلى أي تقدير فالمتبع هو ظاهر الآية ما لم يدل دليل على خلافه، وليست في المقام قرينة تصرف قوله سبحانه: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ عن ظاهره وصريحه.

النص الثالث من القرآن على الخاتمية :

ومن النصوص قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصّلت 41 . 42).

والمقصود من « الذكر » هو القرآن، لقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ ﴾ (آل عمران . 58).

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل . 44).

والضمير في « لا يأتيه » يرجع إلى « الذكر » ومفاد الآية أنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من أي جهة من الجهات، فلا يأتيه البطل بأي صورة متصورة، ودونك صوره :

1. لا يأتيه الباطل: لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء.

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 102.

2. لا يأتيه الباطل: لا يأتيه كتاب يبطله وينسخه بأن يجعله سدى، فهو حق ثابت لا يبدل ولا يغير ولا يترك.

3. لا يأتيه الباطل: لا يتطرق في اخباره عمّا مضى ولا في اخباره عمّا يجيء، الباطل، فكلّها تطابق الواقع.

وعلى أي تقدير فمحصل الآية بحكم الاطلاق المستفاد من قوله سبحانه: « لا يأتيه » أنّ القرآن حق لا يدخله الباطل إلى يوم القيامة.

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر ــ 9) أي نحفظه عن تطرق أي بطلان إليه إلى يوم البعث، كما هو أيضاً مقتضى اطلاقه.

والحق المطلق الذي لا يدانيه الباطل أبداً، والمحفوظ عن تسلل البطلان إليه إلى يوم القيامة كما هو ظاهر الآيتين، يمتنع أن يكون حجّة محدودة، بل يكون متبعاً لا إلى غاية خاصة وأمد محدود، لأنّ خاصية الحق المطلق والمصون عن تطرق البطلان مطلقاً هو كونه حجة لا إلى حد خاص والله سبحانه عهد: ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ (الانفال ـ 8).

فإذا كان القرآن حقاً مطلقاً مصوناً عن تسلل البطلان إليه، ومتبعاً للناس إلى يوم القيامة، يجب عند ذلك، دوام رسالته وثبات نبوّته وخاتمية شريعته.

وإن شئت قلت: إنّ الشريعة الجديدة إمّا أن تكون عين الشريعة الإسلامية الحقة المحقة التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل أو غيرها، فعلى الأوّل لا حاجة إلى الثانية، وعلى الثاني فامّا أن تكون الثانية حقّة كالأُولى، فيلزم كون المتناقضين حقاً، أو يكون الأُولى حقّة دون الأُخرى، فهذا هو المطلوب.

والرسول ﷺ لم يزل يبيّن شريعته، بالكتاب الحق الذي لا يدانيه الباطل وبسنّته المحكمة التي لا تصدر عنه إلّا بإيحاء منه سبحانه، كما قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (النجم: 3 ـ 5) وعلى أي تقدير فالآية

صـــريحة في نفي أي تشـــريع بعد القرآن، وشـــريعة غير الإســـلام فتدل بالملازمة على عدم النبوّة التشريعية بعد نبوّته ﷺ .

النص الرابع من القرآن على خاتمية الرسول ﷺ :

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَـيْءٍ أَكْبَرُ شَـهَادَةً قُلِ اللهُ شَـهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام ــ 19) وفسره أمين الإسلام الطبرسي بقوله: أي لا خوف به من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، ولذا قال النبي ﷺ : من بلغه أنّي أدعو إلى أن لا إله إلّا الله فقد بلغه، أي بلغته الحجة وقامت عليه، حتى قيل من بلغه القرآن، فكإنّما رأى محمداً ﷺ وسمع منه وحيث ما يأتي القرآن، فهو داع ونذير [1].

قوله سـبحانه: ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ معطوف على الضـمير المنصـوب في قوله: ﴿ لأُنذِرَكُم ﴾ لا على الفاعل المستتر.

وقد وافاك توضـــيح مفاد الآية والتوفيق بينها وبين قوله ســـبحانه: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ عند البحث عن كون رسالة الرسول عالمية [2].

النص الخامس على الخاتمية :

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ . 28).

المتبادر من الآية، كون ﴿ كَافَّةً ﴾ حالاً من الناس قدمت على ذيها، وتقدير الآية: « وما أرسلناك إلّا للناس كافة بشيراً ونذيراً ».

ويحتمل كونها حالاً من الضـمير المنصـوب في « أرسـلناك » ومفاد الآية: وما أرسـلناك إلّا أن تكفّهم وتردعهم. ولكنّه ضعيف جداً، إذ لا حاجة عندئذ إلى لفظ

---

(1) مجمع البيان: ج 3 ص 282.

(2) راجع ص 63 . 70 من كتابنا هذا.

« كافة » بعد تذييل الجملة بقوله: ﴿ بَشِـــيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إذ لا معنى للكف والردع إلّا تخويفهم عن عذابه وعقابه حتى يرتدعوا بالتأمل فيما أوعد الله في كتابه العزيز ولسان نبيّه ﷺ على مقترفي الجرائم، وليس ذلك إلّا نفس الانذار الوارد في الآية :

أضف إليه أنّه لم يستعمل لفظ « كافّة » في القرآن إلّا بمعنى عامة كقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (البقرة ـ 208).

وقوله عز وجل: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ (التوبة ـ 36).

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ (التوبة ـ 122).

وكل ذلك يؤيد كون ﴿ كَافَّةً ﴾ بمعنى عامة حالا من الناس، والآية مع كونها دليلاً على كون رسالته عالمية، دليل على كونه مبعوثاً إلى كافة الناس إلى يوم يبعثون [1].

النص السادس على الخاتمية :

ثم إنّه ســـبحانه جعل نبيّه ﷺ خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وجعله مهيمناً على جميع الكتب النازلة من قبل.

قال ســـبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَـــدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْـهِ فَـاحْكُم بَيْنَهُم بِمَـا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّـا جَـاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَـا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة ــ 48).

والمهيمن هو الرقيب الشهيد وقد فسّر بأُمور أُخرى يقرب بعضها من بعض فهو

---

(1) ويؤيد ذلك ما رواه ابن سعد في « طبقاته الكبرى » عن خالد بن معدان قال: قال رسول الله ﷺ : بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي فإليّ وحدي.

ونقل عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال: أُرســـلت إلى الناس كافة، وبي ختم النبيون (الطبقات الكبرى ج 1 ص 192) وكل ذلك دليل على أنّ الصحابة لم يفهموا من الآية إلّا ما استظهرناه.

مراقب أمين يشهد على الكتب النازلة قبله بالصحة في مورد، والبا لتحريف في مورد آخر. ولو أراد أهل الكتب الوصول إلى الحق الواضح لرجعوا إلى ذلك الكتاب، لأنّهم لم يؤتوا علم كتابهم كلّه، بل: ﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (آل عمران . 23) وأنّهم: ﴿ ... نَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [1]، وكانوا: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [2].

وفسره العلّامة الطباطبائي بوجه آخر وقال :

هيمنة الشيء على الشيء كون الشيء ذا سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وأنواع التصرف فيه، وهذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنّه تبيان كلّ شيء بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماوية، يحفظ منها الأُصول الثابتة غير المتغيرة، وينسخ منها ما ينبغي أن ينسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرق إليه التغير والتبدل ممّا يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط التكامل بمرور الزمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء . 9).

وقال: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة . 106).

فهذه الجملة أعني قوله: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ متممة لقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ تتميم ايضاح، إذ لولاها لأمكن أن يتوهّم من تصديق القرآن للتوراة والانجيل أنّه يصدق ما فيهما من الشرائع والأحكام، تصديق إبقاء من غير تغيير وتبديل لكن توصيفه بالهيمنة يبيّن أنّ تصديقه لهما تصديق إنّهما شرائع حقّة من عند الله، وانّ لله أن يتصرف فيها ما يشاء بالنسخ والتكميل كما يشير إليه قوله سبحانه في ذيل الآية: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [3].

اشارات قرآنية إلى الخاتمية :

ثمّ إنّ في الكتاب الحكيم آيات تشير إلى خاتمية الرسول الأكرم ﷺ وخاتمية كتابه

---

(1) و (2) لاحظ الآية 13 من المائدة.

(3) الميزان: ج 5 ص 378 . 379.

ويقف على تلك الإشارات كل من أمعن النظر في مضامينها ونذكر في المقام بعض الآيات :

1. ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام 114 . 115).

ودلالة قوله سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ على إيصاد باب الوحي وانقطاعه إلى يوم القيامة وتمامية الشرائع النازلة من الله سبحانه طوال قرون إلى سفرائه، واضحة بعد الوقوف على معنى الكلمة في القرآن.

إنّ « الكلمة » في القرآن قد استعملت في معان أو في مصاديق مختلفة بمعنى واحد جامع واسع، حتى استعملت في العين الخارجي.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران . 45) كما استعملت في القضاء والوعد القطعي قال سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود . 119) إلى غير ذلك.

لكن المراد منها في الآية هو الدعوة الإسلامية أو القرآن الكريم، وما فيه من شرائع وأحكام، والشاهد عليه الآية المتقدمة حيث قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ فالمراد من قوله: ﴿ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾ هو القرآن النازل على العالمين، ثم يقول: بأنّ الذين آتيناهم الكتاب من قبل كاليهود والنصارى إذا تخلصوا عن الهوى، يعلمون أنّ القرآن وحي إلهي كالتوراة والأنجيل وأنّه منزل من الله سبحانه بالحق، فلا يصح لأي منصف أن يتردد في كونه نازلاً منه إلى هداية الناس.

ثمّ يقول في الآية التالية: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ بظهور الدعوى المحمديّة، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب وصارت مستقرة في محلها بعد ما كانت تسير دهراً

طويلاً في مدارج التدرج بنبوّة بعد نبوّة وشريعة بعد شريعة [1].

وهذه الكلمة الالهية أعني الدعوة الالهية المستوحاة في القرآن الكريم صدق لا يشوبه كذب وما فيه من الأحكام من الأمر والنهي، عدل لا يخالطه ظلم ولأجل تلك التمامية لا تتبدل كلماته وأحكامه من بعد [2].

وأمّا ما احتمله صاحب المنار من أنّ المراد من الكلمة ما وعد الله به نبيّه من نصره وخذلان مستهزئيه مستشهداً بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات: 171 ـــ 173) وما في معناه من الآيات، فممّا لا يلائم سياق الآيات ولا يناسب قوله: ﴿ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ ولا قوله: ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ إلّا بالتكلّف الذي ارتكبه صاحب المنار [3].

* * *

هذا حال الخاتمية في الذكر الحكيم وقد عرفت أنّه ناطق بايصاد باب النبوّة والرسالة، وخاتميتهما، وقد وردت في المقام أحاديث متواترة عن النبي الخاتم ﷺ وآله الطاهرين فلأجل ايقاف القارئ على تلكم الكلم الرية عقدنا الفصل التالي :

---

(1) الميزان: ج 7 ص 328، مجمع البيان ج 2 ص 354.

(2) وقد استعملت الكلمات في القرآن الكريم في الشرائع الالهية قال سبحانه واصفاً مريم: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ (التحريم . 12).

(3) المنار: ج 8 ص 12.

الخاتمية

في الأحاديث الإسلامية

لقد حصحص الحق بما أوردناه من النصوص القرآنية وانكشف الشك عن محيا اليقين، فلم تبق لمجادل شبهة، في أنّ الرسول صلى الله عليه وآله خاتم النبيين والمرسلين ودينه خاتم الأديان وكتابه خاتم الكتب وقد وردت عن النبي والأئمّة من بعده نصوص في المقام تؤكد المطلب فلا بأس بالتعرض لها، وتوضيح بعضها، إذ لم نجدها مجتمعة في باب أو كتاب.

تنصيص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على الخاتمية

1. خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة إلى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له علي عليه السلام: أخرج معك ؟ فقال صلى الله عليه وآله: لا، فبكى علي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبي بعدي، أو ليس بعدي نبي، أو لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي » [1].

وهذا الحديث صحيح متفق عليه بين الأُمّة، لم يشك أحد في صحة سنده ولا سنح في خاطر كاتب أن يناقش في ثبوته.

---

(1) سمّي حديث المنزلة، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله نزّل فيه نفسه منزلة موسى، ونزّل عليّاً مكان هارون.

وحسبك أنّه أخرجه البخاري في صحيحه في غزوة تبوك [1] ومسلم في صحيحه في باب فضائل علي عليه السلام [2] وابن ماجة في سننه في باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله [3] والحاكم في مستدركه في مناقب عليٍّ عليه السلام [4] وإمام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة [5].

قال « ابن عبد البر » في استيعابه: هذا من أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي سعد بن أبي وقاص، قال طرق حديث سعد كثيرة جداً، ذكرها ابن خيثمة وغيره ورواه ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأُمّ سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله، وجماعة يطول ذكرهم [6]. ورواه من أعلام الطائفة، صدوق الأُمّة في أماليه ومعانيه [7] وشيخ الطائفة في أماليه [8] والعلاّمة الكراجكي في كنزه [9] وقطب الدين الراوندي في خرائجه [10] وابن شهر آشوب في مناقبه [11]، وقال: وصنف أحمد بن محمد بن سعيد كتاباً في طرقه قد تلقّته الأُمّة بالقبول اجماعاً، والكاتب الاربلي في كشف الغمة [12]، وقد جمع العلاّمة المجلسي طرق الحديث من الفريقين في جامعه [13].

وفيما ذكرنا من المصادر غنى وكفاية، لا حاجة إلى الاستقصاء، فإن كل من

---

(1) صحيح البخاري، الجزء الثالث ص 58.

(2) صحيح مسلم، الجزء الثاني ص 323 ـ 324.

(3) سنن ابن ماجة، الجزء الأوّل ص 28.

(4) مستدرك الحاكم، الجزء الثالث ص 109 وفي مواضع أُخر.

(5) مسند ابن حنبل، الجزء الأوّل ص 331 والجزء الثاني ص 369 و 437، والمغازلي في مناقبه ص 237 ـــ 238 والخوارزمي في مناقبه ص 76.

(6) راجع الاستيعاب في ترجمة علي عليه السلام.

(7) أمالي الصدوق: ص 29، ومعاني الأخبار ص 74 وقد بسط الكلام في دلالة الحديث.

(8) أخرجه في أماليه في مواضع مختلفة، راجع ص 28 و 31 و 159 و 164 و 193 و 218 و 331.

(9) كنز الفوائد: ص 282.

(10) الخرائج والجرائح: ص 75.

(11) مناقب ابن شهر آشوب: ج 1 ص 522.

(12) كشف الغمة: ص 44.

(13) بحار الأنوار: ج 37، الباب 53 ص 254 ـ 289.

تعرض لغزوة تبوك، أو عقد باباً لفضائل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أثبته في كتابه.

ووضوح دلالة الرواية أغنانا عن البحث حولها.

2. عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين [1].

صورة أُخرى للرواية :

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلّا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع هذه اللبنة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء [2].

3. انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لي خمسة أسماء، أنا محمد وأحمد، أنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي [3].

4. قال عرباض بن سارية: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: إنّي عبد الله وخاتم النبيين وانّ آدم لمنجدل في طينة وسأُخبركم من ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي.

وفي صورة أُخرى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّي عبد الله وخاتم النبيين. فذكر مثله وزاد في أنّ أُمّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام [4].

5. وفي حديث الشفاعة: فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى اشفع لنا إلى ربّك

---

(1) صحيح البخاري: 4 / 226، مسند أحمد: 2 / 398 و 412 وراجع الدر المنثور: 5 / 204.

(2) التاج: 3 / 22 عن البخاري ومسلم والترمذي.

(3) الطبقات الكبرى: 1 / 65 . مسند أحمد: 4 / 81 و 84 . صحيح مسلم: 8 / 89.

(4) الطبقات الكبرى: 1 / 96 ـ مسند أحمد: 4 / 127 و 128 ـ ينابيع المودة: ص 10 الميزان: 19 / 295 مع اختلاف يسير.

فليقض بيننا، فيقول: إنّي لست هناكم ائتوا محمداً ﷺ فانّه خاتم النبيين [1].

6. وجاء في حديث الشفاعة: قال ﷺ: فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فاشفع لنا ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه [2].

7. عن أبي هريرة أنّه قال: قال ﷺ: أُرسلت إلى الناس كافة وبي ختم النبيون [3].

8. في حديث: قال رسول الله ﷺ: إنّي خاتم ألف نبي وأكثر [4].

9. قال رسول الله ﷺ: إنّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، قال: فشق ذلك على الناس، فقال: لكن المبشّرات، فقالوا: يا رسول الله وما المبشّرات ؟ قال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوّة [5].

10. عن جابر بن عبد الله: أنّ النبي ﷺ قال: أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أوّل شافع ومشفع ولا فخر [6].

11. عن قتادة أنّ النبي ﷺ قال: كنت أوّل الناس في الخلق وآخرهم في البعث [7].

12. عن النبي ﷺ: يا علي أخصمك بالنبوّة فلا نبوّة بعدي وتخصم الناس بسبع ولا يجاحدك فيه أحد من قريش: أنت أوّلهم إيماناً بالله ... [8].

13. استأذن العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ في الهجرة، فقال له: يا عم أقم

---

(1) مسند أحمد: 3 / 248 وراجع صحيح البخاري: 6 / 106.

(2) صحيح البخاري: 6 / 106 . مسند أحمد: 2 / 436.

(3) الطبقات الكبرى: ج 1 ص 128 مسند أحمد: ج 2 ص 412.

(4) مسند أحمد: 3 / 79.

(5) سنن الترمذي: 3 / 364.

(6) سنن الدارمي: 1 / 27، المطبوع بدمشق عام 1349.

(7) الطبقات الكبرى: 1 / 96 . ينابيع المودة: ص 17 وفيه: أوّل الأنبياء في الخلق.

(8) حلية الأولياء: 1 / 66.

مكانك الذي أنت به فإنّ الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوّة ثم هاجر إلى النبي ﷺ وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة ... [1].

14. انّ رسول الله ﷺ قال: إنّما أخاف على أُمّتي الأئمّة المضلّين فإذا وضع السيف في أُمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أُمّتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أُمّتي الأوثان، وأنّه يكون في أُمّتي ثلاثون كذّابون كلّهم يزعم أنّه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أُمّتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك [2].

15. وعنه ﷺ: فضّلت بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون [3].

16. عن النبي ﷺ قال: في أُمّتي كذّابون دجّالون سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة وانّي خاتم النبيين لا نبي بعدي [4].

17. سأل جابر النبي ﷺ عن أوّل شيء خلقه الله قال: هو نور نبيّك يا جابر خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء ... ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ومبعوثاً إلى كافة الناس أجمعين ورحمة للعالمين [5].

18. عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ... وجعل اسمي في القرآن محمداً فأنا محمود في جميع القيامة في فصل القضاء لا يشفع أحد غيري. وسمّاني في القيامة حاشراً يحشر الناس على قدمي. وسمّاني الموقف اوقف الناس بين يدي الله جل جلاله. وسمّاني العاقب أنا عقب النبيين ليس بعدي رسول وجعلني رسول الرحمة [6].

---

(1) أُسد الغابة: 3 / 110.
(2) جامع الأُصول: 10 / 410.
(3) جامع الصغير: 2 / 126.
(4) الدر المنثور: 5 / 204.
(5) ينابيع المودة ك ص 14 ـ 15.
(6) علل الشرائع: 1 / 122 ـ الخصال: 2 / 425 ـ معاني الأخبار: 51 ـ بحار الأنوار: 16 / 63.

19. عن أبي جعفر عليه السلام قال في حديث: قال النبي صلى الله عليه وآله: أيها الناس أنّه لا نبي بعدي ولا سنّة بعد سنّتي فمن ادّعى ذلك فدعواه وبدعته في النار فاقتلوه ومن تبعه فانّه في النار. أيها الناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرّقوا واسلموا وسلّموا كتب الله: ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1].

قوله صلى الله عليه وآله: « لا سنّة بعد سنّتي » يبطل كل شريعة سوى شريعته إلى يوم القيامة.

ورواه الكاتب الأربلي في كتابه بصورة أُخرى. قال: قال صلى الله عليه وآله في مرض موته والمسلمون مجتمعون حوله: « أيها الناس انّه لا نبي بعدي، ولا سنّة بعد سنّتي، فمن ادّعى ذلك فدعواه وباغيه في النار. أيها الناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا واسلموا وسلّموا كتب الله: ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ » [2].

20. عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أيها الناس انّه لا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكم إلّا فأعبدوا ربّكم ... [3].

21. عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا خاتم النبيين وعليٍّ خاتم الوصيين [4].

22. عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه خطب في أوسط أيام التشريق فقال: إنّ الله عزّ وجلّ حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا وبلدكم هذا إلى يوم تلقونه إلّا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكم ثم رفع يديه حتى أنّه ليرى بياض ابطيه ثمّ قال: اللّهمّ اشهد انّي قد بلّغت [5].

---

(1) الفقيه: 4 / 163. وسائل الشيعة: 18 / 555.

(2) كشف الغمة: ج 1 ص 21. البحار: ج 22 ص 531.

(3) الخصال: 1 / 322. وسائل الشيعة: 1 / 15.

(4) عيون أخبار الرضا: 2 / 47.

(5) الخصال: 2 / 487 وفي طبعة أُخرى ص 84.

23. عن أبي أُمامة قال: كنّا ذات يوم عند رسول الله ﷺ جلوساً فجاءنا علي بن أبي طالب عليه السلام واتفق من رسول الله ﷺ قيام فلمّا رأى علياً جلس فقال يا ابن أبي طالب: أتعلم لم جلست ؟ قال: اللّهمّ لا، فقال ﷺ : ختمت أنا النبيين وختمت أنت الوصيين ... [1].

24. عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام أنّه قال حج رسول الله ﷺ من المدينة ـــ وساق قصة غدير خم وخطبة النبي فيها ـــ وقال: بي والله بشّر الأوّلون من النبيين والمرسلين وأنا خاتم النبيين والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين من أهل السموات والأرضين فمن شك في هذا فهو كافر كفر الجاهلية الأُولى ومن شك في قولي هذا فقد شك في الكل، والشاك في ذلك فهو في النار [2].

25. عن رسول الله ﷺ في حديث: إنّ الله تعالى أوحى إليّ أن اتخذ عليّاً أخاً كما أنّ موسى اتخذ هارون أخاً واتخذ ولده ولداً فقط طهرتهم كما طهرت ولد هارون إلّا أنّي ختمت بك النبيين فلا نبي بعدك فهم الأئمّة الهادية ... [3].

26. عن علي بن هلال عن أبيه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو في الحالة التي قبض فيها فإذا فاطمة عند رأسه فبكت حتى ارتفع صوتها فرفع رسول الله ﷺ إليها رأسه وقال: ... نحن أهل بيت قد أعطانا الله عزّ وجلّ سبع خصال لم يعط أحداً قبلنا ولا يعطي أحداً بعدنا أنا خاتم النبيين وأكرم النبيين على الله عزّ وجلّ ... [4].

27. عن النبي ﷺ قال: أنا الأوّل والآخر [5].

قال الأربلي في كشف الغمة في ذيل هذا الحديث: لأنّه أوّل في النبوّة وآخر في البعثة.

28. عن أنس في حديث طويل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا خاتم الأنبياء

---

(1) تفسير الفرات: ص 87 . أمالي الطوسي: ص 305 مع تفاوت يسير.

(2) الاحتجاج: ص 37 . مستدرك الوسائل: 3 / 247.

(3) الاحتجاج: 68.

(4) كشف الغمة: 3 / 369.

(5) كشف الغمة: 1 / 17.

وأنت يا عليّ خاتم الأولياء [1].

29. روي عن رسول الله ﷺ في أدعية أيام شهر رمضان: اللّهمّ اجعلني فيه محباً لأوليائك ومعادياً لأعدائك مستنّاً بسنّة خاتم أنبيائك يا عاصم قلوب النبيين [2].

30. عن علي بن إبراهيم بن هاشم في حديث: انّ اليهود أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد إلى ما تدعو ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله ... واخبركم عالم منكم جاء كم من الشام فقال: تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبي يبعث في هذه الهجرة مخرجه مكة ومهاجره هاهنا وهو آخر الأنبياء وأفضلهم يركب الحمار ... [3].

31. عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : أنا خاتم الأنبياء وأنت يا علي خاتم الأوصياء ... [4].

32. روى السيد ابن طاووس في اقباله متن الصحيفة التي ورثها الخلف عن السلف من الأنبياء وفيها: ... أكمل بمحمد ﷺ وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني واختم به أنبيائي ورسلي فعلى محمد وأُمّته تقوم الساعة [5].

33. عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله ﷺ : « أيها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة وحرامي حرام إلى يوم القيامة ألا وقد بيّنهما الله عزّ وجلّ في الكتاب وبيّنتهما لكم في سنّتي وسيرتي » [6].

34. قال رسول الله ﷺ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي

---

(1) نور الثقلين: 4 / 284.

(2) زاد المعاد: ص 174 دعاء اليوم الخامس والعشرين.

(3) اثبات الهداة: ج 1 ص 374 وراجع ج 1 ص 387.

(4) احقاق الحق: ج 4 ص 120.

(5) اقبال السيد ابن طاووس ص 734 طبعة تبريز وص 509 طبعة طهران.

(6) كنز الفوائد: ص 164 وسائل الشيعة: ج 18 ص 124.

خلفه نبي، وأنّه لا نبي بعدي وسيكون بعدي خلفاء [1].

تنصيص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الخاتمية

هذا أمير المؤمنين باب علم النبي صلى الله عليه وآله وموضع سره فقد نص في غير واحد من خطبه على كون الرسول الأكرم خاتماً لمن سبق وكتابه خاتماً للتشريع ودونك نصوصه الناصعة ونصوص أولاده الطاهرين :

35. قال علي عليه السلام : إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لانجاز عدّته وإتمام نبوّته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده ... [2].

36. وعنه عليه السلام : اجعل شريف صلواتك ونامي بركاتك على محمد صلى الله عليه وآله عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق المعلن الحق بالحق ... [3].

قوله: « الفاتح لما انغلق » يريد لما كانت أبواب القلوب قد انغلقت بأقفال الضلال عن طوارق الهداية، فافتتحها بآيات نبوّته، فأعلن الحق، وأظهره بالحجة والبرهان.

وأمّا ما رواه الشيخ والسيد في زيارة مولانا أمير المؤمنين: « السلام على رسول الله، أمين الله على وحيه، وعزائم أمره، الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كلّه ورحمة الله وبركاته » فالمراد منه: الفاتح لما استقبل من أبواب الهداية والبركات المعنوية، فهو صلى الله عليه وآله وإن ختم ما سبق من أبواب الهداية، فلا يمكن الاهتداء بتوراة موسى ولا بانجيل المسيح، إلّا أنّه فتح أمام البشر أبواباً للهداية بقرآنه، وسنّته وعمله وتقريره وأوصيائه.

37. وعنه عليه السلام : أيها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله انّه يموت من

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم راجع جامع الأصول: ج 4 ص 40.

(2) نهج البلاغة الخطبة الأولى.

(3) نهج البلاغة الخطبة 69.

مات منّا وليس بميت ... [1].

38. وعنه عليه السلام : اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه ... فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده ولم تخلهم بعد أن قبضه ممّا يؤكد عليهم حجّة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمّت بنبينا محمد صلى الله عليه وآله حجّته وبلغ المقطع عذره ونذره ... [2].

39. وعنه عليه السلام : أرسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الألسن فقفى به الرسل وختم به الوحي ... [3].

40. وعنه عليه السلام : أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته ... [4].

41. وعنه عليه السلام : ثمّ إنّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه واصفاه خيرة خلقه وأقام دعائمه على محبّته أذل الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه وأهان أعدائه بكرامته، وخذل محاديه بنصره وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش من حياضه، وأتاق الحياض لمواتحه.

ثمّ جعله لا إنفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا إنهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذ لفروعه، ولا ضنك لطرقه، ولا وعوثة لسهولته، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لإنتصابه، ولا عصل في عوده، ولا وعث لفجه، ولا انطفاء لمصابيحه، ولا مرارة لحلاوته.

وقال عليه السلام وهو يصف القرآن :

ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه ،

---

(1) نهج البلاغة الخطبة 83.

(2) نهج البلاغة الخطبة 87.

(3) نهج البلاغة الخطبة 129.

(4) نهج البلاغة الخطبة 168.

وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءاً لا تخشى أسقامه، وعزّاً لا تهزم أنصاره وحقّاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون [1].

42. ومن كلام له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بأبي أنت وأُمّي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء خصصت حتى صرت مسلياً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء ... [2].

43. وقال عليه السلام في خطبة الوسيلة: فقال وقد حشده المهاجرون والأنصار وانغصت بهم المحافل: أيها الناس إنّ علياً منّي كهارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي ... [3].

44. ومن خطبة له عليه السلام : الحمد الله علا فاستعلى ودنا فتعالى وارتفع فوق كل منظر وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وحجّة الله على العالمين ... [4].

45. وقال عليه السلام ذات يوم على منبر الكوفة: أنا سيد الوصيين ... أنا وارث علم الأوّلين وحجة الله على العالمين بعد الأنبياء ومحمد بن عبد الله خاتم النبيين ... [5].

46. وفي بعض دعائه عليه السلام : وربّ الملائكة أجمعين وربّ محمد صلى الله عليه وآله خاتم

---

(1) نهج البلاغة الخطبة 193.

(2) نهج البلاغة الخطبة 230 ومجالس المفيد ص 527 والبحار ج 22 ص 527.

(3) الكافي: 8 / 26.

(4) الكافي: 8 / 67 . نهج السعادة الخطبة 1 / 188.

(5) غاية المرام: ص 47. أمالي الصدوق: ص 17.

النبيين والمرسلين وربّ الخلق أجمعين [1].

47. وعنه عليه السلام في بعض خطبه: أيها الناس عليكم بالطاعة والمعرفة لمن لا تعذرون بجهالته فإنّ العلم الذي هبط به آدم عليه السلام وجميع ما فضّلت به النبييون إلى محمد خاتم النبيين في عترة محمد صلى الله عليه وآله ... [2].

48. وفي بعض احتجاجاته: أمّا رسول الله فخاتم النبيين ليس بعده نبي ولا رسول وختم برسول الله الأنبياء إلى يوم القيامة [3].

49. وقال عليه السلام في بعض خطبه: وأشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم النبيين وحجّة الله على العالمين [4].

50. عن الأصبغ بن نباته قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب ذات يوم فحمد الله وإثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال: أيها الناس اسمعوا مقالتي ... ومنّا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام وأُمناء الكتاب ... [5].

51. وعنه عليه السلام: ختم محمد ألف نبي وانّي ختمت ألف وصي وانّي كلّفت ما لم يكلّفوا [6].

52. عن جابر بن عبد الله في حديث: فخرّ عليٌّ عليه السلام ساجداً ثمّ قال: الحمد لله الذي أنعم عليّ بالإسلام وعلّمني القرآن وحبّبني إلى خير البرية وخاتم النبيين وسيد المرسلين إحساناً منه وفضلاً منه عليّ ... [7].

53. وعنه عليه السلام في حديث: فخررت ساجداً لله تعالى وحمدته على ما أنعم به

---

(1) الصحيفة العلوية دعاء اليوم السادس والعشرين.

(2) كشف اليقين: ص 24 ـ تفسير القمي: ص 343 ـ غاية المرام: ص 358 ـ نهج السعادة الخطب 3 / 18 نقلاً عن غيبة النعماني وارشاد المفيد ومسترشد الطبري.

(3) كتاب سليم بن قيس: ص 97 . الاحتجاج: 1 / 220 الطبع الحديث.

(4) الوافي: ج 14 ص 11.

(5) كشف الغمة: 1 / 506.

(6) نور الثقلين: 4 / 284.

(7) غاية المرام: ص 127.

عليّ من الإسلام والقرآن وحبّبني إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين [1].

تنصيص فاطمة الزهراء عليها السلام على الخاتمية :

54. عن أسماء بنت عميس قالت حدثتني فاطمة عليها السلام لما حملت بالحسن وولدته جاء النبي صلى الله عليه وآله ... ثمّ هبط جبرئيل فقال: يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي بعدك سم ابنك هذا باسم ابن هارون ... [2].

55. عن فاطمة الزهراء عليها السلام في بعض دعواتها: اللّهمّ صلّي على محمد وآل محمد صلاة يشهد بها الأوّلون مع الأبرار وسيد المتقين وخاتم النبيين وقائد الخير ومفتاح الرحمة [3].

تنصيص السبط المجتبى عليه السلام على الخاتمية :

56. عن الحسن عليه السلام في بعض خطبه: أنا ابن نبي الله ... أنا ابن خاتم النبيين وسيد المرسلين [4].

57. عن سليم بن قيس قال: قام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على المنبر حين اجتمع مع معاوية وأصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيها الناس انّ معاوية زعم انيّ رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي أهلاً وكذب معاوية ... وقد ترك الأُمّة عليّاً عليه السلام وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليٍّ عليه السلام : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير النبوّة فلا نبي بعدي ... [5].

58. عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: جاء نفر إلى رسول

---

(1) غاية المرام: ص 552.
(2) عيون أخبار الرضا: 2 / 25.
(3) مقباس المصابيح: ص 113.
(4) مقتل الخوارزمي: 1 / 126.
(5) مكاتيب الأئمة: 2 / 24.

الله ﷺ فقال: يا محمد إنّك الذي تزعم أنّك رسول الله وأنّك الذي يوحى إليك كما أوحى الله إلى موسى بن عمران فسكت النبي ساعة ثمّ قال: نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا خاتم النبيين وإمام المتقين ورسول ربّ العالمين ... [1].

تنصيص الإمام سيد الشهداء عليه السلام على الخاتمية

59. في حديث الأعمش عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: فأخبرني يا رسول الله هل يكون بعدك نبي ؟ فقال لا أنا خاتم النبيين لكن يكون بعدي أئمّة قوّامون بالقسط بعدد نقباء بني إسرائيل... [2].

60. وفي دعائه ليوم عرفة: الحمد لله حمداً يعادل حمد ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين وصلّى الله على خيرته محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين المخلصين.

وقوله: وربّ محمد خاتم النبيين وآله المنتجبين ومنزل التوراة والانجيل والزبور والقرآن الكريم [3].

61. وقال أيضاً في ذلك الدعاء: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين [4].

62. وفي بعض أشعاره :

أبي عليٌّ وجدّي خاتم الرسل والمرتضون لدين الله من قبلي [5]

تنصيص الإمام زين العابدين عليه السلام على الخاتمية

63. قال في بعض دعواته: فختم بنا على من ذرع وجعلنا شهداء على من

---

(1) البرهان: 2 / 41.

(2) المناقب للمازندراني: 2 / 300 . اثبات الهداة: 2 / 544.

(3) الاقبال: ص 342 . 343.

(4) الاقبال: ص 343.

(5) كشف الغمة: 2 / 213 . بحار الأنوار: 78 / 125 وفي طبع الكمباني: 18 / 150.

جهد [1].

64. وقال: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين واعذنا وأهالينا واخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات ممّا استعذنا منه [2].

65. وقال: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين [3].

66. وقال: اللّهمّ لك الحمد أن خلقت فسوّيت وقدرت وقضيت وأمت وأحييت ... فصلّ على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين [4].

67. وقال: واجمع بيني وبين المصطفى وآله خيرتك من خلقك وخاتم النبيين محمد ... [5].

تنصيص الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام على الخاتمية

68. عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيّكم الأنبياء [6].

69. وعنه عليه السلام في حديث آخر: ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ أرسل عيسى بن مريم إلى بني إسرائيل خاصة فكانت نبوّته ببيت المقدس وكان من بعده الحواريون اثنى عشر فلم يزل الإيمان يستسر في بقية أهله منذ رفع الله عيسى وأرسل الله تبارك وتعالى محمداً إلى الجن والانس عامة وكان خاتم الأنبياء وكان من بعده الاثنا عشر أوصياء [7].

70. وعنه عليه السلام في دعاء أيام شهر رمضان: اللّهمّ ربّ الفجر وليال عشر ... وربّ خاتم النبيين صلواتك عليه ... [8].

---

(1) الصحيفة السجادية: الدعاء 12.

(2) الصحيفة السجادية: الدعاء 17.

(3) ملحقات الصحيفة السجادية: دعاء يوم الثلاثاء.

(4) ملحقات الصحيفة السجادية: دعاء يوم الأربعاء.

(5) مصباح المتهجد: ص 408 دعاء أبي حمزة الثمالي.

(6) الكافي: 1 / 177 . الوافي: ج 2 ص 19.

(7) اكمال الدين: ص 127.

(8) الاقبال: ص 91.

71. وعنه في زيارة الحسين في عاشوراء: السّلام عليك يا مولاي يا أبا عبد الله يا ابن خاتم النبيين ويا بن سيّد الوصيّين ويا بن سيّدة نساء العالمين [1].

تنصيص الإمام الصادق عليه السلام على الخاتمية

72. عن الصادق في حديث: فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة ... [2].

73. عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة لا يكون غيره ولا يجيء غيره [3].

74. قال عليه السلام: بعث أنبياءه ورسله ونبيه محمداً فأفضل الدين معرفة الرسل وولايتهم وأخبرك أنّ الله أحلّ حلالاً وحرّم حراماً إلى يوم القيامة [4].

75. عن أبي عبد الله عليه السلام: انّ بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم ؟ فقال: إنّي كنت أوّل من آمن بربي ... [5].

76. قال له عليه السلام قائل: علّمني دعاءً ؟، فقال: أين أنت من دعاء الالحاح، فقال له الطالب: وما دعاء الالحاح ؟ فقال له: تقول: اللّهمّ ربّ السموات السبع وما فيهن وربّ الأرضين السبع وما فيهن وربّ العرش العظيم وربّ محمد خاتم النبيين أسألك باسمك ... [6].

77. وقال عليه السلام في كيفية زيارة الحسين عليه السلام في حديث: ثمّ امش وقصر خطاك حتى تستقبل القبر واجعل القبلة بين كتفيك واستقبل بوجهك وجهه وقل: السلام عليك من الله والسلام على محمد أمين الله على رسله وعزائم أمره الخاتم لما

---

(1) هدية الزائرين: ص 135 ـ 137.
(2) الكافي: 2 / 17 ـ المحاسن: ص 193.
(3) الكافي: 1 / 57.
(4) البحار: ج 24 ص 288.
(5) الكافي: 2 / 10.
(6) قرب الاسناد: ص 4 ـ 5.

سبق والفاتح لما استقبل ... اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد صاحب ميثاقك وخاتم رسلك وسيد عبادك ... [1].

78. عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الأنبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده أحل فيه حلالاً وحرّم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة ... [2].

79. وعنه عليه السلام: إذا أردت زيارة قبر أمير المؤمنين فتوضّأ واغتسل وامش على هيئتك وقل ... السلام من الله والتسليم على محمد أمين الله على رسالته وعزائم أمره ومعدن الوحي والتنزيل الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل [3].

80. عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: يستحب أن يصلّي على النبي صلى الله عليه وآله بعد العصر يوم الجمعة بهذه الصلاة: اللّهمّ انّ محمداً صلى الله عليه وآله كما وصفته في كتابك ... وأنّه رسولك وخاتم النبيين وجاء بالحق من عندك وصدق المرسلين [4].

81. وقال في تلك الصلاة أيضاً: اللّهمّ واجعل صلاتك وغفرانك ... وصلوات ملائكتك ورسلك وأنبيائك ... على محمد بن عبد الله سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين ... [5].

82. وعنه عليه السلام في زيارة الحسين المشهورة بوارث: السّلام عليك يا خاتم النبيين السّلام عليك يا سيّد المرسلين [6].

83. عن أيّوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله ختم بنبيّكم النبيين فلا نبي بعده أبداً وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً وأنزل فيه

---

(1) كامل الزيارات: ص 230 ـ 231.
(2) تفسير النعماني: ص 3 ـ الميزان: 3 / 81 نقلاً منه.
(3) تهذيب الأحكام: 7 / 25 ـ فرحة الغري: ص 33.
(4) مصباح المتجهد: ص 271 ـ 272.
(5) مصباح المتجهد: ص 272.
(6) مصباح المتجهد: ص 500.

تبيان كل شيء ... [1].

84. عن الصادق عليه السلام : إذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّك زائر الآباء الأوّلين ومحمد صلى الله عليه وآله خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين وانّ زائره يفتح له أبواب السماء فلا تكن على الخير نوماً [2].

85. عن الصادق عليه السلام : من قال عند غروب الشمس في كل يوم: يا من ختم النبوّة بمحمد صلى الله عليه وآله اختم لي في يومي هذا بخير وسنّتي بخير وعمري بخير ... [3].

86. عن الصادق عليه السلام : كان علي يرى مع رسول الله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت قال: وقال له صلى الله عليه وآله : لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصي نبي ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الاتقياء [4].

87. وروي عنه عليه السلام في كيفية تشهّد الصّلاة: فإذا جلست في الرابعة قلت: بسم الله وبالله ... السّلام على محمد بن عبد الله خاتم النبيين لا نبي بعده والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم تسلّم [5].

88. قال أبو عبد الله عليه السلام : إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي أمّا أنا لو أدركته لخرجت معه وكتب كتاباً إلى النبي صلى الله عليه وآله وعنوان الكتاب: إلى محمد بن عبد الله خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين من تبّع الأوّل [6].

89. روى عاصم بن حميد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا حضر أحدكم الحاجة فليصم ... ويقول ـ وذكر دعاءاً طويلاً نذكر منه موضع الحاجة ـ: اللّهمّ إنّي

---

(1) الوافي الجزء الثاني من ج 1 ص 144.
(2) مزار ابن المشهدي مخطوط: ص 14 ـ تحفة الزائر: ص 61.
(3) فلاح السائل: ص 202 ـ بحار الأنوار: 86 / 267.
(4) الشرح الحديدي على نهج البلاغة: 13 / 210 ـ غاية المرام: ص 47.
(5) وسائل الشيعة: 4 / 989 ـ 990.
(6) اثبات الهداة: 1 / 401.

أتقرّب إليك بنبيّك ورسولك وحبيبك خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين [1].

90. عن الفضيل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لم يبعث الله عزّ وجلّ من العرب إلّا خمسة أنبياء هوداً وصالحاً وإسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين [2].

91. وعنه عليه السلام في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: السّلام من الله على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين وإمام المتقين ... الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل ... [3].

92. وعنه عليه السلام في زيارته التي زار بها أمير المؤمنين عليه السلام في مولد النبي صلى الله عليه وآله: السّلام عليك يا من بات على فراش خاتم الأنبياء ووقّاه بنفسه عند مبارزة الأعداء وفي نسخة (شر الأعداء) [4].

93. وعنه عليه السلام أيضاً فيها: السّلام عليك يا وارث علم النبيين ومستودع علم الأوّلين والآخرين وصاحب لواء الحمد وساقي أوليائه من حوض خاتم النبيين السلام عليك يا يعسوب الدين وقائد الغر المحجّلين ووالد الأئمّة المرضيين ورحمة الله وبركاته [5].

94. وعنه عليه السلام في دعائه بعد زيارة أمير المؤمنين: أسألك بحق محمد خاتم النبيين وعلي أمير المؤمنين ... [6].

95. وروى بريد عن أبي جعفر وأبي عبد الله في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ﴾ قولهما: « لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيّكم الأنبياء » [7].

---

(1) اثبات الهداة: 2 / 472.

(2) البحار: 11 / 42 نقلاً عن قصص الأنبياء.

(3) البحار: 100 / 336.

(4) بحار الأنوار: 100 / 374 . زاد المعاد: ص 343.

(5) بحار الأنوار: 100 / 375 . زاد المعاد: ص 345.

(6) تحفة الزائر: ص 100.

(7) الكافي: ج 15 ص 177 ومضى ما يقرب منه في الحديث رقم 84.

تنصيص الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام على الخاتمية

96. عن علي بن رئاب عن العبد الصالح عليه السلام قال: ادع بهذا الدعاء في شهر رمضان مستقبل دخول السنة ... اللّهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع وما فيهنّ وما بينهنّ ... وربّ محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته سيد المرسلين وخاتم النبيين ... [1].

97. عن إبراهيم بن أبي البلاد قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: ... فكتب لي وأنا قاعد بخطه وقرأه عليّ: إذا وقفت على قبره (رسول الله) صلى الله عليه وآله فقل: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ... وأشهد أنّك خاتم النبيين ... [2].

98. عن موسى بن جعفر عليه السلام: انّ رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلّا غضاضة ؟ قال: لأنّ الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة [3] ودلالته على الخاتمية واضحة.

تنصيص الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام على الخاتمية

99. خطب الرضا عليه السلام هذه الخطبة: الحمد لله حمد في الكتاب نفسه وافتتح بالحمد كتابه ... وصلّى الله على محمد خاتم النبوّة وخير البرية وعلى آله آل الرحمة وشجرة النعمة ... [4].

100. وقال عليه السلام في حديث وصف الإمامة والإمام: فهي في ولد عليّ عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله ... [5].

101. وعنه عن آبائه عن علي: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي ما

---

(1) الكافي: 4 / 72 . الفقيه: 2 / 103.
(2) كامل الزيارات: ص 17.
(3) عيون أخبار الرضا: 2 / 87.
(4) الكافي: 5 / 373.
(5) عيون أخبار الرضا: 1 / 218.

سـألت ربّي شـيئاً إلّا سـألت لك مثله غير أنّه قال: لا نبوّة بعدك أنت خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين [1].

ابهام وايضاح :

كون علي عليه السلام خاتم الوصيين لا ينافي كون الحسن والحسين والأئمّة من بعده أوصياء أيضاً، فإنّ الوصاية عن الأنبياء قد ختمت بعلي، فلا وصي نبي بعد علي عليه السلام وأمّا الأئمّة من بعده فهم أوصياء وصيّه، أو أوصياء وصي وصيّه، لا أوصياء النبي نفسه، كما لا يخفى.

ويمكن أن يقال هنا وصاية واحدة متعلقة بعلي وأولاده: فوصاية الحسن والحسين والأئمّة من بعده بنفس الوصـاية المتعلقة بأبيهم أمير المؤمنين، فكون علي خاتم الأوصـياء، كناية عن كون الوصـاية المتعلقة به وبأولاده قد ختم بها باب الوصـاية السـماوية وبذلك يسـقط اسـتدلال الفرقة الضـالة بهذا الحديث على نفي كون « خاتم » بمعنى « آخر » قائلة بأنّه لو كان « الخاتم » بمعنى « الآخر » لزم سـلب الولاية عن الأئمّة الآخرين، وقد عرفت منّا فقه الحديث وليس اسـتدلالهم بهذا إلّا كتمسّك الغريق بالطحلب.

102. عن أبي الحسـن الرضـا عليه السلام قال: إنّما سمّي أُولوا العزم أُولي العزم لأنّهم كانوا أصـحاب الشرائع والعزائم وذلك أنّ كل نبي بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان على شـريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى أيام عيسى، وكل نبي كان في أيام عيسى وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه إلى زمن نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله فهؤلاء الخمسة أُولوا العزم فهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله

---

(1) عيون أخبار الرضا: 2 / 73.

لا تنســـخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادعى بعده نبوّة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه [1] وقد نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد.

103. عن الفضل بن شاذان قال: سأل المأمون علي بن موسى الرضا عليه السلام أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار فكتب عليه السلام له: أنّ محض الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ... وأنّ محمداً عبده ورسوله وأمينه وصفيّه وصفوته من خلقه وسيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين لا نبي بعده ولا تبديل لملّته ولا تغيير لشريعته وأنّ جميع ما جاء به محمد بن عبد الله هو الحق المبين والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله وأنبيائه وحججه والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأنّه المهيمن على الكتب كلّها وأنّه حق من فاتحته إلى خاتمته ... [2].

104. وعنه عليه السلام في حديث: حتى انتهت رسالته إلى محمد المصطفى صلى الله عليه وآله فختم به النبيين وفي نسخة (المرسلين) وقفى به على آثار المرسلين وبعثه رحمة للعالمين ... [3].

105. صورة ما كان على ظهر العهد الذي عهده المأمون إليه بخطه عليه السلام: الحمد لله الفعّال لما يشاء ... وصلواته على نبيّه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر ... [4].

106. روى الصدوق مسنداً عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله لما حملت بالحســـن وولدته ... ثم هبط جبرئيل فقال: يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي

---

(1) عيون أخبار الرضا: 2 / 80.

(2) عيون أخبار الرضا: 2 / 121 ـ 122.

(3) عيون أخبار الرضا: 2 / 154.

(4) المناقب للمازندراني: 4 / 364 ـ كشف الغمة: 3 / 177.

بعدك، سم ابنك باسم ولد هارون، فقال النبي ﷺ وما اسم ابن هارون ؟ قال شبّر، قال النبي ﷺ : لساني عربي، قال جبرئيل: سمّه الحسن [1].

تنصيص الإمام أبي محمد الجواد عليه السلام على الخاتمية

107. جاء في بعض دعواته: بسم الله قوي الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أشهد أنّ نوحاً رسول الله وانّ إبراهيم خليل الله وانّ موسى كليم الله ونجيّه وأنّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته صلوات الله عليه وعليهم أجمعين وأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده [2].

تنصيص الإمام الهادي عليه السلام على الخاتمية

108. عن عبد العظيم الحسني قال: دخلت على سيدي علي بن محمد عليهما السلام فلمّا أبصرني قال لي: مرحباً يا أبا القاسم أنت وليّنا حقاً قال: فقلت له: يا بن رسول الله انّي أُريد أن أعرض عليك ديني ... أنّي أقول: إنّ الله واحد ليس كمثله شيء ... وأنّ محمداً ﷺ عبده ورسوله خاتم النبيين ولا نبي بعده إلى يوم القيامة وأنّ شريعته خاتمة الشرائع فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة ... [3].

109. عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام في زيارته التي زار بها عليّاً عليه السلام في يوم الغدير في السنة التي أشخصه المعتصم ... السلام على محمد رسول الله خاتم النبيين وسيّد المرسلين وصفوة ربّ العالمين ... والخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل ... [4].

---

(1) عيون أخبار الرضا: ج 2 ب 1 ص 25.
(2) مهج الدعوات: ص 40. بحار الأنوار: 94 / 359.
(3) اكمال الدين: ص 214 الطبع الحجري.
(4) بحار الأنوار: 100 / 360.

تنصيص الإمام العسكري عليه السلام على الخاتمية

110. عن الإمام العسكري عليه السلام قال: لقد رامت الفجرة ليلة العقبة قتل رسول الله صلى الله عليه وآله على العقبة ورام من بقي من مردة المنافقين بالمدينة قتل علي بن أبي طالب فما قدروا مغالبة ربّهم، حملهم على ذلك حسدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام لمّا فخم من أمره وعظم من شأنه من ذلك أنّه لما خرج من المدينة وقد كان خلفه عليها ... قال أكثر المنافقين ملّه وسأمه وكره صحبته، فتبعه علي عليه السلام حتى لحقه ... فقال له: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي ... [1].

تنصيص الحجّة القائم عليه السلام على الخاتمية

111. قال عليه السلام في الصلوات المروية عنه التي خرجت إلى أبي الحسن الضراب الاصبهاني بمكّة: بسم الله الرحمن الرحيم اللّهمّ صلّ على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة ربّ العالمين ... [2].

112. وفي دعائه الذي قرأه في شهر رجب في مسجد السهلة: يا أسمع السامعين ويا أبصر المبصرين ويا أنظر الناظرين ويا أسرع الحاسبين ويا أحكم الحاكمين ويا أرحم الراحمين صلّ على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار ... [3].

113. وفي جوابه لكتاب أحمد بن اسحاق: بسم الله الرحمن الرحيم أتاني كتابك أبقاك الله ... ثمّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين وتمّم به نعمته وختم به أنبياءه وأرسله إلى الناس كافة وأظهر من صدقه ما أظهر وبيّن من آياته وعلاماته ما بيّن ثم قبضه الله إليه حميداً فقيداً سعيداً ... [4].

114. وفي الزيارة الخارجة من الناحية إلى أحد الأبواب الأربعة: السّلام على آدم

---

(1) غاية المرام: 151.

(2) مصباح المتهجد: ص 284.

(3) الاقبال: ص 645.

(4) مكاتيب الأئمة: 2 / 276.

صفوة الله من خليقته ... السّلام على ابن خاتم الأنبياء السّلام على ابن سيّد الأوصياء [1].

وفيها أيضاً: اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك يا أسرع الحاسبين ويا أكرم الأكرمين ويا أحكم الحاكمين بمحمد خاتم النبيين ورسولك إلى العالمين أجمعين ... [2].

روايات أُخرى

115. في رواية قال آدم: لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلّا الله محمد رسول الله فعلمت أنّه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممّن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي أنّه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه لما خلقتك [3].

116. وفي دعاء السمات: وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعترته الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً [4].

117. قال الله تعالى لآدم عليه السلام: أنت يا آدم أوّل الأنبياء والرسل وابنك محمد خاتم الأنبياء والرسل ... [5].

118. ومما أوحى الله إلى آدم: من ولدك إبراهيم أجري على يده عمارة بيتي تعمّره الأُمم حتى ينتهي إلى نبي يقال له خاتم النبيين أجعله من سكانه وولاته [6].

119. في التوراة عن الله تبارك وتعالى: إنّي باعث في الأُمّيين من ولد إسماعيل رسولاً انزل عليه كتابي وأبعثه بالشريعة القيّمة إلى جميع خلقي، أُوتيه حكمتي، وأيّدته بملائكتي وجنودي ... أُكمل بمحمد صلى الله عليه وآله وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني وأختم به أنبيائي ورسلي فعلى محمد صلى الله عليه وآله وأُمّته تقوم الساعة [7].

---

(1) بحار الأنوار: 101 / 318 . الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ص 203.

(2) بحار الأنوار: 101 / 323 . الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ص 217.

(3) ينابيع المودة: ص 17 . 18.

(4) بحار الأنوار: 90 / 101.

(5) اثبات الهداة: 1 / 318.

(6) اثبات الهداة: 1 / 400.

(7) الاقبال: ص 509.

120. وفي حديث بحيراء الراهب: أنت سيد ولد آدم وسيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ... [1].

121. وجاء في دعاء يوم الخميس: وصلّى الله على محمد خاتم النبيين وآله الطيبين والأخيار الأبرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون [2].

122. وجاء في تسبيح يوم الخميس: وصلّى الله على رسوله محمد خاتم النبيين وآله أجمعين [3].

123. وفي دعاء يوم الجمعة: اللّهم صلّ على محمد وآل محمد نبي الرحمة وقائد الخير وإمام الهدى والداعي إلى سبيل الإسلام ورسولك يا ربّ العالمين وخاتم النبيين وسيد المرسلين [4].

124. وفي دعاء أيام شهر رجب: يا أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأسرع الحاسبين يا ذا القوّة المتين صلّ على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته [5].

125. وفي دعاء ليلة النصف من شعبان: وصلّى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى أهل بيته الصادقين وعترته الناطقين [6].

126. عن ابن عباس أنّه قال: أوّل المرسلين آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وآله وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين نبي. المرسل (الرسل) منهم ثلاثمائة وخمسة، وخمسة منهم أُولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وخمسة منهم العرب هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله [7].

127. قال الطبرسي رحمه الله: وإذا أراد الرجوع إلى بيته فليقل حين يدخل بسم الله وبالله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ثمّ

---

(1) اثبات الهداة: 1 / 345.
(2) مصباح المتهجد: ص 34.
(3) مصباح المتهجد: ص 341.
(4) مصباح المتهجد: ص 345.
(5) مصباح المتهجد: ص 558.
(6) مصباح المتهجد: ص 586.
(7) الاختصاص: ص 264 . بحار الأنوار: 11 / 43.

يسلّم على أهله إن كان في البيت أحد فإن لم يكن في البيت أحد فليقل بعد الشهادتين السّلام على محمد بن عبد الله خاتم النبيين السلام على الأئمّة الهادين المهديين السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين [1].

128. وفي زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله : السّلام عليك يا خاتم النبيين أشهد أنّك قد بلغت الرسالة ... [2].

129. وأيضاً في زيارته صلى الله عليه وآله : السلام عليك يا نجيب الله السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا سيد المرسلين [3].

130. وأيضاً في زيارته صلى الله عليه وآله : السلام عليك يا حجة الله على الأوّلين والآخرين السابق في طاعة ربّ العالمين والمهيمن على رسله والخاتم لأنبيائه والشاهد على خلقه والشفيع إليه [4].

131. وأيضاً في زيارته صلى الله عليه وآله : أوّل النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً الذي غمسه في بحر الفضيلة ... [5].

132. في زيارة إبراهيم ابن رسول الله: السلام على محمد بن عبد الله سيد الأنبياء وخاتم الرسل ... [6].

133. وفي زيارة عاشوراء: السلام عليك ياوارث آدم صفوة الله ... وسبط خاتم المرسلين [7].

134. وفي زيارة الحسين عليه السلام في أوّل شهر رجب: السّلام عليك يابن

---

(1) مكارم الأخلاق: 188.

(2) بحار الأنوار: 100 / 161.

(3) بحار الأنوار: 100 / 183 . زاد المعاد ص 334.

(4) بحار الأنوار: 100 / 184 . زاد المعاد ص 335.

(5) بحار الأنوار: 100 / 185 . زاد المعاد ص 337.

(6) بحار الأنوار: 100 / 217 . هدية الزائرين ص 262 نقلاً عن المفيد وابن طاووس والشهيد.

(7) بحار الأنوار: 101 / 313.

رسول الله ﷺ السّلام عليك يا بن خاتم النبيين [1].

135. روي في الاختصاص، عن ابن عباس أنّه قال: أوّل المرسلين آدم وآخرهم محمد ﷺ وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسل منهم ثلاثمائة، خمسة منهم أُولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وخمسة من العرب هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد ﷺ [2].

هذه جملة ما وقفت عليه من آثار النبوّة والمأثورات عن أئمة أهل البيت [3] ولعلّ ما لم أظفر به أكثر ممّا ظفرت به، كل ذلك يؤيد ما هو المنصوص في القرآن الحكيم، وأنّ الله أوصد باب النبوّة ورسالة السماء إلى الأرض، ببعث نبيّه وآخر سفرائه محمد ﷺ فليس بعده نبي ولا شريعة ولا كتاب ولا ... هذا وقد أغناهم تصريح الكتاب بالموضوع عن افاضة القول فيه، كما هو شأن كلّ موضوع فيه نص في القرآن الكريم.

شبهات حول الخاتمية :

لقد حصحص الحق مما سردناه من الأدلّة والدلائل الناصعة، على خاتمية الرسول فلم يبق مقول لقائل ولا مصول لصائل، وما سردناه من الأدلّة يفيد القطع واليقين بالخاتمية للرسول الأعظم ﷺ لكل من آمن بقرآنه وسنّته القطعية، والاجماع المسلم بين الأُمّة المدعم بالضرورة والبداهة بين المسلمين.

غير أنّ شرذمة قليلة ممّن أصابهم مس من الالحاد والمادية، أخذوا يلقون حبالاً وعصياً في سبيل الضعفاء من المسلمين، يخدعون بها الهمج الرعاع والبسطاء من الناس فجاءوا بشكوك وشبهات لفّقوها من هنا وهناك لا تقل عن شبهات السوفسطائية تجّاه

---

(1) بحار الأنوار: 101 / 336.

(2) الاختصاص وبحار الأنوار: ج 11 ص 43.

(3) لا يخفى على القارئ الكريم ما عانيته من الجهود في جمع تلكم الأحاديث المأثورة عن النبي وآله من مصادرها المختلفة.

البديهة.

وقد اتخذت تلك الشرذمة الضئيلة انكار الخاتمية اداة للفتنة وسبيل إلى هدم الإسلام، وإضلال المؤمنين بها وتمهيداً لأهدافهم وأغراضهم الرجعية. تلك الشبهات توقفنا على مبلغ علمهم بالكتاب والسنّة ومدى إلمامهم بالأدب العربي وتوقفنا على أنّه لا هدف لهم في اختلاق هذه الشكوك، إلّا خدمة الاستعمار وتفريق الكلمة وهدم الصفوف الإسلامية، وقد عرفتهم الأُمّة الإسلامية، وعرفت نواياهم وضمائرهم كما عرفت قيمة شبهاتهم التي تتضاءل عند كل من له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة وتجعلها في معرض البطلان.

ولإسكات ما أحدثته هده الشبهات من جلبة وتركاض وصخب وهياج ولإماطة اللثام عن حقائق ناصعة، خفيت على من اختلقها. عقدنا هذا الفصل حتى يتجلى للقارئ الحق بأجلى مظاهره ولا يبقى للأفّاكين المتخرصين مجال للبحث والتشكيك.

لقد حسب هؤلاء المغترّون أنّ ما لفّقوه من الأوهام سينطلي على عقول أبناء الأجيال الصاعدة، ويتقبّلونه بصدر رحب، إلّا أنّه خفى عنهم، أنّ الوعي الذي تمتعت به هذه الأجيال أخذ يرد عليهم خرافتهم الباطلة، وأنّ المستقبل الكشّاف سيكشف عن سوأتهم.

ومن جهة أُخرى أنّ بعض هذه الأوهام التي جمعوها وطلوها ربّما يخيّل للبسطاء من الناس أنّها مسائل مستحدثة، أو دلائل جديدة إلّا أنّها ليست إلّا نسائج قديمة أكل عليها الدهر وشرب، وذكرت في كتب التفسير والحديث بشكل أسئلة أُجيبت عليها بأجوبة مقنعة ناجعة ... ولكنّهم من أجل ايقاع السذج والبسطاء في حبائلهم أخذوا بالأسئلة، وتركوا أجوبتها.

وها نحن نقف تجّاه هذه الشبهات وقفة، نجعلها في مدحرة البطلان ونقطع الطريق على هذه العصابات المجرمة وإن طال بنا الكلام، واتسع مقامنا مع القرّاء الكرام.

الفصل الثالث

شبهات

حول الخاتمية

لـــمّا حاول الاستعمار الغاشم الاستيلاء على الشرق الأوسط ومناطقه الخصبة وربوعه المعمورة ومعادنه الغالية وما يسيل تحت أراضيه من الذهب الأسود (البترول) إلى غير ذلك من الثروات الطائلة، قام بكل ما يملك من حول وقوة بشن الغارات عليه بصورة استفزازية مزرية.

نعم للاســتعمار أســاليب وتخطيطات وألوان مختلفة، تختلف حســب طبائع الأجيال والأمكنة والتخطيط الأصيل له والحجر الإساسي الذي ترتكز عليه مخططات المستعمرين هو أصل « فرّق تســد » فأُولئك هم وليدوا ذلك الأصــل، وهم المبتدعون له (على وجه غير دائر) فالتفريق بين قطاعات الشعب في المبدأ والعقيدة عامل هدام يبدد قوى الشعب، وسيل كاسح جارف، يخرب كل حاجز دون نواياهم، ويزعزع كل سد دون أهدافهم، فلا شيء أضر بحال الشعب وأنفع للعدو من إشاعة القلق والفوضى في المجتمع واختلاف الكلمة والتشتت في التوجيه والدعوة بين أفراده، فهي ضربة قاضية

تنصبّ على وجوده وتحول دون اتحاد أبنائه وتضامنهم ووقوفهم صفاً واحداً في وجه العدو وجرائمه المخزية وأعماله الاجرامية.

فها هي ذي بلادنا « إيران » كان يضرب المثل منذ زمن بعيد، باتحاد شعبها وتضامن أبنائها وقد اعتنق الإسلام كثير منهم في عهد الخلافة، وتفيأوا في ظلاله قروناً متطاولة، غير أنّ الاستعمار الغادر لم يرض باتحادهم وإتفاق كلمتهم، فطفق يديف السم في الدسم، يفرق كلمتهم في المبدأ والعقيدة، ببعث رجال التبشير والإنذار وإختلاق احزاب سياسية، مطبوعة بطابع الدين، ومصبوغة بصبغة المذهب، وليس فيها شيء يمت إلى الدين بصلة ولا مرمى لهم في ذلك، إلّا تضليل عقيدة الشعب وتدمير أخلاقه وتحطيم كرامته حتى يعود مرتداً متحلّلاً، فاقد الكرامة، مسلوب الإرادة، لا يلتزم بمبدأ ولا يؤمن بدين، ولا يعرف هدفاً يسعى إليه، سوى الاستهتار التام.

وعند ذلك يسهل للعدو تعكير الصفو وتمزيق الوحدة وضرب الشعب بعضه ببعض وتهون له الإغارة على الثروات الطائلة في أيديهم وما احتوته أراضيهم من معادن ومنابع.

هذا القلق الديني والفوضى المذهبية، اللذين نشاهدهما في الشرق الأوسط بل والعالم الإسلامي إنّما هما وليدا هذا الاستعمار الغاشم، وليدا تكتيكه الأصيل (فرّق تسد) وقد فتح هذا الاختلاف في وجه الشعب أبواباً من الأزمات الكثيرة في نواحي مختلفة.

ضع يدك على هذه الفرق المنحوتة، والدعوات السياسية المتولدة في القرن الأخير، واقرأ أُصولها وفروعها، وتأمّل في غاياتها المتوخّاة منها وطالع صحائف من حياة مؤسسيها ومبتكريها، تجدهم عمد الاستعمار وأذنابه، فمن شيخية إلى بابية، ومن أزلية إلى بهائية، ومن قاديانية إلى أحمدية وكلّها وليدة الاستعمار الغاشم، وليدة رجال العيث والفساد، وليدة الأفّاكين الذين عرفتهم الأُمّة، وعرفت نواياهم وسرائرهم وأهدافهم.

فدونك البهائية من هذه الفرق السياسية وقد اختلقها زعيمها « الميرزا حسين علي المازندراني » في إيران، لتراه يدعو تارة إلى الوهية نفسه ويقول: « إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا ،

كما قال النقطة الاولى من قبل بعينه يقوله، من يأتي من بعد » [1] ويدعو إلى نبوّته ورسالته تارة أُخرى، وأنّه نبي كسائر الأنبياء، وأنّ باب النبوّة مفتوح إلى يوم القيامة، لم يوصد بعد نبي الإسلام، ثم إنّ لهؤلاء الأقوام كُتّاباً مستأجرين استأجرهم الاستعمار لنصرة هذا الحزب المختلق بإسم الدين وطابع المذهب، وقد جاءوا بشبهات تافهة في مسألة الخاتمية، فدونك هذه الشبهات مع أجوبتها :

الشبهة الأُولى :

كيف يدّعي المسلمون انغلاق باب النبوّة والرسالة مع أنّ صريح كتابهم قاض بانفتاح بابه إلى يوم القيامة، وذلك قوله سبحانه :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف . 35).

قال: فهذا الخطاب الوارد في القرآن الكريم، النازل على قلب سيد المرسلين ينبئ عن مجيء الرسل بعد نبي الإسلام، ويدل بظاهر قوله: ﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الذي هو بصيغة المضارع، على أنّ باب النبوّة لم يوصد وأنّه مفتوح بعد، ومعه كيف يدعي المسلمون أنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين وآخرهم وكتابهم يشهد على خلافه [2].

الجواب عن الشبهة :

هذه الشبهة الواهية حصلت من الجمود على نفس الآية والغض عمّا تقدمها من الآيات فإنّك إذا لاحظت سياقها تذعن بأنّها ليست إنشاء خطاب في ظرف نزول القرآن بل حكاية لخطاب خاطب به سبحانه بني آدم في بدء الخلقة، ولقد حكاه في القرآن بعد لأي من الدهر، فكما أنّه سبحانه يحكي فيه الخطابات الدائرة بين رسله

---

(1) بديع: ص 154.

(2) الفرائد: ص 314 ط مصر 1315 هـ.

وجبابرة عصورهم من فرعون وقارون من دون انشاء خطاب في زمن الرسول، فهكذا يحكي في هذه الآية وما تقدمها، الخطابات الصادرة منه سبحانه في بدء الخلقة، وإن كنت في ريب مما ذكرناه، فلاحظ الآيات الواردة في سياقها ودونك إجمالها.

ابتدأ سبحانه بقصة آدم في سورة الأعراف، من الآية الحادية عشرة وختمها بما استنتج منها من العبر في الآية السابعة والثلاثين، ودونك اجمال القصة ونتائجها بنقل الآيات.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف . 11 . 25).

وعند ذلك ناسب أن يستنتج سبحانه من تلك القصة ويخاطب أبناء آدم بخطابات أربعة، هادفة إلى لزوم طاعة الله سبحانه والتجافي عمّا يأمر به الشيطان ،

وإنّ لهم في قصة أبيهم وأُمّهم لعبرة واضحة فقال سبحانه :

1. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف . 26).

2. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف . 27).

3. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف . 31).

ولا تجعل قوله سبحانه في ثنايا الخطابات الأربعة: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾ دليلاً على كونها انشاء خطاب في عصر القرآن للمسلمين بقرينة ذكر المسجد، لأنّه مردود بوجهين :

الأوّل: لوجود المسجد في الأُمم السابقة وعدم اختصاصه بعصر الرسالة كما يشهد عليه قوله سبحانه: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ (الكهف . 21).

الثاني: إنّ المراد من المسجد ليس البناء الخاص الدارج في البلاد الإسلامية بل هو كناية عن حالة الصلاة والعبادة التي أمر الله بها عباده في الأُمم جمعاء على اختلافها في الأجزاء والشرائط والصور، كما يشهد عليه قوله سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم: 54 . 55).

وقوله سبحانه حاكياً عن المسيح: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم . 31).

وعليه فالمراد أمّا خذوا ثيابكم التي تتزينون بها للصلاة وألبسوا أجودها في حال

العبادة، أو خذوا ما تســـترون به عوراتكم حالها، وعلى أي تقدير فهذا الحكم لا يختص بالأُمّة الإسلامية بل يعم الأُمم جمعاء.

4. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف . 35) ثم إنّه سبحانه في الآية السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين توعّد من كذّب بآياته واســـتكبر عنها ومن افترى على الله كذباً، وقال ســـبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾.

وبعد ذلك ختم القصة مع ما استنتج منها لابناء آدم من عظات وعبر.

وأنت إذا احطت خبراً بهذه الآيات، صدرها وذيلها وهدفها ومرماها، لوقفت على أنّ الخطاب الأخير الحاكي عن بعث الرسل إلى بني آدم ليس انشاء خطاب في عهد الرسالة حتى ينافي صريح قوله الآخر: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بل هي حكاية لاحدى الخطابات التي ألقاها الله في بدء الخلقة، عندما أخرج الشـــيطان أبانا من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وتعلقت مشـــيئته سبحانه بأن يستقر هو وأبناؤه في الأرض إلى حين، فخاطب سبحانه أبناء آدم بلسان النصح وقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ... ﴾ فصدّق الخبر الخبر وجاءت الرسل تترى، مبشّرين ومنذرين، تالين على بني آدم آيات الله.

وممّا يؤيد ما ذكرنا (أنّ قوله سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ... ﴾ حكاية للخطاب الذي ألقاه سبحانه في بدء الخلقة، لا انشاء خطاب في عهد القرآن) إنّ الله سبحانه حيث ما يذكر في موضع آخر من القرآن قصّة آدم على وجه التفصيل، يذيّلها بمضمون هذه الآية وما بعدها من الآيتين [1] كما في سورتي البقرة وطه، فإنّ

---

(1) الآية السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون.

مضمونهما موجود في ذيل القصة، وإنّما الاختلاف في اللفظ والعبارة، دون اللب والمعنى.

ودونك ما في سورة البقرة، ترى أنّ الله سبحانه بعد ما ذكر قصة آدم، وإنّ الشيطان أزلّهما، يكرّر مضمون هذه الآية وما بعدهما من الآيتين حيث يقول: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ *.وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: 38 ـ 39).

فهاتان الآياتان في سورة البقرة، يتحد مضمونهما مع مضمون ما ورد في سورة الأعراف غير أنّهما جاءتا في سورة الأعراف بلفظ « يا بني آدم » دون ما في سورة البقرة وهذا يؤيد أو يدل على أنّ الوارد في سورة الأعراف ليس إنشاء لخطاب في عهد الرسالة، بل حكاية لخطاب سبق منه سبحانه في بدء الخلقة.

ونظير ذلك ما ورد في سورة طه، حيث يقول فيها سبحانه: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: 121 ـ 122).

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ (طه ـ 123).

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه ـ 124).

فهاتان الآياتان تتحدان مع ما وردتا في سورة الأعراف معنى ومضموناً، وإن اختلفتا معهما لفظاً وعبارة، وبذلك يظهر صدق ما أوضحناه من كون الآيتين في سورة الأعراف قد وردتا حكاية عن خطاب الهي صدر منه بعد خروج آدم من الجنة، لا خطاب ابتدائي صدر منه سبحانه إلى المسلمين.

ومما يشهد على أنّها من الخطابات الواردة في بدء الخلقة، أنّه سبحانه يؤاخذ

الخليقة كلها يوم القيامة بنفس هذا الخطاب ويقول: ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الأنعام . 130).

فإذا نظرت إلى مضمون الآية، ترى أنّ مادة الإحتجاج فيها هو عين ما ورد في سورة الأعراف وهذا دليل على أنّ الخطاب في هذه السورة من الخطابات الواردة في بدء الخلقة والله تعالى حكاها في القرآن للنبي الأكرم وأُمّته، فلاحظ.

دحض الشبهة بوجه آخر :

قد جمعنا وبعض البهائيين مجلس في سالف الأيام [1] في مدينة عبادان وسألني عن هذه الآية ودلالتها على مجيء الرسل بعد نبي الإسلام وأنّها تدل على أنّ باب النبوّة لم يوصد، وكان في المجلس بعض الأعلام.

فقلت: إنّ لفظة « إمّا » مركبة من « إن » و « ما » الزائدة، وكأنّه سبحانه قال: إن يأتينّكم ... وهو فعل الشرط، والجزاء قوله: فمن اتقى، ولكنّها مجردان عن الدلالة على الزمان (الحال والاستقبال)، لأنّ الآية سيقت لبيان أصل الملازمة بين الشرط والجزاء، غير مقيّد بزمان دون زمان، بمعنى أنّ سنّة الله جرت على انقاذ من أطاع رسله، واتقى محارمه، وأصلح حاله، وانّ من كان حاله كذا، فلا خوف عليه ولا حزن، وهذه عادة الله في الأُمم السالفة والحاضرة والمستقبلة.

وليس الخطاب مقيداً بزمان الحال حتى لا يعم الخطاب الأُمم السالفة، ويختص بالأُمّة الحاضرة والتالية لها ويدل بالدلالة الالتزامية على مجيء الرسل في مستقبل الأيام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، بل هو بيان لحكم قطعي جرت مشيئة الله عليه، على وجه الاطلاق، غير مقيّد بزمان.

وإن شئت قلت: إنّ الهدف من الآية ليس الإخبار عن مجيء الرسل بعد رسول

---

(1) عام 1379 هـ ق.

الله ﷺ وإلّا لكان اللازم أن يخرجها عن صورة الشرط، ويلقيها على وجه الإخبار بل الهدف والذي سيق لأجله الكلام، هو بيان الملازمة، وأنّ السنّة جرت عليها في الأدوار كلّها، من دون أن يكون بصدد الإخبار عن وقوع الشرط في زمان.

وهذا كقول المعلم لتلاميذه: لا صلة ولا قرابة بيني وبين أحد منكم، من جد في درسه واتقن كتابته وخرج عن عهدة التكاليف الواجبة عليه فهو الناجح، يعني بذلك أنّ السنّة الجارية في المدرسة والكليات والجامعات هي هذه من غير فرق بين هذا الصف والصف الآخر، وهذه المدرسة والمدرسة الأُخرى، وهذا الزمان أو غيره من الأجيال السالفة والتالية.

وأدل دليل على أنّ الآية ليست بصدد الإخبار عن مجيء رسل آخرين غير رسول الله هو استعمال كلمة « إن » الدالة على الشك والترديد في وقوع تاليها، دون « إذا » الدالة على القطع واليقين، فلو كان الهدف الإخبار عن مجيئهم لكان له الإخبار عن ذلك بكلمة تدلّ على القطع والجزم، لأنّ الرسل ومجيئهم من مهمات الأُمور وعظائمها، فلا يصح الإخبار عنه بهذه الجملة الدالة على الشك والترديد، إلّا إذا سيقت الآية لبيان الملازمة فقط، لا الإخبار عن وقوع الشرط ولذلك ترى أنّه سبحانه يأتي في معرض الدلالة على الأُمور القطعية بعبارة مؤكدة كما في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ (سبأ . 3).

وقوله سبحانه: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ (النمل . 37).

وحصيلة البحث أنَّ الآية بصدد بيان أنّ الفلاح والرشاد لمن يقتدي بهدى نبيّه ويقتفي أثره ولا يتخطى الخطوط التي يرسمها له رسوله في معاشه ومعاده سواء أكان الرسول رسول الإسلام أم غيره، وليست ناظرة إلى بيان مجيء الرسل بعد عصر نزول الآية كما هو مرمى المستدل.

ونظير المقام قوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ

وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب: 38 . 39).

فإنّ قوله: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ ﴾ وإن كان بصيغة المضارع، إلّا أنّه مجرد عن الدلالة على الحال والاستقبال، بدليل أنّه صفة لقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ فلو كانت الدلالة على الزمان مقصودة لوجب أن يقال: الذين بلغوا رسالات الله، تطبيقاً للوصف على الموصوف، ولما كان المقصود قيام الرسل الذين خلوا من قبل بنفس أمر التبليغ من غير دلالة على زمان القيام واستمراره، صح توصيفه بالمضارع.

نقل كلام عن العلمين :

ثمّ إنّي وقفت بعد فترة من الزمان على سؤال وجّهه بعض الأجلّة [1] إلى العلمين الشيخ محمد جواد البلاغي [2] والسيد هبة الدين الشهرستاني [3] يسألهما عن تلك الشبهة الضئيلة، وقد وافاه الجواب منهما، وبعث السائل السؤال والجواب إلى مجلة العرفان [4] فنشرهما مدير المجلة على صفحاتها [5] فراقنا نقل الجوابين على وجه الاجمال، لكون مضمونهما قريباً مما ذكرناه.

قال العلّامة البلاغي: لابد من بيان أمرين :

الأوّل: إنّ تلك الطائفة لا يعرفون اللغة العربية وخواصها، فإنّ الفعل المضارع غير مختص في المحاورات بالاستقبال، بل يؤتى به منسلخاً عن خصوصيات الزمان للدلالة على الدوام والثبات كقولهم: زيد يكرم الضيف، ويفك العاني ومن ذلك قول

---

(1) العلّامة الجرندابي المغفور له كان آية في التتبع، وله أشواط بعيدة وخدمات ومواقف مشكورة.

(2) كان علماً من أعلام الأُمّة وفطاحلها، قد أفنى عمره في الذب عن حريم التوحيد والرسالة، توفّي عام 1352.

(3) نادرة الزمان ونابغة العراق، توفّي في 25 من شهر شوال عام 1386.

(4) مجلة علمية أدبية سياسية شيعية، تصدر في مدينة صيدا، من لبنان الجنوبي، أسّسها الشيخ أحمد عارف الزين عام 1327 وهي لم تزل تصدر إلى الآن.

(5) المجلد السادس والثلاثون ص 767 . 771.

اليشكري في المعلّقة :

يدهدون الرؤوس كما تدهدى مزاورة بأبطحها الكرينا

وقوله أيضاً:

علينا البيض واليلب اليماني وأسباب يقمن وينحنينا

وقوله سبحانه :

﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ (سبأ . 3).

الثاني: إنّ الجملة الشرطية كثيراً ما تجيء غير ناظرة إلى الزمان، بل لمجرد ملازمة الجزاء للشرط وترتبه عليه في أي زمان وقع الشرط، بمعنى أنّه لابد من وقوعه عند وقوع الشرط في أي زمان، ومنه قول القائل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله سيان

ومن قوله سبحانه :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة 7 . 8).

ومنه قول زهير في معلّقته :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومثله قوله الآخر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

إذا تقرر هذا: فلا خفاء في أنّ حاصل الآية: أنّه مهما آتى بني آدم رسل، يعني رسل حق، يأتون بآيات الله ووحيه ويقصّونها في التبليغ، فمن اتقى حسب ما جاء في الآيات ولم يعص الله بالمخالفة به وأصلح وجعل أعماله صالحة، فلا خوف عليهم ولا يحزنون.

فجيء بالشرط بصيغة المضارع، للدلالة على ثبوت الاتيان بتكرره، بحسب الحكمة، وأنّ الجزاء لازم لهذا الشرط، دون نظر إلى الزمان الخاص، والواقعة الخاصة، وليس نظره إلى خصوص الزمان الماضي ولا خصوص المستقبل. لكن القرآن الكريم بين أنّ هذا الشرط لا يقع في المستقبل وذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾، فكان هذا البيان من المحكمات التي هي أُم الكتاب.

قال العلّامة الشهرستاني: « إما » لفظة مركبة من « إن » الشرطية، و « ما » الكافة عن العمل، وعليه كفت المضارع عن الجزم، وقرنته بنون التأكيد الثقيلة وجردته عن الدلالة على زمان خاص بالحال والاستقبال، كما أنّ الصيغ التالية لها ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾، ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ تجردت أجمع عن الدلالة الخاصة بالماضي والمفهوم من المجموع قضية طبيعية عامة السير في الأمم، وهي توجه رسل الهداية إلى أقوام البشر لغاية الوعظ والانذار بآيات الله وبيّناته.

وإن شئت قلت: انّ الغاية في الآية عبرة الانسان بتاريخ الانسان، حتى يترك اغتراره بالحال الحاضر، وهذا لا يكون إلّا من درس تاريخ السلف، ولا معنى للعبر بالمستقبل. نعم المعتبرون هم الجيل الحاضر والمستقبل، ولكن المعتبر به حال السلف والحوادث النافعة، وأمّا مادة الوعظ، أي المعتبر به، هي القصص الماضية (دون سواها) ورسلها ورسالاتها وعواقب أمرها ومعرفة مصير المتقين ومصير المكذّبين.

فبأي لفظة من الآية يستدل هؤلاء على صحة الرسالة من بعد محمد المصطفى ﷺ ! أبلفظ « يأتينّكم » وقد تبيّن أنّها تجردت عن اختصاصها بالحال والاستقبال، كما تجردت لفظة أتقى وأصلح، عن الاختصاص بالماضي.

أم يستدلون بلفظة « الرسل » وقد تبيّن أنّهم وقصصهم وآياتهم ذكرت في الآية، لغاية الموعظة والعبرة، ومثله لابد وأن يكون من الجيل الماضي إذ لا معنى للعبرة من المستقبل.

أم بلفظة « يا بني آدم » وانّه خطاب للجيل الحاضر أو المستقبل، نعم انّ

اختصاص الخطاب والوعظ بهؤلاء شيء، وجواز تكرار الرسالة بعد عصر القرآن شيء آخر، يحتاج اثباته إلى دليل غير هذه الآية، فإنّ أقصى ما في هذه، هو وعظ الجيل الإسلامي بقصص المرسلين، ولا بد أن يكون المتعظ به قبلهم، كما أنّ القرآن يعظ الجيل الإسلامي، بقصة موسى وفرعون، ولا تحدث نفس صاحبهما بأنّ ذلك المتعظ به، يجب أن يتكرر في المستقبل.

الشبهة الثانية :

استدلت الفرقة التعيسة « البهائية » على عدم اختتام الرسالة، وعدم انتهائها بآية ثانية، وتقوّلت بأنّها تدلّ على خلاف ما هو المنصوص في غير موضع من الذكر الحكيم، ودونك الآية : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (غافر . 15).

قال المستدل في فرائده: إنّ قوله سبحانه: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ بصيغة المضارع ينبئ عن عدم اختتام الرسالة، وأنّ الروح ينزل بأمره على من يشاء من عباده في الأجيال المستقبلة [1].

الجواب :

توضيحه يحتاج إلى بيان أمرين :

1. الظاهر من « الروح » هو الوحي [2] فاستعير له الروح، لأنّه به تحيا القلوب وفيه حياة المجتمع، ويوضح ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا

---

(1) الفرائد: ص 313 وص 126 من الطبعة الحجرية.

(2) وقريب منه تفسيره بالقرآن أو كل كتاب أنزله سبحانه أو جبرئيل أو النبوّة، وما اخترناه هو الأولى، فتدبر.

كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ ﴾ (الشورى ـــ 52) ومنه يعلم أنّ المحتمل أن يكون الروح المسؤول عنه في القرآن الكريم هو حقيقة الوحي حيث قال سبحانه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء . 85).

2. يوم التلاق: إنّما هو يوم لقاء الله، يوم يلتقي فيه العبد والمعبود، وأهل الأرض والسماء، كما يوضحه ما بعد الآية: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر . 16).

والمراد من قوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ أي ليحكم في ذلك اليوم بين عباده فينتصف المظلوم من ظالمه، ويجزي المحسن والمسيء، أو لينذر عباده سبحانه عن عذاب ذلك اليوم.

إذا عرفت الأمرين، فالجواب عن الاستدلال بها واضح جداً بعد ما عرفت عند البحث عن الشبهة الأولى من أنّ الفعل في تلك المواضع مجرد عن الزمان، والهدف إنّما هو بيان نسبة الفعل إلى الفاعل واتصافه بها، بلا نظر إلى زمان النسبة، سواء أكان الماضي، أم الحال أم المستقبل، كما في قوله :

من يفعل الحسنات لله يشكرها والشر بالشر عند الله سيان

وعلى هذا، فسيقت الآية لبيان كونه سبحانه مالكاً على الإطلاق، لا ينازعه في ملكه ولا يناضله في مشيئته واختياره أحد، والوحي أحد الأشياء التي أمرها بيده، يختص به من يؤثره على عباده ويختاره منهم، وليس لأحد أن يعترض عليه ويقول: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان . 32). أو يطعن ويقول: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف ـــ 31) فإذا كان هدف الآية بيان هذا الأمر، وانّ الوحي بكمّه وكيفه ومن ينزل عليه موكول إليه سبحانه، فلا يتفاوت في ابلاغ هذا الغرض، التعبير بالماضي، أو المضارع، فسواء أقال: « القى الروح » أم قال: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ فهما في افهام المقصود سواسية فلا يدلاّن على زمان الاتصاف، والمقصد الأسنى ،

اتصافه سبحانه بالاختيار التام في انزال الوحي على أي فرد من عباده، من دون دلالة على زمان الاتصاف.

ودونك مثالاً عرفياً يقرّب المقصود.

فلو نصب الملك المستبد (والملوكية خاصتها الاستبداد) أحد ولده ولياً للعهد وجلعه وارثاً للعرش والاكليل، وشاغلاً لمنصة الملوكية بعده، فإذا اعترض عليه أحد وزراءه بأنّ ولده الآخر كان أحق بهذا المنصب، فيجيب الملك بقوله: إنّ الامر بيدنا، نقدم من نشاء، ونؤخر من نشاء، نرفع من نشاء ونضع من نشاء ...

فليس لك عند ذلك أن تستظهر من عبارته، وتتهمه بأنّه قد أخبر حتماً عن نصب فرد آخر في المستقبل، متمسكاً بأنّه قال: « نقدم » بصيغة المضارع ولم يقل: « قدمت ».

لا، ليس لك ولا لغيرك هذا، لأنّ المفهوم في هذه المواضع إنّما هو بيان أصل الإتصاف، أي إتصاف الفاعل (الملك) بالفعل (تقديم من تعلّقت إرادته بتقديمه) لا بيان زمان الإتصاف واستمراره في الجيل الآتي، فلاحظ.

فلو تنازلنا عن كلّ ما قلناه حول هذه الآية وما قبلها وفرضنا أنّ ما نسجوه من الأوهام حقيقة راهنة فنقول: إنّ ما ذكروه كلّه لا يتجاوز حدّ الاشعار فهل يجوز في ميزان العقل والانصاف ترك ما سردناه من البراهين الدامغة والنصوص الناصعة والضرورة والبداهة بين المسلمين عامة، الدالّة على كون النبي الأعظم خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات، لأجل هذه الأُمور الواهية التي لا يستحق أن يطلق عليها اسم الدلالة.

قال الشيخ المفيد: إنّ العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله ، ونسخ شرعه كما نسخ ما قبله من شرائع الأنبياء وإنّما منع ذلك الاجماع، والعلم بأنّه خلاف دين النبي صلى الله عليه وآله من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار [1].

---

(1) أوائل المقالات: ص 39.

قال الفاضل المقداد في أثره القيّم [1] أنّه ﷺ مبعوث إلى كافة الخلق والدليل على ذلك إخباره ﷺ بذلك المعلوم تواتراً مع ثبوت نبوّته المستلزمة لإتصافه بصفات النبوّة التي من جملتها العصمة المانعة من الكذب، إلى أن قال: ... يلزم من عموم نبوّته كونه خاتم الأنبياء وإلّا لم تكن عامة للخلق، ولقوله تعالى: ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وقوله ﷺ : لا نبي بعدي.

الشبهة الثالثة :

وقد تمسكت هذه الفرقة بظاهر آيتين أُخريين :

الأُولى: قوله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس. 47).

الثانية: قوله سبحانه: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس. 49).

تقرير هذه الشبهة أنّ الله حدد حياة الأُمم بحد خاص، والأُمّة الإسلامية إحدى هذه الأُمم، فلها أجل خاص، ومدة محدودة، ومعه كيف يدعي المسلمون دوام دينهم وبقاءه إلى يوم القيامة ؟

وروي عن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن أجل الأُمّة الإسلامية، فأجاب ﷺ بقوله: إن صلحت أُمّتي فلها يوم، وإن فسدت فلها نصف يوم [2].

الجواب :

لا أدري ماذا يريد القائل من الاستدلال بهاتين الآيتين: أمّا الآية الأُولى، أعني قوله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ فصريح الآية هو أنّ الله سبحانه يبعث إلى كل أُمّة ،

---

(1) اللوامع الالهية في المباحث الكلامية: ص 225.

(2) الفرائد: ص 17 الطبعة الحجرية.

مثل أُمّة نوح وعيسى وموسى، رسولاً يدعوهم إلى دين الحق ويهديهم إلى صراطه، وأمّا أمد رسالة الرسول وكميتها، فالآية غير ناظرة إليه، لا صريحاً ولا تلويحاً لا مفهوماً ولا منطوقاً ولا مانع من أن يكون إحدى هذه الرسالات غير محدودة بحد خاص، ويكون صاحبها خاتم الرسل ودينه خاتم الأديان، وقد دلّ القرآن على أنّ نبي الإسلام هو ذاك، كما تقدمت دلائله.

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ ﴾ (النحل ـ 36).

أتجد من نفسك أنّ الآية تشير إلى تحديد الشريعة بعد الإسلام، لا، لا تجده من نفسك، ولا يجد ذلك أيضاً كل متحرر عن قيد العصبية.

وأمّا الآية الثانية، فكشف الغطاء عن محيا الحق، يحتاج إلى توضيح وتحقيق معنى « الأُمّة » الواردة في الكتاب والسنّة، فنقول :

قال الراغب: الأُمّة، كل جماعة يجمعهم أمر ما: أمّا دين، أو مكان، أو زمان، وهذا الجامع ربّما يكون اختيارياً وقد يكون تسخيرياً [1].

هذه الحقيقة التي كشف عنها الراغب، هو الظاهر من الكتاب والسنّة وموارد الاستعمال وصرّح بها الجهابذة من اللغويين، ودونك توضيح ما أفاده الراغب :

الجامع الديني، كما في قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (البقرة ـ 128) وقوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ﴾ (آل عمران ـ 110).

الجامع الزماني كقوله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ

---

(1) المفردات للراغب: ص 23 مادة « أم » وكان الأولى أن يضيف إلى هذه الجوامع لفظ « أو غيره » إذ لا ينحصر الجامع بهذه الثلاثة وليس المقصود أنّ هذه الجوامع داخلة في مفهوم « الأُمّة » حتى يقال: أنّ توصيف الأُمّة في الآية بكونها « مسلمة » دليل على خروجها عن مفهوم الآية، بل المراد أنّ هذه الجوامع تكون مصححة، لاطلاقها على الجماعة.

سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف ـ 34) وفسّرها المفسّرون بلازم المعنى وقالوا: بعد حين، أي بعد انقضاء أهل عصر، كأنّه يجمعهم زمان واحد في مستوى الحياة، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (هود ــ 8) وفسره في الكشاف بلازم المعنى، وقال: إلى جماعة من الاوقات.

الجامع المكاني: نحو قوله سبحانه: ﴿ولمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (القصص ـــ 23) أي وجد حول البئر جماعة يسقون مواشيهم، فالجهة الجامعة لعدّهم أُمّة واحدة، إنّما هي اجتماعهم في مكان واحد، أو غيرها من الجهات التي يمكن أن تجمع شمل الأفراد والآحاد.

الجامع العنصري والوشيجة العنصرية، والرابطة القومية كما في قوله سبحانه: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف . 160).

وقوله: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (الأعراف . 168) فبنوا إسرائيل كلهم أغصان شجرة واحدة، يجمعهم ترابط قومي ووشيجة عنصرية، إلّا أنّه كلّما ازدادت الشجرة نموّاً ورشداً إزدادت أغصاناً وأفناناً، فعد كلّ غصن مع ما له من الفروع، أصلاً برأسه وهم مع كونهم أُمماً أُمّة واحدة أيضاً يربطهم الجامع العنصري.

القرآن يتوسّع في استعمال الأُمّة :

إنّ القرآن يتوسّع في استعمال الكلمة فيطلقها على الفرد، إذا كان ذا شأن وعظمة تنزيلاً له منزلة الجماعة كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا ﴾ (النحل ــ 120) أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم فلان في نفسه قبيلة، وروى أنّه يحشر « زيد بن عمرو » أُمّة وحده.

بل يتوسّع ويستعمله في صنوف من الدواب، إذا كانت تجمعهم جهة خاصة ،

كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام ـ 38).

فعدّ الله كل صنف من الدواب والطيور أُمماً، لما بينها من المشاكلة والمشابهة حيث الخلق والخلق، فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة، ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي يخصص بها كل نوع [1].

ويمكن أن يقال: إنّ ما ألمحنا إليه من موارد الاستعمال للفظ « الأُمّة » ليست معاني مختلفة، حتى يتصور أنّ اللفظ وضع عليها بأوضاع متعددة، بل كلها مصاديق لمعنى وسيع وضع عليه اللفظ (الأُمّة) وهو كل اجتماع من الانسان وغيره من الحيوان، يجمعهم أمر ما من الزمان والمكان والدين والعنصر وغيرها.

الأُمّة: الطريقة والدين :

نعم للأُمّة معنى آخر أُستعملت فيه، في الكتاب والسنّة، وهو الطريقة والدين، كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف ـــ 22) وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف ـ 23).

قال الجوهري في صحاحه: الأُمّة، الطريقة والدين، يقال لا أُمّة له، أي لا دين ونحلة، قال الشاعر :

وهل يستوي ذو أُمّة وكفور ...

وقال الفيروز آبادي: الأُمة ـ بالكسر ـ الحالة والشرعة والدين ويضم.

هذه هي الأُمة ومعناها وقد عرفت أنّه لم يستعمل في الكتاب إلّا في هذين المعنيين (الجماعة والدين) وقد ذكروا لها معاني أُخرى يمكن ارجاعها إلى ما ذكرناه.

---

(1) المفردات للراغب: ص 23.

فلنرجع إلى مفاد الأُمّة :

إذا عرفت ما ذكرناه: فلنرجع إلى مفاد الأُمّة فنقول قوله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ... ﴾ يحتمل في بادئ الأمر أن يراد منها الطريقة أو الجماعة، ولكن الأوّل مدفوع بما في ذيله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ... ﴾ إذ يجب حينئذ أن يقول: فإذا جاء أجلها بإفراد الضمير، لو صح إطلاق الأجل على الدين والشريعة [1] فلا مناص من حمل الآية على المعنى الثاني: أعني الجماعة، التي يربطهم في الحياة أمر ما، والمراد أنّ كل كتلة من الناس إذا طويت صحيفة حياتهم وانتهت مدة عيشهم لا يمهلون بعد شيئاً، فلا يستقدمون ولا يستأخرون بل يتوفّاهم ملك الموت الذي وكل بهم، فلا إمهال ولا تأخير، فالآية ناظرة إلى بيان أمر تكويني جرت عليه مشيئته سبحانه وهو أنّ حياة الأمم في أديم الأرض محدود إلى أجل لا يمهلون بعده وليس فيها أي نظر إلى توقيت الشرائع وتحديدها وتتابع الرسل ونزول الكتب.

وأمّا حملها على خصوص الأُمّة الدينية أي الأُمّة التي يجمعها دين واحد فيحتاج إلى الدليل والقرينة [2] وقد عرفت أنّ الأُمّة عبارة عن الجماعة التي يجمعهم أمر ما، سواء أكان ذلك الجامع زماناً أو مكاناً أو اتحاداً في الشغل والمهنة أو ديناً، أو عنصراً، إلى غير ذلك من عشرات الوحدات الجامعة بين المتشتتين من الناس.

وقد تكرر مضمون الآية في الذكر الحكيم بصور مختلفة كلها تهدف إلى ما ذكرناه، وأوضحناه، ودونك بعضها :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ [3] * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا

---

(1) سيوافيك أنّه لم يستعمل الأجل في القرآن في أمد الأديان.

(2) وعلى فرض شمول الآية للأُمة الدينية بعمومها، فمن أين وقف المستدل على أنّه جاءأجلهم ولماذا لا يمتد إلى يوم القيامة كما سيوافيك بيانه تحت عنوان « سؤال من المستدل ».

(3) أي مكتوب معلوم كتب فيه أجلها.

يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (الحجر 4 ــ 5)، وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (المؤمنون 42 . 43).

وقريب منه قوله سبحانه: ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون: 10 . 11)، وقوله سبحانه: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح . 4).

نظرة في موارد استعمال الأجل في القرآن :

ويؤيد ذلك أنّه لم يستعمل « الأجل » في الذكر الحكيم في أجل الشرائع، وانتهاء أمدها، بل قصر استعماله على موارد أُخرى، لبيان آجال الديون، والعقود كقوله تعالى: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة . 282).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ (البقرة . 235).

أو بيان انتهاء استعداد الاشياء للبقاء كقوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ (الأنعام ــ 2) وقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الرعد . 2).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد . 38) فيحتمل وجوهاً :

1. إنّ لكل وقت حكماً خاصاً مكتوباً معيناً، كتب وفرض في ذلك الأجل، دون غيره لأنّ الفرائض تختلف حسب اختلاف الأوضاع والأحوال، فلكل وقت حكم يكتب ويفرض على العباد حسب مقتضيات المصالح.

2. ما فسر به أمين الإسلام وهو قريب ممّا ذكرناه آنفاً، وقال إنّ لكل وقت كتاباً خاصاً، فللتوراة وقت وللانجيل وقت وكذلك القرآن، فالفرق بينه وبين ما ذكرناه هو

أنّه حمل الكتاب على الكتاب المصطلح، ونحن حملنا على الحتم والفرض.

3. انّ المراد منه: انّ لكل أجل مقدر كتاب أثبت فيه، فللاجال كلّها كتاب كتب فيه.

4. انّ لكل أمر قضـــاه الله كتاب كتب فيه، وأبعد الوجوه هو الأخير، إذ هو تفســـير بالأعم، وهو سبحانه يقول: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ولم يقل لكل أمر كتاب وأقرب الوجوه هو الأوّل بقرينة قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد ـ 38) فلقد كانوا يقترحون على النبي ﷺ بعض الآيات، فأجابهم ســـبحانه بأنّ لكل وقت حكماً خاصاً، كتبه الله لذلك الوقت، ولا يجري إلّا فيه.

وعلى أي وجه من الوجوه الأربعة، فلا تدل الآية على أنّ لكل دين أجلاً وأمداً، إلّا على الوجه الثاني، ودلالته عليه إنّما هي بالالتزام لا بالمطابقة لأنّه إذا كان لكل وقت كتاباً خاصـــاً مثل التوراة والإنجيل يدل بالملازمة على أنّ لكل وقت شريعة وديناً.

وأمّا على ما فسّرنا الآية به فمآله إلى أنّ لكل وقت حكماً، والحكم ليس نفس الدين والشريعة، بل جزء منه وتكون الآية دالّة على رد من زعم امتناع وقوع النسخ في الشريعة الواحدة.

وأمّا على المعنى الثالث والرابع، فعدم دلالته على أنّ لكل دين أجلاً، واضـــح لا يحتاج إلى البيان.

سؤال من المستدل :

وفي الختام نسأل المستدل هب أنّ الآية بصدد بيان آجال الشرائع وتحديدها وأنّ لكل دين وأُمّة دينية أجلاً، ولكنّه من أين وقف على أنّ الإسـلام قد انتهى أمده وجاء أجله، وأنّه لا يمتد إلى يوم القيامة، إذ لنا أن نقول: إنّ أمد الإســـلام ينتهي بانتهاء نوع الانســـان، في أديم الأرض وقيام القيامة، وحضـور السـاعة، فلو دلّت الآية على أنّ لدين الإسـلام أو الأُمّة الإسـلامية أجلاً قطعياً فنستكشف ببركة الآيات الدالّة على اختتام النبوّة

والرسالة عن امتداد تلك الرسالة إلى اليوم الذي تنطوي فيه صحيفة حياة الانسان في هذه السيارة، وأنّ أجله وأجلها واحد.

الاكذوبة التي نسبها إلى رسول الله :

هلم نسأله، عن مصدر الاكذوبة التي نسبها الكاتب إلى رسول الله ﷺ وقال: أنّه بعد ما نزلت آية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ طفق أصحابه يسألونه عن أجل الأُمّة الإسلامية، فأجابه بقوله: إن صلحت أُمّتي فلها يوم وإن لم تصلح فلها نصف يوم [1].

فقد أعتمد الكاتب في نقله على نقل الشعراني، وليس في لفظه ما يدل على سؤال أصحابه ﷺ عن أجل الأُمّة الإسلامية بعد نزول الآية، وإنّما هو اكذوبة نحتها الكاتب ونسبها إلى رسول الله ﷺ [2].

نعم تفسير اليوم بألف عام، كما نقله الشعراني عن تقي الدين رجم بالغيب إذ كما يمكن تفسيره بألف مستند إلى قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج ـــ 47) يمكن تفسيره بخمسين ألف سنة، استناداً إلى قوله سبحانه: ﴿ تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج ـ 4).

وأمّا ما رواه العلّامة المجلسي، مسنداً عن كعب الأحبار، على نحو يشعر بكون تفسير اليوم بألف عام، من الحديث، فمما لا يقام له وزن، فإنّ كعب الأحبار وضّاع

---

(1) الفرائد: صفحة 17 الطبعة الحجرية.

(2) ودونك نص الشعراني في كتابه اليواقيت والجوهر التي ألّفها عام 955 هـ قال في بيان أنّ جميع أشراط الساعة حق: انّه لابد أن يقع كلّها قبل قيام الساعة وذلك كخروج المهدي (عج) ثمّ الدجال، ثمّ نزول عيسى، وخروج الدابة و ... حتى لو لم يبق من الدنيا إلّا مقدار يوم واحد، فوقع ذلك كلّه، قال الشيخ تقي الدين بن أبي المنصور في عقيدته: وكل ذلك تقع في المائة الأخيرة (هذا تخرص من الرجل وتنبؤ منه، أعاذنا الله منه) من اليوم الذي وعد به رسول الله بقوله في أُمّته: إن صلحت أُمّتي فلها يوم وإن فسدت فلها نصف يوم، يعني من أيام الرب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ لاحظ اليواقيت ج 2 ص 160 ونقل عن بعض العارفين أنّ أوّل الألف محسوب من وفاة علي بن أبي طالب.

كذّاب مدلس، لم تخرج اليهودية من قلبه، تزيا بزي الإسلام فأدخل الإسرائيليات والقصص الخرافية، في أحاديث المسلمين فلا يقام لحديثه وزن ولا قيمة، فلنضرب عنه صفحاً.

أضف إليه أنّ الرجل لم يسنده إلى الرسول ﷺ ولا إلى الولي، فكيف يكون حجّة ؟

ثمّ إننا نسأل صاحب الفرائد [1] ومن مشى مشيه، ونقول: إنّ رسول الله قال (بزعمكم): إن صلحت أُمّتي فلها يوم ... فهل صلحت الأُمّة الإسلامية في هذه القرون العشرة ومشت سبل الصلاح والسلام، وازدهر فيهم العدل والإحسان، أو شاع فيهم الجور والطغيان والقتل الذريع وسفك الدماء وحبس أبرياء الأُمّة واعتقالهم ونهب أموالهم ... وعند ذاك يلزم انتهاء أمد الإسلام بإنقراض خمسمائة عام، التي هي نصف يوم، من اليوم الربّاني، لأنّه لم تصلح الأُمّة بعد لحوق الرسول بالرفيق الأعلى ولكن الكاتب لا يرضى به لأنّه لا يوافق ما يدعيه ويرتئيه.

وأعجب من ذلك أنّه جعل مبدأ ذلك اليوم الربّاني (ألف عام) العام الذي تمّت فيه غيبة ولي الله الأعظم، الحجة بن الحسن العسكري (عجل الله فرجه) لا عام بعثة الرسول ﷺ أو هجرته أو وفاته، أو سنة صدور الحديث. أو ما كانت الأُمّة العائشة في هذين القرنين ونصف من الأُمّة الإسلامية ؟! (سله أنا لا أدري ولا المنجّم يدري) أظنّك أيها القارئ الكريم لا يفوتك سر هذا الجعل، وإنّه لماذا جعل مبدأ ذلك اليوم الربّاني، عام غيبة الولي، أعني عام 260 من الهجرة النبوية، ذلك العام الذي غاب فيه خاتم الأوصياء عن الأبصار إلى الوقت الذي لا يعلمه إلّا هو سبحانه، فقد عمد بذلك إلى أن ينطبق مبدأ خروج الباب [2] على اختتام ألف عام [3].

فقد خرج « الباب » وادّعى ما ادّعى، مفتتح عام 1260 من الهجرة النبوية.

---

(1) أبو الفضل الجرفادقاني.

(2) المراد منه « علي محمد » الشيرازي الملقّب بالباب، عند الفرق الضالّة البابية والازلية والبهائية.

(3) فالرجل قد وضع فكرة معينة، ثمّ أراد تصيّد الأدلّة لاثباتها، ولكن الباحث المخلص يتجرّد عن

الشبهة الرابعة :

استدل صاحب « الفرائد » بآية رابعة، زعم دلالتها على عدم انقطاع الوحي والرسالة بعد رسول الله ﷺ وهي قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ (النور ـ 25).

قال: إنّ صيغة « يوفيهم » تبشّر عن دين حق يوفيه سبحانه على من يشاء من عباده في الأجيال الآتية بعد الإسلام، وليس لك أن تحمله على الإسلام وتفسّره به، لأنّه قد أكمل نظامه وتمت أُصوله وفروعه عام حجة الوداع بنص الذكر الحكيم، كما قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة ـــ 3) وهو سبحانه يخبر في هذه الآية عن وقوع الأمر (توفية الدين الحق) في الجيل الآتي [1].

الجواب :

هذا مبلغ علم الرجل ومقياس عرفانه بالكتاب وغوره في الأدب العربي وقد كان في وسع الرجل أن يرجع إلى أحد التفاسير، أو إلى ابطال العلم وفطاحل الأُمّة وكانت بيئة مصر [2] تجمع بينه وبين فطاحلها وأعلامها العارفين، هذا هو أمين الإسلام الطبرسي، فسّره في مجمعه بقوله: يتم الله لهم جزائهم الحق، فالدين بمعنى الجزاء [3]، وقال الزمخشري: الحق، صفة الدين وهو الجزاء [4] لا الطريقة والشريعة.

كلّ هوى وميل شخصي، ويتابع النصوص ومفادها، فما أدت إليه بعد التمحيص، تكون هي النتيجة التي ينبغي عليه اعتبارها حقيقة راهنة.

(1) الفرائد: صفحة 122 الطبعة الحجرية.

(2) فقد ألّف « الفرائد » بمصر، أيام اقامته هناك، وفرغ منه عام 1315.

(3) مجمع البيان: ج 7 ص 134.

(4) الكشّاف: ج 3 ص 223.

وليت الكاتب، أمعن النظر في الظرف (يوم) الوارد في الآية المتقدمة أعني قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ... ﴾ ففي أي يوم تشهد ألسنة المجرمين وأيديهم على أعمالهم الإجرامية، فهل هذا اليوم إلّا يوم البعث ؟ ففي ذلك اليوم يوفيهم الله جزاء الطغاة العصاة المفترين الكذّابين المبدعين، الجزاء الحق الذي يستحقّونه بأعمالهم. ففي يوم واحد تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، ويوفي الله دينه الحق والجزاء الذي يستحقّونه.

على أنّ سياق الآية يوضح المقصود، فإنّ الآية وردت في الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فعاتبهم بالآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، لإستعظام ما ركبوا من ذلك، وما أقدموا عليه، إذ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ (النور: 23 . 25).

ترى أنّه سبحانه حكم على هؤلاء العصاة اللاعبين باعراض الناس وحرماتهم بأحكام ثلاثة :

1. اللعن عليهم في الدينا والآخرة.
2. شهادة أعضائهم على أعمالهم الإجرامية.
3. توفية جزائهم الحق في ذلك اليوم.

ومع ذلك كيف عمي بصر الرجل وبصيرته، وأرخى قلمه ولسانه، وفسّر الآية برأيه الباطل ؟!

الشبهة الخامسة :

قد عرفت ما لدى الكاتب ومن لفّ لفه من شبهات تافهة، أو تأويلات كاذبة اختلقوها لاغواء السذّج من الناس. هلم معي نقرأ آخر شبهة للقوم، وهي الاستدلال

بالآية التالية: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّـمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة ـ 5).

فقد فسّر صاحب الفرائد [1] تدبير الأمر بانزال الشريعة من السماء إلى الأرض وجعل عروجه في يوم كان مقداره ألف سنة، بإندراس الشريعة تدريجاً طول هذه المدة بابتعاد الناس عن الدين، ورفضه في مراحل الحياة، وصيرورة القلوب مظلمة بالمعاصي، مدلهمّة بالخطايا، مريضة بشيوع الفساد والفوضى، فيبعث الله عند ذلك رجلاً آخر يجدد الشريعة ويؤسّسها ويذهب بظلمات القلوب، وعلى هذا فلا تدوم الشريعة أي شريعة كانت إلّا يوماً ربّانياً، وهو ألف سنة ممّا تعدون [2].

الجواب :

ما ذكره بصورة الشبهة، لا يصح إلّا بعد تسليم أُمور، لم يسلم واحد منها :

1. إنّ التدبير عبارة عن نزول الوحي وبلوغ الشريعة إلى النبي.
2. إنّ الأمر في الآية هو الشريعة والطريقة.
3. العروج هو انتهاء أمد الرسالة وانقضاء استعداد بقاء الشريعة واندراسها بشيوع الفساد والمعصية بين الأُمّة.

وليس أي واحد منها صحيحاً ولا قابلاً للقبول :

أمّا الأوّل: فلأنّ التدبير في اللغة والكتاب عبارة عن الإدارة على وجه تستوجبه المصلحة، وتقتضيه الحكمة وأين ذاك عن نزول الشريعة من السماء إلى الأرض، باحدى

---

(1) الفرائد الطبعة الحجرية.

(2) ثمّ إنّه جعل مبدأ ذلك اليوم الربّاني عام غيبة ولي الله الأعظم المهدي (عج) عن الأبصار حتى يطابق مختتمه مفتتح عام ظهور الباب، هذا مصداق واضح للتفسير بالرأي، وكأنّه قد قرر النتيجة أوّلاً ثمّ راح يتفحّص عن دليل يوصل إليها فلم يجد دليلاً، إلّا بتحريف كلام الله وتأويله السخيف.

الطرق المقررة في محلها.

وإن شئت قلت: التدبير هو التفكير في عاقبة الأُمور ودبرها، كما قال سبحانه: ﴿ فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (النازعات ـ 5) أي الملائكة الموكلة بتدبير الأُمور.

وقوله سبحانه: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد ـ 24).

وقوله سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (ص ـ 29) إلى غير ذلك.

أو ليس تفسير التدبير بالنزول عند ذاك يكون تفسيراً بالرأي الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وأوعد عليه النار وقال: من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار [1].

وأمّا الثاني: فلأنّ الأمر في القرآن لم يستعمل بمعنى الشريعة والأحكام الالهية من واجب وحرام ومكروه ومستحب ومباح، وسائر الأحكام الوضعية الجارية في العقود والايقاعات والسياسات.

هؤلاء هم أصحاب المعاجم وأعلام اللغة، لا تجد أحداً منهم فسر الأمر بالشريعة بل تدور معانية بين الشأن والشيء والتكليف.

سؤال: إذا اعترفتم بأنّ التكليف من معانيها، كما يقال أمرته: إذا كلّفته، فيصح تفسيره بالشريعة، إذ الشريعة عبارة عن تكاليف يوجهها الشارع إلى عباده ؟

الجواب: انّ حمل الأمر في الآية على الأمر والتكليف التشريعي خلاف مساق آيات السورة، بل خلاف صريح سائر الآيات الواردة في هذا المضمار فلحاظ السياق يدفعنا إلى أن نحمل الأمر على التكويني الذي هو عبارة عن إرادته الفعلية ومشيئتة التكوينية الجارية في صحيفة الكون والوجود، فإنّ كل ما يسيطر على العالم، من نظام وسنن وقوانين، كلّها بأمر تكويني وإرادة فعلية منه سبحانه كما يصرح به قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

---

(1) حديث متفق عليه ورواه الفريقان بصور مختلفة.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: 82 . 83).

حصيلة البحث :

انّ هنا قرائن ثلاث لابد من البحث عنها، كي نقرّب إلى الأذهان كيفية حمل لفظ الأمر على الأمر التكويني، أعني النظم والسنن الجارية في دائرة الكون والقوانين المكتوبة على جبين الدهر ودونك هذه الشواهد :

1. لفظ التدبير، فقد عرفت أنّه عبارة عن الإدارة على وجه تقتضيه المصلحة والحكمة، فهو سبحانه يدبر الخلق بعامة أجزائه من السماء إلى الأرض، على وجه تقتضيه المصلحة، فسبحان الذي خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها ،. ودبرها على وفق الحكمة، فلا السماء تسقط على الأرض، ولا الأرض تنخسف بنا، ولا الشمس تظللنا دائماً ولا الظلمة تحيط بنا سرمداً، إلى غير ذلك من سنن ونظم ...

2. سياق ما تقدمها من الآيات، فإنّ محور البحث في سابقها، هو خلق السماوات والأرض واستوائه سبحانه على العرش، ودونك الآية المتقدمة عليها :

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (السجدة . 4). « يدبر الأمر » من السماء إلى الأرض ... أفلا تفهم من تقارن الآيتين أنّ اللام في الأمر إشارة إلى أمر الخلقة، وأنّ الله سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما في أيام وأدوار مخصوصة ولم يكتف سبحانه بأصل الخلقة، بل استوى على عرش ملكه فدبّر أمرها على وجه توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة، وأنّه سبحانه يدبّر أمر الخلق، أي خلق تتصور وينفذه على وجهه، حتى أنّه سبحانه توخياً للتوضيح شبّه المقام الربوبي الذي ينزل منه التدبير، ويصدر منه الحكم بعرش الملك البشري الذي يجلس الملك عليه فيصدر منه أوامره لتدبير أُمور الملك، غير أنّ أوامره طلبات عرفية اعتبارية، ولكن أوامره سبحانه، أوامر تكوينية، لا يقوم بوجهها شيء، فما قال له كن، فيكون، بلا تراخ ولا تمرّد.

3. الآيات المنزّلة في هذا المضـــمار، فإنّ هذه الآية ليســـت فريدة في بابها فقد ورد في هذا المضمون (أي تدبير أمر الخليقة) آيات أُخرى كلها تهدف إلى ما أوضحناه، وهو أنّ تدبير الخلق بعد إيجاده من شؤونه سبحانه، من دون نظر إلى الشرائع وتجديدها، ودونك الآيات :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ (يونس ـ 3).

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ (يونس ـ 31).

وقوله سـبحانه: ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّـمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْـتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد ـ 2).

نعم هذه الآيات ساكتة عن عروج الأمر وصعوده في المقدار الذي صرحت به هذه الآية، ولا يوجب ذلك فرقاً جوهرياً بين أهدافها ومراميها.

ومن ذلك تقف على أنّ الأمر في قوله ســـبحانه: ﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف ـــ 54) هو أمر الخليقة، أي هو الذي خلق الأشياء كلّها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته فيها، فما عن بعض أعلام العرفان والفلسفة من تسمية المادي والماديات بعالم الخلق، والمجردات والابداعيات بعالم الأمر، اســـتناداً إلى هذه الآية ضـــعيف جداً، وإن كان تقسيم الموجود إلى المجرد والمادي، صحيحاً لا ريب فيه.

وأمّا الثالثة: فلأنّ تفسير العروج بإندراس الشريعة ونسخها باطل جداً، لأنّ العروج عبارة عن ذهاب في صعود كقوله سبحانه: ﴿ تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج ـ 4) وجعله كناية عن انتهاء أمد الشريعة وبطلانها واندراسها من الكنايات البعيدة التي يجب تنزيه القرآن عنها، إذ لا معنى لعروج الشريعة المنسوخة إليه سبحانه

إذ لا يفهم من نسخها إنّها تعرج إلى السماء، بل كل ما يستفاد، إنّما تعطل عن العمل بها والسير عليها، لا إنّها تعرج إليه سبحانه.

أضف إليه أنّه لو كان مراد المولى سبحانه، هو الإخبار عن تجديد كل شريعة بعد ألف عام، لاقتضى ذلك أن يعبّر عن مقصوده بعبارة واضحة يقف عليها كل من له إلمام باللغة العربية، ولماذا جاء بكلام لم يفهم منه مراده سبحانه إلّا بعد حقب وأجيال إلى أن وصلت النوبة لكاتب مستأجر فكشف الغطاء عن مراده سبحانه وقد خفى على الأُمّة جميعاً، وفيها نوابغ العربية وفطاحلها، حتى تفرّد هو بهذا الكشف ؟!

مشكلة المفتتح والمختتم :

بقيت في المقام مشكلة، وهي ابتداء تلك المدة واختتامها، وقد حار فيها فاختار أنّ مبدأها هو عام غيبة الإمام المنتظر، حتى يتطابق ختم ذلك اليوم الذي مقداره ألف سنة مع ظهور الباب [1] ولما رأى أنّ ذلك تفسيراً منه بالرأي، اعتذر عن ذلك بأنّ الإسلام لم يكتمل إلّا عام غيبة الإمام، حيث حوّل الأمر إلى الفقهاء.

وأنت خبير بأنّ ما اعتذر به يتناقض مع صريح القرآن القاضي باكمال الدين بلحوق النبي بالرفيق الأعلى، فقال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (المائدة ـ 3).

ولو قال إنّ الآية ناظرة إلى الاكتمال من جانب الأُصول وتدعيم مبادئ الإسلام وأُسسه بنصب الولي، وأمّا الإكتمال من جانب الفروع فقد امتد بعد لحوق النبي صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، إلى عشرات السنين من عهود الأئمّة وأعصارها إلى غيبة وليّه، فينتقض كلامه من جانب آخر، فإنّه فسّر عروج الأمر بالنسخ التدريجي للشريعة، وجعل النسخ عبارة عن ترك العمل بها واندارسها في مراحل الحياة، وعلى ذلك يجب أن يكون مبدأ

---

(1) فقد اتفقت غيبة الإمام عام 260، وادّعى الباب ما ادّعى، بعد مضي ألف سنة من ذلك حيث كان خروجه سنة 1260.

النسخ التدريجي عام فوت الرسول ﷺ فإنّ العصور التي جاءت من بعده ﷺ لم تكن عصوراً ازدهر فيها الإسلام بل كانت عهد الجور والعدوان، حيث تآمرت قريش على تداول الخلافة في قبائلها واشرأبت إلى ذلك اطماعها، فتصافقوا على تجاهل النص، وأجمعوا على صرف الخلافة من أوّل يومها عن وليّها المنصوص عليه إلى غير ذلك من الملمّات والنوازل.

ولو كان ظهور العيث والفساد في المجتمع الإسلامي ورفض الشريعة في مراحل الحياة، ملازمة للنسخ التدريجي للشريعة، فليكن عهد يزيد الخمور والفجور من هذه العهود التي أخذت تعربد بلسان قائله :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

أفلا تعجب من الكاتب، أنّه جعل تلك العهود المظلمة التي امتدت عشرات السنين وكانت وبالاً على الإسلام من العصور الزاهرة، مع أنّه أخرج عهود القسط والعدل الموعود بخروج الإمام الثاني عشر (التي ترفرف فيها أعلام القسط والعدل وتخفق رايات الحق والهداية في كل صقع) من الأصقاع التي ينمو فيها الإسلام، ويزدهر. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

وأمّا البحث عن هدف الآية وأنّه سبحانه ماذا يريد من قوله: ﴿ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فله منّا بحث آخر، وسوف نعطي حقه عند البحث عن المعاد في القرآن الكريم، فإنّ اليوم الذي يعادل ألف سنة من الآيام الاخروية.

الشبهة السادسة [1] :

* ينص القرآن على أنّ الإسلام شريعة عالمية، وأبدية وأنّ بالإسلام أقفل باب الشرائع، ونسخ جميعها.

---

(1) هذه الشبهة لها صلة بعالمية الإسلام وصلة بخاتميته ولأجل ذلك جعلناها آخر الشبهات وفصّلنا الكلام فيها بما لا يدع لمشكك شك.

* وينص أيضاً على أنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر من جميع أهل الشرائع سينالون ثواب الله، وأنّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

* فماذا يعني ذلك ؟

هل ذلك اعتراف من الإسلام بشريعة تلك الشرائع، والسماح لها بالاستمرار إلى جانبه أو لا ؟

إذا كان الإسلام آخر شريعة في مسلسل الشرائع السماوية، وكانت رسالته خاتمة الرسالات، وناسخة الأديان، فلماذا يعتبر القرآن كل من يؤمن بالله، ويعمل صالحاً من أصحاب الديانات المسيحية أو اليهودية أو غيرهما مأجوراً عند الله، وآمناً من عذابه ؟!

ألا يعني بهذا أنّ جميع الشرائع السماوية لا تزال تحتفظ بشرعيتها، إلى جانب الإسلام، وأنّ أتباعها ناجون شأنهم شأن من اعترف بالإسلام وصار تحت لوائه تماماً، وكأنّ شريعة جديدة لم تأت وكأنّ أمراً ما لم يقع ؟ [1].

قبل اعطاء الإجابة الصحيحة على هذا السؤال يتحتم علينا أوّلاً أن نستعرض سريعاً ما يذكر في هذا الشأن من الآيات وهي ثلاث :

1. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة . 62).

2. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة . 69).

3. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج . 17).

قد يقفز إلى الذهن في النظرة الأُولى أنّ القرآن يكرّس شرعية الشرائع المذكورة

---

(1) قد شاع هذا النظر من جانب بعض المستشرقين.

ويعترف بحقها في أمان من عذاب الله، وفي منجى من مؤاخذته، بشـــرط أن يكونوا مؤمنين بالله وباليوم الآخر، وأن يقدموا على ربّهم بعمل صـــالح ويكون نتيجة ذلك أنّ فكرة نســـخ الإســـلام للشـرائع ادعاء فارغ لا أسـاس له ولا واقع ما دام الإسـلام يعتبر أنّ كل الطرق تؤدي إلى الله، وانّه ليس من الضـروري على أصـحاب الشـرائع الأُخرى أن يعتزلوا شـرائعهم، وينضـمّوا إلى صـفوف الإسلام والمسلمين.

هذا هو ما نسمعه بين الحين والآخر من بعض الأفواه.

غير أنّه يجب أن نعرف أوّلاً: أنّ الأســـاس الســـليم في تفســـير آية ما، ليس هو أن نتجاهل أخواتها من الآيات أوّلاً، وملابســـات النزول ثانياً، ومقتضـــى الســـياق القرآني ثالثاً، لأنّنا في هذه الحالة سنقع في تخبط عريض لا أوّل له ولا آخر.

ثمّ إنّ علينا ـــ قبل كل شيء ـــ أن نلاحظ سيرة الرسول ﷺ مع أصحاب الشرائع هل كان يأمرهم بالاعتزال عن دياناتهم، والانضمام إلى صفوف المسلمين أو لا ؟ فإذا كان الجواب في المقام ايجابياً لكان ذلك الأمر قرينة على أنّ المقصـــود من الآيات المذكورة غير ما يتبادر منها في بدء الأمر.

وبعبارة واضـحة: إذا كان الإسـلام يعترف بشـرعية الشـرائع وحقها في الاسـتمرار والبقاء حتى بعد ظهور الإسـلام، فإنّ معنى ذلك هو أنّ الإسـلام ينسـف بنفسـه مقوّمات وجوده ويعطل من ناحية أُخرى كل الأُســـس الوجيهة التي قامت عليها دعوة الرســـول الأكرم ﷺ قادة العالم آنذاك إلى شريعته ضمن رسائله ومكاتيبه المشهورة، ويفند بالتالي دعوى الرسول ﷺ بأنّه (آخر الأنبياء وخاتم المرسلين) وأنّ رسالته خاتمة الرسالات !!!

إنّ الرسـائل الهامة التي وجهها الرسـول الأكرم ﷺ إلى قادة وملوك زمانه وأيضـاً جهاده المرير وجهاد المسلمين ضد أهل الكتاب سواء في عهده أو بعد ذلك، مضـافاً إلى مجموع ما وصل إلينا من تصـريحات قادة الإسـلام لدليل صـارخ على أنّ الإسـلام أعلن بظهوره (نهاية) عهد الشـرائع بأسرها و (بداية) عهد جديد لا شريعة له سوى (الإسلام) ولا نبي له سوى (محمد) ﷺ .

الحديث يبيّن هدف الآية :

إنّ مفاد الآيات المذكورة ليس ـ في الواقع ـ سوى تقرير لحقيقة ثابتة، وهي التي تتجلى ـ بوضوح ـ من خلال الآيات السابقة لهذه الآية من سورة البقرة.

فالآيات إنّما تتحدث عن مصير الماضين من اتباع الشرائع في عهود الأنبياء السابقين قبل ظهور الإسلام ممّن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً.

فالقرآن يخبرنا بأنّ هؤلاء ناجون بسبب إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح والتزامهم بتعاليم شرائعهم دون من حاد عن طر يق الإيمان ولم يأت بعمل صالح وانحرف عن جادة التوحيد الخالص، وهم الفرقة التي عبدت العجل مرة [1] وبلغ بها الوقاحة أن طلبت من موسى أن يريها الله [2] ذلك الطلب الوقح الذي صار سبباً لأن يحل غضب الله على بني اسرائيل.

لقد أراد الله هنا أن يزيل الغموض أو الاشتباه حول مصير الفريق المؤمن من أهل الكتاب حتى لا يختلط أمرهم بأمر ذلك الفريق الكافر المعاند فأخبر بأنّ من آمن من أهل الكتاب بالله عن اخلاص، وآمن باليوم الآخر عن صدق وعمل صالحاً، فإنّه لا خوف عليهم يوم القيامة ولا حزن ولا عقاب، بل جنّة وثواب ورضوان من الله.

في هذه الصورة يمكن اعتبار الآية مرتبطة بذلك الفريق المؤمن من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون في العصور الماضية السابقة على الإسلام دون أن يكون لها أي ارتباط بعصر الرسالة الإسلامية وما بعده.

ونأتي بشأن نزول هذه الآية ليلقي ضوء أكثر على هذا الموضوع، ويؤيّده تأييداً كاملاً.

فهذا هو الطبري ينقل عن السدّي قوله: نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان

---

(1) راجع البقرة الآيات: 51، 54، 92، 93، والنساء: 153، والأعراف: 152.

(2) راجع البقرة: 55.

الفارسي حيث ذكر أصحابه للنبي ﷺ فقال له نبي الله: هم من أهل النار، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ... ﴾ [1].

في هذه الصورة لا تجد أي ارتباط للآية بزعم أُولئك الذين يدعون أنّ هذه الآية لا تعني سوى (الوفاق الإسلامي المسيحي اليهودي) ويزعمون أنّ الإسلام يقرّر في هذه الآيات (أمان) المعتنقين لغير الإسلام من عذاب الله وعقابه.

هذا مضافاً إلى أنّنا لا نرى أي علاقة بين الآية الثالثة (وهي الآية 17 من سورة الحج) وبين ما يزعم هؤلاء .. حيث أنّ مفاد هذه الآية لا يعني سوى الإخبار بأنّ الله هو الحاكم بين الطوائف المختلفة، يوم القيامة فهو الذي ينتقم من طائفة وينتصر لطائفة أُخرى، وليس يعني ذلك مطلقاً أنّ أصحاب الشرائع الأُخرى على حق، وأنّهم ناجون يوم الحساب !

جواب آخر :

ولنا ـ هنا ـ إجابة ثانية على السؤال المطروح، ولكن قبل أن ندخل في صميم هذه الاجابة نرى من الضروري أن نشير إلى بعض هذه الأُمور :

فكرة الشعب المختار :

التاريخ يحدثنا أنّ اليهود والنصارى كانوا كثيراً ما يستعلون على المسلمين بل العالم بادعاء فكرة (الشعب المختار)، فكل واحدة من هاتين الطائفتين: اليهود والنصارى، كانت تدّعي أنّها أرقى أنواع البشر !!

وكانت اليهود خاصة أكثر تمسكاً بهذا الزعم، حتى أنّهم كانوا يدّعون أنّهم (شعب الله المختار).

---

(1) تفسير الطبري: ج 1 ص 256، والحديث طويل وقد أخذنا موضع الحاجة منه، والظاهر أنّه منقول بالمعنى وفي بعض عباراته خلل.

وقد ذكر القرآن في إحدى آياته هذا الزعم الباطل، وذكر أنّ النصارى هم أيضاً يدّعون هذا الإدّعاء الفارغ عندما يقول :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة ـ 18).

والقرآن جاء يفنّد هذا الزعم بكل قوّة عندما يقول: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ وقد بلغت أنانية اليهود، واستعلائهم الزائف حداً بالغاً، وكأنّهم قد أخذوا على الله عهداً بأن يستخلصهم، ويختارهم حيث قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة ـ 80).

ولكن القرآن نسف بقوة هذا الزعم حيث قال في شكل إستفهام انكاري :

﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ـ 80).

هكذا نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها أنّ اليهود كانوا يعدّون أنفسهم صفوة البشرية ونخبة الشعوب وكانوا يحاولون بمثل هذه المزاعم فرض كيانهم على العالم كأرقى نوع بشري انتخبه الله على سائر البشر، حتى كأنّهم أبناء الله المدلّلون.

2. الأسماء لا تنقذ انساناً :

إنّ اليهود والنصارى كما كانوا يحاولون الاستعلاء الباطل عن طريق بث (فكرة الشعب المختار) كانوا من ناحية ثانية يعتبرون الأسماء، أو الانتساب إلى اليهودية والمسيحية سبباً آخر من أسباب التفوّق في الدنيا، والنجاة في الآخرة والفوز بالثواب الجزيل.

فقد كان في تصورهم أنّ الجنّة هي نصيب كل من ينتسب إلى بني إسرائيل أو يسمّى مسيحياً ليس إلاّ، وكأنّه بإمكان الأسماء أو الانتساب أن تصبح يوماً ما سبيلاً إلى

الهداية، أو مفاتيح للجنّة !!

ولكن هذا الزعم ـ على رغم سخافته ـ أُمنية لهم كسائر أمانيهم كما يحدثنا القرآن :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (البقرة ـ 111).

غير أنّ القرآن كان بالمرصاد لهذه الدعاوي الباطلة أيضاً، عندما ذكر بأنّ الوسيلة الوحيدة لامتلاك الجنّة العريضة هي: (الإيمان الصادق) و (العمل الصالح) وليست الأسماء، أو مجرد الانتساب إلى عقيدة سماوية مهما كانت. فقال :

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 111 ـ 112).

ولا شك أنّه واضح جداً أنّ جملة ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ إنّما تعني الإيمان الخالص والتسليم الصادق لله، وجملة ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ إنّما تعني العمل وفق ذلك الإيمان أي العمل بالشريعة التي يؤمن الشخص بها، وكلتا الجملتين تدلاّن على أنّ السبيل الوحيد إلى النجاة في يوم القيامة إنّما هو: الإيمان والعمل، وليس اسم اليهودي أو النصراني فليست المسألة مسألة أسماء وإنّما هي مسألة إيمان صادق، وعمل صالح.

3. ليست الهداية في اعتناق اليهودية والمسيحية :

يشير القرآن ـــ أيضاً ـــ إلى دعوى أُخرى لهم باطلة كأخواتها، فارغة كمثيلاتها وهي قولهم بأنّ الهدى الحقيقي إنّما هو في اعتناق اليهودية أو المسيحية !!

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ (البقرة ـ 135).

ولكنّ القرآن يرد ـ أيضاً ـ هذا الزعم الواهي بقوله :

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ (البقرة ـ 135).

فالهدى الحقيقي هو في الاقتداء بملّة إبراهيم واعتناق مذهبه في التوحيد الخالص من كل شائبة.

وفي آيات أُخرى في القرآن نجد كيف أنّ اليهود والنصـــارى حاولوا اضـــفاء طابع اليهودية والمســـيحية على إبراهيم، ليحصـــلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهم ويضـــفوا الشـــرعية على مسلكهم، غير أنّ القرآن مضى يفنّد ـ بكل قاطعية وعنف ـ هذه الاكذوبة بقوله :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران ـ 67).

نســـتخلص من كل هذه الآيات كيف أنّ اليهود والمســـيحيين والقدامى منهم خاصـــة كانوا يحاولون ـــ بهذه الأفكار الواهية ـــ التفوّق على البشر، والتمرّد على تعاليم الله، والتخلص بصورة خاصة من الإنضواء تحت لواء الإسلام، مرة بافتعال اكذوبة (الشعب المختار) الذي لا ينبغي أن يخضع لأي تكليف، ومرة أُخرى بافتعال خرافة (الأسماء والانتساب) وادعاء النجاة بسبب ذلك والحصول على مغفرة الله وجنّته وثوابه. ومرة ثالثة بتخصيص (الهداية) وحصرها في الانتساب إلى إحدى الطائفتين بينما نجد أنّه كلّما مرّ القرآن على ذكر هذه المزاعم الخرافية أعلن بكل صـــراحة وتأكيد: أنّه لا فرق بين انسان وانسان إلّا بتقوى الله فإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ..

وأمّا النجاة والجنّة فمن نصـيب من يؤمن بالله، ويعمل بأوامره دونما نقصـان لا غير، وهو بهذا يقصد تفنيد مزاعم اليهود والنصارى الجوفاء.

بهذا البحث حول الآيات الثلاث (المذكورة في مطلع البحث) نكتشـف بطلان الرأي القائل بأنّ الإسلام أقر ـ في هذه الآيات ـ مبدأ (الوفاق الإسلامي المسيحي واليهودي) تمهيداً لإنكار عالمية الرسالة الإسلامية، بينما نجد أنّ غاية ما يتوخّاه القرآن ـ في هذه الآيات ـ إنّما هو فقط نسف وإبطال اليهود والنصارى وليعلن مكانه بأنّ النجاة إنّما هي بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

فلا اســـتعلاء، ولا تفوّق لطائفة على غيرها من البشـــر مطلقاً، كما أنّ هذا التشـــبّث الفارغ بالأسماء والدعاوي ليس إلّا من نتائج العناد والاستكبار عن الحق.

فليست الأسماء، ولا الانتساب هي التي تنجي أحداً في العالم الآخر، وإنّما هو الإيمان والعمل الصالح، وهذا الباب مفتوح على وجه كل انسان يهودياً كان أو نصرانياً مجوسياً أو غيرهم.

ويوضح المراد من هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (المائدة . 65).

فتصرّح الآية بانفتاح هذا الباب بمصراعيه في وجه البشر كافة من غير فرق بين جماعة دون جماعة حتى أنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون لقبلنا إيمانهم وكفّرنا عنهم سيئاتهم.

هذا هو كل ما كان يريد القرآن بيانه من خلال هذه الآيات، وليس أي شيء آخر.

إذن فلا دلالة لهذه الآيات الثلاثة على إقرار الإسلام لشرعية الشرائع بعد ظهوره .. وإنّما تدل على أنّ القرآن يحاول بها إبطال بعض المزاعم.

يبقى أن تعرف أنّ هنا آيات أُخرى تؤيد بصراحة ما ذهبنا إليه من انحصار النجاة في الإيمان والعمل، وذلك كسورة (والعصر) :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: 1 . 3).

كما أنّ تكرار كلمة (الإيمان) في الآيات الثلاث تأكيداً آخر لما قلناه حيث قال في مطلع الآيات: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم قال: ﴿ ... مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾ وهو يقصد بمن (آمنوا) الأُولى، الذين اعتنقوا الإسلام في الظاهر، دون أن يتسرب الإيمان إلى قلوبهم، وينعكس على تصرفاتهم، ويقصد بمن (آمن) الثانية الإيمان الصادق المقرون بالعمل.

وبعبارة أُخرى: إنّ المراد من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هم المسلمون لوقوعه في مقابل اليهود والنصارى، ويشهد على ذلك قوله سبحانه: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً

لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ (المائدة: 82) فقد جعل لفظ « آمنوا » في مقابل اليهود.

وحينئذ فالمراد من قوله: ﴿ آمَنُوا ﴾ في صدر الآية هو من أظهر الإيمان بالله ورسالة رسوله محمد ﷺ كما أنّ المراد من قوله: ﴿ مَن يُؤْمِنُ ﴾ هو الإيمان الحقيقي الراسخ في القلب.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ (النساء. 136).

ثمّ إنّي بعد ما كتبت هذا وقفت على ما كتبه الكاتب الإسلامي أبو الأعلى المودودي حول الآية، وكان متقارباً لما قلناه، وحررناه، ولأجل اتمام الفائدة نأتي بإجمال ما كتبه :

والحقيقة انّ هذا التحريف قد اسدى إلى روح الضلالة خدمة كان قد عجز عن مثلها أكابر أئمّة الضلال والكفر على بعد نظرهم، ومكرهم في التضليل، إذ هو يزوّد. في جانب. غير المسلمين بدليل من القرآن نفسه على عدم احتياجهم إلى قبول الحق، ويأخذ. في جانب آخر. بيد المنافقين والدخلاء على الجماعة الإسلامية من الذين يتلملمون دائماً للتنصل من قيود الإسلام وحدوده حتى ينالوا الرخصة بلسان القرآن نفسه في ازالة الحاجز القائم بين الكفر والإسلام، ويزلزل ـــ في الجانب الثالث ـــ إيمان المؤمنين المتّبعين للقرآن والسنّة في داخل الجماعة الإسلامية حتى ليساورهم الشك بأنّ الانسان ما دام من الممكن له أن يستحق النجاة ولو بانكار القرآن والسنّة النبوية وبغير حاجة إلى الإيمان بكتاب ولا برسالة، فمن العبث أن يتقيّد بحدود الإسلام إذ لا فرق ـ البتة ـ بين كونه مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً أو صابئياً أو هندوكياً أو غيره.

ثمّ شرع الكاتب في تفسير جمل الآية وقال :

إنّ المراد بـ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هم طائفة أهل الإسلام وإنّ المراد من: ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أُولئك الذين هم متصفون في حقيقة الأمر بصفة الإيمان الصحيح الكامل.

والمراد من: ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ... ﴾ أُولئك الذين يعدون من طوائف

اليهود والنصارى، وليس المراد بهم، أُولئك الذين اختاروا عقيدة اليهود، وانتهجوا نهجهم في حقيقة الأمر، أو الذين يعتقدون النصرانية في واقع الأمر حسب ما ذكر في جملة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

ثمّ أفاد في رفع الستار عن هدف الآية، وقال :

إنّ التصورات الطائفية التي كانت شائعة في عهد نزول القرآن هي بعينها شائعة في العصر الحاضر أيضاً.

فلهذا لا يصعب علينا أن ندرك أنّ القرآن إنّما يفرّق في هذه الآية بين الذين هم مؤمنون لمجرد انتسابهم إلى طائفة أهل الإيمان وبين الذين هم مؤمنون واقعيون متصفون بصفة الإيمان، ومتمثّلون لحقيقته في الواقع.

فكما أنّنا نشاهد في هذا الزمان أنّ الدنيا تميّز بين الأفراد من وجهة الطائفية فيقال لرجل: مؤمن، أو مسلم، لمجرد أنّه من جماعة المسلمين على حسب انقسام أفراد البشرية بين مختلف الجماعات بصرف النظر عمّا إذا كان هو مسلماً في واقع الأمر أم لا، ويقال لفرد من اليهود والنصارى والبوذيين: يهودي أو نصراني أو بوذي، باعتبار انتسابه إلى ديانة من تلك الديانات وبصرف النظر عمّا إذا كان مؤمناً بمبادئ طائفته في واقع الأمر أم لا، كذلك كان النوع البشري في عهد نزول القرآن موزّعاً بين عدد من الطوائف على حسب الظواهر بدون اعتبار الواقع، فكان يميّز بين مختلف الأشخاص والجماعات باعتبار أنّ فلاناً من جماعة محمد ﷺ وفلاناً من طائفة اليهود، وفلان من طائفة النصارى وهلمّ جرا.

ومن هنا كان المنافقون يعدّون من جماعة المسلمين ـ الذين آمنوا ـ مع أنّهم لم يكونوا مسلمين في حقيقة الأمر.

والحقيقة انّ الله سبحانه وتعالى يريد بهذا الجزء من الآية أن يفنّد الفكرة السائدة عند الناس عامة وهي أنّ الناس سيحشرون في الآخرة بموجب التصنيف الطائفي، وباعتبار أنسابهم وأسمائهم الصورية في الدنيا، فيعتقد اليهودي أنّ النجاة خالصة لمن

هو معدود في طائفة اليهود دون سائر الناس، ويظن النصراني أنّ الدخول في النصرانية دخول في أهل الحق، وكل من هو خارج عن هذه الدائرة يكون على الباطل، وكذلك قد بدأ المسلمون يظنون أنّ من هو داخل في جماعتهم على اعتبار اسمه واسرته ومولده فهو مسلم وله الشرف والفضيلة على كل من ليس بداخل في جماعتهم بموجب تلك الاعتبارات.

فتفنيداً لهذه الفكرة الخاطئة يقول سبحانه وتعالى إنّ الفرق الحقيقي بين الانسان والانسان ليس على حسب الطائفية الظاهرية، بل الذي عليه المدار هو الإيمان والعمل الصالح، وليس كل من تسمّى بأسماء المسلمين مع خلوّه من الإيمان وابتعاده عن العمل الصالح بالمؤمن في واقع الأمر، ولن يكون في عاقبته مثل المؤمنين الحقيقيين، وكذلك ليس كل من ينتسب إلى اليهودية والنصرانية أو الصابئة يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً إذا كان متجرداً من هذه الصفات. فكما أنّ الاعتداد في جماعة المسلمين لا يغني عن الانسان شيئاً كذلك اعتباره من اليهود وإلنصارى والصابئيين لا يرجع عليه بالفائدة في الآخرة.

ثمّ إنّه بعد ما ذكر بعض ما قدمنا من الآيات من مزاعم اليهود والنصارى من كون الجنّة مختصة بهم، أو أنّ النار لا تمسّهم إلّا أياماً معدودة، أو أنّهم أبناء الله واحباؤه، قال إنّ كل هذه الآيات إنّما تكشف عن حقيقة بعينها هي أنّ الله عزّ وجلّ ليست عليه دالّة لطائفة في الأرض، ولا أنّ طائفة خاصة مستأثرة بالنجاة عنده، فليس من حق أحد من الناس أن يعامل بصفة خاصة بناء على أنّه ولد في أُمّة معيّنة أو ينتمي إلى جماعة خاصة، بل الجميع من حيث هم أفراد الجنس البشري، لا فرق بينهم البتة في نظر الله، لأنّ الاعتبار الحقيقي عند الله ما هو الانتسابات أو القوميات، بل هو للمبادئ والحقائق فإن آمنتم بصدق قلوبكم وعملتم الصالحات نلتم جزاءً حسناً عند الله، وإن بقيتم على غير شيء من الإيمان والعمل الصالح فلا شيء ينقذكم من العقاب والعذاب الأليم، ولو إلى أي طائفة أو جنس كنتم تنتسبون، والله تعالى قد صرّح بهذه الحقيقة في موضع آخر من كتابه حيث يقول ـ مخاطباً المسلمين ـ: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ

مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النســـاء 123 . 124) [1].

وأنت إذا لاحظت ما ذكره المؤلّف وما قد حررناه من قبل تجد الجوابين متوافقي المضـــمون، متشاكلي المعنى.

وإذا وقفت على هدف الآية ومرماه فلندخل في صـــميم الإجابة الثانية حتى نثبت أنّها لا تمتّ بصـــلة إلى مدّعى القائل، إذ الآية تســـوقنا إلى أنّ الاعتبار في النجاة هي (الحقائق والمســـمّيات والمعاني) دون الصور والأسماء والقشور.

وأمّا ما هو حقيقة الإيمان بالله وما هو شرطه، وما المقصود في العمل الصالح وكيف يتقبل.

فالآية ساكتة عن بيانها ومنصرفة عن توضيحها، وإنّما تطلب هذه الشروط والقيود من سائر الآيات ولأجل ذلك يجب أن ينضم إلى الآية سائر ما ورد من الآيات الورادة في باب الإيمان بالله والإتيان بالعمل الصالح حتى نقف على مرمى القرآن.

فنقول: ليس معنى الإيمان بالله أن يقر الانســـان بوجود الله، ويعترف بوحدانيته بل المراد هو التسليم لله، كما في قوله سبحانه :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْـــلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِـــنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة . 112).

وقد دلّت الآيات القرآنية على أنّ الإيمان بالله لا ينفك عن الإيمان بأنبيائه ورســـله حيث قال سبحانه :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

(1) الإسـلام في مواجهة التحديات المعاصـرة طبعة دار القلم ص 190 ـــ 196 وهو من أنفع كتب المؤلّف غير أنّه يعتمد في المسائل الفقهية على رأي كلّ صحابي أو تابعي، وينقل آراء أصحاب المذاهب الأربعة ولا ينقل رأي واحد من أئمة أهل البيت غير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة . 136).

كما دلّت على أنّ الإيمان بأنبيائه ورسله لا تنفك عن الإيمان بنبيّه الخاتم حيث قال سبحانه:

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ (البقرة . 137).

والقرآن يعترف بأنّ تكفير نبي واحد تكفير بجميع الأنبياء بل تكفير بالله سبحانه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء: 150 . 151).

كيف وقد عدّ الإيمان بنبيّه الخاتم من أركان الإيمان وقال :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (النور . 62).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات . 15).

وليس المراد من الإيمان بالرسول هو الاعتراف بعظمة الرسل وجلالة مكانتهم بل المراد هو الطاعة العملية حيث قال سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (النساء . 64).

وقال سبحانه :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء . 115).

وقال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب . 36).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في شأن الأنبياء وخصوص شأن الرسول الأكرم.

وعلى ذلك فالإيمان بالله الذي تعتبره الآية وسيلة للنجاة لا ينفك عن الإيمان برسله وكتبه، وعن الإيمان برسوله الخاتم، ولا ينفك الإيمان بهم وبه عن الإيمان بطاعته، وامتثال أوامره والانزجار عن نواهيه، ولا يتم ذلك إلّا بالعمل بالقرآن وشريعته وأوامره وزواجره، سننه وفرائضه وليس يراد من المسلم إلّا ذاك، ولا تخالف بين الآية وغيرها من الآيات في الهدف والمرمى.

نعم كل من أراد أن يستخرج من الآية ما هو كفاية رسوخ اليهودي في يهوديته والنصراني في نصرانيته .. فقد غضّ بصره عن سائر الآيات شأن كل من يختار مذهباً أوّلاً ثمّ يرجع إلى القرآن حتى يجد له دليلاً ثانياً.

إنّ الله يأمر نبيّه أن يعلن ويقول :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام ـ 153).

وعندئذ لا يمكن له أن يعترف بصحة الطرق المختلفة الأُخرى وأنّها أيضاً طرق مستقيمة.

خاتمة المطاف :

بقيت هنا كلمة وهي أنّه ربّما يستدل [1] على الخاتمية بمثل قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (سبأ ـ 28).

وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف ـــ 158) والأُولى الاستدلال بها على عالمية الرسالة الإسلامية لا خاتميتها.

وما ربّما يقال: بأنّ الناس ربّما يطلق ويراد منه جماعة من الناس مثل قوله سبحانه

---

(1) اللوامع الالهية: ص 225.

في قصة موسى وفرعون: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء . 39).

وقوله سبحانه: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ (الفتح . 20).

والمقصود من الناس هم المشركون خاصة وعلى ذلك فليست هذه الآية ونظائرها دالة على سعة رسالته فضلاً عن خاتميتها.

والجواب عن الشبهة واضح وذلك لأنّ استعمال كلمة (الناس) في الجماعة الخاصة في الآيات المتقدمة إنّما هو لوجود القرائن الحافة بالكلام ولولاها لما صح استعمال الكلمة التي وضعت للعموم في جماعة خاصة.

هذه شبهات الخاتمية التي اختلقها القوم ولم تكن إلّا شبهات سوفسطائية أو أشواكاً في طريق الحقيقة، وبقيت شبهات ضئيلة أُخرى للقوم، أرى التعرّض لها ضياعاً للوقت الثمين.

أجل هناك أسـئلة حول الخاتمية جديرة بالبحث والتحليل، فلا بد من التعرض لها وما يمكن أن يجاب به حولها، ولأجل ذلك عقدنا الفصل التالي وهو من الفصول المفيدة جداً.

الفصل الرابع

أسئلة

حول الخاتمية

إنّ من شيم العصر الإلحادي الحاضر، كثرة السؤال والتشكيك في كل شيء، خصوصاً فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد، والمعارف الغيبية أي المسائل الراجعة إلى ما وراء الطبيعة، ولم تسلم مسألة خاتمية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من هذه التشكيكات، فقد كثر السؤال وطال الحوار والنقاش حولها، ونحن نذكر تلكم الأسئلة الدارجة في الأذهان والأفهام ونعترف بأنّ بعضها أو كثيراً منها جدير بالبحث والتمحيص أكثر، مما بحثنا عنه.

السؤال الأول :

وحاصله: هب أنّه ختمت النبوّة التشريعية، فلماذا ختمت التبليغية منها ؟

توضيحه: أنّ النبي إذا بعث بشريعة جديدة وجاء بكتاب جديد، فالنبوّة تشريعية وأمّا إذا بعث لغاية الدعوة والإرشاد إلى أحكام وقوانين سنّها الله سبحانه على لسان نبيه المتقدم، فالنبوّة تبليغية.

والقسم الأوّل من الرسل، قد أنحصر في خمسة، ذكرت أسماؤهم في القرآن والنصوص المأثورة، أمّا الأكثرية منهم، فكانوا من القسم الثاني وقد بعثوا لترويج الدين النازل على أحد هؤلاء فكانت نبوّتهم تبليغية [1].

حينئذ فقد يسأل سائل ويقول: هب أنّ نبي الإسلام جاء بأكمل الشرائع وأتمها وأجمعها للصلاح وجاء بكل ما يحتاج إليه الإنسان، في معاشه ومعاده، إلى يوم القيامة ولم يبق لمصلح رأي ولمفكّر نظر، في أُصول الإصلاح وأُسسه، لأنّ نبينا ﷺ قد أتى بصحيح الرأي وأتقنه وأصلحه في كافة شؤون الحياة ومجالاتها ولأجل ذلك الإكتمال أُوصد باب النبوّة التشريعية.

ولكن لماذا أُوصد باب النبوّة التبليغية التي منحها الله للأُمم السالفة فإنّ الشريعة مهما بلغت من الكمال والتمام لا تستغني عمّن يقوم بنشرها وجلائها وتجديدها، لكي لا تندرس ويتم إبلاغها من السلف إلى الخلف بأسلوب صحيح، فلماذا أوصد الله هذا الباب بعد ما كان مفتوحاً في وجه الأُمم الماضية، ولماذا منح الله سبحانه هذه النعمة على السالف من الأُمم وبعث فيهم أنبياء مبلغين ومنذرين وحرم الخلف الصالح من الأُمم منها ؟.

الجواب :

أنّ انفتاح باب النبوّة التبليغية في وجه الأُمم السالفة وإيصاده بعد نبي الإسلام ليس معناه أنّ الأُمم السالفة استحقت هذ النعمة المعنوية، لفضيلة تفردت بها، دون الخلف الصالح من الأُمم، أو أنّ الأُمّة الإسلامية حرّمت لكونّها أقل شأناً وأهون مكانة من الأُمم الخالية ــ كلا ــ بل الوجه أنّ الأُمم السالفة كانت محتاجة إليها دون الأُمّة الإسلامية، فهي في غنى عن أي نبي مبلغ يروج شريعة نبي الإسلام.

وذلك أنّ المجتمعات تتفاوت إدراكاً ورشداً، فربّ مجتمع يكون في تخلقه كالفرد

---

(1) الكلمة الدارجة لمعنى التبليغ في البيئات العربية هي كلمة « التبشير » ولكن كلمة « التبليغ » أولى وأليق بهذا المعنى، فهي مقتبسة من القرآن، ومدلولها اللغوي منطبق على المقصود كل الانطباق.

القاصـر، لا يقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصـل إليه، بل يضـيعه كالطفل الذي يمزق كتابه ودفتره غير شاعر بقيمته.

وربّ مجتمع بلغ من القيم الفكريّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، شـأواً بعيداً يحتفظ معه بتراثه الديني الواصل إليه، بل يستثمره استثماراً جيداً فهو عند ذاك غني عن كل مروج يروج دينه، أو مبلغ يذكر منسـيه أو مرب يرشـده إلى القيم الأخلاقية، أو معلم يعلمه معالم دينه ويوضـح له ما أشـكل من كتابه، إلى غير ذلك من الشـؤون، فأفراد الأُمّة السـالفة كانوا كالقصـر، غير بالغين في العقلية الاجتماعية فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصـل إليهم، بل كانوا يلعبون به لعب الصـبي بكتابه بتحريفهم له وتأويله بما يتوافق مع أهوائهم ومشـاربهم، ولذا كان يحل بالشـريعة، إندراس بعد مضي القرون والأجيال ويستولي عليها الصدأ بعد حقبة من الزمان.

لهذا ولذلك كان على المولى سـبحانه أن يبعث فيهم نبياً، جيلاً بعد جيل، ليذكرهم بدينهم الذي إرتضاه الله لهم، ويجدد شريعة من قبله ويروج قوله وفعله ويزيل ما علق بها من شوائب بسبب أهواء الناس وتحريفاتهم. وأمّا المجتمع البشـري بعد بعثة الرسـول ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى، فقد بلغ من المعرفة والإدراك والتفتح العقلي والرشـد الاجتماعي شـأواً يتمكن معه من حفظ تراث نبيه وصـيانة كتابه عن طوارق التحريف والضـياع، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني إلى تصـنيف أنواع التآليف في أحكامه وتفسـيره وبلاغته ومفرداته وإعرابه وقرائته فإزدهرت تحت راية القرآن ضـروب من العلوم والفنون.

فلأجل ذلك الرشـد الفكري في المجتمع البشـري، جعلت وظيفة التبليغ والإنذار، على كاهل نفس الأُمّة حتى تبوأت وظيفة الرسـل من التربية والتبليغ، واسـتغنت عن بعث نبي مجدد على طول الزمان يبلغ رسالة من قبله.

فإذا قدرت الأُمّة على حفظ ما ورثته عن نبيها، ونشـره بين الناس في الآفاق، ومحو كل مطمع فيه وهدم كل خرافة تحدثها يد التحريف، استغنت طبعاً عن قائم بهذا الأمر

سوى نفسها.

لقد ظهرت طلائع هذا التفويض من أوّل سورة نزلت على النبي ﷺ حيث خاطبه الله سبحانه، في اليوم الذي بعثه رسولاً إلى الناس وهادياً لهم بقوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: 1 ـ 5).

وهذا الخطاب يؤذن بأن دينه، دين التلاوة والقرائة، دين العلم والتعليم، دين القلم والتحرير، وأنّ هذا الدين سوف يربي أُمة مفكرة، متحضرة، عالمة بقيمة التراث الذي يصل إليها، قادرة على حفظ هذا الدين في ضوء العلم والفكر، مستعدة لنشر تعاليمه في أقطار العالم وأرجاء الدنيا، بأساليب صحيحة.

وقد بلغت عناية الإسلام بالقلم والكتابة، إلى حد أن أقسم سبحانه: ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وأنزل سورة باسمه، تمجيداً له وحثاً للأُمة على تقديره والعناية به، ليكون رائداً للتقدم والحضارة والمعرفة، ويصير أحسن ذريعة إلى حفظ التراث بلا حاجة إلى مبلغ سماوي.

ثمّ إنّه سبحانه، صرح بهذا التفويض أي تفويض أمر التبليغ إلى نفس الأُمّة في غير موضع من كتابه، منها قوله سبحانه: ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة ـ 122).

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ (آل عمران ـ 104).

ومنها قوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (آل عمران ـ 110).

وفي السنن والأحاديث تصاريح بذلك، نكتفي بما يلي :

قال الباقر عليه السلام : « أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، وفريضة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب وترد

المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر » [1].

ولعل في قوله عليه السلام : « سبيل الأنبياء » إشارة إلى أنّ هذا الأمر موكول إلى الأُمّة بعد انقطاع الوحي وإيصاد باب النبوّة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ظهرت البدع، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله » [2].

ثمّ أنّ هناك جواباً آخر، ربّما يكون ملائماً لأُصول الشيعة الإمامية في مسئلة الإمامة والخلافة ولأجل إيقاف القارئ الكريم عليه نأتي به إجمالاً ولا يعلم إلّا بالوقوف على معنى الإمامة لدى الشيعة ودور أهل البيت في إكمال الدين.

دور أهل البيت في إكمال الدين وختم الرسالة :

إنّ للشيعة الإمامية نظراً خاصاً في كيفية استغناء الأُمّة الإسلامية عن ضرورة استمرارية النبوّة وتواصلها بعد لحوق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، وعمدة ذلك هو ثبوت نظرية الإمامة التي تتبناها الشيعة الإمامية في باب الولاية الإلهية والخلافة بعد رسول الله.

فالإمامة عندهم عبارة عن الولاية الإلهية العامة على الخلق فيما يختص بشؤونهم الدينية والدنيوية وهي مستمرة بعد قبض النبي الأعظم، لم يوصد بابها بل أنّه مفتوح إلى أن يشاء الله إيصاده، وإنّما الذي ختم بالنبي الأعظم هو باب النبوّة التي هي تحمل النبأ عن الله سبحانه، وباب الرسالة التي هي تنفيذ ما تحمله النبي عن الله سبحانه بين الأُمة [3].

هذه الولاية الالهية غير النبوّة والرسالة وإن كانت تجامعهما تارة وتفارقهما أُخرى

---

(1) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف الباب الأوّل الحديث 6.

(2) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف الباب الأربعون الحديث 1.

(3) سيوافيك توضيح الفرق بين النبوّة والرسالة في الجزء الرابع من كتابنا هذا.

فقد تمثلت المناصب الثلاثة في شخص إبراهيم.

إذ كان عليه السلام يمثل منصب الإمامة، كما كان يمثل منصبي النبوّة والرسالة ولقد حباه الله سبحانه منصب الإمامة، بعد ما منحت له النبوّة وأرسله رسولاً ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة . 124) [1].

والأئمّة الاثنا عشر لدى الإمامية يمثلون منصب الإمامة، من دون أن يكونوا أنبياء أو رسلاً، فهم أئمّة الدين، وأولياء الله بين الأُمّة، ولهم رئاسة إلهية عامة، دينية ودنيوية على وجه يوجب على الأُمّة الانقياد لهم وهم حجج الله على عباده يهتدى بهم إليه سبحانه ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده [2].

والباعث على انفتاح باب الولاية الإلهية في وجه الأُمّة، بعد ختم النبوّة والرسالة وإيصاد بابها بالتحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى أُمور نشير إلى واحد منها [3].

لا يختلف اثنان من المسلمين بانقطاع وحي السماء عن وجه الأرض بموت النبي وقبضه كما لا يختلفان في أنّ النبي قام بمهمة التشريع والتبليغ وتثقيف الأُمّة الإسلامية بالثقافة الدينية وبث العقيدة الدينية فيهم وحفظ الشريعة عن شبهات المنكرين وإرجاف المرجفين بأحسن الوجوه وأكملها وقال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة ـــ 3) غير أنّه صلى الله عليه وآله كان يراعي في نشر الأحكام حاجة الناس ومقتضيات الظروف فكانت هناك أُمور مستجدة

---

(1) روى ثقة الإسلام الكليني عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال سمعته يقول: أن اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء وقبض قال له يا إبراهيم إني جاعلك للناس إماماً فمن عظمها في عين إبراهيم قال يا ربّ ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (الكافي باب طبقات الأنبياء والرسل ج 1 ص 175).

(2) هكذا وصف الإمام باقر العلوم، راجع الكافي باب « إنّ الأرض لا تخلو من حجة » ج 1 ص 178.

(3) قد أوضحنا تلك الأُمور في الجزء الثاني من هذه الموسوعة فلاحظ بحث: صيغة الحكومة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله .

ومسائل مستحدثة، لم تكن معهودة في زمن الرسول ولم يأت بها نص في الكتاب الكريم وسنّته الثابتة، ولم يتسن للنبي الإشادة بها أمّا لتأخر ظروفها أو لعدم تهيأ النفوس لها أو لغير ذلك من العلل.

وقد ظهرت بوادر هذا الأمر عندما اتسع نطاق الإسلام وضرب بجرانه خارج الجزيرة العربية وطفق المسلمون يخوضون في غمار معارك طاحنة وحروب دامية، يفتحون البلاد ويخالطون الأُمم ففوجئوا بمسائل مستجدة لم يعرفوا لها حلاً في الكتاب الكريم ولا في سنّة نبيهم مع أنّ الله سبحانه كان قد أخبر في كتابه عن اكمال الدين واتمام النعمة وبناء على هذا فإننا نستكشف أنّ النبي إيفاء لغرض التشريع استودع معارفه عند من يقوم مقامه ويكون له من الصلاحيات ما تخوله للقيام بمثل هذا الأمر الخطير.

وإلى ذلك يشير باقر العلوم بقوله مخاطباً لهشام بن عبد الملك بن مروان: إنا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ والأرض لا تخلو ممّن يكمل هذه الأُمور التي يقصر غيرنا عنها [1].

ثمّ إنّ الكتاب الكريم الذي هو أحد الثقلين فيه محكم ومتشابه وعامّ وخاصّ ومطلق ومقيد ومنسوخ وناسخ، يجب على الأُمّة عرفانها، إذ الجهل بها يوجد اتجاهات مذهبية متضاربة. غير أنّ تفسير المتشابه من دون الاستناد إلى ركن وثيق يورث اختلافاً عنيفاً بين المسلمين، وتفسير المعضل وتفصيل المجمل وتشخيص المنسوخ عن ناسخه يحتاج إلى احاطة كاملة بمفاهيم الكتاب وتشريعاته جليلها ودقيقها وهو ليس إلّا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن يتلو تلوه.

فلأجل رفع هذه المحاذير يجب عليه سبحانه حفاظاً على وحدة الأُمّة وصيانتها عن الشرود في متاهات الضلال أن يشفع كتابه بميزان آخر، وهاد يدعم أمره، ومعلم يوضح لهم أسراره، ليرجع إليه المسلمون حتى يكتمل به غرض التشريع ويرتفع

(1 بحار الأنوار: ج 46 ص 307.

التضارب والخلاف في الشؤون الدينية.

وإلى ذلك يشـير قوله ﷺ : أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [1]، وقال ﷺ : أني أوشك أن أُدعى فأُجيب وأني تارك فيكن الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السـماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وأنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما [2].

وهذا هو الإمام الصـادق عليه السلام يعرف الإمام ومكانته العظيمة بقوله: أنّ الأرض لا تخلو وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم وإن نقصوا شيئاً أتمّه لهم [3].

وأبلغ تعبير عن حقيقة الإمامة عند الشيعة ما روي عن الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا في حديث طويل وفيها: أنّ الإمامة منزلة الأنبياء وأرث الأوصـياء أنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسـول، الإمامة زمام الدين ونظام المسـلمين وصـلاح الدنيا وعز المؤمنين، أنّ الإمامة أسـاس الإسلام النامي وفرعه السامي.

الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة [4].

---

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه: ج 3 ص 148، وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(2) مسند أحمد: ج 3 ص 17 و 26 وللحديث صور كثيرة كلها تنص على وجوب التمسك بأهل بيته وعترته ﷺ وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة، وقد صدع بها رسول الله في مواقف له شتى: يوم غدير خم، يوم عرفة في حجة الوداع، بعد انصرافه من الطائف، على منبره في المدينة، وفي حجرته في أُخريات أيامه.

وقد أنهى إسناده العلّامة الجليل، السيد مير حامد حسين في بعض أجزاء كتابه الكبير « العبقات » وطبع في ستة أجزاء بإيران وفاح أريجه بين لابتي العالم وقد اغرق نزعاً في التحقيق، ولم يبق في القوس منزعاً، وقد أغنانا كتابه عن الافاضة والبحث.

(3) الكافي: ج 1 ص 178.

(4) الكافي: ج 1 ص 200.

وبذلك تعرف وجه غنى الأُمّة الإسلامية بعد النبي عن أي نبي مروّج وأية نبوّة تبليغية، ويتضح أنّ الإسلام في تخطيطه المبدئي، قد فرض أنّه (بعد إنتهاء وظيفة النبي الأعظم وقطعه أشواطاً بعيدة في الجهات المختلفة المتقدمة) يتكفّل القيادة المعصومة من بعده من يقوم مقامه بنصه سبحانه وتعيينه، وله من الشرائط ما للنبي سوى ما يختص به على ما تبيّن في محله حتى تنتهي هذه العملية إلى مراحلها النهائية المفروضة.

ولا يضير الإسلام في شيء أن تكون الأُمّة قد انحرفت عن الخط المفروض لها من قبل الله سبحانه، وتجاوزت عن كل الضمانات التي وضعها لتنفيذ مخطّطه الالهي.

وفي الختام نقول: إنّ التاريخ ليشهد بأنّه ما من إمام من أئمّة الشيعة الاثنى عشرية إلّا وقد قام بأعباء مهمة الإمامة خير قيام، وأنّ حياة كلّ منهم كانت مشحونة بالعمل المتواصل في سبيل إيصال مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى الأُمّة ولقد عانوا في ذلك من المشاق ولاقوا من الأهوال ما لاقاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

فعند ذاك استغنت الأُمّة الإنسانية بشكل عام والمسلمون بشكل خاص، بتعاليمهم الدائرة حول نطاق رسالة جدهم السماوية، عن استمرارية كلتا النبوّتين، وبصورة خاصة التبليغية منها.

السؤال الثاني

« لماذا حرم الخلف من الأُمم، من المكاشـفة الغيبية، والاتصـال بالملأ الأعلى، واسـتطلاع ما هنالك من معارف وحقائق » ؟

يقول السـائل: إنّ النبوّة منصـب معنوي ورقي روحي، تقدر معه النفس على الاتصـال بالملأ الأعلى، والاطلاع على ما هنالك من معارف عقلية، والتحدث مع الوحي الالهي، إلى غير ذلك من الفيوضات المعنوية، ولكن هذا الباب قد أُوصد بعد إكمال الشريعة الإسلامية وختم النبوّة.

هب أنّ الشـريعة الإسـلامية، هي أكمل الشـرائع، وأنّ الخلف من الأُمم قادر على حفظ تراثه الديني، ولأجل ذلك أُوصـد باب النبوّة التشـريعية والتبليغية ولكن لماذا انقطعت الفتوحات الباطنية والمحادثة مع ملائكته سـبحانه، أو القاء الحقائق في روع الانسـان، إلى غير ذلك من الفيوضـات السماوية، فهذه الأُمور كلّها من لوازم النبوّة، فلا يعقل انفتاحها مع إيصاد بابها ...

ثم إنّه لماذا كان باب هذا الفيض مفتوحاً في وجه الأُمم السالفة، وحرم منها الخلف الصالح بعد النبي ؟ هل كانت الأُمم السالفة أُولى وأجدر بهذه النعمة ؟ وهل الأُمّة المتأخرة عنهم أقل جدارة بها واستحقاقاً لها ؟!

الجواب :

ليس الإطلاع على ما احتجب عن عامة الناس من الحقائق، من لوازم النبوّة، حتى ينسد بابه بانسداد بابها، ولا الخلف محروم من الفيض الذي كان مفتوحاً في وجه الأمم السالفة، فإنّ الولاية الالهية التي تلازم تلكم الفتوحات الباطنية، ليست من خصائص النبوّة وتوابعها، حتى تنقطع بانقطاعها، بل هي كرامة إلهية يرزقها سبحانه، المخلصين من عباده، المتحلّين بفضائل الأخلاق المتطهرين عن درك الشرك ولوث المعاصي، إلى غير ذلك من صفات كريمة.

والنبوّة باب خاص من الولاية تستتبع تحمل الوحي التشريعي أو التبليغي فيوصد بابه بإيصاد بابها، وأمّا سائر الفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والايحاءات الملكوتية، فلم يوصد بابها قط.

وللتوضيح نحن نتساءل: ماذا أراد السائل من إيصاد باب الاتصال، بختم باب النبوّة ؟

فإن أراد الاتصال بالله ومعرفة أسمائه وصفاته والوقوف على ما هنالك من معارف عن طريق البرهنة والاستدلال والتدبر في آياته الآفاقية، فهذا الطريق مفتوح إلى يوم القيامة في وجه من أراد الإطلاع على حقائق الكون ودقائقه، وما وراء الحس من عوالم ودقائق.

وقد قال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... ﴾ (فصلت . 53) [1].

---

(1) نعم ربّما تفسر الآية بوجه آخر تسقط معه دلالتها على ما نرتئيه وهو أنّ المراد ما يسّر الله عزّ وجلّ لرسوله والمسلمين من بعده في آفاق الدنيا وارجاء العالم من الفتوح التي لم يتيسّر أمثالها لأحد من الجبابرة والأكاسرة، وتغلب قليلهم على كثير من أعدائهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاصيها. فهذه الأمور الخارقة للعادة يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان، ويتبين أنّ دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يحيد عنه إلّا مكابر ... راجع الكشاف ج 3 ص 75 وما حققناه حول الآية في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة ص 173.

وقال سبحانه: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: 20 . 21).

ولو أراد معرفة ربّه وأسمائه وصفاته، وعظمته وكبريائه، وما هناك من مقامات ودرجات، بلا توسيط برهان، أو تسبيب دليل، بل مشاهدة بعين قلبه وبصر روحه، وبعبارة أوجز: شهود الحقائق العلوية، وانكشاف ما وراء الحس والطبيعة، من العوالم الروحية، والمشاعر الإلهية، ومعرفة ما يجري عليه قلمه تعالى في قضائه وقدره والاتصال بجنوده وملائكته واستماع كلامهم ووحيهم وصوتهم إلى غير ذلك من الأُمور، فهذا مقام خطير، يحصل للعرفاء الشامخين المخلصين من عباده، المطهرين من اللوث والدنس، المتحررين عن قيود الطبيعة، الحابسين أنفسهم في ذات الله، الحاكمين بالكتاب، العاملين بسننه وسنن نبيّه حسب اخلاصهم وعرفانهم، حسب استعدادهم وقابليتهم، حسب ما لهم من المقدرة والطاقة، لتحمل عجائب الحقائق الغيبية، ومشاهدة جلال الله وجماله وكبريائه وعظمته، وما لأوليائه من مقامات ودرجات، وما لأعدائه من نار ولهيب ودركات.

ثمّ إنّ لأهل السلوك والعرفان كلاماً في المقام، لا يخلو عن فائدة، وخلاصته :

أنّ اليقين الحقيقي النوراني المنزّه عن ظلمات الأوهام والشكوك، لا يحصل من مجرد أعمال الفكر والاستدلال، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وصقل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق، وإزالة الصدأ عنها، ليحصل لها التجرد التام، والسر أنّ النفس بمنزلة المرآة تنعكس على صفحتها الصور المتعلّقة بالموجودات الخارجية، ولا ريب في أنّ انعكاس الصور من ذواتها على المرآة، يتوقف على تمامية شكلها وصفاء جوهرها، وحصول ما يتمكن انعكاسه عليها وإرتفاع الحائل بينهما، والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة، كذلك يجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل على النفس، تحقق أُمور :

1. عدم نقصان جوهرها، بأن لا تكون كنفس الصبي التي لا تتجلىّ لها

المعلومات، لنقصانها.

2. صفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة، وخبائث المعاصي، وهو بمنزلة الصيقل عن الخبث والصدأ.

3. توجّهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، بأن لا يكون غارقاً في الأُمور الدنيوية، وهو بمنزلة المحاذاة.

4. تخليتها عن التعصب والتقليد، وهو بمنزلة إرتفاع الحجب.

5. التوصل إلى المطلوب بتأليف مقدمات، مناسبة للوصول إليه على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية إليها، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العوالم الروحانية.

إذ كل نفس لكونها أمراً ربّانياً وجوهراً ملكوتياً بحسب الفطرة، صالحة لمعرفة الحقائق، فحرمان النفس عن معرفة حقائق الموجودات إنّما هو لأحد الموانع.

وقد أشار سيد الرسل إلى أنّ كدورات المعاصي وصدأها مانعة عن ذلك بقوله ﷺ لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض.

فلو ارتفعت عن النفس، حجب السيئات والتعصب، وحاذت شطر الحق الأوّل لتجلّت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسرها، إذ هو متناه يمكن لها الإحاطة به، وصورة عالمي الملكوت والجبروت، بقدر ما يتمكّن منه، بحسب مرتبته [1].

فالعارف الشامخ في عالم المعرفة، إذا اتصف بما ذكرناه: « صار سمع الله الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاه أجابه، وإن سأله أعطاه » [2].

---

(1) جامع السعادات: ج 1 ص 125 ـ 126 ولاحظ مقدمة ابن خلدون.

(2) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة أبواب اعداد الفرائض ونوافلها ـ الباب 17 الحديث 6.

فالفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والالقاءات في الروع، غير مسدودة بنص الكتاب العزيز :

1. قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال ـ 29) أي يجعل في قولبكم نوراً تفرّقون به بين الحق والباطل وتميّزون به بين الصحيح والزائف، لا بالبرهنة والاستدلال، بل بالشهود والمكاشفة.

2. وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحديد ـ 28).

إنّ صاحب الكشّاف ومن لفّ لفّه وإن فسره بقوله: « ويجعل لكم يوم القيامة نوراً تمشون به » إلّا أنّ الظاهر خلافه، وأنّ المراد النور الذي يمشي المؤمن في ضوئه طيلة حياته، في معاشه ومعاده، في دينه ودنياه، وهذا النور الذي يحيط به ويضيء قلبه، نتيجة إيمانه وتقاه ويوضّحه قوله سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ (الأنعام ـ 122).

3. وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ـ 69).

4. وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ـ 282).

فإنّ عطف الجملة الثانية على الأولى يحكي عن صلة بين التقي وتعليمه سبحانه.

5. وقال سبحانه: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ﴾ (التكاثر: 5 ـ 6).

فإنّ الظاهر أنّ المراد رؤيتها قبل يوم القيامة، رؤية البصيرة، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام ـ 75).

وهذه الرؤية القلبية غير محققة قبل يوم القيامة لمن الهاه التكاثر بل ممتنعة في حقه لامتناع اليقين عليهم.

والمراد من قوله: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هو مشاهدتها يوم القيامة بقرينة قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ فالمراد بالرؤية الأُولى رؤيتها قبل يوم القيامة، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة [1].

6. وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد ـ 17) فلو أنّ الانسان جعل نفسه في مسير الهداية، وطلبها من الله سبحانه زاده تعالى هدى وآتاه تقواه.

7. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف ـــ 13) والآية تبيّن حال أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم، وتغرّبوا لحفظ إيمانهم ودينهم فزاد الله من هداه في حقهم وربط على قلوبهم كما يقول سبحانه :

8. ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (الكهف . 14).

والقرآن يصرح بانفتاح باب الهجرة إلى الله ورسوله، والهجرة كما تشمل الهجرة الظاهرية تشمل الهجرة المعنوية، التي هي عبارة عن السير في مدارج الكمال والإنابة إليه سبحانه.

9. يقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ (النساء ـ 100)، وإلى الهجرة المعنوية (هجرة النفوس عن السيئات إلى الطاعات) يشير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ يقول :

« من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى مال يصيبه فهجرته إلى ما هاجر إليه » [2] فحمل الآية والرواية على خصوص الهجرة الظاهرية والخروج عن الأوطان والتغرّب لحفظ الإيمان هو أحد أبعاد الآية، فهناك بعد آخر، وهو حملها على مهاجرة النفوس من الظلمة إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية ،

---

(1) الميزان: ج 20 ص 496 . 497.

(2) صحيح البخاري: ج 1 كتاب الإيمان الباب 42 ص 16.

ويؤيده قوله سبحانه :

10. ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ (آل عمران ـــــ 195). فالمراد من المهاجرة هو الهجرة المعنوية حتى تصح مقابلتها مع قوله سبحانه: ﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والروايات.

نعم كثرت في القرون الأخيرة عناية طوائف من صوفية أهل السنّة بمسألة الإمامة والإمام ومنهم « النجانية » وقد كتب عنهم العقاد في كتابه « بين الكتب والناس » ومنهم « السنوسية » وقد أفاض فيهم القول البستاني في دائرة معارفه غير أنّ في بعض ما ذكروه خداعاً وضلالاً، وللبحث عن ما يدّعونه من الكشف والعرفان مجال آخر لا يسعه المقام.

انّ الناظر في نهج البلاغة يجد في كلام الإمام علي عليه السلام تصريحات وإشارات على فتح هذا الباب وعدم إيصاده فالإمام عليه السلام يقول :

« قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع، كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه، في قرار الأمن والراحة » [1]، ويقول :

« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين » [2].

فهذه الكلمات العلوية تبيّن جلياً أنّ القلب يمكن أن يصبح محلاً للإشعاع الإلهي على مدار الزمان وفي زمن الخاتمية.

وقد روى الفريقان عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال من أخلص لله أربعين صباحاً، فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه، على لسانه [3].

---

(1) نهج البلاغة الخطبة 215.

(2) نهج البلاغة قصار الكلم الرقم 147.

(3) سفينة البحار، مادة « خلص » نقله عن عدة الداعي لابن فهد الحلي.

وقوله ﷺ : « لولا تمريج في قلوبكم وتكثير في كلامكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع » [1].

وقال الصادق عليه السلام : « ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً، إلّا زهّده الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه » [2].

وهناك كلمة طيبة عن الإمام أمير المؤمنين، تعرب عن رأي الإسلام في المقام، قال عليه السلام :

« إنّ الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله، عزت آلاؤه، في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات [3]، عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم » [4].

فهو عليه السلام يصرح بأنّ الذاكرين من عباده قد بلغ بهم المقام إلى درجة يناجيهم الله في سرائر ضمائرهم، ويكلمهم من طريق عقولهم، فهل يوجد مقام أرفع من هذا، أو درجة أشرف من تلك.

وقريب من ذلك ما رواه الديلمي في إرشاده في خطابات له سبحانه لنبيّه في ليلة المعراج بلفظ « يا أحمد ! فمن عمل برضائي الزمه ثلاث خصال، أعرفه: شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين، فإذا أحبّني أحببته وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أُخفي عليه خاصّة خلقي، وأُناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أُخفي عليه شيئاً

---

(1) حديث مشهور.

(2) سفينة البحار، مادة « ربع ».

(3) التخصيص بعد التعميم فلا يضر بالمطلوب لو كان المراد منه الفترة بين المسيح وبعثة الرسول ﷺ .

(4) نهج البلاغة، الخطبة 217.

من جنّة ولا نار، وأُعرّفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة. وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء ... ــ إلى أن قال: ــ يا أحمد ! اجعل همّك هماً واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً، من غفل عنّي لا أُبالي بأي واد هلك » [1].

وهذه الرواية توقفنا على أنّ المعرفة الحقيقية، التي تحيى بها نفوسنا، لا تستوفى بالسير الفكري، ولا يقف السالك في سبيل الحق على هذه الأمور، إلّا بتهذيب النفوس وتطهير القلوب والانقطاع إلى الربّ عن كل شيء، حتى يرفع دونه كل حجاب مضروب، وكل غشاء مسدول، فيعرف ربّه وأسماءه، وصفاته حق المعرفة، ويشاهده بعين القلب ويسمع كلامه وكلام ملائكته، ويرى عظمته وسرادقات كبريائه.

فهذه الفتوحات الباطنية بمراتبها، ميسّرة في وجه الأُمّة، لم توصد قط.

الاسفار المعنوية الأربعة :

ثم إنّ للسالك من العرفاء والأولياء أسفاراً، وهي على ما اعتبرها أهل الشهود أربعة.

أحدها: السفر من الخلق إلى الحق.

ثانيها: السفر من الحق إلى الحق بالحق.

ثالثها: السفر من الحق إلى الخلق بالحق.

رابعها: السفر من الخلق إلى الخلق بالحق.

فبعض هذه الأسفار وقطع منازلها وإن كان يختص بأنبيائه ورسله، إلّا أنّ السفر الأوّل والثاني، لا يختصان بهم، بل يتيسّران لكل سالك الهي، لا يقصد إلّا الاناخة في ساحة ربّه، والنزول على طاعته، بلا استثناء، ودونك توضيح ذينك السفرين: ففي السفر الأوّل، أعني السفر من الخلق إلى الحق، ترفع الحجب المظلمة، بين السالك وربّه ،

---

(1) إرشاد القلوب للديلمي: ص 329.

فيشاهد جمال الحق ويفني ذاته فيه، ولأجل ذلك يسمى مقام الفناء. وعندما ينتهي السفر الأوّل يأخذ السالك في السفر الثاني، وهو السفر من الحق إلى الحق بالحق وإنّما يكون بالحق لأنّه صار ولياً، وصار وجوده وجوداً حقّانياً، فيأخذ السلوك من موقف الذات إلى الكمالات واحداً بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم جميع أسمائه كلّها إلّا ما استأثر به عنده، فتصير ولايته تامة، ويفني ذاته وأفعاله وصفاته في ذات الحق وصفاته وأفعاله، فبه يسمع، وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش، وحينئذ تتم دائرة الولاية.

ولعمري لولا خوف الإطالة، والخروج عمّا هو الهدف الأسمى للرسالة، لشرحت للقارئ الكريم، تلكم الاسفار والمواطن واحداً بعد واحد، وكفانا ما حبرته يراعة العرفاء الشامخين في هذا الباب [1].

وفي الأُمّة الإسلامية رجالاً مخلصون، لا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم، أُولئك أولياء الله في أرضه وخلفاؤه في خلقه، تغبطهم النبوّة، كما قال الرسول صلى الله عليه وآله : إنّ لله عباداً ليسوا بأنبياء، تغبطهم النبوّة [2].

هب أنّ النبوّة قد أُوصد بابها، إلّا أنّ باب الفيض المعنوي، من جانب الإمام الحي عليه السلام بعد مفتوح لم يوصد [3].

---

(1) راجع تعاليق الأسفار الأربعة ج 1 ص 13 ـ 18 للحكيم السبزواري.

(2) حكاه صدر المتألّهين في مفاتيح الغيب، وقال: هذا الحديث ممّا رواه المعتبرون من أهل الحديث، من طريقة غيرنا، نعم لم أقف عليه مسنداً حتى أُحقق حاله.

(3) وقد دلّت البراهين الكلامية على أنّ الأرض لا تخلو عن حجّة، وأنّه لا بد للناس في كل دورة وكورة من إمام معصوم يهدي إلى الرشد ـ وقد تفرّدت به الشيعة عن سائر فرق الإسلام.

وقال أمير المؤمنين: اللّهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة: أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته وكم ذا وأين أُولئك ؟ أُولئك ـــ والله ـــ الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقه بالمحل الأعلى، أُولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم (نهج البلاغة باب الحكم رقم 147).

وقد حقق في أبحاث الولاية الالهية أنّ وجه الأرض والمجتمع الانساني لا يخلو أبداً من انسان كامل ذي يقين، مكشوف له عالم الملكوت، وله ولاية على الناس في أعمالهم، يهديهم إلى الحق ويوصلهم إلى المطلوب بأمر من الله سبحانه، كما هو شأن الإمام في كل عصر ودور، لقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة . 24).

فهذا الفيض الالهي والعرفان المعنوي، لم يزل يجري علي المجتمع البشري بأمر منه سبحانه، وينزل عليهم من طريق الإمام، ليهديهم سبيل الحق ويرشدهم إلى مدارج الكمال، حسب استعداداتهم وقابلياتهم.

قال سيدنا الأُستاذ ﷺ: إنّه سبحانه كلّما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية، تعرض التفسير قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (الأنبياء . 72 . 73).

وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة . 24).

فوصفهم بالهداية وصف تعريف، ثمّ قيد هذا الوصف بالأمر فبيّن أنّ الإمامة ليست مطلق الهداية بل هي الهداية التي تقع بأمر الله، فالإمام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم وهدايتهم، إيصالهم إلى الكمال بأمر الله دون مجرد اراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة [1].

فهذا الباب من الفتوحات الغيبية والفيوض الالهية مفتوح، في وجه الأُمّة لم يوصد أبداً.

---

(1) الميزان: ج 1 ص 274 . 275.

مثل الفضيلة والأخلاق

قد كان لأمير المؤمنين صفوة من الأصحاب يستدر بهم الغمام، ويندر مثالهم في الدهر كزيد وصعصعة ابني صوحان وأُويس القرني والأصبغ بن نباتة، ورشيد الهجري، وميثم التمار، وكميل بن زياد، وأشباههم، وكان هؤلاء مثلاً للفضيلة وكرم الاخلاص وخزنة للعلم والاسرار، منحهم أمير المؤمنين من سابغ علمه واستأمنهم على غامض أسراره ممّا لا يقوى على احتماله غير أمثالهم فجمعوا العلم، سرّه وجهره، والفضائل، نفسية وخلقية، ذاتية وكسبية، والعبادة قولاً وعملاً وجارحة وجانحة، فاكتسبوا من أمير المؤمنين جميع الفعال والخصال وأخذوا عنه أسرار العلم وعلم الأسرار، حتى زكت بهم النفوس وكادوا أن يزاحموا الملائكة المقرّبين في صفوفهم، وغبطهم الملأ الأعلى على ما اتصفوا به من كمال الذات والصفات، فصاروا أهلاً، لأن يأتمنهم الإمام على نفائس الأسرار وأسرار النفائس فكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجردة عن النقائص، لا يعرفون الرذيلة ولا تعرفهم.

فهذا ميثم، عظيم من حواري علي، وولي من أوليائه وأحد خريجي مدرسته العالية، الذين نهجوا في السير على هداه واتبعوه قائداً وقدوة في أمره ونهيه فصار مستودع أسراره وحقل علومه وخاصة حواريه.

كان رسول الله يخلو بعلي يناجيه، وكانت أُم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله تلك البرة الطاهرة، تلتقط من المناجات دراً ثمينة، فممّا التقطته منها، وصاياه لأبي الحسن عليه السلام في ميثم، فدخل ميثم على أُمّ سلمة وهو يريد الحج، فقالت له: طالما سمعت رسول الله يذكرك في جوف الليل ويوصي بك علياً.

وكان ميثم يصحب الإمام أحياناً إلى الأماكن الخالية وعند خروجه في الليل إلى الصحراء، فيستمع منه الأدعية والمناجاة، وكثيراً ما يجلس إليه الإمام في السوق وأفواج الناس ذاهبة وآيبة، ينظرون الإمام وهو في دكان « ميثم » يسامره ويحادثه ويلقي إليه

دروسه ويميره من العرفان الالهي، فعلّمه علم المنايا والبلايا، أي علم الآجال وعلم الحوادث والوقائع التي يبتلى بها الناس، حتى أخبره أنّه سيصلب على باب عمرو بن حريث.

لم يكن ميثم فريداً من بين أصحاب الإمام وحوارييه، وإن كان أحد عظمائهم إذ أنّه قد أودع هذا العلم عند من كان يأتمنه عليه من أفذاذ أصحابه الآخرين، نظراء رشيد الهجري وأُويس القرني، وعمار بن ياسر وعمرو بن الحمق الخزاعي وكميل بن زياد ومن يشابههم في الإيمان الشامخ.

ولولا خوف الإطالة والخروج عن الغاية، لنقلنا كثير ممّا دار بينهم من المحادثات حول البلايا والمنايا.

فهذا ميثم نفسه، وقد قيد على خشبة الصلب يقول للناس رافعاً صوته، أيها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب عليه السلام قبل أن أُقتل فوالله لأخبرنّكم بعلم ما يكون إلى أن تقوم الساعة، وما يكون من الفتن [1].

لم يكن علي عليه السلام نسيج وحده في تربية هؤلاء العظماء الذين صقلت نفوسهم وتجلّت لهم صور ما في الكون من الحقائق والموجودات، بل سبقه سيد الرسل فأدّب أناساً، نهجوا في السير على هداه، واتبعوه في أمره ونهيه، وساروا في الطريق الذي رسمه لهم، فكانوا مثلاً أعلى للفضيلة وكرم الأخلاق وخزنة للعلم والأسرار، فشاهدوا الخليقة وما فيها من حقائق غامضة، ورأوا ملكوت السماوات والأرض، وعاينوا الحقائق العلوية والعوالم الروحية، من قبل أن يخرجوا من الدنيا.

روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله حارثة ابن مالك بن النعمان الأنصاري، فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك ؟ فقال: يا رسول الله مؤمن حقاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك ؟ فقال :

---

(1) راجع في ترجمة ميثم، كتب الرجال، ولا سيما « قاموس الرجال » ج 9 ص 164 ـ 171 وما دبجته براعة الأُستاذ المغفور له الشيخ محمد حسين المظفر حول حياة ميثم.

يا رسول الله ! عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري كأنّي أنظر إلى عرش ربّ ـــ ي وقد وضع للحساب، وكأنيّ أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة وكأنيّ أسمع عواء أهل النار في النار، فقال له رسـول الله: عبد نوّر الله قلبه، أبصـرت فاثبت، فقال: يا رسـول الله أُدع الله لي أن يرزقني الشهادة معك، فقال: اللّهمّ أرزق حارثة الشهادة، فلم يلبث إلّا أياماً حتى بعث رسول الله سرية فبعثه فيها فقاتل، فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل [1].

أخرج الكليني عن إسحاق بن عمار، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله كيف أصبحت يا فلان ؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله من قوله وقال: إنّ لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك ؟ فقال: إنّ يقيني يا رســـول الله هو الذي أحزنني وأســـهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفســي عن الدنيا وما فيها حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصــب للحســاب، وحشــر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنيّ أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، وعلى الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصـــطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار، يدور في مسامعي فقال رسول الله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان [2].

هذا هو الإيمان المحض والعبودية الخالصة بل أنّه لشأن لا يتوصل إليه بالحس والعلم.

فكم في الأُمّة الإســـلامية من ذوي الرتب العلوية، رجال وأبدال شملتهم العناية الالهية، فجردوا أنفسهم عن أبدانهم، حينما أرادوا، فعاينوا الحقائق واطلعوا على الأسرار.

وقد تضافرت الأحاديث على أنّ في الأُمّة الإسلامية مثل الأُمم السابقة رجالاً مخلصين محدّثين (بالفتح) يطلعون على المغيبات باحدى الطرق التي ألمحت إليها

---

(1) الكافي: ج 2 ص 54.

(2) الكافي: ج 2 ص 53.

الروايات.

والمحدث على ما تشـــرحه الأحاديث من تكلّمه الملائكة بلا نبوّة ولا رؤية صـــورة، أو يلهم له ويلقى في روعه شـيء من العلم على وجه الالهام والمكاشـفة من المبدأ الأعلى أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره.

روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وآله لقد كان في من كان قبلكم من بني إســـرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء [1].

روى شـيخ الطائفة باسـناده عن أبي عبد الله قال كان علي عليه السلام محدثاً وكان سـلمان محدثاً، قال: قلت فما آية المحدث ؟ قال: يأتيه ملك فينكت في قلبه ومنّا من يخاطب [2].

قال صدر المتألهين في الفاتحة الحادية عشرة :

« اعلم أنّ الوحي إذا أُريد به تعليم الله عباده، فهو لا ينقطع أبداً، وإنّما انقطع الوحي الخاصّ بالرسول والنبي من نزول الملك على أُذنه وقلبه » [3].

نعم ليس كل من رمى أصـاب الغرض، وليسـت الحقائق رمية للنبال، وإنّما يصـل إليها الأمثل فالأمثل، فلا يحظى بما ذكرناه من المكاشـــفات الغيبية والفتوحات الباطنية إلّا النزر القليل ممّن خلص روحه وصفا قلبه، كما كان كذلك في الأمم السابقة أيضاً.

* * *

---

(1) صحيح البخاري: ج 2 ص 149.

(2) أمالي الطوسي: ص 260.

(3) مفاتيح الغيب: ص 12.

السؤال الثالث

« لا تجد في الكون المادي أمراً خالداً باقياً عبر الأجيال، والدهور، أوليس التحول ناموساً عاماً في الفلسفة ؟ وهل في العالم المادي أصل ثابت وموجود خالد، فكيف يكون الإسلام أمراً ثابتاً » ؟

توضيحه :

أنّ الإسلام قد أعلن بصوت عال أنّه دين الله الخالد إلى يوم القيامة، وأنّه لا شريعة ولا دين ولا كتاب سماوي بعده، وأنّ قوانينه وتشـــريعاته غير متغيّرة عبر الأجيال والقرون، وأنّ حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

وعند ذلك يعترض الســائل ويقول: إنّ الكون بعامة أجزائه، بســمائه وأرضــه، وما تحتويانه، متغيّر متبدّل ليس له أيّ إســتقرار وأنّ الحركة والتبدل والتغيّر في الكون ناموس عام في الفلســفة الالهية والمادية، وليس لنا في عالم المادة أصل ثابت أبداً، سوى قولنا: « ليس لنا أصل ثابت »، ومع هذا الأصــل الفلســفي، كيف يدعي الإســلام بقاءه وثباته ودوامه وصــونه عن طوارق التغير والتبدل ؟

الجواب :

قد خلط السائل بين الموجودات المادية والنواميس الحاكمة عليها فانّ المتغير إنّما هو الأوّل، دون الثاني، فإنّ الســماء وما فيها من الشــموس والأقمار والنجوم متغيّرات والأرض ســهلها وجبلها والبحر وما تنطوي عليه من عظائم الموجودات لا تستقر على

حالة واحدة، بل تتقلب من صـورة إلى أُخرى ومن حالة إلى ثانية، والمادة الخارجية غير منفكة عن الفعل والإنفعال في الأحوال كلّها.

هذه هي المادة، وأمّا النواميس السـائدة عليها في نفس الأمر فهي ثابتة أبدية ولا تتغيّر ولا يصيبها التبدّل ولا تقع في مجالات الحركة والتحوّل، مثلاً المعادلات الرياضية وقانون الجاذبية والثقل النوعي في الموجودات وإنكسـار الضـوء وأحكام العدسـيات وسـرعة النور وغيرها من القوانين الفيزياوية، ثابتة غير متغيرة سائدة في كل الظروف والأزمنة.

على أنّ الإسلام السائد على المجتمع البشري طوال القرون والأجيال، والباقي إلى مدى الدهور والزمان، إنّما هو قوانين سماوية ونواميس إلهية شرّعت لإصلاح المجتمع وإسعاده وليس أمراً مادياً أو ظاهرة من ظواهره حتى يعمّه حكم المادة من الحركة والتحوّل والتبدّل، بل قوانين سماوية سـنّها الله سبحانه لعباده، ليبلغهم إلى مدارج الكمال ومعارج العز ...

ثم إنّه ماذا يريد القائل من قوله: « ليس لنا أصـل ثابت » فهل هي نظرية ثابتة، وفكرة باقية مدى الدهور والأيام وأمر غير متغيّر، أولا ؟ فلو قال بالأوّل، فقد جاء بأصـل ثابت، وأمر غير متغيّر، وبالنتيجة يكون قد نقض قاعدته، وأصله الذي ركن إليه.

وإن قال بالثاني صـار الإشـكال أعظم إذ يلزم من عدم ثباته ثبات سـائر الأُصـول ودوامها، إذ المفروض أنّ قوله: « ليس لنا علم ثابت » ليس حكماً ثابتاً فليزم من عدم صدقه، صدق نقيضه، كما هو شأن المتناقضين.

وبذلك يؤاخذ كل من نفى العلم الصـحيح المطلق الصـادق في جميع الأدوار والشـرائط، لأنّ قولهم هذا (ليس عندنا علم صحيح مطلقاً) قد أُلقي بصورة أنّه صحيح مطلق وأنّه صادق على وجه الاطلاق، ولو قال بأنّه قد أُلقي على الوجه الصحيح النسبي يصير الفساد أكثر لأنّه يستلزم أن يكون غير هذا القول صحيحاً مطلقاً إذ المفروض أنّ سلب الإطلاق عن غيره إنّما هو بالسلب النسبي لا السلب المطلق ولازم

ذلك اتصاف سائر الأُصول بالصحة الاطلاقية [1].

وربّما يستدل على لزوم تطور المجتمع بـ « حتمية التاريخ » ويقال: حتمية التاريخ لها دور كبير في الفلسفة المادية وقد اعتمد عليها فطاحل الماديين وغيرهم وفرعوا عليها فروعاً واستنتجوا منهامسائل كثيرة، وملخّص ما يريدون من هذا الأصل :

انّ ما يحدث في تاريخ الأُمم من صعود وتدهور، ومن صلح وسلام، وحرب وكفاح، واختراع، واكتشاف، وظهور انقلابات وثورات، وتقدم في الانتاج والاقتصاد.

وعلى الجملة ما شاهده تاريخ الأُمم، أم ما نشاهده في الحضارة العصرية من حوادث وطوارئ وتطور في ألوان الحياة وأشكالها كلّها، رهين عوامل في نفس المجتمع توجب وجودها ضرورة اجتماعية، ولا يمكن التحرز عنها أبداً، ويساق المجتمع إليها عنفاً وجبراً بلا إرادة واختيار.

وهذه العوامل الخلافة، لألوان الحياة وأشكالها وحوادثها وطوارئها، لا تدوم على حالة واحدة، بل تتبدل ويخلفها غيرها، وهكذا ...

فإذا كان العيش الاجتماعي متطوراً، كسائر الظواهر الطبيعية، تطوراً ضرورياً حتمياً، خارجاً عن إرادة المجتمع واختياره، فكيف يخضع المجتمع المتحول المتطور، لتشريع لا يتحول ولا يتبدل ؟

الجواب :

وزان حتمية التاريخ عند الماديين، وزان القضاء والقدر عند الجبرية، فكما أنّ هؤلاء يلقون كل حادث وطارئ وكل خير وشر يقع في المجتمع، على عاتق القضاء والقدر، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية، كذلك يفعل الماديون، إذ يلقون كل حادث وطارئ وكل خير وشر في المجتمع، على عاتق الحتمية التاريخية، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية.

---

(1) لاحظ أُصول الفلسفة: ج 1 ص 212 . تعريب المؤلّف.

لكن هذا الأصل إنّما يصح في بعض الموارد وليس أصلاً كلياً، صادقاً في عامة نواحي الحياة، حتى يعود المجتمع البشري آلة صماء مسلوب الإرادة والاختيار ولا عمل له إلّا تحقيق ما تفرضه تلكم العوامل.

ونلاحظ ثانياً أنّ حتمية التاريخ لا صلة لها بتطور الاجتماع، وأنّ استنتاج الأمر الثاني من الأمر الأوّل غير صحيح جداً، بل تطوره وثباته تابع لتطور عامل الاجتماع وثباته، فإن كان العامل المحرك للحياة الاجتماعية ثابتاً كان هو ثابتاً، وإن كان ذلك العامل متطوراً، كان متطوراً.

توضيحه: أنّ العامل المحرك للحياة، قد يكون عاملاً فطرياً فيكون ثابتاً وباقياً وحاكماً، ما دام الانسان موجوداً أو أفراده باقية متسلسلة، وعندئذ فمقتضى هذا العامل وأثره يبقى في المجتمع ثابتاً لا يتغير، ولا مجال فيه لتحوّل ولا تغير.

مثلاً، الميل الجنسي أمر فطري في الانسان، له أثر حتمي ودور عظيم في العيش الاجتماعي ومقتضاه في المجتمع هو الزواج، وبما أنّه عامل فطري في الإنسان، فلأثره الخلود في المجتمع البشري.

ودونك مثالاً آخر :

التدين والتوجه إلى ما وراء الطبيعة، أمر فطري في الناس، وطالما تجمعت الأسباب القاهرة من عنف الجبابرة، وفتك الطغاة على أنّ تصرّف بني الانسان عن التدين فما استطاعت انتزاعه، فالحياة الدينية التي هي جزء من الحياة الاجتماعية موجودة دائماً، لأنّ لها عاملاً فطرياً لا يزول.

ونحن نعترف بأنّ للعوامل الداخلية التي تستمد من طبيعة المجتمع، تأثيراً حتمياً في تاريخ الحياة الاجتماعية للانسان لا يختلف، وهي أثر محتوم لها، غير أنّ جعل حتمية التاريخ مساوية لتطوّر المجتمع وتحوّله في كل زمان غير صحيح أبداً. بل هناك مسألتان :

1. تطور الاجتماع وتبدله في كل زمان.

2. حتمية التاريخ.

وليســـت الأُولى من نتائج الثانية، ومن ثمراتها، بل الأُولى تابعة في الثبات والتحول لعاملها وعلّتها، فإن كان عامل الحياة فطرياً ثابتاً، فأثره حتمي ثابت في العيش الاجتماعي، وإن كان العامل المحرّك، أمراً متغيراً طارئاً غير فطري فأثره المحتوم في المجتمع يتغير ويتطور تبعاً لتغيره وتطوره.

مثلاً: استخدام الطبيعة والاستفادة منها في سبيل الحياة، أمر فطري للبشر لكن التوصل إلى المقصود والاستفادة منه بأدوات خاصة، كالسهم والنصل والبعير، ليس أمراً فطرياً، بل هي تتطور وتتطور معه صور الاجتماع وأوضاعه.

فالانسان الذي كان يركب الدواب في قطع المسافات وتأمين المواصلات أخذ في هذا القرن، يقطع المسافات ويؤمن مواصلاته بالسيارة والطائرة.

اذن فالقول بتبدل الأشكال والأوضاع الاجتماعية، استناداً إلى حتمية التاريخ باطل جداً، وإنّما التبدل وعدمه متوقف على العامل المؤثّر فيه، فإن كان العامل ثابتاً يثبّت الوضـــع الاجتماعي المستند إليه، وإن كان متبدّلاً يتبدل [1].

* * *

---

(1) عن مقال للعلّامة الشريف الشهيد مرتضى المطهري.

السؤال الرابع

لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة :

إنّ التطور الاجتماعي يستلزم تطوراً في قوانين الاجتماع، والقانون الموضوع في ظرف خاصّ، ربّما يكون مضراً أو غير مفيد أصلاً في ظرف آخر، ومقتضيات الزمان (القوانين) تختلف باختلاف المجتمعات وألوان الحياة، فما صح الأمس لا يصح اليوم، وما يصح اليوم، لا يصح غداً.

توضيحه :

أنّ الهدف من تشريع القوانين والأنظمة الخارجية، في المجتمع البشري ليس إلّا تأمين الحياة الاجتماعية له، وصونها عن التصادم والجدال وحفظها عن الهلاك والبوار.

فالنظام التشريعي ليس أمراً مطلوباً بالذات، بل هو ذريعة لتأمين الحياة وحفظها عن التحطم.

وعلى هذا، قد يعترض بأنّ الحياة الاجتماعية، لو استمرت على وتيرة واحدة لساغ لأي قانون تشريعي كان سائداً في الأزمنة الغابرة، أن يسود في جميع الظروف والأجواء، وأمّا إذا لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت الحياة في المجتمع الانساني منذ لجأ الانسان إلى الحضارة والعيش الاجتماعي، متحوّلة ومتغيّرة، فكيف يصح لقانون موضوع في ظرف أن يطبق في ظرف مباين له.

مثلاً: إذا تأمّل في الدور الذي كانت وسائل النقل فيه منحصرة في الجمال وغيرها

من المواشي، وكانت الثروات الطبيعية فيه لا تكاد تستغل باستثناء شيء قليل فيها، وكانت أدوات الحروب الطاحنة فيه، لا تتجاوز السيف والسهم، فلا يرتاب في أنّ الحياة الاجتماعية في ذلك الدور، لا تلتقي مع الدور الذي بلغت فيه حضارة الانسان حدّاً، سخّر معه الأرض والفضاء ووضع أرض القمر تحت قدميه، واستخدم الكهرباء والبخار، وأخذ يقطع المسافات البعيدة بالسيارة والطائرة والصاروخ، ويواجه العدو في جبهات الحرب بالقنابل الذريّة والهيدروجينية، إلى غير ذلك من الآلات القاتلة، فكيف يمكن لقانون واحد، وضع لتأمين الحياة في مجتمع خاص، أن يسود في الدورين ؟ وهل القوانين الاجتماعية إلّا « رد فعل » للأوضاع الاجتماعية المتطورة، إذ كلّما تغيرت الأوضاع الاجتماعية وتطورت، فلابد وأن يتبعها « رد فعل » في التغير والتبدل.

الجواب :

إنّ للانسان مع قطع النظر عمّا يحيط به من شروط العيش المختلفة، روحيات وغرائز خاصة تلازمه، ولا تنفك عنه، إذ هي في الحقيقة مشخّصات تكوينية له، بها يتميز عن سائر الحيوانات وتلازم وجوده في كل عصر ولا تنفك عنه بمرور الزمان.

فهاتيك الغرائز الثابتة والروحيات الخالدة، لا تستغني عن قانون ينظم اتجاهاتها، وتشريع ينظمها، وحكم يصونها عن الافراط والتفريط، فإذا كان القانون مطابقاً لمقتضى فطرته وصالحاً لتعديلها ومقتضياً لصلاحها ومقاوماً لفسادها، لزم خلوده بخلودها، وثبوته بثبوتها.

والسائل قد قصّر النظر على ما يحيط به من شروط العيش المختلفة المتبدّلة وذهل عن أنّ للانسان خلقاً وروحيات وغرائز، قد فطر عليها، لا تنفك عنه ما دام انساناً، وكل واحد منها يقتضي حكماً يناسبه ولايباينه، بل يلائمه، ويدوم بدوامه ويثبت بثبوته عبر الأجيال والقرون.

ودونك نماذج من هذه الأمور ليتبين لك بأنّ التطور لا يعم جميع نواحي الحياة، وأنّ الثابت منها يقتضي حكماً ثابتاً لا متطوراً :

1. إنّ الانسان بما هو موجود اجتماعي، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله إلى العيش الاجتماعي والحياة العائلية، وهذان الأمران من أُسس حياة الانسان، لا تفتأ تقوم عليهما في جملة ما تقوم عليه منذ بدء حياته.

وعلى هذا، فإذا كان التشريع الموضوع لتنظيم المجتمع مبنياً على العدالة، حافظاً لحقوق أفراده، خالياً عن الظلم والجور والاعتساف، وبعبارة أُخرى موضوعاً على ملاكات واقعية، ضامناً لمصلحة الاجتماع وصائناً له عن الفساد والانهيار، لزم بقاؤه ودوامه، ما دام مرتكزاً على العدل والانصاف.

2. إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة، التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما، ولأجل ذلك، اختلفت أحكام كل منهما عن الآخر، اختلافاً يقتضيه طبع كل منها، فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما ومسايراً لطبعهما، ظل ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان، لثبات الموضوع، المقتضى ثبات محموله، حسب الاصطلاح المنطقي.

3. الروابط العائلية، كرابطة الولد بالوالدين، والأخ بأخيه، هي روابط طبيعية، لوجود الوحدة الروحية، والوحدة النسبية بينهم، فالأحكام المتفرقة المنسقة، لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم، ثابتة لا تتغير بتغير الزمان.

4. التشريع الإسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والانحلال، ومما لا شك فيه، أنّ الخمر والميسر والاباحة الجنسية .. ضربة قاضية على الأخلاق، وقد عالج الإسلام تلك الناحية من حياة الإنسان بتحريمها، وإجراء الحدود على مقترفيها، فالأحكام المتعلقة بها، من الأحكام الثابتة مدى الدهور والأجيال، لأنّ ضررها ثابت لا يتغير بتغير الزمان، فالخمر يزيل العقل والميسر ينبت العداوة في المجتمع والاباحية الجنسية تفسد النسل والحرث دائماً ما دامت السماوات والأرض، فتتبعها أحكامها في الثبات والدوام.

هذا وأمثاله من الموضوعات الثابتة في حياة الانسان الاجتماعي قد حددها

ونظمها الإســـلام بقوانين ثابتة تطابق فطرته وتكفل للمجتمع تنســـيق الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أحسن نسق وحفظ حقوق الأفراد وتنظيم الروابط العائلية.

وحصـــيلة البحث: أنّ تطور الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها لا يوجب أن يتغير النظام السـائد على غرار الفطرة، ولا أن تتغير الأحكام الموضـوعة على طبق ملاكات واقعية، من مصـالح ومفاسـد كامنة في موضـوعاتها، فلو تغير لون الحياة في وسـائل الركوب، ومعدات التكتيك الحربي و ... مثلاً، فإنّ ذلك لا يقتضـــي أن تنســـخ حرمة الظلم ووجوب العدل ولزوم أداء الأمانات ودفع الغرامات والوفاء بالعهود والإيمان و ...

فإذا كان التشـــريع على غرار الفطرة الانســـانية، وكان النظام الســـائد حافظاً لحقوق المجتمع وموضـوعاً على ملاكات في نفس الأمر، تلازم الموضـوع في جميع الأجيال، فذلك التشـريع والنظام يحتل مكان التشريع الدائم.

المقررات المتطوّرة في الإسلام :

إنّ للانسـان مع هذه الصـفات والمشـخّصـات الذاتية، ظروف عيش أُخرى زمانية ومكانية، لا تزال تتغير، ويتغير معها وضـــع الانســـان، من حال إلى حال، فمثل هذه الظروف الطارئة تتغير أحكامها بتغيرها.

وفي الفقه الإســـلامي، يطلق على الأحكام المتعلقة بهذه الظروف عنوان « المقررات » كما يطلق على الأحكام المتعلقة بالظروف الثابتة، عنوان « القوانين ».

وهذه المقررات ليست بمعزل عن القوانين الكلية الإسلامية، ولا تكون اعتباطاً وفوضى بل تجري في ضـوء القوانين الكلية الثابتة، بحيث لا تناقضـها ولا تعطّلها، وإن شـئت قلت: إنّ هنا أحكاماً وخطوطاً عريضـة تمثل القاعدة المركزية في التشـريع الإسـلامي وهي مصـونة عن التحوّل والتبدل، مهما اختلفت الأوضاع وتباينت الملابسات.

وهناك أحكام متفرّعة على تلكم الخطوط، مستخرجة منها، بإمعان ودراية

خاصة، يستنبطها الباحث الإسلامي باستفراغ وسعة على ضوء هذه الخطوط العريضة، بشرط أن لا يصادمها، وهذا القسم من الأحكام يتجدد بتجدد العهود وتباين الظروف وتعدد الملابسات واختلاف الشرائط.

فمن قواعد الدين الإسلامي ما هو خالد وثابت وهو ما يمس الفطرة الإنسانية وله صلة بالكون والطبيعة، وما هو متغير ومتبدل، وهو الذي لا يمس واقع العلاقات الاجتماعية والشؤون البشرية، ولا يتجاوز حدود الظواهر الاجتماعية وقد منحه هذا التطور، أسباب الخلود والبقاء والمسايرة مع عامة الحضارات، بشرط أن لا يصطدم التحوّل على أي أساس مع أُسسه ولا يتجاوز حداً من حدوده.

فالحكم الكلي الذي يعالج القضايا البشرية على غرار الفطرة، وصعيدها الكوني، ثابت وخالد في كل العصور والأزمنة، وإن تطورت الأوضاع الاجتماعية والسياسية واختلفت حاجات الناس فإنّ الأنظمة الإسلامية والدساتير الشرعية، تساير الفطرة الإنسانية الثابتة، وتوالي الطبيعة الكونية، ولا تتخلف عنهما قدر شعرة فإذا كان التشريع معبّراً عن الكون الثابت، ومبتنياً عليه، فيخلد بخلوده ويدوم بدوامه.

أجل أنّ تقلّب الأحوال وتحوّل الأوضاع الاجتماعية يتطلب تحوّلاً في السنن والأنظمة، وتبدّلاً في الأحكام والقوانين، غير أنّه لا يتطلب تحولاً فيما يمس واقع الانسانية السائدة في جميع الأحوال ومختلف الأوضاع، كما لا يتطلب تحوّلاً في القوانين الكونية التي أصبحت تدبّر الكون بأُصوله الثابتة فلا تتغير النسب الرياضية ولا النتائج الهندسية وإن تطورت الأوضاع وتبدلت الحضارات.

وإنّما المتغير هو المظاهر والقشور، والشكل التطبيقي لهاتيك الأحكام في مختلف الأوضاع وتطور الاجتماع، والمتأثّر بالأوضاع هو القسم الثاني لا الأوّل، ولا ضير فيه فإنّ الدين الإسلامي إنّما يستعرض القضايا التي تمس واقع البشرية، والمسائل التي لها صلة بالكون والطبيعة ويترك التطبيق بعد لنفس المكلف حسب ظروفه وأحواله.

وبذلك تقف على أنّ التطور والتحوّل، فيما كتب له التغير والتبدل جزء جوهري

للدين، عنصر داخل في بناء التشريع الإسلامي كما أنّ الثبات والدوام فيما فرض له ذلك، أحد عناصر الدين ومن أجزاء ذاك البناء التشريعي السامي فتجريده من أي واحد من عنصريه يوجب انحلال المركب وفناء الدين، وتأخره عن مسايرة المواكب الحضارية.

قال سيدنا الأُستاذ (رضوان الله عليه): هناك أحكام شرعية ثابتة لا يعرض عليها التغيير والاختلاف، ولا يمكن أن تتأثر باختلاف البيئة والمحيط بشكل من الأشكال.

وهناك لون آخر من المقررات الاجتماعية التي تجري باشراف من هيئة الولاية العامة، تختلف باختلاف الظروف وتتأثر باختلاف البيئات والأزمنة.

ولتوضيح الأمر نستعير شاهداً من الظواهر الاجتماعية التي نعيشها في حياتنا الخاصة.

لنفترض أنّ مواطناً يرأس عائلة صغيرة، ويدير أُمور العائلة الداخلية في حدود مقررات البلاد العامة. فيأمر بعض أفراد العائلة بالقيام بهذا الشأن من شؤون البيت، ويأمر آخرين منهم بشأن آخر من شؤون العائلة ويحدد اختيارات كل واحد منهم في البيت في حدود مصلحة العائلة ويأمر بالانقطاع عن العمل يوماً أو يومين للاستجمام ويأمر بالاستمرار في العمل في حدود ما تقتضيه مصلحة العائلة، وحسب ظروف البيت الخاصة ...

وفي الوقت الذي يملك هذا الشخص كل هذه الصلاحيات الواسعة في الإدارة والسلطة لا يسمح له أن يخرج عن دائرة مقرّرات البلاد العامة في شأن من الشؤون أو يتجاوز حدود النظام العام بشكل من الأشكال.

وممّا تقدم يتضح أنّ المقرارات المرعية في محيط هذه العائلة على نوعين :

نوع يتسم بطابع الثبات والبقاء.

ونوع يتعرض للاختلاف والتغيير حسب ما تقتضيه مصلحة البيت.

والنسبة ذاتها قائمة بين الشريعة الإسلامية، التي يطبعها طابع من الثبات

والبقاء، والمقررات التي تختلف باختلاف الظروف والمصالح الاجتماعية والتي تدور في فلك الشريعة من غير أن تتجاوزها بحال من الأحوال [1].

ودونك نماذج من هذا القسم، أي من الأحكام المتطورة المتغيرة بتغيّر الزمان :

1. في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية: يجب على الدولة الإسلامية أن تراعي مصالح الإسلام والمسلمين، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامة، وأمّا كيفية تلك الرعاية، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية، فتارة تقتضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدو، وأُخرى تقتضي ضد ذلك.

وهكذا تختلف المقررات والأحكام الخاصة في هذا المجال، باختلاف الظروف ولكنّها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي هو رعاية مصالح المسلمين، كقوله سبحانه :

﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (النساء . 141).

وقوله سبحانه: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة 8 . 9).

2. العلاقات الدولية التجارية: فقد تقتضي المصلحة عقد اتفاقيات اقتصادية وإنشاء شركات تجارية أو مؤسسات صناعية، مشتركة بين المسلمين وغيرهم، وقد تقتضي المصلحة غير ذلك. ومن هذا الباب حكم الإمام المغفور له، الفقيد المجدد، السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع من تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية التي عقدت في زمانه بين إيران وانكلترا، إذ كانت مجحفة بحقوق الأُمّة المسلمة الإيرانية لأنّها خوّلت لانكلترا حق احتكار التنباك الإيراني.

---

(1) نظرية السياسة والحكم في الإسلام: ص 37 . 39.

3. الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء، قانون ثابت لا يتغير، فالمقصد الأسنى لمشرع الإسلام، إنّما هو صيانة سيادته عن خطر أعدائه وأضرارهم ولأجل ذلك أوجب عليهم تحصيل قوّة ضاربة ضد الأعداء، واعداد جيش عارم جرار تجاه الأعداء كما يقول سبحانه: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ﴾ (الأنفال ـــ 60) فهذا هو الأصل الثابت في الإسلام الذي يؤيده العقل والفطرة أمّا كيفية الدفاع وتكتيكه ونوع السلاح، أو لزوم الخدمة العسكرية وعدمه، فكلّها موكولة إلى مقتضيات الزمان، تتغير بتغيره، ولكن في إطار القوانين العامة فليس هناك في الإسلام أصل ثابت، حتى مسألة لزوم التجنيد العمومي، الذي أصبح من الأُمور الأصلية في غالب البلاد.

وما نرى في الكتب الفقهية من تبويب باب، أو وضع كتاب خاص، لأحكام السبق والرماية، وغيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة في الأزمنة الغابرة ونقل أحاديث في ذلك الباب، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة الإسلام، فليست أحكامها أصلية ثابتة في الإسلام، دعا إليها الشارع بصورة أساسية ثابتة، بل كانت هي نوع تطبيق لذلك الحكم الغرض منه، تحصيل القوّة الكافية، تجّاه العدو في تلكم العصور وأمّا الأحكام التي ينبغي أن تطبق في العصر الحاضر، فانّه تفرضها مقتضيات العصر نفسه [1].

فعلى الحاكم الإسلامي تقوية جيشه وقواته المسلحة بالطرق التي يقدر معها على صيانة الإسلام ومعتنقيه عن الخطر ويصد كل مؤامرة عليه من جانب الأعداء حسب

---

(1) قال المحقق في الشرائع ص 152 وفائدة السبق والرماية: بعث النفس على الاستعداد للقتال والهداية لممارسة النضال وهي معاملة صحيحة. وقال الشهيد الثاني في المسالك في شرح عبارة المحقق: لا خلاف بين المسلمين في شرعية هذا العقد، بل أمر به النبي في عدة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة وهي من أهم الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدد في الجهاد لأعداء الله تعالى، الذي هو أعظم أركان الإسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهى عن المعاملة عليهما.

فإذا كانت الغاية من تشريعهما الاستعداد للقتال والتدرب للجهاد، فلا يفرق عندئذ بين الدارج في زمن النبي صلى الله عليه وآله وغيره أخذاً بالملاك المتيقن.

إمكانيات الوقت.

والمقنّن الذي يتوخّى ثبات قانونه ودوامه وسـيادة نظامه الذي جاء به، لا يجب عليه التعرض إلى تفاصيل الأُمور وجزئياتها، بل الذي يجب عليه هو وضع الكليات والأُصول ليساير قانونه جميع الأزمنة بأشكالها وصورها المختلفة، ولو سلك غير هذا السبيل لصار حظه من البقاء قليلاً جداً.

4. نشر العلم والثقافة، واستكمال المعارف التي تضمن سيادة المجتمع مادياً ومعنوياً يعتبر من الفرائض الإسلامية، أمّا تحقيق ذلك وتعيين نوعه ونوع وسائله فلا يتحدد بحد خاص، بل يوكل إلى نظر الحاكم الإسـلامي، واللجان المقررة لذلك من جانبه حسـب الامكانيات الراهنة في ضـوء القوانين الثابتة.

وبالجملة: فقد ألزم الإسلام، رعاة المسلمين، وولاة الأمر نشر العلم بين أبناء الانسان واجتثاث مادة الجهل من بينهم ومكافحة أي لون من الأُمّية، وأمّا نوع العلم وخصـوصـياته، فكل ذلك موكول إلى نظر الحاكم الإسلامي وهو أعلم بحوائج عصره.

فرب، علم لم يكن لازماً، لعدم الحاجة إليه، في العصور السابقة، ولكنّه أصبح اليوم في الرعيل الأوّل من العلوم اللازمة التي فيها صلاح المجتمع كالاقتصاد والسياسة.

5. حفظ النظام وتأمين السبل والطرق، وتنظيم الأُمور الداخلية ورفع مستوى الاقتصاد و ... من الضـروريات، فيتبع فيه وأمثاله مقتضـيات الظروف وليس فيه للإسـلام حكم خاص يتبع، بل الذي يتوخّاه الإسـلام هو الوصـول إلى هذه الغايات، وتحقيقها بالوسـائل الممكنة، دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل وإنّما ذلك متروك إلى امكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر، وكلّها في ضوء القوانين العامة.

6. قد جاء الإسلام بأصل ثابت في مجال الأموال وهو قوله سبحانه: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ وقد فرّع الفقهاء على هذا الأصل شرطاً في صحة عقد البيع أو المعاملة فقالوا: يشترط في صحة المعاملة وجود فائدة مشروعة وإلّا فلا تصح المعاملة ومن هنا حرّموا بيع (الدم) وشراءه.

إلاّ أنّ تحريم بيع الدم أو شراءه ليس حكماً ثابتاً في الإسلام بل التحريم كان في الزمان السابق صورة إجرائية لما افادته الآية من حرمة أكل المال بالباطل وكان بيع الدم في ذلك الزمان مصداقاً له فالحكم يدور مدار وجود الفائدة (التي تخرج المعاملة عن أن تكون أكل المال بالباطل) وعدم تحقق الفائدة، فلو ترتبت فائدة معقولة على بيع الدم أو شـــراءه فســـوف يتبدل حكم الحرمة إلى الحلية، والحكم الثابت هنا هو قوله تعالى: ﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾.

وفي هذا المضمار ورد أنّ علياً عليه السلام سئل عن قول الرسول صلى الله عليه وآله : « غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود » ؟ فقال عليه السلام : « إنّما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قلّ، فأمّا الآن فقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار » [1].

وفي الختام نأتي بما أفاده الشيخ الرئيس ابن سينا في هذا المقام في الشفاء قال :

ويجب أن يفوض كثير من الأحوال خصوصاً في المعاملات إلى الاجتهاد فإنّ للأوقات أحكاماً لا يمكن أن تنضبط وأمّا ضبط المدينة بعد ذلك بمعرفة ترتيب الحفظة ومعرفة الدخل والخرج واعداد اهب الأســـلحة والحقوق والثغور وغير ذلك فينبغي أن يكون ذلك إلى الســـائس من حيث هو خليفة ولا تفرض فيها أحكام جزئية فإنّ في فرضـــها فســـاداً لأنّها تتغيّر مع تغيّر الأوقات وفرض الكليات فيها مع تمام الاحتراز غير ممكن فيجب أن يجعل ذلك إلى أهل المشورة [2].

وفي الختام نعطف نظر القارئ إلى نكتة، وهي: أنّ عنوان « مقتضـــى الزمان » و « حتمية التاريخ » وغيرهما من العناوين صـــار رمزاً، لكل من أراد أن يتحرّر من القيم الأخلاقية، ويعيش متحلّلاً من كل قيد وحدّ، خالعاً كل عذار، والكثير من أفراد الانسـان في العصـر الحاضـر، حينما رأوا، الاباحة الجنسية واختلاط الرجال والنساء، واتخاذ الملاهي على أنواعها وشرب المسكر واللعب بالميسر واقتراف المعاصي واخذ الربا مما راج

---

(1) نهج البلاغة الحكم رقم 16.

(2) الشفاء قسم الالهيات: ص 566.

في البيئات الغربية بلا استنكار وقد حرّمها الشرع ورفضتها قوانين الأخلاق الصحيحة، والفطرة السليمة، لم يجدوا مبرّراً لاقترافها والانصياع التام لشهواته الجامحة إلّا بأن يتمسكوا باحدى هذه العناوين، وليست الغاية من هذه القالة عنده، إلّا اقتراف السيئات والانغمار في الشهوات.

كما أنّ هذه العناوين قد صارت ملجأ لكل من أراد هدم الثقافة الشرقية الأصيلة وتحويرها، وسوق الشرق إلى الإنصياع لتوجيهات الغرب وتناسي كل ما كان له من كرامة قديمة وقطع صلته بها.

ترى المنادين باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف الشرقية الإسلامية يتمسكون باعذار، ويستدلون بأُمور منها: كون ذلك من مقتضيات الزمان، ونتيجة يحتمها التاريخ، غير أنّ الباحث الحر، يرى للقديم كرامته الموروثة وللحديث نضارته الموجودة، فيأخذ منها كل ما يليق بالأخذ ويصلح للاقتفاء فلا يعقد حلفاً مع كل قديم حتى الخرافات ولا يكب على كل حديث وإن أضر به وبكرامته وشرفه.

فعلى كل من يريد أن يحافظ على كرامة الانسان وكيانه وقيمه الأخلاقية، أن يتوخّى الأصلح من مقتضيات الزمان ويصلحه على ضوء العقل والفطرة، لا أن يطبق عمله عليه، فليس مقتضى العصر وحياً أُوحي إلى المجتمع، مصوناً عن الخطأ أو نقياً عن الاشتباه.

على أنّ هؤلاء المتشدّقين بأمثال هذه العبارات، تقليداً للغرب والحضارة الغربية بلا تأمّل ولا روية، قد عزب عنهم أنّ « هذه الحتمية » و « اقتفاء مقتضى الزمان » التي ينادون بها، غير معترف بها عند أعيان القوم، ومفكري المجتمعات، بل أكابرهم فيها، فكم نبّه علماء وحذر مفكرون من أبناء الغرب، من عواقب السير على منهج هذه الحضارة، واستخفّوا خطتها وتنبّأوا بانهيارها ونادوا بوجوب نقض أُسسها [1].

---

(1) نذكر على سبيل المثال منهم، العلّامة « الكسيس كارل » فارجع إلى ما حرره في كتابه « الانسان ذلك المجهول ».

ولأجل أن يقف القارئ الكريم على موقف الإســـلام فيما يرجع إلى التطور الزمني نتوقف في المقام قليلاً ونقول :

الإسلام والتطوّر الزمني :

لا نجد بين الشـرائع السـماوية شـريعة قد تدخلت في جميع شـؤون الناس كالإسـلام، حيث لم يكتف في مقرراته وتعاليمه على تعريف الناس بالأذكار والأوراد التي تربطهم بالخالق أو على ابداء النصـــائح الأخلاقية لهم فحســـب، بل أنّه بين كافة ما يهم المجتمع من حقوق ووظائف فردية واجتماعية، ووضع الخطوط العريضة لكل قضايا الانسان في هذه الحياة، وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من المفكرين والكتاب غير المسـلمين الذين كتبوا عن الإسـلام ووصـفوا قوانين الإسـلام بأنّها أرقى القوانين التي تعالج قضـــايا الانســـان، وذلك حيث أنّها تمتلك مادة حيويه ومرونة تخوّلها أن تعيش خالدة لكل الظروف.

ومن ذلك ما قاله المفكر الانجليزي (برناردشـــو): أنا أحترم دين محمد لأنّه دين حر ولأنّه الدين الوحيد الذي يقبل الانطباق مع الصـــور المختلفة في الحياة، وأضـــاف يقول: وأنا أتنبّأ بأنّ دين الإسلام سوف تعتنقه أُوربا.

وقال الدكتور شـبلي شميل، الكاتب المادي المعروف في مقال له تحت عنوان « القرآن والاعمار » نشره في الجزء الثاني من كتابه (فلسـفة النشـوء والارتقاء) الذي قرر فيه فرضية « دارون » مع شـرح « بخنر » الالماني لها، وردّ فيه على بعض الغربيين الذين زعموا أنّ الإسـلام هو سـبب تأخّر المسلمين قال: إنّ انحراف المسلمين عن تعاليم دينهم هو سبب انحطاطهم، وأنّ الذين يزعمون بأنّ الإسلام هو المسؤول عن تأخر المسلمين وانحطاطهم أمّا جاهلون بحقيقة الإسلام، أو أنّهم يريدون بهذا أن يمهّدوا الطريق لاستعمار الغرب للشرق الإسلامي.

ولأجل ذلك نواجه اليوم كثيراً من الشباب يتساءل عن مدى انطباق قوانين

الإسلام على التطورات الزمنية المختلفة وقدرته على قيادة الانسانية إلى السعادة والرفاه ؟

بين الجمود والجهل :

القرآن الكريم يصف الانسان بأنّه ظلوم جهول، وصدق الله العظيم، فمن الناس من يريد التحرّر من قيود الانسانية، والتجاوز عن كل الضوابط الأخلاقية بحجة رفض كل ما هو قديم وقبول كل ما هو جديد في حياة البشر، ويعيش إباحياً لأنّ تطور الزمن يقضي بذلك، فهذا هو الانسان الظلوم.

ومنهم من يمشي على عكس الأوّل، يحب كل ما هو قديم ويشجب كل ما هو جديد وينسب ذلك إلى الإسلام، فيظن أنّ الإسلام جاء لابقاء القديم على قدمه، دون أن يفرق في ذلك بين الوسائل والأهداف والقشور واللباب، ولذلك فهو يتقيد بالكتابة بأقلام القصب أو الاستحمام في الخزائن، أو الأكل باليد، أو الاستفادة من المصابيح القديمة وما شاكل ذلك، وهذا هو الانسان الجهول.

فالظلوم لطغيانه يهدّم أساس الشريعة ويمحق تعاليمها، والجهول يعرّض الدين بغير ما هو عليه من التطور والمرونة فينفر الناس عنه، فهما بين افراط وتفريط.

النسخ غير المرونة :

إنّ بعض الكتّاب الذين يتظاهرون بالإسلام يفسرون تطور الإسلام الزمني بما يؤدي إلى محق أحكام الإسلام والقضاء عليها فأُولئك يزعمون أنّ التعاليم الإسلامية تدخل تحت أُطر ثلاثة :

أُولاها: اطار الأُصول العقائدية كالتوحيد والنبوّة والمعاد.

ثانيها: اطار الأحكام العبادية كالصلاة والصوم وما شاكل.

وثالثها: اطار القوانين التي ترتبط بشؤون الحياة.

فيزعمون أنّ الثابت من تعاليم الدين ليس إلّا ما يدخل تحت اطار الأوّل والثاني

فقط، وأمّا ما يرتبط بالاطار الثالث من القوانين الاجتماعية فليست من صميم الدين وبالامكان تغييرها واحلال ما تقتضيه مقتضيات الزمان مكانها في هذه المجالات.

أقول: إنّ القائل بهذه المقالة ممّن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ويريد حصر الإسلام في المسجد، لتخلو الساحة الاجتماعية لغيره لكي يلعبوا ما يشاؤون، ويستوردوا القوانين الاجتماعية من هنا وهناك ويملأوا بها الفراغ وتكون النتيجة أنّ مصائر المسلمين يتحكم فيها أعداؤهم ويضعون لهم خطوط المسيرة.

إنّنا نرى القرآن الكريم يشبه المسلمين بالزرع الذي من خواصّه النمو والحياة يقول سبحانه: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ (الفتح . 29).

فقوانين الإسلام بما هي مشتملة على المادة الحيوية وبما هي ذات مرونة تنطبق مع كل الظروف والحضارات الانسانية ولا تحتاج إلى تغييرها واقامة غيرها مكانها ولأجل هذه الخصيصة أصبح المسلمون بفضل الإسلام ذوى نمو وارتقاء في مجالات الحياة.

* * *

السؤال الخامس

ادعاء النقص في التشريع الإسلامي :

« كلّما تكاملت نواحي الحضارة، وتشابكت وتعددت ألوانها، واجه المجتمع أوضاعاً وأحداثاً جديدة، وطرحت عليه مشاكل طارئة، لا عهد للأزمنة السابقة بها، إذ لم تتعرض تشريعاتها، لأي هذه الأوضاع والأحداث والمشاكل بحكم من الأحكام إذن فحاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة، لا تزال تتزايد كل يوم، تبعاً لذلك ».

توضيح السؤال :

لا يرتاب ذو مسكة في أنّه كلّما توسّع نطاق الحضارة وبلغ البشر من التمدن ما بلغ، احتاج في تنظيم حياته إلى قوانين جديدة، وتشريعات خاصة، أزيد ممّا كان محتاجاً إليها في الظروف الغابرة، وبما أنّ الحضارة الإنسانية، ما زالت تتوسّع وتتكامل، ولا تقف عند حد، فما زال الانسان تبعاً لذلك، تتوسّع حاجته إلى قوانين وتشريعات جديدة، متكاملة فكيف يمكن أن تعالج القوانين المحدودة الموضوعات الكثيرة، غير المحدودة ؟! [1].

---

(1) الفرق بين هذا السؤال وما سبق من السؤال الرابع واضح، إذ الرابع يرجع إلى لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات، حسب اختلاف اشكال الحياة في الاجتماع، وتبدلها من دون نظر إلى طروء حوادث لم يكن منها أثر في العهود السابقة، وهذا الوجه يرجع إلى اثبات وجود النقص في ناحية التشريع الإسلامي، وعدم إيفائه بالحوادث الجديدة والوقائع الطارئة التي يوجبها تكامل الحضارة وتشعّباتها وتعددها، ولم يكن لها أثر في زمن الرسالة ودور نزول القرآن.

ويلاحظ بأنّ الإسلام، هو الذي يواجه وحده، بهذا الاشكال من بين سائر الشرائع، إذ ليس الإســـلام عبارة عن تعاليم منحصـــرة في عدة أحكام عبادية وأخلاقية تؤدّى بصـــورة فردية، بين الانســـان وربّه، أو بينه وبين نفســـه، دون أن يتدخل في تحديد المناهج الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمدنية، وليس منحصراً في هذه المقررات البسيطة، حتى لا يكون وافياً في جميع الأزمنة، بالغاية التي يهدف إليها وإنّما هو نظام تشـريعي كامل، قد تدخل في شـؤون المجتمع كافة، فهو ذو قوانين مدنية وقضائية وسياسية واجتماعية وعسكرية وعائلية، كفيلة باغناء البشرية، عن كل تشريع سوى تشريعه، وعن كل اصلاح غير اصلاحه، فهذه القوانين المحدودة كيف تغني المجتمع البشري عن ممارسة التشريع في الحوادث والموضوعات التي لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول ؟

وفي هذه النقطة، تفترق المسيحية عن الإسلام، إذ هي لا تتجاوز في تشريعها نطاق الأخلاق الفردية والتعبّد لله، بصلاة وصوم، في وقت معين، أمّا مناهج الحياة الاجتماعية وتنظيمها وتنسيق معاملاتها، ذلك ما يقرّه المجتمع نفسه، ويفوّضونه إلى السلطات الحاكمة.

ولكن الإسلام يتعرض لكل شأن من شؤون الحياة، ويقنّن ويشرّع لكل أمر من أُمور المجتمع، المدنية والمعاشية، بالاضافة إلى تشريعاته وقوانيه الأخلاقية، والعبادية الفردية، ويسد باب التشريع في ذلك على غيره، فالســـلطة التشـــريعية بيده وحده، وعلى المجتمع أن يختار الســـلطة التنفيذية والسلطة القضائية فقط، ضمن ما يشرعه الإسلام.

وملخص السـؤال، انّ المجتمع الإنسـاني، يواجه أوضـاعاً وأحداثاً جديدة تطرح عليه مشـاكل لاعهد للأزمنة السـابقة بها، فلا نجد في التشـريع الإسـلامي لهذه الأوضـاع والأحداث حكماً من الأحكام، إذن فحاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة لا تزال تتزايد كل يوم تبعاً لذلك، وبما أنّ نصـوص الشـريعة من الكتاب والسـنّة محدودة، وحوداث المجتمع غير محدودة، فكيف يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث الطارئة غير المتناهية ؟

الجواب :

انّ خلود التشريع وبقاءه في جميع الأجيال ومسايرته للحضارات الانسانية، واستغناءه عن كل تشريع سواه، يتوقف على وجود أمرين فيه :

الأوّل: أن يكون التشـــريع ذا مادة حيوية خلاقة للتفاصـــيل بحيث يقدر معها علماء الأُمّة والاخصائيون منهم على استنباط كل حكم يحتاج إليه المجتمع البشري في كل عصر من الأعصار.

الثاني: أن ينظر إلى الكون والاجتماع بسـعة وانطلاق، مع مرونة خاصـة تماشـي جميع الأزمنة والأجيال، وتساير الحضارات الانسانية المتعاقبة.

وقد أحرز التشريع الإسلامي كلا الأمرين :

أمّا الأمر الأوّل، فقد أحرزه بتنفيذ أُمور :

الأوّل: الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة :

انّ من سمات التشـريع الإسـلامي التي بها يمتاز عن سـائر التشـريعات، ادخال العقل في دائرة التشـريع، والاعتراف بحجيته في الموارد التي يصـلح له التدخل والقضـاء فيها، فالعقل أحد الحجج الشرعية وفي مصاف المصادر الأُخر للتشريع وأنّه يكشف عن الحكم الشرعي ويبيّن وجهة نظر الشـارع في مورده، وأنّ من الممتنع أن يحكم العقل بشـيء ولا يحكم الشـرع على وفاقه أو يحكم بخلافه، فالملازمة بين العقل والشرع حتمية.

ولا يهمنا البحث في أنّ ما يدركه العقل في مورد هل هو نفس الحكم الشـرعي ومن صـميم التشريع الإسلامي أو أنّه يكشف عن نظر الشارع إذا توفرت فيه الشروط التي اعتبرها الشارع في حجية ادراكاته.

وإنّما المهم أن نقف على أنّ العقل احتل محلاً خاصاً في التشريع الإسلامي وانّ كل ما يحكم به العقل فكأنّه ينطق على لسان الشرع كالكتاب والسنّة، فعند ذاك اعتمد

عليه في تبليغ الأحكام إلى الناس كما اعتمد على القرآن والسنّة.

وقد فتح هذا الاعتراف للإسلام بقاء وخلوداً، وجعله صالحاً للانطباق مع عامة الحضارات الانسانية، وغدا التشريع الإسلامي في ضوئه ذا سعة وانطلاق وشمول لما يتجدد من الأحداث ولما يطرأ من الأوضاع الاجتماعية الجديدة.

هذا بخلاف ما إذا اعتبرناه عنصراً غريباً في صعيد التشريع وعزلناه عن الحكم ورفضنا كل ما يدركه من الأحكام العقلية المحضة، فإنّه يؤدي إلى تجميد المخطط القانوني وعدم صلاحيته للحكم والتطبيق في البيئات والظروف الاجتماعية المختلفة.

نعم ليس معنى الاعتراف بحجية العقل، أنّه يطلق سراحه في جميع المجالات حتى يتاح له (بما أُوتي من امكانات ووسائل محدودة) أن يتسرّع في الحكم في مصالح الفرد والمجتمع وشكل العلاقات والروابط الاجتماعية والعبادات والأحكام التوقيفية.

بل فسح له الحكم في مجالات خاصة إذا توفرت فيه الشرائط التي تصونه عن الاشتباه والخطأ واقترن بالضمانات الكافية التي تحفظه عن الزلل، وسوف نشير إلى هذه الشرائط والضمانات، وستوافيك نماذج من الأحكام العقلية في هذا البحث.

فالقارئ الكريم إذا لاحظ كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وعترته: يرى فيهما الحث البالغ الأكيد على التدبّر والتفكّر والتعقّل لما يعسر على الانسان الاحاطة والاحصاء ولنكتف بذكر بعض ما اثر في المقام.

قال الإمام الطاهر موسى بن جعفر عليه السلام لتلميذه هشام :

إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر 17 . 18).

يا هشام: إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة ـ 164).

يا هشام: ثم وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام ـ 32).

يا هشام: إنّ العقل مع العلم فقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت ـ 43).

ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة ـ 170).

يا هشام ثم ذكر أُولي الألباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية فقال: ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة ـ 269).

يا هشام: إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ يعني: عقل.

وقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ ﴾ (لقمان ـ 12) قال: الفهم والعقل.

يا هشام: ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلّا ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

يا هشام: إنّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة وأمّا الباطنة فالعقول [1].

وقال الصادق: حجة الله على العباد، النبي، والحجة في ما بين العباد وبين الله ،

---

(1) الكافي: ج 1 ص 13 ـ 16 ولم ننقله بطوله وإنّما اقتبسنا مقتطفات منه.

العقل.

هذا الحديث وما قبله وغيرهما يعرب عن نظر الإسلام السامي في الأحكام التي يستقل بها العقل بشرط أن يتجرّد عن الرواسب المنحرفة والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية ويحكم حكماً باتاً عقلانياً محضاً غير منبعث عن هذه الجوانب ويحترز عن بعض الأساليب التي منع الشارع عن أعمالها في طريق استنباط الحكم الشرعي كالاقيسة والاستحسانات.

نعم لا يخلص الحكم العقلي من الزلل والخطأ إلّا بعد ملاحظة أُمور :

1. قصور الفكر الانساني وعجزه عن الاحاطة بمسائل الكون والنفس والاجتماع وضعف المدارك الحسية التي تربط الانسان بالواقع الاجتماعي والنفسي والكون الذي يعيشه.

2. تأثّر الفكر الانساني بالجانب الانفعالي والحيواني من النفس كالغرائز النفسية والدوافع الحيوانية المستقرة في النفس التي لا تتخلّص منها النفس والفكر إلّا بعد جهد شاق.

3. انطباع الفكر بالرواسب اللاشعورية والأعراف والتقاليد التي يرثها الانسان من البيئة الاجتماعية والتي تنتقل في المجتمع مع الأجيال من دون أن تفقد تأثيرها الخاص واطارها الاجتماعي الذي يسبغ عليها جانباً قدسياً في المجتمع.

وقد حاول الإسلام أن يحقق الضمانات الكافية التي تعصم الفكر من هذه الوجوه الثلاثة في مجال الحكم والتشريع.

كما حاول الإسلام من جانب أن يفسح المجال للعقل في الحكم ليحفظ الدستور ويصلح للحكم والتطبيق في البيئات والظروف المختلفة.

ومن جانب آخر حاول الإسلام أن يحفظ العقل ممّا يمكن أن يحفظ به إلى المستويات الحيوانية واللاشعورية أو ممّا تقصر عنه امكاناته العلمية [1].

---

(1) لاحظ المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي ص 107 ـ 108.

قال العلّامة الحجة الشيخ محمد حسين الاصفهاني: إنّ القضايا المشهورة على أقسام :

منها ما فيه مصلحة عامة: كالعدل حسن، والجور قبيح، وعبّر عنها بالتأديبات الصلاحية.

منها: ما ينبعث عن الأخلاق الفاضلة كالحكم بقبح كشف العورة لانبعاثه عن الحياء وهو خلق فاضل.

منها: ما ينبعث عن رقة أو حمية أو أنفة أو غير ذلك واستلزام الحسن والقبح عقلاً للحكم الشرعي بالمعنى المتقدم في ما كان منشأه المصالح العمومية واضح لأنّ الشارع يرعى المصالح العمومية وكذا ما ينبعث عن الأخلاق الفاضلة لأنّ المفروض أنّها ملكات فاضلة، والمفروض انبعاث الحكم بالحسن والقبح عنها وأمّا ما ينبعث عن انفعالات طبيعية من رقة أو حمية أو أنفة أو غير ذلك فلا موجب لاشتراك الشارع مع العقلاء.

ولذا ترى الشارع ربّما يحكم لحكمة ومصلحة خاصة بما لا يلائم الرقة البشرية كالحكم بجلد الزاني والزانية غير ذات البعل مع كمال التراضي [1].

وللشيخ الرئيس في اشارته كلام يوقفنا على أقسام الادراكات العقلية فراجع الاشارات وشرحها للحكيم الطوسي [2].

فإذا توفرت في الحكم العقلي هذه الشرائط وكان حكمه منبعثاً عن الجانب العقلي المحض، غير متأثر عن الجوانب اللاشعورية، والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية، وتجنب عن الأساليب الممنوعة وحكم من صميم التدبّر والتفكّر بحكم بات، يصير حجة بين الله وعبده، وحينئذ يجب السير والسلوك على مقتضى حكمه وتنفيذ ما يقضي به تأسيساً أو تحديداً لاطلاق حكم شرعي أو تخصيصاً لعمومه ويصير عند ذاك أحد

---

(1) نهاية الدراية: ج 2 ص 130.

(2) الاشارات: ج 1 ص 220 ط طهران.

الأدلة التي يستنبط منها، الحكم الشرعي ويدور عليها رحى الاستنباط، ويعد قريناً للكتاب والسنّة، والاجماع ولا ينفك عن قرنائه وأعداله.

والباحث النابه، يجد الملازمة بين العقل والشرع، أحد القواعد المسلمة عند المحققين، من علماء الإسلام، الذين يعتنى بقولهم، فقد صرحوا بأنّ كل ما حكم به العقل، حكم به الشرع، وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل.

إنّ للعقل دوراً كبيراً في استنباط كثير من الأحكام التي يصلح للعقل القضاء فيها ويقدر على ادراك ملاك الحكم ومناطه نظير الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته، ووجوب الشيء وحرمة ضده أو عدمهما، وجواز اجتماع الأمر والنهي وعدمه وصحة العبادة والمعاملة وفسادهما، واجزاء الأوامر الاضطرارية والظاهرية والأحكام المتفرعة على تنجيز العلم الاجمالي وما يستقل به العقل عند اليأس عن الأدلّة السمعية فيحكم بالبراءة أو الاشتغال أو التخيير، حسب ما اقتضاه المقام. بل له دور واسع في باب المعاملات وغيرها.

فهذه الملازمات وغيرها، من الأحكام العقلية، مصادر لاستنباط كثير من الأحكام واستكشاف ما هو المرضي لدى الشارع، يستريح إليه الفقيه في تأسيس الحكم الشرعي أو تحديده، وفي تشخيص الوظيفة العملية عند اليأس عن العثور على الأدلّة السمعية وبذلك يسد الفراغ المتوهم في التشريع الإسلامي.

كل ذلك يرشدنا إلى أنّ التشريع الإسلامي، يتبنى الواقع ولا يحيد عن متطلبات الحياة، وأنّه ليس لتعاليمه طابع الرمز والتعبد السماوي وأنّ للإسلام علاقة واقعية بالعقل، لا تجد مثلها في الشرائع الأُخرى، بل لا يسوغ لغيره أن يدخل العقل في مصادر تشريعه، ويعده أحد الأدلّة.

الثاني: إنّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد :

إنّ الأحكام الشرعية عند العدلية من المسلمين، الذين يمثلون الطبقة العليا

منهم، تابعة لمصالح ومفاسد في متعلقاتها، فلا واجب إلّا لمصلحة في فعله، ولا حرام إلّا لمفسدة في اقترافه، وقد تحقق عندهم إنّ للتشريع الإسلامي نظاماً لا تعتريه الفوضى وهذا الأصل، وإن خالف فيه بعض الأُمّة، غير أنّ نظرهم محجوج بكتاب الله وسنّة نبيه ونصوص خلفائه: ترى أنّه سبحانه يعلّل حرمة الخمر والميسر بقوله :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة ـ 91).

ويستدل على وجوب الصلاة بقوله سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت ـــ 45) إلى غير ذلك من الفرائض والمناهي التي صرح أو أُشير إلى ملاكات تشريعهما في الذكر الحكيم.

وقد قال الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليه السلام : « إنّ الله تبارك وتعالى لم يبح أكلاً ولا شرباً إلّا لما فيه المنفعة والصلاح، ولم يحرّم إلّا ما فيه الضرر والتلف والفساد » [1].

وقال عليه السلام في الدم: « إنّه يسيء الخلق ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده » [2].

وهذا باقر الأُمّة وإمامها يقول: « إنّ مدمن الخمر كعابد وثن، ويورثه الارتعاش، ويهدم مروته ويحمله على التجسّر على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا » [3].

وغيرها من النصوص المتضافرة عن أئمّة الدين [4].

فإذا كانت الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد في الموضوع، فالغاية المتوخّاة من تشريعها، إنّما هو الوصول إليها، أو التحرّز عنها، وبما أنّ المصالح والمفاسد ليست على

---

(1) مستدرك الوسائل: ج 3 ص 71.

(2) بحار الأنوار: ج 62: ص 165، الحديث 3.

(3) المصدر نفسه ص 164، الحديث 2.

(4) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق فقد أورد فيه ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة: في بيان علل التشريع وفلسفته.

وزان واحد، بل ربّ واجب يسوغ في طريق احرازه، اقتراف بعض المحارم، لاشتماله على مصلحة كبيرة لا يجوز تركها أصلاً، وربّ حرام ذي مفسدة كبيرة، لا يجوز اقترافه، وإن استلزم ترك الواجب أو الواجبات.

ولأجل ذلك قد عقد الفقهاء باباً خاصاً، لتزاحم الأحكام وتصادمها في بعض الموارد، فيقدمون « الأهم على المهم » والأكثر مصلحة على الأقل منها، والأعظم مفسدة على الأحقر منها، وهكذا ... ويتوصّلون في تمييز الأهم عن المهم، بالطرق والامارات التي تورث الاطمئنان، وباب التزاحم في علم الأُصول غير التعارض فيه، ولكلّ أحكام.

وقد أعان فتح هذا الباب على حل كثير من المشاكل الاجتماعية التي ربما يتوهم الجاهل أنّها تعرقل خطى المسلمين في معترك الحياة، وأنّها من المعضلات التي لا تنحل أبداً، ولنأت على ذلك بمثال، وهو :

أنّه قد أصبح تشريح بدن الانسان في المختبرات من الضروريات الحيوية التي يتوقف عليه نظام الطب الحديث، فلا يتسنّى تعلم الطب إلّا بالتشريح والإطلاع على خفايا الأمراض والأدوية.

غير أنّ هذه المصلحة تصادمها، مصلحة احترام المؤمن حيّه وميّته، إلى حد أوجب الشارع، الاسراع في تغسيله وتكفينه وتجهيزه للدفن، ولا يجوز نبش قبره إذا دفن، ولا يجوز التمثيل به وتقطيع أعضائه، بل هو من المحرمات الكبيرة التي لم يجوز الشارع حتى بالنسبة إلى الكلب العقور، غير أنّ عناية الشارع بالصحة العامة وتقدم العلوم جعلته يسوغ اقتراف هذا العمل لتلك الغاية، مقدماً بدن الكافر على المسلم، والمسلم غير المعروف على المعروف منه، وهكذا ...

الثالث: التشريع الإسلامي ذو مادة حيوية

إنّ التشريع الإسلامي في مختلف الأبواب، مشتمل على أُصول وقواعد عامة، تفي باستنباط آلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري، على امتداد القرون

والأجيال، وهذه الثروة العلمية، التي اختصت بها الأُمّة الإسلامية من بين سائر الأُمم، أغنت الشريعة الإسلامية عن التمسّك بكل تشريع سواها.

وقد تضافرت الروايات على أنّ جميع ما يحتاج الناس إليه قد جاءت فيه آية محكمة أو سنّة متّبعة.

أخرج الكليني باسناده عن عمر بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلّا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله وجعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدل عليه، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً.

روي باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: ما من شيء إلّا وفيه كتاب أو سنّة.

أُخرج عن سماعة عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت له: أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه، أو تقولون فيه ؟ قال: بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيه [1].

وهذا العلّامة الحلي، أحد فقهاء الإمامة في القرن الثامن، قد ألّف عشرات الكتب في الفقه وأُصوله، منها « تحرير الأحكام الشرعية » وقد حوى من الأحكام والقوانين ما يربو على أربعين ألف مسألة، استنبطها من هذه الأُصول الواردة في القرآن والسنّة النبوية، والأحاديث المأثورة عن أئمّة الدين، رتبها على ترتيب كتب الفقه في أربع قواعد: العبادات، والمعاملات، والايقاعات، والأحكام [2].

وجاء من بعده من الفقهاء والمجتهدين، فبحثوا عن موضوعات وأحكام، لم تكن لعصره بها صلة، فاستخرجوا ما لها من الحكم الشرعي، من تلكم الأُصول والقواعد بوضوح وانطلاق، ولم يجدوا التشريع الإسلامي عاجزاً في هذه المجالات.

---

(1) راجع الكافي « باب الرد إلى الكتاب والسنّة » ج 1 ص 59 ـ 62، تجد فيه أحاديث تصرح بما ذكر، والمراد منها أُصول الأحكام وجذورها لا فروعها وجزئياتها.

(2) راجع الذريعة: ج 4 ص 378.

وهذا « صاحب الجواهر » ذلك الفقيه الأعظم، من فقهاء القرن الثالث عشر الإسلامي، قد جاء في مشروعه الوحيد « جواهر الكلام » بأضعاف ما جاء به العلّامة الحلي، فإنّ الباحث عندما يقف أمام هذا الكتاب الثمين وينظر في مباحثه، يرى أمامه بحراً يزخر بالدرر التي تحار في حصرها النهى والخواطر وتنبهر لها عيون البصائر، فلقد حوى من الفروع والقوانين، ما يعسر عدها.

ولأجل ذلك استعارت منا الأُمم الغربية كثيراً من قوانينه، (بعكس ما نحن عليه الآن من تبعيّتنا للقوانين الأجنبية) وليس ذلك إلّا لأجل كون الفقه الإسلامي ذا مادة حيوية، وقواعد متموّجة، تستطيع أن تواجه الأحداث الطارئة طيلة القرون.

يوم كان الإسلام يبسط ظله على أكثر من نصف المعمورة، حيناً من الدهر وإنّ الأُمّة الإسلامية، كانت تتألّف من شعوب مسلمة مختلفة الألوان، لكلّ بيئة خواصها في العادات والتقاليد، وما يقع فيها من وقائع وأحداث، كان التشريع الإسلامي بقواعده وأُصوله الوافرة، وافياً لاستخراج أحكامها، من دون أن تمدّ يدها إلى المساعدات الأجنبية.

الرابع: تشريع الاجتهاد

وهو بذل الوسع في استنباط الأحكام الشرعية عن مصادرها المعينة، وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه، لأنّه يحفظ غضاضة الدين وطراوته، ويجدده ويصونه عن الإندراس، ويغني المسلمين عن موائد الأجانب، باعطائه كل موضوع ما يقتضيه من حكم.

« أمّا لزوم فتح هذا الباب في أعصارنا هذه فلا يحتاج إلى البرهنة والدليل إذ نحن في زمن تتوال فيه المخترعات والصناعات، وتجعلنا هذه المجالات أمام أحد أُمور :

أمّا بذل الوسع في استنباط أحكام الموضوعات الحديثة، من الأُصول والقواعد الإسلامية.

أو اتباع المبادئ الاوربية، من غير نظر إلى مقاصد الشريعة، وأمّا الوقوف من غير

اعطاء حكم » [1].

« وليس الاجتهاد من البدع المحدثة، فإنّه كان مفتوحاً في زمن النبوّة وبين أصحابه ﷺ فضلاً عن غيرهم، وفضلاً عن سائر الأزمنة التي بعده، نعم غايته إنّ الاجتهاد يومئذ، كان خفيف المؤونة جداً، لقرب العهد، وتوفّر القرائن، وامكان السؤال المفيد للعلم القاطع، ثم كلّما بعد العهد من زمن الرسالة وكثرت الآراء والأحاديث والروايات، ربّما قد دخل فيها الدس والوضع، وتوفرت دواعي الكذب على النبي، أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي، يصعب ويحتاج إلى مزيد من المؤونة واستفراغ الوسع » [2].

ويرشدك إلى وجوده في زمن النبي ﷺ قول الرسول لأمير المؤمنين عليه السلام عندما بعثه إلى اليمن: قال علي عليه السلام : بعثني رسول الله إلى اليمن، قلت يا رسول الله تبعثني وأنا شاب، أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ؟ قال: فضرب بيده في صدري وقال: « اللّهمّ أهد قلبه وثبّت لسانه » فو الذي نفسي بيده ما شككت في قضاء بين اثنين [3].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن: بم تقضي ؟ قال: بما في كتاب الله، قال فإن لم تجد ؟ قال: بما في سنّة رسول الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: اجتهد رأيي، ولا آلو جهداً، فسر النبي ﷺ وقال: الحمد لله الذي وفّق رسول رسوله بما يرضي رسوله [4].

---

(1) رسالة الإسلام، السنة الثالثة، العدد الثاني، عن مقال « أحمد أمين المصري ».

(2) أصل الشيعة وأُصولها، ص 119 طبعة بيروت.

(3) أعلام الورى: ص 137، والبحار: ج 21 ص 361، وشتان بين علمه واجتهاده عليه السلام وعلم الآخرين واجتهادهم.

(4) الطبقات الكبرى: ج 2 ص 347 والاستيعاب، لابن عبد البر، في ترجمة « معاذ » واللفظ للثاني.

أقول: لو صح الحديث يكون المراد منه باعتبار وروده في أمر القضاء، هو فصل الخصومة في الأموال والنفوس، بما يعدها العقلاء عدلاً وأنصافاً وهذا المراد من قوله: اجتهد رأيي. وعندئذ لا يكون الحديث دليلاً على صحة مطلق الرأي حتى المستند إلى القياس والاستحسان واشباههما التي لا قيمة لها عندنا في عالم الاستنباط.

« وبطبيعة الحال، أنّ الصحابي قد يسمع من النبي ﷺ في واقعة، حكماً ويسمع الآخر في مثلها خلافه، وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكمين وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت إليها وغفل عن نقلها مع الحديث فيحصل التعارض في الأحاديث ظاهراً، ولا تنافي واقعاً، ولهذه الأسباب وأضعاف أمثالها، احتاج حتى نفس الصحابة الذين فازوا بشرف الحضور، في معرفة الأحكام إلى الاجتهاد، والنظر في الحديث وضم بعضه إلى بعض والالتفات إلى القرائن الحالية، فقد يكون للكلام ظاهر، ومراد النبي خلافه اعتماداً على قرينة في المقام، والحديث نقل، والقرينة لم تنقل ».

« وكل واحد من الصحابة، ممن كان من أهل الرأي والرواية، تارة يروي نفس ألفاظ الحديث، للسامع من بعيد أو قريب، فهو في هذا الحال راو ومحدّث وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات، بحسب نظره فهو في هذا الحال، مفت وصاحب رأي » [1].

ولم يزل هذا الباب مفتوحاً عند الشيعة، من زمن صاحب الرسالة إلى يومنا هذا، وقد تخرج منهم الآلاف من المجتهدين والفقهاء، قد أحيوا الشريعة وأنقذوها من الانطماس، وأغنوا بذلك الأُمّة الإسلامية في كل مصر وعصر، عن التطلع إلى موائد الغربيين، وألّفوا مختصرات ومتطوّلات، لا يحصيها إلّا الله سبحانه.

وقد اقتدى الشيعة في فتح هذا الباب على مصراعيه في وجه الأُمّة بأئمّة دينهم وخلفاء رسولهم، الذين حثوا شيعتهم بأقوالهم وأفعالهم، على التفقّه في الدين والاجتهاد فيه، وأنّه « من لم يتفقّه، فهو اعرابي » وأرشدوهم إلى كيفية استخراج الفروع المتشابكة، من الآيات والأُصول المتلقاة عنهم، بالتدبر في الآيات والأُصول المتلقاة عنهم، وأمروا أصحابهم بالتفريع [2] وقد بلغت عنايتهم بذلك ما جعلهم ينصبون بعض من يعبأ بقوله ورأيه في منصب الافتاء، إلى غير ذلك.

---

(1) أصل الشيعة: ص 118.

(2) ستوافيك روائع نصوصهم في هذا المضمار.

والاجتهاد كما عرّفناك هو بذل الجهد في استنباط الأحكام عن أدلّتها الشرعية فلا يحتج به إلّا إذا بنيت أحكامه على أساس الكتاب والسنّة، وما يرجع إليها فهو مقيد من هذه الجهة وإن كان متحرراً من سوى ذلك، فلا يتقيد بمذهب ولا برأي، بل هو فوق المذاهب.

غير أنّ أئمّة أهل السـنّة، قد أقفلوا باب الاجتهاد، إلّا الاجتهاد في مذهب خاص، كمذهب أبي حنيفة والشافعي، وبما أنّ الفتاوى المنقولة عنهم، مختلفة أخذ علماء كل مذهب يبذلون جهدهم لتشخيص ما هو رأي كل إمام في هذا الباب.

ولا أدري لماذا اقفل هذا الباب المفتوح من زمن الرسـول، وإن تفلسـف في بيان وجهه، بعض الكتّاب من متأخّريهم، وقال: ولم يكن مجرد اغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء واصدار قرار منهم، وإنّما كان حالة نفسية واجتماعية ذلك أنّهم رأوا غزو التتار لبغداد وعسفهم بالمسلمين، فخافوا على الإسلام ورأوا أنّ أقصى ما يصبون إليه، هو أن يصلوا إلى الاحتفاظ بتراث الأئمّة مما وضعوه واستنبطوه [1].

ولا يكاد يخفى على القارئ الكريم ما في اعتذاره من الاشكال.

ولقد صدع بالحق الدكتور « حامد حفني داود » أُستاذ الأدب العربي بكلية الألسن في القاهرة في ما قدمه على كتاب عقائد الإمامية [2] وقال :

إنّ الصـورة المتوارثة عن جهابذة أهل السـنّة أنّ الأجتهاد أُقفل بابه بأئمّة الفقه الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل.

هذا إذا عنينا الاجتهاد المطلق أمّا ما حاوله الفقهاء بعد هؤلاء من اجتهاد لا يعدو أن يكون اجتهاداً في المذهب أو اجتهاداً جزئياً في الفروع، وأنّ هذا ونحوه لا يكاد يتجاوز عند أهل السـنّة القرن الرابع بحال من الأحوال، أمّا ما جاء عن الغزالي في القرن الخامس، وأبي طاهر السـلفي في القرن السادس، وعز الدين بن عبد الله السلام وابن

---

(1) رسالة الإسلام: العدد الثالث، من السنة الثالثة عن مقال لأحمد أمين المصري.

(2) للعلاّمة المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر راجع ص 17 ـ 18 من المقدمة.

دقيق العيد في القرن السابع، وتقي الدين السبكي، وابن تيمية في القرن الثامن والعلاّمة جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي في القرن التاسع ... فإنّ هذا ونحوه لا يتجاوز ـــ في نظر المنهج العلمي الحديث ـ باب الفتوى ولا يدخل في شيء من الاجتهاد، وهو القدر الذي أوضحناه في كتابنا « تاريخ التشريع الإسلامي في مصر ».

أمّا علماء الشيعة الإمامية فإنّهم يبيحون لأنفسهم الاجتهاد في جميع صوره التي حدّثناك عنها، ويصرّون عليه كل الاصرار ولا يقفلون بابه دون علمائهم في أي قرن من القرون حتى يومنا هذا.

وأكثر من ذلك تراهم يفترضون بل يشترطون وجود « المجتهد المعاصر » بين ظهرانيهم، ويوجبون على الشيعة اتباعه رأساً دون من مات من المجتهدين مادام هذا المجتهد المعاصر استمد مقوّمات اجتهاده ـ أُصولها وفروعها ـ من المجتهدين، وورثها عن الأئمّة كابراً عن كابر.

وليس هذا غاية ما يلفت نظري أو يستهوي فؤادي في قولهم بالاجتهاد.

وإنّما الجميل والجديد في هذه المسألة أنّ الاجتهاد على هذا النحو الذي تقرأه عنهم يساير سنن الحياة وتطوّرها، ويجعل النصوص الشرعية حية متحركة نامية متطورة، تتمشى مع نواميس الزمان والمكان، فلا تجمد ذلك الجمود الذي يباعد بين الدين والدنيا، أو بين العقيدة والحياة الذي نشاهده في أكثر المذاهب التي تخالفهم. ولعل ما نلاحظه من كثرة عارمة في مؤلفات الإمامية وتضخّم مطّرد في مكتبة التشيّع راجع ـ في نظرنا ـ إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ».

هذا هو الاجتهاد، وهذا دوره في خلود الدين وصلوحه للظروف والبيئات ولم يكن اغلاقه إلّا جهلاً بأهميته أو ابتغاء للفتنة، أو تزلفاً إلى أبناء الدنيا، أو جبناً عن النطق بالصواب، وعلى أي تقدير فقد تنبّه بعض الجدد [1] من أهل النظر بلزوم فتحه وإنمائه، وأنّ الاجتهاد أحد مصادر الشريعة التي تسع كل تطور تشريعي، قال في مقال

---

(1) الأستاذ علي علي منصور المصري مستشار مجلس الدولة لمحكمة القضاء الاداري.

له حول الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية بمصر وإثبات ما عليه القواعد الشرعية من سموّ وشمول ودقة وأحكام مع اتسامها دائماً بالجدة، وملائمة أحكامها لكل حضارة ولكل بيئة ولكل زمان: « النصوص الشرعية للأحكام التي وردت في الكتاب والسنّة قليلة إذا ما قيست بمواد القانون في أي شريعة وضعية، إذ الآيات القرآنية التي تضمّنت أُصول الأحكام على ما أحصاها ابن قيم الجوزية لا تعدو مائة وعشرين آية من نيف وستة آلاف آية، أمّا الأحاديث فخمسمائة من أربعة آلاف حديث، ولقد أراد الله بذلك أن يهيأ للناس فرصة الاجتهاد في الفروع دون الأُصول، فجعل النصوص الأصلية لقواعد الشريعة عامة، دون التعمّق في التفاصيل ليتسع لها عقل من نزل فيهم القرآن وليترك للقوى الانسانية التي أودعها مخلوقاته، فرصة العمل والتفكير والتدبير واستنباط الأحكام فيما لا نص فيه من كتاب أو سنّة، لما يجد ويعرض لهم في حياتهم من مشاكل وأقضية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهذا هو الاجتهاد وهو أحد مصادر الشريعة المحمدية.

ومشروعية هذا المصدر ثابتة من حديث معاذ بن جبل إذ أنّه لـمّا بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قال له: بم تقض يا معاذ؟ قال: بكتاب الله، قال الرسول ﷺ فإن لم تجد ؟ قال: فبسنّة رسول الله، قال: وإن لم تجد ؟ قال: اجتهد برأيي، فأقره على ذلك » [1] وما كان يمكن أن ينزل الكتاب والسنّة على غير هذا الاجمال والتعميم، لأنّ هذه الشريعة إنّما نزلت لكل زمان وكل مكان: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

ولو أنّ صاحب الشريعة عني بالتفاصيل والجزئيات لوجب أن يقدر ما سيكون عليه العالم من نظم مختلفة واختراعات مستحدثة في جميع الأمكنة والأزمنة فيضع لها ولما تفرّع عنها، من التفاصيل، ولو أنّه فعل ذلك لما اتسع وقت الرسالة لهذا كلّه، بل لأعرض الناس عن هذه الدعوة لتعقدها، ولأنّها تضمّنت أحكاماً عن جزئيات ومخترعات لا تقع تحت حسهم، ويصعب عليهم تصورها، لأنّها لم تعرف في زمانهم، ولنضرب لذلك مثلاً

---

(1) قد مر المراد من الحديث فلاحظ.

فقد نزلت في القرآن آية تضمّنت الحكم العام لآداب التلاوة وجرت على نسق مختصر: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وحدث بعد نزولها بنيف وألف وثلثمائة عام أن اخترع المذياع (الراديو والتلفزيون)، ولما بدأ باذاعة آيات الذكر الحكيم به، بدأ التسائل عن حكم الشرع والدين في ذلك أحلال هو أم حرام ؟ وهل تصح اذاعته في منتدى ترتكب فيه الآثام والموبقات وتدار كؤوس الخمر ؟

لا بدع في أنّ حكم هذه الجزئية لم يرد بنص صريح في الكتاب، وانّ ذلك ترك للاجتهاد على هدى الحكم العام الوارد بالآية الشريفة، لا بدع في ذلك، إذ لو أُريد للشريعة أن تتضمّن الأحكام المفصلة لجميع الفروع والجزئيات لوجب أوّلاً افهام الذين نزل عليهم الدين وقت الرسالة ما هو الراديو وما هو التلفزيون، ولو حاول الرسول ذلك وقال لهم: إنّ مخترعات البشر باذن الله ستجيء للعالم بعد ألف وثلثمائة عام بآلة يستطيع بها الانسان أن يسمع ويرى صورة المحدث وهو على بعد آلاف الفراسخ والأميال، لما صدّقوه لعدم امكانهم تصوره ولجادلوه فأكثروا جداله في كنه تلك الآلة، ولما لزمتهم حجته في أنّ الذي يقوله ليس من عنده وإنّما هو من عند الله لأنّ الحجة لا تلزمها صفة الاقناع إلّا متى دخلت مناط العقل، أمّا إذا كانت فوق إدراك المرسل إليهم فهي داحضة ...

والاجتهاد هو الباب الذي دخلت منه إلى حضيرة الشريعة الإسلامية كل الحضارات بما فيها من مشاكل قانونية ومالية واجتماعية فوسعها جميعاً وبسط عليها من محكم آياته وسديد قواعده ما أصاب المحجة، فكان للشريعة الإسلامية في ذلك تراث ضخم تسامي على كل الشرائع وأحاط بكل صغيرة وكبيرة من أُمور الدين والدنيا ...

أفبعد ذلك يصح في الأفهام أن تتهم الشريعة الإسلامية بالقصور، أو بأنّها نزلت لعرب الجزيرة لتعالج أُمورهم في حقبة من الزمان انقضى عهدها، أو أنّها تضيق عن أن تجد الحلول لمشاكل الحضارات الحديثة، إرجعوا إليها وإلى تراثها الضخم تجدوا أنّها عالجت الجليل والخطير والصغير والكبير من أُمور الدين والدنيا فيها ذكر ما مضى ،

وفيها ذكر الحاضر، وفيها ذكر المستقبل وسيظل العلم الحديث يكشف عمّا فيها من كنوز وستترى المشاكل على العالم جيل بعد جيل، ويضطرب العالم في محاولة الحلول لها دون جدوى إلّا إذا رجع إلى أحكام هذا الدين وهذه الشريعة المحكمة السمحة، حيث الدواء الشافي والعلاج الحاسم لكل ما يجيب العالم في حاضره وفي مستقبله [1].

وممّا يؤيد لزوم انفتاح باب الاجتهاد إلى يوم القيامة هو ما ذكره المقريزي في خططه حيث قال ما هذا ملخّصه :

انّه لم يكن كل واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله متمكناً من دوام الحضور عنده صلى الله عليه وآله لأخذ الأحكام عنه، بل كان في مدة حياته يحضره بعضهم دون بعض وفي وقت دون وقت، وكان يسمع جواب النبي صلى الله عليه وآله عن كل مسألة يسأل عنها بعض الأصحاب ويفوت عن الآخرين فلمّا تفرق الأصحاب بعد وفاته صلى الله عليه وآله في البلدان تفرقت الأحكام المروية عنه صلى الله عليه وآله فيها، فيروى في كل بلدة منها جملة، ويروى عنه في غير تلك البلدة جملة أُخرى حيث أنّه قد حضر المدني من الأحكام ما لم يحضره المصري، وحضر المصري ما لم يحضره الشامي، وحضر الشامي ما لم يحضره البصري، وحضر البصري ما لم يحضره الكوفي إلى غير ذلك، وكان كل منهم يجتهد فيما لم يحضره من الأحكام.

ولعدم تساوي هؤلاء المجتهدين في العلوم والإدراكات وسائر القوى والملكات تختلف طبعاً الآراء والاجتهادات، فمجرد تفاوت أشخاص الصحابة تسبب اختلاف فتواهم ثم تزايد ذلك الاختلاف بعد عصر الصحابة.

ثمّ قال: ثمّ بعد الصحابة تبع التابعون فتاوى الصحابة فكانوا لا يتعدون عنها غالباً، ولما مضى عصر الصحابة والتابعين صار الأمر إلى فقهاء الأمصار أبي حنيفة والسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة، وابن جريح بمكة، ومالك وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان التيمي (الظاهر عثمان بن مسلم البطي) وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر فكان هؤلاء الفقهاء يأخذون من التابعين وتابعيهم أو يجتهدون.

---

(1) مجلة رسالة الإسلام لجماعة دار التقريب العدد الأوّل من السنة الخامسة.

وذكر المقريزي في الجزء الرابع من الخطط ما هذا ملخّصه :

انّه تولّى القاضي أبو يوسف القضاء من قبل هارون الرشيد بعد سنة 170 إلى أن صار قاضي القضاة فكان لا يولّي القضاء إلّا من أراده، ولـــمّا كان هو من أخص تلاميذ أبي حنيفة فكان لم ينصب للقضاء ببلاد خراسان والشام والعراق وغيرها إلّا من كان مقلّداً لأبي حنيفة، فهو الذي تسبب في نشر مذهب الحنفية في البلاد.

وفي آوان انتشار مذهب الحنفية في المشرق نشر مذهب مالك في افريقية المغرب، بسبب زياد بن عبد الرحمان، فإنّه أوّل من حمل مذهب مالك إليها، وأوّل من حمل مذهب مالك إلى مصـــر سنة 160 هو عبد الرحمان بن القاسم.

قال: ونشر مذهب محمد بن ادريس الشافعي في مصر بعد قدومه إليها سنة 198 وكان المذهب في مصر لمالك والشافعي إلى أن أتى القائد « جوهر » بجيوش مولاه « المعز لدين الله أبي تميم معد » الخليفة الفاطمي، إلى مصر سنة 358 فشاع بها مذهب الشيعة حتى لم يبق بها مذهب سواه (أي سوى مذهب الشيعة).

ثمّ إنّ المقريزي بين بدء انحصار المذاهب في أربعة فقال :

فاستمرت ولاية القضاة الأربعة من سنة 665 حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة وعودي من تمذهب بغيرها، وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شـهادة أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصـار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها، والعمل على هذا إلى اليوم [1].

وهذه الكلمة الأخيرة « وتحريم ما عداها » تكشف عن أعظم المصائب على الإسلام حيث أنّه قد مضى الإسلام ما يقرب من سبعة قرون ومات فيها على دين الإسلام ما لا يحصى عددهم إلّا ربّهم ولم يســـمع أحد من أهل القرنين الأوّلين اســـم المذاهب أبداً ثم فيما بعد القرنين كان المسلمون بالنسبة إلى الأحكام الفرعية في غاية من

---

(1) راجع الخطط المقريزية: ج 2 ص 333 و 334 و 344.

السعة والحرية، كان يقلد عاميهم من اعتمد عليه من المجتهدين وكان المجتهدون يستنبطون الأحكام عن الكتاب والسـنّة على موازينهم المقررة عندهم في العمل بالسـنّة النبوية، فأي شـيء أوجب في هذا التاريخ على عامة المسـلمين: « العامي المقلد والفقيه المجتهد » أن لا يخرج أحد في الأحكام الشـرعية عن حد تقليد الأئمّة الأربعة، وبأي دليل شـرعي صـار اتباع أحد المذاهب الأربعة واجباً مخيراً، والرجوع إلى ما ورائها حراماً معيّناً مع علمنا بأحوال جميع المذاهب من بدئها وكيفية نشـرها وتأثير العوامل في تقدم بعضـها على غيرها، بالقهر والغلبة من الدولة والحكومة كما أفصـح عن بعض ذلك ما ذكره ابن الفوطي في الحوادث الجامعة، ص 216 في وقائع سـنة 645 يعني قبل انقراض بني العباس باحدى عشرة سنة في أيام المستعصم الذي قتله هولاكو، سنة 656 فلاحظ ذلك الكتاب [1].

وفي الختام نلفت نظر القارئ الكريم لمعرفة قضية الاجتهاد وتطورة وعلل إيصاد بابه لدى بعض المسلمين إلى المصادر التالية :

1. المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار: تأليف الشـيخ تقي أبو العباس المعروف بالمقريزي المولود في بعلبك عام 766 والمتوفّى بالقاهرة عام 845.
2. تاريخ اليعقوبي المعروف بابن واضح وقد طبع عام 1358.
3. الحوادث الجامعة في المائة السـابعة لكمال الدين عبد الرزاق بن المروزي الفوطي البغدادي المتوفّي سنة 723.
4. الانصاف في بيان سبب الاختلاف.
5. عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد: ألّفهما ولي الله الدهلوي المولود سـنة 1114 والمتوفّى 1180.
6. الاقليد لأدلّة الاجتهاد والتقليد.

---

(1) راجع تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلّامة الطهراني ص 104.

7. الطريقة المثلى في الاشارة إلى ترك التقليد: ألّفهما صديق حسن خان القنوجي البخاري المتوفّى سنة 1307، وطبعا بالاستانة عام 1295.

8. حصول المأمول من علم الأُصول: له أيضاً طبع في الجوائب سنة 1296.

9. مقالة صاحب السعادة أحمد تيمور باشا ابن إسماعيل بن محمد المولود في القاهرة سنة 1288 وهي تحت عنوان نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، طبعت مستقلة في القاهرة سنة 1344.

10. ما كتبه محمد فريد وجدي في دائرة معارفه في مادتي « جهد وذهب » وما كتبه يعد أبسط ما كتب في الموضوع.

11. أعلام الموقعين عن ربّ العالمين: للحافظ ابن القيم.

12. تاريخ حصر الاجتهاد: لشيخنا العلّامة الطهراني المتوفّى يوم الجمعة 13 ذي الحجة عام 1389.

إلى غير ذلك من المؤلفات، وقد أشار إلى غير ما ذكرنا صديق حسن خان في كتابه حصول المأمول في علم الأُصول ص 198.

الحقيقة بنت البحث :

كلمة موجزة ومثل سائر، يهدف إلى أوضح الحقائق وأنصعها ويفيد أنّ الوقوف على الحقيقة وإماطة الستر عن وجهها وليد النقاش العلمي ووليد المحادثة وهذا مما لا يرتاب فيه أحد ويدركه كل من له حظ من الفكر والنظر.

وفي الحقيقة إنّ التقاء أفكار ذوي الآراء كالتقاء الأسلاك الكهربائية، فكما أنّ الأشعة الكهربائية، تتفجر من اتصالها سلباً وإيجاباً، فكذلك نور الحقيقة يشع أمامنا بتبادل الفكرتين وتعارضهما بالنفي والإيجاب.

إذ طالما يتخيل للانسان أنّه صائب في فكره ونظره، فإذا عرضه للبحث والنقاش

وتوارد عليه النفي والاثبات ربّما ظهر وهنه وضعفه.

نعم يجب على الباحث عن الحقيقة أن يعرض آراءه وأفكاره للجو الهادئ المتحرر عن التعصب لفئة غابرة، أو فكرة حاضرة، الشاخص أمام كل رأي فارغ عن الدليل والبرهنة، فالاجتهاد بهذا النحو رمز كشف الحقيقة، رمز خلود الإسلام وبقائه، رمز كونه غضاً طرياً في كل عصر وجيل.

نعم ربّما يجد الناشئ الجديد في نفسه حرجاً عند وقوفه على اختلاف أصحاب الآراء والمذاهب في أُصول الإسلام وفروعه، ويتخيله حاجزاً يعرقل خطاه عن الوصول إلى الواقع، ويتمنّى رفع الخلاف الفكري في المسائل من رأس بتأسيس مؤتمرات علمية من ذوي الأفكار.

بل ربّما نسمع من بعض الشباب سؤالاً يوجهه إلى الهيئات العلمية الإسلامية ويقول كان في وسع النبي صلى الله عليه وآله أن يجمع أُصول الإسلام وفروعه وكل ما يرجع إليه في كتاب، ويتركه بين الأُمّة حتى يسد بذلك باب التقوّل من بعده على المتقوّلين، فلماذا لم يفعل ذلك ؟!

لكنّه رأي غير ناضج، إذ لو جمعها النبي في كتاب وسلمه إلى الأُمّة، لاستولى الركود الفكري والتدهور العقلي على عقلية الأُمّة، وانحسر كثير من المفاهيم والقيم الإسلامية عن ذهنيتها، وأوجب ضياع العلم وتطرق التحريف إلى أُصوله وفروعه حتى إلى الكتاب الذي كتب فيه كل صغير وكبير.

فلم تقم للإسلام دعامة، ولا حفظ كيانه ونظامه، إلّا على ضوء هذه البحوث العلمية والنقاشات الدارجة بين العلماء، ورد صاحب فكر على ذي فكر آخر بلا محاباة.

وقد حكى شيخنا العلّامة المتضلّع شيخ الشريعة الاصفهاني [1] في مقدمة

---

(1) فقيه متضلّع، أُصولي بارع، خبير باسرار الحديث والتفسير فهو ممن يضن بهم الدهر إلّا في فترات يسيرة، كان رحمه الله آية في الذكاء والحفظ، أثنى عليه كل من أدركه وقرأ عليه، توفّي عام 1339 هجرية قمرية في النجف الأشرف ودفن في الصحن الحيدري.

كتابه [1] عن بعض الأعلام كلاماً يعرب عمّا قلناه، قال: إنّ عدم محاباة العلماء بعضهم لبعض من أعظم مزايا هذه الأُمّة التي أعظم الله بها عليهم النعمة، حيث حفظهم عن وصمة محاباة أهل الكتابين، المؤدية إلى تحريف ما فيها، وإندارس تينك الملتين، فلم يتركوا لقائل قولاً فيه أدنى دخول إلّا بيّنوه، ولفاعل فيه تحريف، إلّا قوّموه، حتى اتضحت الآراء وانعدمت الأهواء ودامت الشريعة البيضاء على ملئ الآفاق بأضوائها وشفاء القلوب بها من أدوائها، مأمونة عن التحريف، ومصونة عن التصحيف.

شبهة حول الاجتهاد الدارج في عصرنا :

ربّما يختلج في اذهان بعض القصر من الناس عدم مشروعية الاجتهاد الدارج في أعصارنا هذه مستدلاً بأنّ الفقه في هذه الأعصار أخذ لنفسه صورة فنية، وجاء على طراز سائر العلوم العقلية الفكرية بعدما كان في أعصار المتقدمين من العلوم البسيطة المبنية على سماع الأحكام من النبي والأئمّة وبثّها بين الناس من دون أن يجتهد الراوي في تشخيص حكم الله ويرجّح دليلاً على الآخر، أو يقيده أو يخصّص واحداً بالآخر، إلى غير ذلك من الأُصول الدارجة في زماننا.

الجواب عن الشبهة :

إنّ ذلك أشبه شيء بالشبهة ويمكن الجواب عنه بوجهين :

الأوّل: أنّ الاجتهاد بالمعنى الوسيع وأعمال النظر في الروايات، والتدقيق في دلالتها، وترجيح بعضها على بعض، كان موجوداً في أعصارهم، دارجاً بين أصحابهم فإنّ الاجتهاد وإن توسع نطاقه في أعصارنا وبلغ مبلغاًعظيماً، إلّا أنّ أصل الاجتهاد بالمعنى الجامع بين عامة مراتبه كان دارجاً في تلك الأعصار وأنّ الأئمّة أرجعوا شيعتهم إلى فقهاء أعصارهم، وكانت سيرة الناس الرجوع إليهم من دون تزلزل وتردد، أمّا ما يدل

---

(1) ابانة المختار، مخطوط نحتفظ بنسخة منه.

على وجود الاجتهاد بهذا المعنى في أعصارهم فعدة روايات هي :

1. ما رواه ابن ادريس في « مستطرقات السرائر » نقلاً عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّما علينا أن نلقي إليكم الأُصول وعليكم أن تفرّعوا [1].

2. ما روى عن كتاب أحمد بن محمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام : « قال علينا القاء الأُصول وعليكم التفريع » [2] فإنّ التفريع الذي هو استخراج الفروع عن الأُصول الكلية الملقاة، وتطبيقها على مواردها وصغرياتها، إنّما هو شأن المجتهد وما هو إلّا الاجتهاد، نعم التفريع والاجتهاد يتفاوت صعوبة كما يتفاوت نطاقه حسب مرور الزمان، فإذا قال عليه السلام : لا تنقض اليقين بالشك، أو روي عن النبي صلى الله عليه وآله : لا ضرر ولا ضرار، كان على المخاطبين وعلى علماء الأعصار المستقبلة استفراغ الوسع في تشخيص صغرياتها وما يصلح أن يكون مصداقاً له أو لا يصلح، فهذا هو ما نسميه الاجتهاد.

3. ما رواه الصدوق في معاني الأخبار عن داود بن فرقد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا إنّ الحكمة لتصرف على وجوه ولو شاء انسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب [3].

فإنّ عرفان معاني الكلام ليس إلّا تشخيص ما هو الأظهر بين المحتملات، بالفحص عن القرائن الحافّة بالكلام وبعرض أخبارهم على الكتاب والسنّة إلى غير ذلك ممّا يتضح به المراد، ويتعيّن ما هو المفاد، وليس هذا إلّا الاجتهاد.

4. ما رواه الصدوق في عيونه بإسناده عن الرضا عليه السلام قال: من رد متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال: إنّ في أخبارنا محكماً كمحكم القرآن ومتشابهاً كمتشابه القرآن فردّوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا [4] فإنّ رد المتشابه إلى محكمه يجعل أحدهما قرينة على الآخر، لا يتحقق

(1 و 2) وسائل الشيعة ج 18: ص 41 ـ 42، كتاب القضاء الباب 6 من أبواب صفات القاضي، الحديث 51 و 52.

(3 و 4) الوسائل: ج 18 كتاب القضاء الباب التاسع من أبواب صفات القاضي الحديث 27 و 22.

بدون الاجتهاد.

5. الروايات الواردة في تعليم أصحابهم كيفية استفادة الأحكام والفروع عن الذكر الحكيم، مثل قول الإمام الباقر عليه السلام بعد ما سأله زرارة بقوله: إلّا تخبرني من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين ؟ فضحك وقال: يا زرارة قاله رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل به الكتاب عن الله عزّ وجلّ قال: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثم قال: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنّه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما ثم فسّر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فضيّعوه [1].

6. ما في رواية عبد الأعلى مولى آل سام بعد ما سأل الإمام عن حكم المسح على المرارة. قال: هذا واشباهه يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج ـــ 78) امسح على المرارة، فقد أوضح على السائل كيفية الاستنباط، ورد الفروع على أُصولها [2] ونظير ما تقدم بل أقوى منه ما في مرسلة [3] يونس الطويلة الواردة في أحكام الحائض والمستحاضة، فإنّ فيها موارد ترشدنا إلى طريق الاجتهاد إلى غير ذلك من الروايات المرشدة إلى دلالة الكتاب وكيفية الاستدلال، وهي منبثّة في طيات أبواب الفقه فراجع :

7. قول الباقر عليه السلام لزرارة ومحمد بن مسلم حيث سألا أبا جعفر الباقر عليه السلام وقالا له: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي ؟ فقال: إنّ الله عزّ

---

(1) الوسائل: ج 1 أبواب الوضوء الباب 23 الحديث 1.

(2) الوسائل: ج 1 أبواب الوضوء الباب 39 الحديث 5.

(3) وسائل الشيعة: ج 2 أبواب الحائض الباب 3 الحديث 4.

وجلّ يقول: ﴿ وَإِذَا ضَـرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُـرُوا مِنَ الصَّـلاةِ ﴾ (النساء ـ 101).

فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر، قالا قلنا: إنّما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ ولم يقل: « افعلوا » فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضـر ؟ فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البقرة ـ 158).

ألاّ ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصـنعه نبيه وكذلك التقصير شيء صنعه النبي وذكره الله في كتابه [1].

8. مقبولة عمر بن حنظلة ورواه المشـايخ العظام في جوامعهم وتلقاها الأصـحاب بالقبول، بل عليها المدار في كتاب القضـاء وهي تصـرح بوجود الاجتهاد بالمعنى الدارج في زماننا في عصـر الصادق عليه السلام ودونك متنها: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضـاة، أيحل ذلك ؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنّما تحاكم إلى الطاغوت وما يحكم له فإنّما يأخذه سـحتاً وإن كان حقّه ثابتاً لأنّه أخذ بحكم الطاغوت ـ إلى أن قال: ـ قلت: كيف يصنعان ؟ قال: ينظران إلى من كان منكم ممّن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإنّي جعلته عليكم حاكماً ومن ردّه فإنّما بحكم الله اسـتخف، وعلينا قد رد والراد علينا كالراد على الله وهو على حد الشـرك بالله، قلت: فإن كان كل واحد اختار رجلاً من أصـحابنا فرضـيا أن يكونا الناظرين في حقهما فاختلفا فيما حكما وكلاهما اختلفا في حديثكم ؟ قال: الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر.

قال: قلت: فإنّهما عدلان مرضيان عند أصحابنا لا يفضل واحد منهما على صاحبه ؟ قال: فقال: ينظر إلى ما كان من روايتهما عنّا في ذلك الذي حكما به، المجمع

---

(1) الوسائل: ج 5: ص 538، الباب 22 من أبواب صلاة المسافر، الحديث2.

عليه عند أصحابك فيؤخذ به من حكمنا ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه، إلى آخر ما أفاده وفيه إرشاد إلى كيفية استنباط الحكم عن الكتاب والسنّة، وعلاج الخبرين المتعارضين بعرضهما عليهما [1].

9. روى العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ذكر أنّ ابن أبي ليلى وابن شبرمة دخلا المسجد الحرام فأتيا محمد بن علي عليه السلام فقال لهما: بما تقضيان ؟ فقالا: بكتاب الله والسنّة، قال: فما لم تجداه في الكتاب والسنّة؟ قالا: نجتهد رأينا، قال عليه السلام: رأيكما أنتما ؟ فما تقولان في امرأة وجاريتها كانتا ترضعان صبيين في بيت وسقط عليهما فماتتا وسلم الصبيان ؟ قالا: القافة، قال: القافة يتجهم منه لهما، قالا: فاخبرنا ؟ قال: لا !!

قال ابن داود: مولى له جعلت فداك بلغني أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام قال: ما من قوم فوّضوا أمرهم إلى الله وألقوا سهامهم إلّا خرج السهم الأصوب فسكت [2].

10. روى الصيقل عن أبي عبد الله عليه السلام قلت: رجل طلّق امرأته طلاقاً لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فتزوّجها رجل متعة أتحل للأوّل ؟ قال عليه السلام: لا، لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا ... ﴾ (البقرة ـــ 230) والمتعة ليس فيها طلاق [3].

11. روى الحسن بن الجهم قال: قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: يا أبا محمد ما تقول في رجل يتزوّج نصرانية على مسلمة ؟ قلت: جعلت فداك، وما قولي بين يديك ؟ قال: لتقولنّ فإنّ ذلك تعلم به قولي، قلت: لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: ولِمَ ؟ قلت: لقول الله: ﴿ وَلا تَنكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ (البقرة ـ 221) قال: فما تقول هذه الآية :

---

(1) الوسائل كتاب القضاء ج 18 الباب التاسع من أبواب صفات القاضي الحديث 1.

(2) التهذيب: ج 9 باب ميراث الغرقى والمهدوم عليهم ص 359.

(3) الوافي: ج 3 أبواب النكاح باب تحليل المطلّقة لزوجها ص 47.

﴿ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ؟ (المائدة ـــ 5) قلت فقوله: ﴿ وَلا تَنكِحُوا المُشْرِكَاتِ ﴾ نسخت هذه الآية فتبسّم عليه السلام ثم سكت [1].

12. بل يظهر من كثير من الروايات وجود الاجتهاد بين أصحاب الأئمّة ونورد من تلكم الروايات حديثاً واحداً.

روى حسن بن محمد بن سماعة قال: سمعت جعفر بن سماعة وسئل عن امرأة طلقت على غير السنّة: ألي أن أتزوّجها ؟ فقال: نعم، فقلت: أليس تعلم أنّ علي بن أبي حمزة، روى: « إيّاكم والمطلّقات ثلاثاً على غير السنّة فإنّهنّ ذوات الأزواج » ؟ فقال: يا بني رواية علي بن أبي حمزة أوسع على الناس، قلت: وأي شيء روى علي بن أبي حمزة ؟ قال: روى عن أبي الحسن أنّه قال: الزموهم من ذلك ما ألزموا به أنفسهم، وتزوّجوهنّ فأنّه لا بأس بذلك [2].

فقد اجتهد جعفر بن سماعة حيث قدم الخبر الثاني على الأوّل باحدى ملاكات التقديم.

وقد ألّف في هذا المضمار العلّامة الحجة السيد عبد الرسول الشيرازي رسالة ممتعة وطبع قسم منها في بعض المجلاّت نسأل الله أن يوفّقه لنشر الجميع.

الخامس: حقوق الحاكم الإسلامي :

من الأسباب الباعثة على بقاء الدين وكونه ذا مادة حيوية صالحة لحل المشاكل والمعضلات الطارئة، كون الحاكم الإسلامي بعد النبي ممثلاً لقيادته الحكيمة في أُمور الدين والدنيا، التي من شأنها أن توجّه المجتمع البشري إلى أرقى المستويات الحضارية الصحيحة، فقد منح مثل هذا الحاكم بنص الشريعة الإسلامية كافة الصلاحيات

---

(1) الوافي: ج 3 ص 26 باب نكاح الذمية المشركة.

(2) الوافي: ج 2 كتاب الطلاق ص 161 باب أنّ المخالف يقع طلاقه.

المؤدية إلى حق التصرف المطلق في كل ما يراه ذا مصلحة للأُمّة، لأنّه يتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والإمام من النفوذ المطلق، إلّا ما يعد من خصائصهما.

وإلى ذلك يشير شيخ الأُمّة الميرزا النائيني في أثره الخالد « تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة » ويقول: « فوّض إلى الحاكم الإسلامي وضع ما يراه لازماً من المقررات لمصلحة الجماعة وسد احتياجاتها، في اطار القوانين الإسلامية » [1].

مثلاً إذا رأى الحاكم، أنّ المصلحة تقتضي فتح طريق أو شارع، فقد فوض إليه ذلك الأمر، فله أن يقرر وينفذ ما يحقق هذه الغاية، في ضوء العدل والانصاف كاجبار أصحاب الأراضي التي يمر بها الطريق على بيع أراضيهم ووضع ضريبة على صنف خاص من الشعب، أو كلّه لتأمين هذه الغاية.

وله أن يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير، متوخياً في ذلك سلامة النفوس وسهولة الذهاب والاياب، كل ذلك في إطار القوانين العامة الإسلامية.

وهذه الحقوق كانت ثابتة في الدرجة الأُولى، للنبي الأعظم، لقوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب ــ 6) وبعده لخلفائه المعصومين، أئمّة الدين، وفوضت من بعدهم، إلى علماء الأُمّة وفقهائهم الذين أُلقيت على كواهلهم أُمور تدبير حياة الأُمّة، وصيانة الشريعة، بالأدلّة القطعية المقررة في محلها.

إنّ الحاكم الإسلامي إذا نجح في تأسيس حكومة إسلامية في قطر من أقطار الإسلام أو في مناطقه كلّها وتوفرت فيه الشرائط والصلاحيات اللازمة وأخص بالذكر العلم الوسيع والعدل، يجب على المسلمين اطاعته، وله من الحقوق والمناصب والولاية، ما للنبي الأكرم من اعداد القوات العسكرية ودعمها بالتجنيد وتعيين الولاة وأخذ

---

(1) تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة: ص 97 ولا ينافي ما ذكره شيخ الأُمّة المحقق النائيني مع ما حققناه في الجزء الأول من كون التقنين والتشريع مختصاً بالله سبحانه، فإنّ ما يضعه الحاكم الإسلامي، أو مجلس الشورى إنّما هو من قبيل التخطيط، وتطبيق الكليات على مواردها لا من قبيل التشريع والتأسيس.

الضرائب وصرفها في محالها إلى غير ذلك ...

وليس معنى ذلك أنّ الفقهاء والحكّام الإسلاميين مثل النبي والأئمّة في جميع الشؤون والمقامات حتى في الفضائل النفسانية والدرجات المعنوية فإنّ ذلك رأي تافه لا يركن إليه، إذ إنّ البحث إنّما هو في الوظائف المخوّلة إلى الحاكم الإسلامي والموضوعة على عاتقه لا في المقامات المعنوية والفضائل النفسانية، فإنّهم صلوات الله عليهم في هذا المضمار في درجة لا يدرك شأوهم ولا يشق لهم غبار حسب روائع نصوصهم وكلماتهم.

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائر المحكومين بل هي من وجهة النظر الإسلامية مسؤولية اجتماعية كبرى أمام الله سبحانه أوّلاً، وأمام المسلمين ثانياً، والجهة الجامعة ما بين الحاكم والإمام في إدارة دفة الحكم وسياسة العباد ليس لها أي ارتباط بالمثل الخلقية والصفات النفسانية [1].

وهذه الوجوه التي مرت عليك بالاجمال أوجبت خلود الشريعة، وبقاءها وصلاحها لإدارة المجتمع في الأعصار كلّها، مع اختلافها في الحضارة والتقدم.

الأمر الثاني مرونة أحكامه :

من الأسباب الدافعة إلى صلوح الإسلام للبقاء والخلود، مرونة أحكامه التي تمكّنه من أن يماشي جميع الأزمنة والحضارات، وقد تمثّلت هذه المرونة بأُمور :

1. الإسلام دين جامع والأُمّة الإسلامية أُمة وسط :

إنّ من الأسباب التي أوجبت خلود الدين الإسلامي، وأعطته الصلاحية للبقاء مع اختلاف الظروف وتعاقب الأجيال، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة إلى المادة والدعوة

---

(1) ولاية الفقيه للأُستاذ الأكبر الإمام الخميني ـ قدّس الله سرّه ـ ص 63 ـ 66 وقد أشبعنا الكلام حول حقوق الحاكم الإسلامي في الجزء السابق فلاحظ.

إلى الروح، ديناً وسطاً بين الماديّة البحتة والروحية المحضة، فقد آلف بتعاليمه القيمة بينهما، موالفة تفي بحق كل منهما، بحيث يتيح للانسان أن يأخذ قسطه من كل منهما بقدر ما تقتضيه المصلحة.

وذلك أنّ المسيحية غالت في التوجه إلى الناحية الروحية، حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت إلى الرهبانية والتعزّب وترك ملاذ الحياة والانعزال عن المجتمع، والعيش في الأديرة وقلل الجبال، وتحمل الظلم والرفق مع المعتدين، كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كل قيمة روحية، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الأسنى، ودعت إلى القومية الغاشمة والطائفية الممقوتة.

وهذه المبادئ سواء أصحت عن الكليم والمسيح عليهما السلام أم لم تصح (ولن تصح إلّا أن يكون لاصلاح انغمار الشعب الاسرائيلي في ملاذ الحياة يوم ذاك وانجائهم عن التوغل في الماديات وسحبهم إلى المعنويات بشدة وعنف) وإن شئت قلت: « كانت تعاليمه اصلاحاً مؤقتاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم والغلو يقاوم موقتاً بضده » [1]. لا تتماشى مع الحضارات الانسانية التقدمية ولا تسعدها في معترك الحياة، ولا تتلائم مع حكم العقل ولا الفطرة السليمة.

لكن الإسلام جاء لينظر إلى واقع الانسان، بما هو كائن، لا غنى له عن المادة، ولا عن الحياة الروحية، فأولاهما عنايته، فدعا إلى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يؤثر معه على الحياة الروحية، كما دعا إلى الحياة الروحية بشكل لا يصادم فطرته وطبيعته.

وحصيلة البحث: أنّه لم يعطل الفطرة في تشريعه وتقنينه، بل جعلها مقياساً لحكمه بالوجوب والتحريم، فإذا كان الحكم مطابقاً لطبع من شرعت له الأحكام حافظاً لكيانه، لا يتعارض مع ما يحتاج إليه جسمه وروحه، كان ماضياً ونافذاً حسب بقاء الفطرة ودوامها.

---

(1) الوحي المحمدي: ص 153.

وأمّا تفصيل الآيات التي تمثل رأي الإسلام في الدعوة إلى الدين والدنيا، إلى الروح والجسم، إلى المادة والمعنى، فليرجع فيه إلى الكتب المعدة لبيان ذلك.

ونختم البحث بكلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرم فيها معاشه، وساعة يخلي بينه وبين نفسه ولذاتها [1].

فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، بحيث جعل الجميع في مستوى واحد، فندب إلى عبادة الله، كما ندب إلى طلب المعاش، وتوخي اللذة بحكم واحد بلا مفاضلة.

فلو كان أداء الصلاة والصوم والقيام بالحج وظيفة دينية، فشق الطريق لطلب الرزق والمعاش، والقيام بالنزهة بين الرياض أو سباحة في البحر والعمل الرياضي البدني، وظيفة دينية للمؤمن، كما نص الإمام عليه السلام .

وهذا من الأسس التي تنسجم مع الإسلام وتحول بينه وبين التصادم مع الحضارات المتواصلة، إلى عصرنا هذا، فإذا كان المنهج، منهجاً متوسّطاً بين المادية والروحية، مطابقاً لفطرة الانسان انقادت له مقاليد الحضارات الانسانية الصاعدة وارتفع التصادم.

2. النظر إلى المعاني، لا المظاهر :

إنّ الإسلام ينظر إلى المعاني والحقائق، لا المظاهر والقشور، ولذلك لا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة، له من القداسة ما يمنع تغييره، ويوجب حفظه إلى الأبد بشكله الخاص، ولأجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه مع التقدم العلمي الهائل في مظاهره، وأشكاله الخارجية.

توضيحه: أنّه لا شك أنّه كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله هندسة خاصة للمساكن

---

(1) نهج البلاغة باب الحكم، رقم 390.

والبيوت، وشـكل خاص في المأكل والملبس، ونمط خاص لبث العلم والتربية ... غير أنّ الذي كان يهم الإسلام ـ في جميع الأزمنة ـ لم يكن تخطيط الحياة البشرية على تلك الأشكال والأنماط بل كان الحقيقة والجوهر من كل ذلك، فإنّ الذي يبتغيه الدين الإسـلامي هو وجود المسـكن وتوفر الملبس وإشاعة العلم والتربية، وكون الغذاء حلالاً طيباً طاهراً.

وأمّا الكيفية والشكل والصورة فلا يهم الدين ولا يحدد شيئاً في مجاله، فليكن البيت بأيّة هندسة كانت، ولتصـــنع الملابس بأي شـــكل كان، وليطبخ الناس طعامهم على النحو الذي يريدون، وليشاع العلم بأيّة وسيلة كانت فليس كل ذلك مهماً ومطروحاً للدين.

وهذا هو سـر خاتمية الدين الإسـلامي وهذا هو سـر خلوده، وتمشّـيه مع تطور الحياة، وتقدم الحضارات.

والذي يوقفك على ذلك أنّ بيع الدم وشراءه كان من المعاملات المحرّمة ومصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ (البقرة ـ 188).

وذلك لعدم وجود منفعة محلّلة للدم ولذلك قال الشـيخ الأعظم الأنصـاري في مكاسـبه (ص 41) :

« تحرم المعاوضـة على الدم بلا خلاف » بل عن النهاية وشـرح القواعد لفخر الدين والتنقيح: « الاجماع عليه، وتدل عليه الأخبار ».

بيد أنّ تقدم العلوم والحضـــارة أوجد للدم منفعة محلّلة كبيرة، فعليها تقوم « العملية الجراحية » ومداواة الجرحى عن طريق الحقن الدموية.

ولهذا عادت المعاملة بالدم ــ في هذا العصر ــ معاملة صحيحة، لا بأس بصحّتها وجوازها ... وليس هذا من قبيل منسوخية الحكم بل لتبدّل الحكم بتبدّل موضوعه كتبدل الخمر إلى الخل.

وقس على ذلك سائر الأمور فللإسلام خاصية الاهتمام باللب والجوهر في عامة المجالات وهذا أحد العناصر التي تجعله يساير عامة الحضارات الإنسانية إلى قيام يوم الدين.

3. الأحكام التي لها دور التحديد :

من الأسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وانطباقه على جميع الحضارات الانسانية تشريعه للقوانين الخاصة التي لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامة تشريعاته وقد اصطلح عليها الفقهاء، بالأدلّة الحاكمة، لأجل حكومتها وتقدمها على كلّ حكم ثبت لموضـــوع بما هو هو. فهذه القوانين الحاكمة، تعطي لهذا الدين مرونة يماشي بها كل حضارة انسانية، مثلاً: قوله سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج ـــ 78) حاكم على كل تشريع استلزم العمل به حرجاً، لا يتحمل عادة، للمكلف، فهو مرفوع، في الظروف الحرجية، ومثلاً قوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » فكل حكم استتبع العمل به ضرراً شديداً، فهو مرفوع في تلك الشرائط، وقس عليهما غيرهما من القوانين الحاكمة.

نعم تشـخيص الحاكم عن المحكوم، وما يرجع إلى العمل بالحاكم من الشـرائط، يحتاج إلى الدقة والامعان والتفقّه والاجتهاد، ومن رأينا أنّ الموضـــوع يحتاج إلى التبســـط أكثر من هذا، فالى مجال آخر أيها القارئ الكريم.

خاتمة المطاف :

إنّ بعض الكتّاب من الجدد طرح ســـؤالاً في المقام وجاء بجواب مبهم أوجد قلقاً واســـتياء في الأوساط العلمية ونحن ننقله بتعريب منّا :

السؤال: إنّكم تذهبون إلى ضرورة التكامل حتى في وجود الشخص النبي وأثبتم أنّ كل موجود يحتاج إلى السير التكاملي، إذن لماذا كان النبي محمد يقول: أنا خاتم

النبيين ؟

الجواب: لقد أجاب على قسم من هذا الفيلسوف الإسلامي الكبير « محمد اقبال » وأضيف أنا الجواب على بقيته، وهو ما أذهب إليه وأنا مسـؤول عنه، فأقول: عندما يقول النبي: « أنا خاتم الأنبياء » لا يريد أن يقول: « إنّ التشـريعات التي أتيت بها تكفي البشـرية إلى الأبد » بل الخاتمية تريد أن تقول: كان الانسـان يحتاج حتى الآن ـــ لاسـتمرار حياته إلى الهداية بما وراء ما يستمده من عقله وما توحيه تربيته البشرية، والآن في هذا العصر (القرن السابع الميلادي) وبعد أن أوجدت المدنية اليونانية وحضـارة روما والتمدّن الإسـلامي، وبعد أن أُنزل القرآن والإنجيل والتوراة، بلغت التربية المذهبية إلى الحد الذي كان لابد منه. وبعد هذا العصر ـــ وعلى ضوء هذا القسم من التربية ـ بإمكان الانسان أن يحيى ويتكامل من دون حاجة إلى وحي ونبوّة جديدة وعلى هذا ختمت النبوّة فشقّوا الطريق بأنفسكم.

ولم يظهر لنا ماذا قصد من هذا الجواب وإليك بعض احتمالاته :

1. أن يقصـد من قوله: « لا يريد أن يقول انّ التشـريعات التي أتيت بها تكفي البشـرية إلى الأبد » ما أوضـحناه عند البحث عن السـؤال الخامس، من أنّه يجب على علماء الأُمّة وفقهائهم عندما يحدث شـيء من المشـكلات والأزمات في جميع مجالات الحياة من الحوادث التي لم تكن معهودة في عصر صاحب الرسالة، استفراغ الوسع في استنباط أحكامها على ضوء الكتاب والسنّة واطار سائر المصادر الشرعية، فلو أراد هذا فهو حق لا إشكال فيه غير أنّ تلك النظرية لا تختص به ولا بالفيلسوف الإسلامي « محمد اقبال » حتى يكون هو المسؤول فيما ذهب إليه واختار، بل كل مسـلم يؤمن بأنّ الإسـلام شـريعة الله الخالدة الدائمة الكاملة الوافية بحل جميع أُمور الحياة ومشاكلها من أُصولها إلى فروعها.

2. أن يكون المقصود منه الاعلام بختم النبوّة والرسالة دون ختم التشريع فهو مفتوح لم يوصد بعد، فعلى الأُمّة أن تشرّع من القوانين حسب ما تحتاج إليه عبر الزمان.

غير أنّ تلك فكرة عليها مسحة مسيحية محجوجة بما دلّت الضرورة والأدلّة على أنّ التشريع من حقوق الله سبحانه على عباده لم يفوّضه لأحد من أفراد الأُمّة.

3. أن يكون المقصود أنّ هنا أحكاماً ثابتة ومقررات متغيّرة، حسب مقتضيات الزمان ومصالح الوقت، فلو أراد ذلك فقد أوضحنا حاله عند البحث عن السؤال الرابع فلاحظ.

* * *

هذه هي الخاتمية، ودلائلها المشرقة، وشبهاتها الضئيلة، وأسئلتها الهامة، وأجوبتها الرصينة عرضناها للبحث والتنقيب، ولم يكن رائدنا إلّا تبنّي الحقيقة وكشف الغطاء عن وجهها، متحررين من كل رأي سابق لا دليل عليه.

الفصل الخامس

النبي الأُمّي

في الذكر الحكيم

لم يختلف اثنان من الأُمّة الإسلامية في أنّ النبي ﷺ كان أُمّياً لا يحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته لمصلحة صرّح الله بها في الكتاب العزيز وسوف يوافيك بيانها. وصحائف حياته البيضاء أوضح دليل على ذلك، وقد أجمع أهل السير والتاريخ على أنّه ﷺ لم يدخل مدرسة ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلّم الكتابة، بل هو منذ نعومة أظفاره، يوم كان في أحضان جده وعمّه إلى أن بلغ الأربعين، لم يحم حول هذه الأُمور وقد تواترت على ذلك كلمات العلماء الأبرار والفطاحل من أئمّة الإسلام، وقد اقتفوا في ذلك أثر كتاب الله العزيز ودونك نصوصه من مواضع مختلفة.

النص الأوّل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ـ 48) سبحان الله ما أصرح كلامه وأوضح دلالته.

هل تجد من نفسك ريباً في أنّه بصدد نفي تلاوة أي كتاب عن نبيّه الأكرم قبل نزول الوحي عليه، وكتابة أي صحيفة عنه، أوليس من القواعد الدارجة بين أئمّة الأدب، أنّ النكرة في سياق النفي تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها وتعطي شمول السلب كقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ (الحج ـ 18) وقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ فأدخل النفي على النكرة وجعلها في سياقه، فإذن المراد من التلاوة المنفية تلاوة مطلق الكتاب كما أنّ المراد من الخط المنفى عنه تسطير أي كتاب وترسيم أي صحيفة تقع في ذهن السامع، فالضمير المتصل بالفعل (لاتخطه) عائد إلى (كتاب) وكأنّه جل شأنه قال وما كنت تخط كتاباً. وقد وافاك أنّ مثل هذا الكلام لوقوع النكرة في سياق النفي يفيد عموم النفي فالله سبحانه نفى عن نبيه، مطلق التلاوة والكتابة قبل بعثته.

ثمّ إنّه عزّ اسمه، علّل سلب هذا الأمر عن نبيّه بمصلحة أولى وألزم، وهي نفي ريب المبطلين وشك المشككين، إذ لو كان الرسول ﷺ في برهة من عمره تالياً للكتب، وممارساً للصحف، لساغ للبسطاء من أُمّته والمعاندين منهم أن يرتابوا في رسالته وقرآنه، ويلوكوا في أشداقهم بأنّ ما جاء به من الصحف والزبر والسور والآيات، إنّما تلقّاها من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها في قوالب فصيحة، تهتز منها النفوس وترتاح إليها القلوب، فليست لما يدّعيه من نزول الوحي على قلبه، مسحة حق أو لمسة صدق.

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان: 4 ـــ 5) فالله سبحانه لقلع جذور الشك عن قلوب السذج من الأُمّة، والمبطلين منهم، صرفه عن تعلّم الكتابة حتى يصبح لنبيّه أن يتلو على رؤوس الاشهاد قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس ـ 16).

يعني يا معشـر العرب: أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتي فإنّي تربيّت بين ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الأربعين، فهل رأيتموني أتلو كتاباً أو اخط صـحيفة، فكيف ترمونني بالافك الشـائن: بأنّه أساطير الأوّلين اكتتبتها، ثم افتريتها على الله، وأعانني على ذلك قوم آخرون.

فلو لم يكن النبي أُمّياً لا يحسـن القراءة والكتابة بل كان قارئاً وكاتباً وممارسـاً لهما على رؤوس الأشـهاد، لما أمكن له أن يتحدى الأُمّة العربية وفي مقدمتهم صـناديد قريش بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان ـــ 6). فلأجل تحقيق هذه المصلحة المهمة، نشأ النبي في أحضان قومه وشب وترعرع إلى أن ناهز الأربعين وهو أُمّي لا يحسـن القراءة والكتابة، ولو كان وقتئذ قارئاً وكاتباً وهم أُمّيون لراجت شـبهتهم في أنّ ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس وأثر نظر في الكتب.

وجاء المفسّرون في المقام بكلمات درية وجمل موضحة للمراد فقال أمين الإسلام في تفسير الآية: « اللام » في قوله: ﴿ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ للقسم وفي الكلام حذف، تقديره: ولو خططته بيمينك أو تلوت قبله كتاباً إذاً والله لارتابوا، والمعنى لو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى إيجاد الشـك في أمرك والقاء الريبة لضـعفة الناس في نبوّتك ولقالوا: إنّما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الأوّلين فلما سـاويتهم في المولد والمنشـأ ثمّ أتيت بما عجزوا عنه وجب أن يعلموا أنّه من عند الله تعالى وليس من عندك، إذ لم تجر العادة أن ينشأ الانسان بين قوم يشاهدون أحواله من صـغره إلى كبره، ويرونه في سـفره وحضـره، لا يتعلّم شـيئاً من غيره، ثم يأتي من عنده بشيء يعجز الكل عنه وعن بعضه ويقرأ عليهم أقاصيص الأوّلين [1].

* * *

---

(1) مجمع البيان: ج 4 ص 287.

نظريات شاذة للدكتور الهندي

ثمّ إنّ للدكتور عبد اللطيف الهندي المعاصر ـ في مقال خاص له حول أُمّية النبي الأعظم ـ رأياً شـــاذاً وقد ألقى مقاله هذا باللغة الانكيلزية في المؤتمر الإســـلامي المنعقد في حيدر آباد عام (1964) فخرق الاجماع المسلّم بين طوائف المسلمين على أنّه ﷺ كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب، وخالف الرأي العام وقال إنّه ﷺ لم يكن أُمّياً لا يحســـن القراءة والكتابة بل كان يقرأ ويكتب في حداثة سـنّه إلى أُخريات أيّامه [1] ولما رأى أنّ تلك النظرية تخالف النص الصـريح في القرآن الكريم جاء يتأوّل ظاهر الآية تأويلاً بارداً وقال ما هذا حاصله :

المراد من الكتاب في قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ إنّما هو الكتب السماوية نظائر التوراة والانجيل النازلة بغير اللغة العربية فلم يكن النبي عارفاً بتلكم اللغات ولا قادراً على تلاوتها وهو غير القول بأنّه ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً حتى باللغة العربية التي هي لســـان قومه وبيته.

ولا أدري ماذا حمل الكاتب على هذا التأويل إذ لو كان المراد نفي معرفته بهذه الكتب المعينة، لما صـح له أن يقول: ﴿ مِن كِتَابٍ ﴾ بل كان عليه أن يقول: ما كنت تتلو من قبله الكتاب أو الكتب مشـــيراً باللام إلى الكتاب أو الكتب المعهودة وقد أتى باللام فيما قصـــد نفي العرفان بالكتب الســـماوية عنه فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ـ 52).

وقال عزّ شـــأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ (العنكبوت ـ 47).

---

(1) وقد تأثر في نظره عن رجال الكنيسة والتبشير، قال الحداد في كتابه ـ القرآن والكتاب ـ ص 410 محمد لم يكن أُمّياً بل تاجراً دولياً ومثقفاً ومطّلعاً وبحاثة دينياً ...

ترى أنّه سبحانه عندما رام أن يشير إلى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام إشارة إلى معهوديتها.

أضف إليه أنّ الهدف الأسمى للآية من نفي التلاوة والكتابة عنه ﷺ هو قلع جذور الريب والشك من قلوب المبطلين، ولا يتحصل ذلك إلّا بكونه أُمّياً غير قارئ ولاكاتب قط، ولا يحسن القراءة والكتابة أصلاً. ولو صح ما يرتئيه الدكتور لما نهضت الآية إلى رفع آثار الشك وغبار الريب بل كان باب اكتساب الشك في أمره ﷺ وإلقاء الريب في قلوب ضعفاء الناس بنبوّته مفتوحاً بمصراعيه. إذ كان للجاحد المبطل أن يقول انّه ﷺ بمزاولته صحف والكتب العربية، وقف على أحوال الماضين وأقاصيص الأوّلين، فأودع نتائج أفكاره وما استحصل عليه منها بعد سبره لغورها، في هذه الصحائف وفي ضمنها من هذه السور والآيات التي افتراها على الله، وقد رماه بهذه الفرية الشائنة رؤوس الكفر والعناد فيما حكاه عزّ وجلّ: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان . 5).

وفي نفس الآية دليل بارز على أنّ الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه ﷺ حيث عطف على الجملة الأولى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ قوله: ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾.

بيانه: لو كان المراد من الآية سلب القدرة عن النبي ﷺ في خصوص ما يتعلّق بتلاوة الكتب الدينية النازلة باللغة العبرانية أو غيرها من اللغات غير الدارجة في الجزيرة العربية، لكان له تعالى أن يقتصر عل الجملة الأُولى، ولا يردفها بقوله: ﴿ وَلا تَخُطُّهُ ﴾ لوضوح الملازمة بين السلبين. فإذا كان الرجل لا يقدر على قراءة كتاب أُلّف بلغة خاصة، فهو لا يقدر على خطها وترسيمها بتاتاً، فعلى ذلك لماذا جيئ بالمعطوف مع امكان الاستغناء عنه بما تقدم عليها.

ولكن لو كان الغرض هو التنبيه على أُمّية النبي بأوضح العبارات، والاجهار بها بأصح الأساليب، وأنّه ﷺ قبل بعثته لم يكن قارئاً ولا كاتباً بتاتاً، بل كان بعيد عن ذلك

كل البعد، لصح عطفها على ما تقدم عليها، لأنّ العرف إذا حاول توصيف الرجل بالأُمّية يقول في حقه: إنّه لا يعرف القراءة والكتابة، أو أنّه ليست بينه وبين التلاوة والكتابة أية صلة، ولا يقتصر على نفي الأُولى بل يردفها بنفي الأُخرى أيضاً، توضيحاً للمراد. والله سبحانه لمّا أراد التركيز على أُمّية النبي وأنّه طيلة عمره كان بعيداً عن مجالات العلم والدراسة، أتى بما هو الدارج في لسان العرب، إذا أرادوا توصيف الشخص بالأُمّية.

والشاهد على ما ذكرنا: أنّك لو ألقيت هذه الآية على أي عربي عريق في لغته ولسانه، يقضي بأنّ المقصد الأسنى منها نفي معرفته ﷺ بالتلاوة والكتابة على الاطلاق. نعم الآية خاصة بما قبل البعثة، لا تعم ما بعدها ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الأبحاث الآتية فانتظر.

وربما يقال [1]: إنّ الآية تنفي مطلق التلاوة والكتابة ولكنّه لا يدل على نفي احسانهما عنه: قلت: سيوافيك جوابه عند البحث عن وضع النبي ﷺ بعد البعثة.

النص الثاني من القرآن على كونه أُمّياً :

يدل على ذلك قوله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾.

﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: 157 . 158).

قد وصف سبحانه نبيّه في هذه الآية بخصال عشر وهي: أنّه رسول، نبي، أُمّي ،

---

(1) نقله الشيخ الطوسي في تبيانه راجع ج 8 ص 216 ط بيروت.

مكتوب اسمه في التوراة والانجيل، ومنعوت فيهما بأنّه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يحل لهم الطيبات، يحرّم عليهم الخبائث، يضع عنهم الإصر، ويرفع عنهم الأغلال.

وهذه الصفات التي تضمّنتها الآية في حق النبي الأكرم واضحة حتى الوصف الذي هو موضوع البحث (الأُمّي) إذ الأُمّي حسب تنصيص الكتاب المبين هو من لا يقدر على القراءة ولا يحسن الكتابة كما يقول سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة ـ 78).

قوله سبحانه: ﴿ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ توضيح لقوله أُمّيون أي منهم أُمّة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه إلّا أوهاماً وظنوناً يتلوها عليهم علماؤهم، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها، ويحسب هؤلاء السذّج أنّه الكتاب المنزل إليهم من ربّهم. ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة ـ 79).

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قراءته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرّفين، ولميّزوا الصحيح من الزائف غير أنّ أُمّيتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أُمنيتهم.

قال الرازي: إنّه تعالى وصف محمداً في هذه الآية بصفات تسع [1] إلى أن قال: الصفة الثالثة كونه أُمّياً، قال الزجّاج: معنى الأُمّي الذي هو على صفة أُمّة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب [2] فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون، والنبي كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أُمّياً [3].

---

(1) لا، بل عشر، كما عرفت.

(2) إيعاز إلى ما رواه البخاري في صحيحه: ج 1 ص 327 عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا أو هكذا، مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

(3) مفاتيح الغيب: ج 4 ص 309.

وقال البيضـــاوي: الأُمّي لا يكتب ولا يقرأ، وصـــفه به تنبيهاً على أنّ كمال علمه مع حاله هذا، إحدى معجزاته [1].

هذا وقد أصفقت على ما ذكرنا من المعنى للأُمّية معاجم اللغة المؤلّفة في العصور الزاهرة بأيدي الخبراء الأساطين وفي مقدّمهم: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفّى عام 395 صاحب « مقاييس اللغة » [2] وغيرها من الكتب الممتعة ودونك كلامه :

« أُم » له أصـــل واحد يتفرع منه أربعة أبواب وهي الأصـــل، والمرجع والجماعة والدين، قال الخليل: كل شـيء تضـم إليه ما سـواه مما يليه، فإنّ العرب تسـمّي ذلك أُمّاً ومن ذلك أُم الرأس: وهو الدماغ، أُم التنائف: أشدها وأبعدها، أُم القرى: مكة وكل مدينة هي أُم ما حولها من القرى، وأُم القرآن: فاتحة الكتاب وأُم الكتاب ما في اللوح المحفوظ، وأُم الرمح: لواؤه وما لف عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها: أُم مثوى، وأُم كلبة: الحمى، وأُم النجوم: الســـماء، وأُم النجوم: المجرّه ... إلى أن عد كثيراً من هذه التراكيب فقال: الأُمّي في اللغة: المنســـوب إلى ما عليه جبلة الناس لا يكتب، فهو في أنّه لا يكتب على ما ولد عليه [3].

ومحصل كلامه أنّه ليس للأُم إلّا مادة واحدة وهي الأصل لغيرها ومنه يتفرع غيرها فأُم الانسان أُم لأنّها أصله وعرقه وهكذا ...

وهذا الزمخشري إمام اللغة والبلاغة فسر قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ ﴾ بأنّهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ج 3 ص 230 مع شرحه لاسماعيل القنوي.

(2) بلغ ابن فارس الغاية في الحذق باللغة، وكنه أسرارها وفهم أُصولها، وقد حاول في تأليف هذا المعجم أن يوحّد المعاني المتعددة المفهومة من لفظ واحد وذلك بارجاعها إلى أصل واحد تفرّعت عنه تلك المعاني في الاستعمال ـــ وقد إنفرد من بين اللغويين بهذا التأليف ولم يسبقه إلى مثله أحد، ولم يخلفه غيره.

(3) المقاييس: ج 1 ص 21 ـ 28 والكشاف ج 1 ص 224.

ويتحققوا ما فيها [1].

وقال أمين الإسلام في مجمع البيان: ذكروا للأُمّي معاني :

أوّلها: أنّه الذي لا يكتب ولا يقرأ.

ثانيها: أنّه منسوب للأُمّة والمعنى أنّه على جبلة الأُمّة قبل استفادة الكتاب.

ثالثها: أنّه منسوب إلى الأُم والمعنى أنّه على ما ولدته أُمّه قبل تعلم الكتابة.

قلت: هذه المعاني متقاربة تهدف إلى مفهوم واحد. وإنّما الاختلاف في انتسابه إلى الأُم أو الأُمّة وقد جمع ابن فارس في كلامه كلا الاحتمالين.

هذه نصوص بعض أئمّة اللغة وأساطين التفسير، إذا شئت فلاحظ كلمات الباقين منهم.

الآراء الشاذة في تفسير الأُمي :

ربّما يجد القارئ في طيات بعض التفاسير معاني أُخر للأُمّي لا تتفق مع ما أصفقت عليه أئمّة اللغة والتفسير فلا بأس بذكرها ودحضها :

1. الأُمي منسوب إلى أُم القرى وهي علم من أعلام مكة كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الشورى ـــ 7) وعلى ذلك فالمراد من الأُمي أنّه مكي.

وفيه مواقع للنظر والنقد :

أوّلاً: إنّ أُم القرى ليست من أعلام مكة ـــ وإن كان يطلق عليها ـــ غير أنّ الإطلاق لا يدل على كونه من أعلامها، بل هو موضوع على معنى كلي وهي إحدى مصاديقه ولا تنس ما ذكره ابن فارس بقوله: « كل مدينة هي أُم ما حولها من القرى » فيعلم من ذلك

---

(1) المقاييس: ج 1 ص 21 ـ 28 والكشاف: ج 1 ص 224.

أنّ أُم القرى مفهوم كلي يصـــح اطلاقه على أية بلدة تتصـــل بها قرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعمتد عليها في أُمور حياتها، ويعاضـــد ما ذكرناه (كون أُم القرى كلياً) قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ (القصص ـ 59) فالآية (بحكم رجوع الضـمير في أُمها إلى القرى) صـريحة في أنّها ليست علماً لموضـع خاص، لأنّ مشيئته تعم الأُمم في هذا الأمر (أهلاك الأُمم وإبادتهم بعد انذارهم ببعث الرسل) ولا تختص بأُمّة دون أُخرى، أو نقطة دون نقطة، وعلى هذا، فمفاد الآية أنّ الله سـبحانه يمهل أهل القرى من دون فرق بين قرية وقرية، حتى يبعث في مركزها الذي هو مركز الثقل بالنسـبة إليها، والمجتمع لأكثر الناس، وملتقى أفكارهم، رسولاً يبشرّهم وينذرهم، فإذا ضربوا عنه صفحاً وهجروا مناهجه، يبيدهم ويهلكهم بألوان العذاب وهذه مشيئة الله وعادته في الأُمم السالفة البائدة جميعاً، مكية كانت أم غيرها.

وثانياً: لو صـح كونه من أعلام مكة فالصـحيح عند النسـبة إليها هو القروي لا الأُمّي، هذا ابن مالك يقول في ألفيته :

وانســـب لصـــدر جملة وصـــدر ما	ركـــب مـــزجـــا ولـــثـــان تـــتـــمـــا
اضـــــافـــة مـــبـــدوة بابـــن وأب	أو مـــا لـــه الـــتـــعـــريـــف بالـــثـــاني وجـــب
فـيـمـا ســـــوى هـــذا انســـــبن لـــلأول	مـــالم يخـف لـــلـــبس كـعـبـد الأشـــــهـــل

قال ابن عقيل في شـرحه: إذا نسـب إلى الإسـم المركب فإن كان مركباً تركيب جملة أو تركيب مزج، حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسب فتقول في تأبّط شراً: تأبطي، وفي بعلبك: بعلي، وإن كان مركب إضـافة، فإن كان صـدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه، حذف صـدره وأُلحق عجزه ياء النســـبة، فنقول في ابن الزبير: زبيري، وفي أبي بكر: بكري، وفي غلام زيد: زيدي، وإن لم يكن كذلك ... [1].

والاقتصار على الابن والأب من باب المثال والحكم يعم الأم والابنة والأخ

---

(1) شرح ابن عقيل: ج 2، ص 391.

والأُخت، لاشتراك الجميع معهما في المناط والملاك ـــ وهو كونها مركبة تركيب اضافة وحصول الالتباس لو أُلحقت بصدرها.

وثالثاً: إنّ الله وصف نبيّه في الآية بصفات تناسب موضوع النبوّة، فلو كان الأُمّي فيها بالمعنى الذي أوضحناه، لتلاءم الكلام، وتكون تلك الصفة هادفة إلى آية نبوّته وبرهان رسالته، لأنّه مع كونه أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب، أتى بشريعة كافلة لسعادة الناس وسيادتهم وجاء بكتاب فيه هدى ونور، وتضمن من الحقائق والمعارف ما لا يقف عليه حتى الأوحدي من الناس فضلاً عمّن لم يقرأ ولم يكتب، وهذا برهان رسالته ودليل صلته بالله وكونه مبعوثاً ومؤيداً منه تعالى.

ولو كان المراد منه ما زعمه القائل من كونه مكياً وأنّه وليد ذلك البلد، لكان الاتيان به في ثنايا تلك الأوصاف والخصال اقحاماً بلا وجه واقتضاباً بلا جهة.

وإن شئت قلت: لو كان المراد من الأُمي ما ذكرناه لكان فيه إشارة إلى أنّ النبي ﷺ مع كونه باقياً على الحالة التي ولد عليها، قد أتى بكتاب عجز الناس عن تحدّيه، وكلّ البلغاء عن معارضته، وخرس الفصحاء لديه، مضافاً إلى ما فيه من المعارف الالهية والحقائق العلمية والدساتير والقوانين الاجتماعية والاقتصادية في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة، وهذا دليل على صدق دعوته، وأنّه مبعوث من عنده تعالى، وهذه النكتة تفوتنا إذا فسرناه بأنّه مكي ووليد الحرم والبلد الأمين إذ ليس في كونه مكّياً أي امتياز حتى ينوّه به.

وإلى ما ذكرنا يشير قوله عزّ وجلّ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة ـ 2).

فإنّ توصيف النبي ﷺ بأنّه منهم (أي من الأُمّيين) للاشارة إلى أنّه مع كونه أُمّياً مثلهم يعلّمهم الكتاب والحكمة، وما ذلك إلّا لكونه مؤيداً منه تعالى بروح تعاضده وموجهاً بتوجيهه لارتقاء تلكم المدارج، فالآية من قبيل اتيان الشيء ببيّنته وبرهانه.

نعم ورد في بعض المأثورات حول تفسير الأُمّي انتسابه إلى أُم القرى، وسوف نرجع إلى هذه الروايات بالإيراد والمناقشة في اسنادها ومضامينها.

الرأي الثاني :

2. ما اختاره الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقاله المومى إليه فقال: الأُمّي من لم يعرف المتون العتيقة السامية، ولم ينتحل إلى ملّة أو كتاب من الكتب السماوية والشاهد عليه أنّ الله جعل الأُمّي في الكتاب العزيز، مقابل أهل الكتاب فيستظهر منه أنّ المراد منه هي الأُمّة العربية الجاهلة بما في زبر الأوّلين من التوراة والانجيل غير منتحلة إلى دين أو ملة لا من لا يقدر على التلاوة والكتابة.

أقول: ما ذكره الدكتور زلّة وعثرة لا تستقال فإنّ اطلاق الأُمّيين على العرب المشركين ليس « بسبب جهلهم بالمتون السامية، وإن كانوا عارفين بلسان قومهم قادرين على تلاوته وكتابته » كما حسبه الدكتور، بل بسبب جهلهم بقراءة لغتهم وكتابتها لأنّ الثقافة العربية بمعنى قراءة اللغة العربية وكتابتها، كانت متدهورة في العصر الجاهلي وكانت الأُمّية هي السائدة ولا يسودهم في تلكم الظروف شيء غيرها وكانت القدرة على القراءة والكتابة محصورة في ثلّة قليلة لا يتجاوز أفرادها عدد الأصابع.

فهذا الإمام البلاذري أتى « في فتوح بلدانه » بأسماء الذين كانوا عارفين بالقراءة والكتابة في العهد الجاهلي فما تجاوزت عدتهم عن سبعة عشر رجلاً في « مكة » وعن أحد عشر نفراً في « يثرب » وقال: اجتمع ثلاثة نفر من طي ، « بقة » وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار ثمّ تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي، ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلم « بشر » الخط العربي من أهل الحيرة ثمّ أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أُمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد

مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلّمهما الهجاء، ثمّ أراهما الخط فكتبا، ثمّ إنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخط منهم وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلّم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمّي عمرو الكاتب، ثمّ أتى بشر الشام فتعلّم الخط منه ناس هناك وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجل من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها وعلّم الخط قوماً من أهلها ـ إلى أن قال: ـ فدخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب، عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالبو ... [1].

وهذا ابن خلدون يحكي في مقدمته، أنّ عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول فقد تعرفوا عليها قبيل ظهور الإسلام حيث قال في الفصل الذي عقده لبيان أنّ الخط والكتابة من عداد الصنايع الانسانية :

كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمّى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان فيها دولة آل المنذر بسبأ التبابعة إلى أن قال: ومن الحيرة لقّنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر، يقال إنّ الذي تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أُمية ويقال حرب بن أُمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنّهم تعلّموها من أياد أهل العراق وهو بعيد، لأنّ اياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنايع الحضرية فالقول بأن أهل الحجاز إنّما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير، هو الأليق من الأقوال [2].

فإذا كان هذا مبدأ تعرفهم بالكتابة والقراءة وكان هذا مقياس ثقافتهم وتعرفهم عليها في المنطقتين (مكة والمدينة) فما ظنك بهم في المناطق الأُخرى، نعم كانت الربوع

---

(1) فتوح البلدان: ص 457.

(2) مقدمة ابن خلدون: ص 418، طبع بيروت، الطبعة الرابعة.

المختصـــة باليهود والنصـــارى، تزدحم بأحبارهم وحفّاظ كتبهم، فكانت القراءة والكتابة رائجتين بينهم، لمسيس حاجتهم إلى معرفة كتابهم وما فيه من الطقوس والسنن.

فإذا ألممت أيها الباحث ولو إلمامة عابرة بروح ذلك العصـــر، ووقفت على ما كان يســـود في تلكم الظروف والبيئات، لقضـيت بأنّ المراد من الأُمّي حتى في ما اسـتعمل عند أهل الكتاب هو العاجز عن القراءة والكتابة بقول مطلق كقوله ســـبحانه: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ (آل عمران ــ 20) ويوضح ما ذكرناه قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة ـ 78) [1] فالآية بحكم رجوع الضمير ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ إلى اليهود، تقســـم اليهود إلى طائفتين، طائفة يعلمون الكتاب، وأُخرى طائفة أُمّية لا تعلم من الكتاب شيئاً بل تتخيله أمانياً فقد أطلق الأُمّي في هذه الآية على بعض أهل الكتاب بملاك جهله بكتابه، قراءة وكتابة، ولكن الجهل بالكتاب الذي نزل بلســـانه ولســـان قومه يلازم الجهل بســـائر اللغات طبعاً.

فهذا الكتابي بما أنّه لا يحسن القراءة والكتابة قط، أُمّي كالعربي الأُمّي بلا تفاوت.

وقصـارى ما يمكن أن يقال: إنّه ليس للأُمّي إلّا مفهوم واحد وضـع له وضـعاً واحداً، غير أنّ مفهومه يختلف حسب اختلاف الظروف والبيئات، حسب اختلاف الاضافات والنسب، فالأُمّي في أجواء الكتابيين عبارة عمّن لا يعرف لغة كتابه فلو قيل: ذلك الكتابي أُمّي فالمقصود منه بقرينة لفظ « الكتابي » كونه أُمّياً بالنســـبة إلى كتابه الذي ينتحل إليه، كما أنّ الأُمّي في البيئات العربية عبارة عمّن لا يحسن العربية قراءة وكتابة وهكذا ...

وبناء على ذلك فالأُمّيون في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلّا أَمَانِيَّ ﴾ عبارة عن الطائفة الجاهلة بالمتون السامية من أهل الكتاب، لا يحسنون تلاوتها

---

(1) هذه الآية بما أنّها تقسّـــم أهل الكتاب والمنتحلين إليه إلى طائفتين أُمّية وغير أُمّية، تبطل ما ادعاه الدكتور من أنّ الأُمّي عبارة عن من لم ينتحل إلى الدين ولم ينسب إلى ملّة.

ولا كتابتها، إلّا أنّ ذلك الاطلاق لا يثبت كون الأُمّي موضوعاً على من لا يعرف اللغة السامية كما حسبه الدكتور. بل لـمّا كان محور البحث في الآية أهل الكتاب وانقسامهم إلى طائفة عالمة بما في كتابهم، وطائفة جاهلة به، أُمّية لا تعلم من الكتاب شيئاً، صار ذلك كالقرينة على أنّ المقصود من الأُمّيين فيها، هي الطائفة الجاهلة بالمتون السامية واللغة التي أُنزلت بها كتبهم.

وهذا الوجه لا يشمل « الأُمّي » في غير هذه الآية ولا على الموارد العارية عن هذه القرينة ولا يثبت كونه موضوعاً لمن يكون جاهلاً بالمتون السامية، كما ادعاه القائل.

إذا وقفت على ما ذكرناه وقوف المستشف للحقيقة، لأذعنت أنّه ليس للأُمّي إلّا مفاد واحد وهو الباقي على الحالة التي ولد عليها. ولو اطلق في مورد أو موارد على من لا يعرف المتون السامية، فلأجل قرينة دلّت عليه، فهو من باب تطبيق الكلي على فرده الخاص لا أنّه موضوع على ذلك الخاص.

بحث وتنقيب :

لقد بان الحق بأجلى مظاهره بحيث لم تبق لمجادل شبهة في دلالة الذكر الحكيم على أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار، وظهر ما هو الحق الصراح في معنى الأُمّي الذي وصف الله به نبيّه الأكرم، نعم روي عن بعض أئمّة أهل البيت في تفسير الأُمّي ما يتراءى منه خلاف ما أوضحناه وحققناه ودونك ما روي عنهم في هذا الباب [1].

1. أخرج الصدوق في علل الشرائع ومعاني الأخبار عن أبيه عن سعد [2] عن ابن

---

(1) سوف نرجع في آخر البحث إلى تحقيق القول في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت وغيرهم في المقام والغرض هنا عرض ما يرجع إلى خصوص تفسير لفظ الأُمّي فقط.

(2) سعد بن عبد الله القمي ترجمه شيخ الطائفة في باب أصحاب العسكري عليه السلام .

عيسى [1] عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت: يا بن رسول الله لم سمّي النبي الأُمّي ؟ فقال: ما يقول الناس ؟ قلت: يزعمون أنّه سمّي الأُمّي لأنّه لا يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا عليهم لعنة الله في ذلك، والله يقول في محكم كتابه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لساناً وإنّما سمّي الأُمّي لأنّه كان من أهل مكة، ومكة من أُمّهات القرى وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام ـ 92) [2].

وأخرج الشيخ الأقدم محمد بن الحسن الصفار المتوفّى عام 290 في بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي مثله.

ونقله الشيخ المفيد معلّم الأُمّة في « اختصاصه » بهذا السند أيضاً.

والحديث على كل تقدير ينتهي إلى محمد البرقي وهو مختلف فيه جداً لاستناده إلى المراسيل والضعاف، وهو يروي عن جعفر بن محمد الصوفي الذي أهمله أصحاب المعاجم فالحديث ساقط عن الحجية.

أضف إليه ما في متنه من الشذوذ، وفيه جهات من النظر :

أوّلاً: قوله إنّ النبي يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً، يعطي أنّه صلى الله عليه وآله كان مشغولاً بقراءتها والكتابة بها في عامة حياته أو رسالته فقط، وحمله على الإمكان والتعليق وأنّه صلى الله عليه وآله كان قادراً عليهما باثنين وسبعين لساناً لو شاء وأراد، ولكنّه لم يشأ ويقرأ ولم يكتب بها أصلاً، خلاف الظاهر، وعلى ما استظهرناه فالرواية تخالف ماهو المتواتر من حياة النبي صلى الله عليه وآله .

---

(1) أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري، ثقة جليل.

(2) علل الشرائع ص 53، ومعاني الأخبار ص 20.

إذ لو كان النبي ﷺ على النحو الذي تصفه الرواية لذاع ذكره وطار صيته بهذا الوصف ولا يكاد يخفى على الناس أمره. على أنّه ﷺ في البيئة العربية الأُمية كان في منتأى عن سماع الألسنة أو رؤية أصحابها فلم يكن في موطنه ولا دار هجرته من يعرفها أو يتكلم بها فكيف يتكلم بهذه اللغات، وهو لا يجد من يشافهه بها، ولم تكن تحضره صحيفة أو صحائف كتبت بغير اللغة العربية.

ثانياً: إنّ تفسير الأُمّي بكونه منسوباً إلى أُمّ القرى، يخالف ما اتفقت عليه أئمّة الأدب، وجهابذة اللغة، وأعلام التفسير بل يخالف القرآن الكريم حيث فسّر سبحانه بغير ذلك وقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ فلا يصح الركون في هذه المسألة إلى حديث ينتهي إلى من اختلف في وثاقته، إلى من أهمله علماء الرجال في كتبهم.

ولسنا من الفئة التي تعرض القرآن والحديث الصحيح على القواعد العربية المدوّنة بعد أجيال من نزول القرآن ونشر الحديث، بيد علماء الأدب، فإنّ تلك الفئة ضالّة مضلّة مستحقة للرد والطعن. إذ الصحيح عرض القواعد على القرآن والحديث دون العكس، فإنّ المقياس الوحيد لتمييز الصحيح عن غيره، إنّما هو كلام أهل اللسان والأساليب الدارجة بينهم، لا القواعد المدوّنة إذا لم ترجع إلى مصدر وثيق.

وعلى هذا فلو وجدنا القاعدة الأدبية المصطادة من تتبع بعض الموارد ومن كلام العرب، مخالفة للقرآن الكريم أو الحديث الثابت عنهم، أو الكلام الصادر عن عربي صميم، وجب علينا هدم القاعدة، ورميها بالخطأ والغلط، لا تأويل الذكر الحكيم والحديث الصحيح، والكلام المنقول عن أهل اللسان إذ القرآن سواء أقلنا إنّه كلام إلهي أُوحي إلى نبيّنا الأكرم أم قلنا إنّه من منشآته ومبدعاته (وأجل النبي عن هذه الفرية الشائنة) كلام صحيح، صادر أمّا عن الله سبحانه أو عن عربي صميم شب وترعرع بين الأُمّة العربية وقضى عمره وحياته بين ظهرانيهم.

وعلى أي تقدير فهو الحجة في تدوين القاعدة وتأسيسها دون العكس ومثله الآثار المنقولة عنه ﷺ .

ونحن مع هذا الاعتراف الصريح لا نقر بما جاء في الحديث حول تفسير الأُمي وأنّه منسوب إلى أُم القرى ولا نرمي أئمّة الأدب بالخطأ والاشتباه، إذ الحديث قاصر سنداً وينتهي إلى من اختلفت فيه كلمة أهل الجرح والتعديل، إلى من لم تتضح حاله ووثاقته، ولو ثبت صدوره عن أئمّة أهل البيت، لهدمنا القاعدة النحوية في باب النسب وأخذنا بما فيه.

ثالثاً: إنّ الحديث لا ينسجم مع مضمون ما سيوافيك من الحديثين [1]، فإنّ مفادهما هو كون النبي يقرأ ولا يكتب أصلاً، وهذا يثبت له القراءة والكتابة باثنين وسبعين لساناً، فلا مناص في مقام الترجيح عن الأخذ بهما وطرح ذاك، لقوة اسنادهما وصحتهما على ما عرفت.

2. أخرج الصدوق في معاني الأخبار عن ابن الوليد عن سعد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه إلى أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكتب ولم يقرأ ؟ فقال: كذبوا لعنهم الله أنّى يكون ذلك وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾، فيكون يعلّمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ أو يكتب به ؟ قال: قلت: فلم سمّي النبي الأُمي ؟ قال: نسب إلى مكة وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ فأُم القرى مكة فقيل أُمّي لذلك [2].

ونقله صاحب البصائر عن عبد الله بن محمد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه إلى أبي جعفر [3].

---

(1) راجع البحث الآتي تحت عنوان « عرض وتحقيق » والمقصود من الصحيحين ما رواه هشام بن سالم، والحسن الصيقل عن الصادق عليه السلام .

(2) علل الشرائع: ص 542.

(3) بصائر الدرجات: ص 62، بحار الأنوار: ج 16 ص 133.

ويؤسفنا أنّ الحديث مع ما في متنه من العلات، غير موصول السند إلى الإمام، فالرواية مرفوعة وهو نوع من المرسل الذي لا يعتمد عليه.

وفي هذا المقال يلمس القارئ حقيقة ناصعة هي من أجلى الحقائق الدينية ألا وهي مغزى كون النبي لا يحسن القراءة والكتابة قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار.

نعم بقي الكلام في أمره ﷺ بعد البعثة ولأجل ذلك عقدنا لتحقيقه الفصل التالي :

أمر النبي ﷺ

بعد بزوغ دعوته

قد اهتدينا بهدى القرآن وســـاقتنا الأدلّة إلى القول بأنّه ﷺ كان قبل البعثة أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يســـجل التاريخ له ﷺ في ذلك العهد قراءة لوح أو كتابة صـــحيفة، ولم يكن ذلك اختلافاً تواطأ عليه المســـلمون لهدف خاص كما حســـبه الدكتور في مقاله [1] بل كان تقريراً للواقع وقد قابلنا التفكير السطحي الخاطئ بالرد والنقد.

غير أنّنا طلباً لوضـــوح الحقيقة، واكمالاً للبحث، نردف المقال بالبحث عن وضـــع النبي ﷺ بعد بزوغ دعوته وبعثته إلى الناس، وأنّه هل بقي على ما كان عليه من الأُمية، لنفس المصـــلحة التي أُوجبت أُميته قبل أن يبعث إلى هداية الناس، أو لم يبق عليه، بل كشف الحجاب عن ضميره الحي وعقله الواعي، وقلبه الواسع، عندما بزغت دعوته وبعث رسولاً إلى الناس ولا يمكن القضاء البات إلّا بعد الوقوف على ما ذكره الفطاحل من رواة الحديث وأعلام التفسير.

وقد اختار ثلة جليلة من المحققين القول الثاني أنّ تمكن النبي ﷺ باذنه سبحانه

---

(1) زعم الدكتور في مقاله أنّ أُمية النبي ﷺ فكرة حديثة بين المســـلمين، لصـــيانة القرآن عن التحريف وحفظه عن حدوث الزيادة والنقيصـــة عليه من جانب النبي ﷺ فإنّ الأُمي يعكس كل ما أُلقي عليه بلا تغيير وتحريف، ولا يقدر على تحويره بخلاف غيره، فانظر ما أجرأ هذا الرجل على تحريف الكلم عن مواضعه.

من القراءة والكتابة بعد ما نزل عليه الوحي واستدلوا على ذلك بوجوه لا تخلو من مناقشات واشكلات، ونحن نذكر تلكم الوجوه، ثمّ نردفها بما هو المختار عندنا :

1. الوجوه التي اعتمد عليها شيخنا المفيد :

هذا هو الشيخ المفيد استدل بأدلة ووجوه اعتقد أنّها الحجج الكافية لاثبات ما يرتئيه من أنّ النبي كان عارفاً بالقراءة والكتابة بعد بعثته ودونك ما أفاده برمّته :

1. إنّ الله تعالى لما جعل نبيّه ﷺ جامعاً لخصال الكمال كلها، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصح له الكمال، ويجتمع فيه الفضل والكتابة فضيلة من منحها فضل، ومن حرمها نقص.

2. إنّ الله تعالى جعل النبي ﷺ حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه، فلا بد أن يعلمه الحكم في ذلك، وقد ثبت أنّ أُمور الخلق قد يتعلق أكثرها بالكتابة فتثبت بها الحقوق، وتبرأ بها الذمم، وتقوم بها البيّنات، وتحفظ بها الديون، وتحاط بها الأنساب، وأنّها فضل تشرف المتحلّي به على العاطل منه، وإذا صح أنّ الله جلّ اسمه قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة، محسناً لها.

3. إنّ النبي لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيته، ولو جاز أن يحوجه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعض رعيته لجاز أن يحوجه في جميع ما كلّفه الحكم فيه إلى سواه، وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمة باعثه، فثبت أنّه ﷺ كان يحسن الكتابة.

4. إنّ الله سبحانه يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الجمعة ـ 2) ومحال أن يعلمهم الكتاب وهو لا يحسنه، كما يستحيل يعلمهم الكتاب والحكمة وهو لا يعرفهما، ولا معنى لقول من قال: إنّ الكتاب هو القرآن خاصة، إذ اللفظ عام والعموم لا ينصرف عنه إلّا بدليل، لا سيما على قول المعتزلة وأكثر

أصحاب الحديث.

5. يدل على ذلك أيضـــاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت ـ 48) فنفى عنه احسان الكتابة وخطه قبل النبوّة خاصة، فأوجب احسانه بذلك لها بعد النبوّة، ولولا أنّ ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يعقل، ولو كان حاله ﷺ في فقد العلم بالكتابة بعد النبوّة، كحاله قبلها لوجب إذا أراد نفي ذلك عنه أن ينفيه بلفظ يفيده، لا يتضـــمن خلافه فيقول له: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذ ذاك ولا في الحال، أو يقول: لست تحسن الكتابة ولا يتأتى منك على كل حال، كما أنّه لما أعدمه قول الشـــعر ومنعه منه نفاه بلفظ يعم الأوقات فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ (يس ــ 69) وإذا كان الأمر على ما بيّناه ثبت أنّه ﷺ كان يحسن الكتابة بعد أن نبّأه الله تعالى ما وصفناه، وهذا مذهب جماعة من الإمامية ويخالف فيه باقيهم وسائر أهل المذاهب والفرق يدفعونه وينكرونه [1].

وفي ما ذكره رحمه الله مناقشات نشير إليها :

أوّلاً: انّ الكتابة وإن كانت من الكمالات « ومن منحها له سبحانه فضل ومن حرمها نقص » غير أنّ ذلك يعد للعاديين الذين ينحصـــر طريق اكتســـابهم للمعارف بها وحدها، وأمّا من لا يحتاج إليها بل له طريق آخر لدرك الحقائق واكتســـاب المعارف كما هو الحال بالنســـبة إلى نبيّنا ﷺ فلا يعد التمكن من الكتابة والقراءة فضـــيلة له حتى يكون عدمهما نقصـــاً في حقه، كيف وهو ﷺ قد عرف الواجب جلّ اسمه وصـــفاته وأفعاله ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو أوثق وأســـدّ الطرق الممكنة، لا يخطأ ولا يشـــتبه وعند ذاك لا حاجة له إلى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه.

أضف إليه لو فرضنا أنّ بقاء النبي على ما كان عليه من الأُمية كان يرفع الشك

---

(1) أوائل المقالات: ص 111 . 113 ط تبريز.

عن قلوب السذج من الناس ويؤكد ايمانهم واذعانهم بنبوّته وبما جاء به من الشريعة والكتاب وجب على المولى سبحانه ابقاءه على ما كان عليه من الصفات والنعوت، طلباً للغاية التي بعثه لأجل احرازها وتحققها، فإذا كان هو الملاك في أُمّيته قبل بزوغ دعوته فليكن هو الملاك في بقائه عليها فلا وجه لعد أحدهما نقصاً في حقه ﷺ دون الآخر.

ثانياً: إنّ ما ذكره « انّ الكتابة فضل تشرف المتحلي به على العاطل منه وإذا صح أنّ الله قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة محسناً لها » صحيح جداً وقد فضّل الله سبحانه نبيّنا على جميع الأنبياء والرسل ومنحه من الفضائل ما لم يمنحه لغيره غير أنّه لما كانت هناك مصلحة أولى وأهم كما صرح الله بها سبحانه في كتابه وهي طرد الريب عن القلوب الضعيفة، صرفه الله سبحانه عن تعلّم القراءة والكتابة طيلة عمره، ولم يمكنه منها طلباً لهذه الغاية المهمة وترك المهم توخّياً للأهم لا يعد نقصاً لو لم يعد كمالاً.

وإلى ذلك يشير الفاضل القنوي في تعليقه على « أنوار التنزيل » بقوله: ولذلك صارت الأمية شرفاً وفخراً في شأنه ﷺ وصفة نقص في حق غيره.

وبذلك نجيب عن ما أفاده ﷺ :

« لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيته، ولو جاز أن يحوجه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعض رعيته لجاز أن يحوجه في جميع ما كلّفه الحكم فيه إلى سواه وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمته » لأنّه إذا جاز احتياج النبي الأعظم في مورد خاص إلى بعض رعيته توخياً لبعض المصالح المهمة، لا يستلزم جواز احتياجه في الموارد الخالية عنها فإنّ الأوّل لا يعد نقصاً عند العقلاء ولأجل ذلك يرجّحون الأهم على المهم عند التزاحم، بخلاف الثاني.

ثالثاً: إنّ قوله سبحانه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ لا يدل على ما رامه أمّا إذا قلنا إنّ المراد من الكتاب هو القرآن كما هو الظاهر المتبادر إلى الذهن فإنّ تلاوة الآية

لا تفتقر إلى معرفة الكتابة إذا تلقى التالي محفوظاته من وحي أو تلقين، ومن الناس من يتعلّم القرآن من الصدور لا السطور ويتلوه كما حفظ بدون توقف على معرفة الخط، وأمّا إذا قلنا إنّ المقصود منه الكتابة وإن كان بعيداً جداً فليس معناه تعليم النبي ﷺ لقومه الكتابة مباشرة إذ لم يعهد ولم ير بأسانيد صحيحة أنّه ﷺ جلس مع أفراد أُمّته يعلّمهم نقوش الحروف الهجائية وتراكيبها الأبجدية قطعاً، وإنّما المراد أنّه قام بأمر تعليم الأُمّة مهمة الكتابة، فقد تواتر عنه ﷺ اتّخاذه الأسرى يشترط عليهم أن يعلّموا أهل مدينته الخط والكتابة [1] فكان الأسير إذا علّم الكتابة عشرة من المسلمين أطلق النبي سراحه مكافأة لعمله وبهذه الوسيلة البسيطة عمّم في اتباعه صناعة الخط وأخرجهم من ظلمة الأُمّية وأصبح مقر الاسراء مدرسة يتعلّم فيها صبيان المدينة ما يحتاجون إليه من علوم ذلك العهد.

وأمّا ما تمسك به من مفهوم الآية وأنّ لفظة: ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ يفهم منها أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد الوحي إليه فيوافيك نقده في البحث التالي :

ثم إنّ للعلاّمة الشهرستاني كلمة قيمة في المقام يجري مجرى الجواب عن ما ذكره المفيد فلاحظه [2].

2. الاستدلال بمفهوم الآية :

نقل شيخ الطائفة استدلال القوم على أُمّية النبي الأعظم بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ـ 48) ثم اعترض عليهم بما هذا ملخصه :

---

(1) قال الأستاذ عمر أبو النصر في كتابه « العرب ص 23 »: وكان فداء الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة تلقين عشرة من صبيان المدينة الكتابة، وكذلك أصبح مقر الأسرى مدرسة يتعلّم فيها صبيان المدينة.

(2) راجع مجلة المرشد البغدادية لسنتها الرابعة ص 327 ـــ 428 ما أفاده العلاّمة الحجة السيد هبة الدين الشهرستاني على ما نقله عنها العلاّمة المتتبع الجرندابي في تعاليقه على أوائل المقالات.

« إنّ الآية لا تدل على أنّ النبي كان أُمياً بل فيها أنّه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه ... ».

« ولو دلّت الآية على أنّه لم يكن يحسن الكتابة قبل الايحاء إليه، لدلّت بالمفهوم على أنّه كان يحسنها بعد الايحاء إليه، حتى يكون فرقاً بين الحالتين ولا يكون الاتيان بالقيد ـ قبله ـ لغواً » [1].

وفي ما أفاده مواقع للنظر :

أوّلاً: ففرق واضح بين من يحسن الكتابة ويتركها، ومن لا يحسنها أصلاً، فانّ من يحسن الكتابة، لا يتركها دائماً، بل يتركها مؤقتاً بسبب ظروف تلم به ولا يصح الاستدلال بتركه مؤقتاً، على أنّه لا يحسنها ولا يستكشف حاله منه، وأمّا من لم يكتب منذ نعومة أظفاره إلى أن بلغ الأربعين بل ناهز الخمسين كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا ﷺ، فيعد ذلك دليلاً عند العرف على أنّه لا يحسنها أصلاً وبتاتاً.

فالآية حسب ما يفهم منها عرفاً، تدل على أنّه ﷺ كان أُمياً لا يقدر على الكتابة، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ بالنظر إلى ذيله وهو رفع الشك عن قلوب المبطلين، كناية عن كونه ﷺ كان أُمّياً لا يحسن شيئاً من القراءة، لا أنّه كان عارفاً بها ولكنّه تركها لمصلحة أو غيرها.

وثانياً: إنّ استفادة المفهوم من الآية ودلالة القيد ـ من قبله ـ عليه مشكلة جداً وإن قلنا بدلالته على المفهوم في مقام آخر، وذلك أنّ دلالة القيد عليه إنّما هي إذا كان بقاء الحكم وعدمه عند ارتفاع القيد سواسية، فعند ذلك يستدل بأخذ القيد في موضوع الحكم على دخله في الغرض وفي الحكم المذكور في القضية ويكون مرجعه إلى ارتفاع الحكم السابق بارتفاع القيد كما إذا قيل: أكل زيد قبل طلوع الشمس، وأمّا إذا كان بقاء

---

(1) التبيان: ج 8 ص 216 ط لبنان ويظهر من الآلوسي في تفسيره الاعتماد على هذا الوجه.

الحكم عند ارتفاع القيد أولى في نظر السامع كما في المقام فلا يستنبط منه المفهوم فإنّ من بقى على أُميته حتى ناهز الأربعين بل الخمسين أولى بأن يبقى على تلك الحالة في ما بقي من عمره، فإنّ الرجل إذا لم يحصل على ملكة الكتابة إلى أن ورد في العقد الخامس من عمره لا يحتمل في حقه عادة أن يعود إلى تحصيلها بعد هذه المراحل الطويلة، وعلى ذلك فلا يمكن الاستدلال على رفع الحكم المستفاد من قوله: ﴿ مَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلا تَخُطُّهُ ﴾ عند ارتفاع القيد، أي لا يدل على أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد بعثته كما هو المقصود.

خلاصة القول: إنّ الآية غير دالة على وضع النبي صلى الله عليه وآله بعد بزوغ دعوته ولا يدل على شيء من الطرفين والتمسك بمفهوم القيد: ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ إنّما يصح إذا سيق الكلام لأجل افادته والإيماء إلى اختلاف حاله في المقامين وأمّا إذا سيق الكلام لغير هذه الغاية فلا يدل على ما استظهره من المفهوم، فانّ الغاية من الإتيان بالقيد هو الاستدلال بأُمّيته قبل نزول الوحي عليه، على صدق مقاله ودعوته فإنّ الأُمّي إذا أتى بكتاب أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان بل أدهش بقوانينه اساطين القوانين والنظام، يعد كتابه هذا بهذه الأوصاف والنعوت آية على كونه وحياً إلهياً خارجاً عن طوق القدرة البشرية، وأمّا أنّه هل بقي على الأُمّية بعد ما صار نبيّاً يوحى إليه أو لا ؟ فخارج عن هدف هذه الآية وليست له صلة بمراماها ومقصدها وعلى ذلك نظائر في اللغة والعرف.

ولقد أحسن المرتضى، فلم يجعل الآية دليلاً على تغيّر حاله بعد بعثته، وسلك مسلكاً متوسطاً غير ما سلكه استاذه الشيخ المفيد وما قصده تلميذه شيخ الطائفة الطوسي ودونك نقل كلامه :

هذه الآية: ﴿ مَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ تدل على أنّ النبي ما كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا ما بعدها فالذي نعتقده في ذلك، التجويز لكونه عالماً بالقراءة والكتابة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع بأحد الأمرين وظاهر الآية يقتضي

أنّ النفي قد تعلق بما قبل النبوّة دون ما بعدها، ولأنّ التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوّة [1] لأنّ المبطلين إنّما يرتابون في نبوّته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا ما بعدها فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون تعلّمها من جبرئيل بعد النبوّة [2].

وكلامه هذا يعرب عن توقفه في المسألة كما هو صريح قوله: « من غير قطع بأحد الأمرين » وما ذكره « ظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلق بما قبل النبوّة دون ما بعدها » صحيح لو أراد بذلك نفي دلالة الآية على أحد الأمرين وأمّا لو أراد به دلالتها على كونه قارئاً وكاتباً بعد فموهون بما أوضحناه عند البحث عن كلام تلميذه الجليل شيخ الطائفة رحمه الله، مع أنّه بعيد عن ظاهر كلامه.

وأمّا ما أفاده من « إنّ المبطلون إنّما يرتابون في نبوّته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا ما بعدها فلا تعلّق له بالريبة والتهمة » غير ثابت ولا ظاهر بل يمكن أن يتطرق الشك إلى نبوّته لو كان يحسنها بعد النبوّة إذا تظاهرها في مرآى ومسمع من الناس، فلاحظ التعليقة السابقة.

3. الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾

استدل الدكتور عبد اللطيف الهندي بقوله سبحانه: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (البينة: 2 ـ 3) قال: « إنّه يدل على تحقق التلاوة منه ﷺ أيام رسالته وفي رحاب دعوته ».

لكنّه لا يدل على ما رامه فإنّ التلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب، تصدق

---

(1) اختصاص التعليل بما قبل النبوّة غير ظاهر بل لو تظاهر النبي بالقراءة والكتابة بعد نبوته، فهو وإن كان يعد معجزة ومفخرة له عند من خلصت نيته، وطهر قلبه، لكنّه يوجب تسلل الشك إلى أُمّيته قبل نبوته عند المبطلين والمشككين فيضلّون ويضلّون، وينشرون الأوهام والأراجيف حول دعوته ورسالته، نعم لو كان عارفاً بها غير متظاهر لصح اختصاص التعليل بما قبل النبوّة.

(2) مجمع البيان: ج 8 ص 287، مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 161.

على التلاوة عن ظهر القلب، ويؤيده أنّه لم يرو عن النبي ﷺ في أيام رسالته أنّه تلا القرآن عن غير ظهر قلبه، أضف إلى ذلك ما ذكره المفسّرون في « صحف مطهرة » من الاحتمالات التي تخرجها عن محيط هذه الصحف المادية التي يرومها المستدل ومن شاء الاحاطة بها فليرجع إلى التفاسير.

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ * إلّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ (الأعلى: 7 ــ 8) إذ معناه: سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه ونجعلك قارئاً باذن منه فلا تنسى ما تتلقاه من أمين الوحي، إلّا بمشيئة منه فإنّ الاقراء والانساء كليهما بيده سبحانه، فلا يدل إلّا على تلاوة القرآن وقراءته عن ظهر القلب فقط كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما أُوحي إليه، وهو غير ما يرومه الدكتور وأمثاله.

قال الزمخشري: بشّر الله تعالى باعطاء آية بيّنة وهي أن يقرأ عليه جبرئيل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أُمّي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه.

وأمّا الاستثناء فلا يدل على تحقق الانساء منه سبحانه بالنسبة إلى الرسول ﷺ بل هو للتنبيه على أنّ الأمر كله بيده، وإن منحت كرامة الحفظ إليه ﷺ فليس بمعنى تفويض الأمر إليه وخروجه عن يد الله سبحانه، بل الأمر في كلا الحالين بيده، فالله الذي جعله قارئاً لا ينسى، قادر على أن يصيره ناسياً لا يحفظ شيئاً، ولا يخطر على روعه شيء، فوزان الاستثناء في هذه الآية وزان الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود ـ 108).

فلا يدل على تحقق المشيئة في المستقبل منه سبحانه حتى ينافي خلود المؤمنين في الجنة.

4. الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾

استدل بعض الأعلام بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان ـ 5) وفسّره في الكشّاف بقوله: اكتتبها: اكتتبها لنفسه

وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه: إذا سكبه وصبّه لنفسه وأخذه [1] وكأنّه يريد أن يفهم أنّ زيادة التاء في « اكتتبها » للدلالة على أنّ كتابته كانت لنفسه بخلاف المجرد عنها كقولنا « كتب فلان » فإنّه أعم من أن يكون ذلك لنفسه أو لغيره.

وقال الشيخ الطوسي: اكتتبها هو وانتسخها فهي تملى عليه حتى ينسخها [2] وجه الاستدلال، أنّ المشركين قالوا: إنّ القرآن أساطير كتبها محمد لا من تلقاء نفسه بل بالإملاء عليه من غير، فقولهم: يكتب الأساطير بإملاء الغير عليه، صريح في أنّه بعد الايحاء إليه كان كاتباً يكتب القرآن، وبما أنّ الكتابة صفة كمال لا ينسبها إليه خصومه كذباً وافتراء فلا بد أن تكون ثابتة له في تلك الحال [3].

ولكن ما أقامه من الدليل موهون جداً فإنّ الكتابة وإن كانت صفة كمال إلّا أنّ شهادة الخصم إنّما تدل على اتصافه بها إذا كانت الشهادة صادرة عن خلوص وصفاء وأمّا إذا جعلها ذريعة لإنكار نبوّته، فلا يعد رميه بها دليلاً على صدق النسبة فإنّ القوم لما عجزوا عن الوقيعة في قرآنه ولم يتمكنوا من معارضته ومباراته دخلوا من باب آخر، حتى يفتحوا بذلك باب الريب على نبوّته وكتابه وقالوا إنّ هنا من يملي عليه القرآن بكرة وأصيلاً، وهو يكتب ما يملى عليه ولا هدف لهم من تلك الفرية إلّا التشكيك في نبوّته ونزول الوحي عليه ولولا ذلك لما وصفوه بها ولا بغيرها من الصفات، فإنّ التوصيف، بأدنى مراتب الكمال، يخالف ما يرمون إليه من انتقاصة.

على أنّ هنا في لفظة « اكتتبها » احتمالاً آخر وهو أنّه أمر بالكتابة والاستنساخ، احتمله الرازي بل اختاره وقال: معنى « اكتتب » ههنا، أنّه أمر أن يكتب له كما يقال: « احتجم » و « افتصد » إذا أمر بذلك [4].

إلى هنا تم ما وقفنا عليه من الأدلّة القرآنية التي أقامها القائلون على أنّ النبي كان قارئاً وكاتباً بعد نزول الوحي عليه، وقد عرفناك وهن الجميع، ووقفت على ما فيها من

---

(1) الكشاف: ج 2 ص 400.
(2) التبيان: ج 7 ص 472.
(3) تفسير الآيات المتشابهات: ص 47 . 48.
(4) مفاتيح الغيب: ج 6 ص 353.

المناقشات.

نعم هناك وجوه عقلية واستحسانات، اعتمد عليها بعض من اختار هذا النظر، ونحن نأتي بها.

5. الاستدلال بالأولوية :

استدل بها المجلسي وقال إنّه ﷺ كان قادراً على التلاوة والكتابة بالاعجاز وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأوّلين والآخرين، انّ هذه النقوش موضـــوعة لهذه الحروف، ومن كان قادراً باذن الله على شـــق القمر وأكبر منه، كيف لا يقدر على نقش الحروف والكلمات على الصـــحائف والألواح والله تعالى يعلم [1].

وما ذكره لا يخرج عن حدود الاســتحســان إذ من الممكن أن لا يمكنه الله من القراءة والكتابة لمصلحة هو أعلم بها، أو لأجل رفع الريب والشك عن جانب نبوّته كما هو غير بعيد حتى بالنسبة إلى ما بعد النبوّة، إذا تظاهر بالقراءة والكتابة.

6. التجارة تتوقّف على الكتابة :

قال بعض من عاصرناه: « إنّ المشركين رموه بالكذب والسحر والجنون والفرية ولم ينسبوه إلى الأُمية مع كونها صفة نقص لا سيما للتجار ذوي رحلة الشتاء والصيف، فإذا لم يعيبوه بالأُمّية كان ذلك دليلاً على أنّه كان بعد النبوّة قارئاً وكاتباً » [2].

ونناقش ما أفاده :

أوّلاً: إنّ عدم رميه ﷺ بالأُمّية، فلعدم كونها عيباً عندهم، كيف والقوم كانوا جماعة أُمّية وكانت تلك الصفة هي السائدة عليهم، وكان الرامي بها والمرمى إليها في هذا الوصف سواسية.

---

(1) بحار الأنوار: ج 16 ص 136.

(2) تفسير الآيات المتشابهات: ص 50.

ثانياً: إنّ التجارة وإن كانت تتوقف على القراءة والكتابة في الأوساط المدنية غير أنّ الدارج في البيئات البعيدة عن الحضارات كان غير ذلك، خصوصاً قريش الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف، فكانوا يبيعون أو يشترون، ويرجعون، من دون أن يبقى لهم أو عليهم شيء.

هذا ما لدى القائلين من الأدلّة على كونه ﷺ قارئاً وكاتباً بعد بزوغ نبوّته، هلم معي ندرس بعض ما وقفنا لهم في المقام من كلمات تؤكد من نقلناه عنهم.

قال الشيخ: « إنّ الحاكم يجب أن يكون عالماً بالكتابة والنبي عليه وآله السلام كان يحسن الكتابة بعد النبوّة وإنّما لم يحسنها قبل البعثة » [1].

وتبعه ابن ادريس الحلي في باب سماع البيّنات من كتاب القضاء وجاء بعين ما نقلناه عن الشيخ [2].

واختاره العلّامة الحلي في كتاب النكاح عن تذكرته عند البحث عن مختصات النبي الأكرم حيث قال: كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ (يس . 69).

وقد اختلف في أنّه هل كان يحسنها أو لا: وأصح قولي الشافعي الثاني وإنّما يتجه التحريم عل الأول [3] أي على القول بأنّه كان يحسن الكتابة إذ على فرض عدم عرفانه بها، فالتحريم يكون لغواً وتحصيلاً للحاصل.

غير أنّ دلالة الآية على حرمة الكتابة عليه، مبني على كون « لا » في قوله: ﴿ وَلا تَخُطُّهُ ﴾ ناهية وهو خلاف الظاهر، خصوصاً بملاحظة سياق الآية أي قوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ فإنّه جملة خبرية وهو يقتضي أن تكون الجملة التالية لها أيضاً خبرية لا انشائية.

---

(1) المبسوط: كتاب القضاء ج 8 ص 120.

(2) السرائر: باب سماع البيّنات من كتاب القضاء وهو غير مرقم.

(3) تذكرة الفقهاء: ج 2 ص 566 الطبعة الجديدة المرقمة.

وقد اقتفى في ذلك قول الشيخ في مبسوطه حيث قال: « وقد خصّ الله نبيّه محمداً بأشياء وميّزه بها عن خلقه أربعة: واجب، ومحظور، ومباح، وكراهة ـــ إلى أن قال: ـــ وأمّا المحظورات فحظرت عليه الكتابة وقول الشعر وتعليم الشعر » [1].

أُمّية النبي في الأحاديث :

لقد بان الحق وظهرت الحقيقة من هذا البحث الضافي حول هذه الآيات، فلم نجد آية تدل على أنّه صلى الله عليه وآله بعد بزوغ دعوته، صار قارئاً أو كاتباً.

نعم وردت أحاديث وروايات، رواها الفريقان، ربّما يركن إلى بعضها، ويستدل به على تمكنه من القراءة والكتابة بعد بعثته، بإعجاز منه سبحانه، وإن كان الكل لا يخلو من اشكال ونحن نورد هنا تلكم الأحاديث :

منها: حديث بدء الوحي

ررى أصحاب السير والتفسير :

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجاور في حراء من كل سنة شهراً حتى إذا كان الشهر الذي بعثه الله سبحانه فيه خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حراء حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبرئيل بأمر الله، ولنترك وصف ذلك إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله :

« فجاءني جبرئيل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ ؟ قلت: ما أقرأ ؟ فغتني به [2] حتى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ ؟ قال: قلت: ما أقرأ ؟ قال: فغتني

---

(1) راجع المبسوط أوائل كتاب النكاح: ج 4 ص 152 ـ 153.

(2) كذا في جامع الأُصول والطبري والغت: حبس النفس، وفي صحيح البخاري والمواهب « غطني » وهي بمعنى الغت أيضاً.

به حتى ظننت أنّه الموت، ثم أرســـلني فقال: اقرأ ؟ قال: قلت: ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلّا افتداءاً منه أن يعود لي بمثل ما صـنع بي فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَـانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَـانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال: فقرأتها ثمّ انتهى، فانصـــرف، وهببت من نومي، فكأنّما كتبت في قلبي، قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسـط من الجبل سمعت صـوت من السـماء يقول: يا محمد أنت رسـول الله وأنا جبرئيل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا بجبرئيل في صورة رجل صف قدميه في افق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل ».

ويظهر من البخاري من صحيحه أنّ جبرئيل نزل بسورة العلق حينما كان النبي ﷺ يقضاً لا نائماً، وأنّه تحمّل بدء الوحي في حال اليقظة حيث قال: فجاءه الملك فقال: اقرأ ؟ ما أنا بقارئ [1] قال: فأخذني فغطني حتى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ ؟ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ثمّ أرســلني، فقال: اقرأ ؟ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

كلمة حول سند الحديث :

إنّ سند الحديث ينتهي إلى أشخاص ثلاثة يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرسول الأكرم ﷺ ودونك أسمائهم.

1. عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، أخرج الحديث عنه ابن هشام في سيرته ج 1 ص 235، والطبري في تفســـيره ج 30 ص 162، وتاريخه ج 2 ص 300، وقد ترجم الرجل ابن الاثير في أُسد الغابة ج 3ص 353، وقال ذكر البخاري أنّه رأى النبي وذكر مسلم أنّه ولد على عهد النبي، وهو معدود في كبار التابعين يروي عن عمر وغيره من

---

(1) وهذا شـــاهد على أنّ الملك لم يرد أن يلقنه الآيات ليتابعه في القراءة فإنّ ذلك أمر مقدور للقارئ والأُمّي، ولو أراد هذا كان المناسب أن يقول ماذا أقرأ، بل أراد أن يقرأه النبي بنفسه بلا متابعة.

الصحابة.

2. عبد الله بن شداد، أخرج الحديث عنه الطبري في تفسيره ج 30 ص 162 وفي تاريخه ج 2ص 299. ترجمه ابن الأثير في أُسد الغابة ج 4 ص 183. وقال ولد على عهد النبي روى عن أبيه وعن عمر وعلي.

وعلى ذين السندين فالحديث مرسل غير موصول السند إلى النبي الأكرم إذ من البعيد أن يرويا الحديث عن النبي ﷺ نفسه.

3. عائشة أُمّ المؤمنين، أخرج البخاري عنها الحديث في صحيحه ج 1ص 3 وج 3 ص 173 في تفسير سورة العلق والطبري في تفسيره ج 30 ص 161. وعلى ذلك فقد تفردت هي بنقل هذا الحديث، ومن البعيد جداً أن لا يحدث النبي هذا الحديث بغيرها، مع اشتياق غيرها إلى سماع أمثال هذه الأحاديث عنه ﷺ . وعند ذلك يشكل الاستدلال بالحديث جداً.

نعم ورد مضمون الحديث في تفسير الإمام العسكري كما في البحار ج 18 ص 206 لكن كون التفسير من الإمام فيه كل الشك والريب ونقله من أعلام الطائفة ابن شهر آشوب في مناقبه ج 1ص 40 . 44، والمجلسي في بحاره ج 18 ص 196.

توضيح مفاد الرواية :

إنّنا مهما جهلنا بشيء من الأشياء، فلا يمكن أن نجهل بأنّ النبوّة منصب الهي لا يتحمله إلّا الأمثل فالأمثل من الناس، ولا يقوم بأعبائها إلّا من عمر قلبه بالإيمان، وزود بالخلوص والصفاء وغمره الطهر والقداسة، وأُعطي مقدرة روحية عظيمة لا يتهيب حين ما يتمثل له رسول ربّه وأمين وحيه، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه، وتلك المقدرة لا تفاض من الله على عبد إلّا بعد معدّات ومقدّمات :

منها: شموخ أصلاب آبائه وطهارة أرحام أُمّهاته، حتى ينتقل من صلب شامخ إلى صلب آخر مثله، ومن رحم طيبة إلى أُخرى مثلها.

منها: البخوع للعبادة، والعكوف على المجاهدات النفسانية والرياضات التي لا تنازع الفطرة، بل تعدل الميول والغرائز وتهديها سبيل الرشاد والسلام.

منها: التفكير في آثار صنعه وعجائب خلقه وبدائع كونه بتعمّق وتدبّر حتى يهديه التفكير في جمال الطبيعة إلى معرفة بارئها معرفة تامة تليق بحال نبيّه.

منها: أن يكون في رعاية أكبر ملك يهديه إلى طرق المكارم ومحاسن الأخلاق كما أشار إليه مولانا أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة: « لقد قرن به ﷺ من لدن ان كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوّة، ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبي ولكنّك وزير، وأنّك لعلى خير » [1].

هذا البيان الضافي من أمير الإسلام والبيان عليه السلام يؤمي إلى كثير مما ذكرناه من المقدمات، ويرسم لنا صورة اجمالية من حياة النبي ﷺ الأكرم قبل بعثته وأنّه ﷺ منذ نعومة أظفاره، ومنذ أن فطم من الرضاع، وقع تحت كفالة أكبر ملك يسلك به طريق المكارم، ويرشده إلى معالم الهداية ومدارج الكمال، ويصونه طيلة حياته من طفولته إلى شبابه وإلى كهولته من كل سوء.

هذا البيان يفيدنا بأنّ نفس أي انسان لا تستعد لقبول الوحي إلّا بعد اقتحام عقبات وطي مراحل، وأنّ الملك الأكبر لم يزل يواصل نبي الإسلام ليله ونهاره حتى استعدت نفسه لقبول الوحي، وتمثّل أمينه بين يديه، والقاء كلام ربّه إليه ووعيه له منه، بانطباعه في لوح نفسه، وإذا اقتحم تلكم العقبات وتحققت تلكم المقدمات والمعدات

---

(1) نهج البلاغة الخطبة القاصعة ص 374 طبع عبده.

وتم الاستعداد، ارتقت نفسه إلى ذلك الحد الأسمى فانحسرت عن قلبه الأغطية وارتفعت عنه الحجب، حيث أخذ يعاين الأشياء على ما هي عليه، ويقف على الحقائق على النحو الذي يليق به ويقدر على تلاوة ما لم يكن قادراً عليها.

وقد تحققت تلك الغاية وبلغت نفسه الشريفة إلى ذلك الحد في الشهر الذي اختاره الله تعالى فيه رسولاً إلى الناس، فجاءه أمين الوحي بلوح برزخي يحتوي على آيات من القرآن الكريم فعرضه على النبي ﷺ وطلبه منه أن يقرأه فأبى وتجافى عن قراءته قائلاً بأنّه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وأنّه ماقرأ وما كتب طيلة عمره فغطه الأمين ثلاث مرات فإذا به يقرأ.

نحن لا نعلم كنه هذا الغط ولا نستطيع إدراكه، وليس هو إلّا أثراً مادّياً لأمر معنوي كاماطة الستر عن روحه وقلبه، وهذا أمر طبيعي في مثل هذا الموقف العظيم الجليل الذي تنوء به أجسام وأرواح البشر، فإنّ لكل عمل روحي ولا سيما لمثل كشف الغطاء أثراً خاصاً في أبداننا، والأثر البارز المادي لكشف الغطاء عن قلب النبي ونفسه، هو الغط الذي أحسّه في ذلك الحين، وإلّا فالغط المادي لا مدخلية له في القدرة على القراءة والتلاوة.

هكذا كانت هذه اللحظة الحاسمة من حياته ﷺ منعطفاً رائعاً إلى مرحلة جديدة، فكشف عنه الغطاء آن الغط، فقدر على قراءة ما لم يقدر عليه فعرف الحروف والنقوش، بل الحقائق فصار أكمل إنسان يطأ الأرض بقدميه، ويعيش في اديمها ويتظلّل بسمائها.

وهذا البيان منضمّاً إلى ما سمعته من حديث بدء الوحي يدفعنا إلى القول بأنّه ﷺ قد انقلبت حاله بعد البعثة بإعجاز من الله سبحانه واقدار منه تعالى. غير أنّ ما ذكرنا مبني على صحة الحديث واتصال سنده إلى النبي ولكنّك عرفت أنّ الحديث مقطوع غير موصول بالنبي الأكرم فلاحظ.

منها: حديث المطالبة بالقلم والدواة :

أخرجه أصحاب الصحاح والسنن ونقلها أهل السير والأخبار كافة ويكفيك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ : هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، فقال عمر: إنّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ : قوموا، فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم [1].

أخذ المستدل بظاهر الحديث وقال: النبي ﷺ طلب أن يكتب كتاباً، وظاهره كون الكاتب نفسه لا غير، لكنّه نسي أو تناسى أنّ في الإسناد مجازاً وأنّه من باب كتب الأمير، أو كتب الملك وليس معناه أنّه كتب بنفسه، بل السيرة على أنّ الملك أو الأمير يمليان والكاتب يكتب وينفّذانه بخاتمهما، وكان رسول الله ﷺ يملي والكاتب يكتب ولا يكتب بيده، وهكذا كانت سيرة الخلفاء من بعده، ما كانوا يكتبون إلّا في مواقف خاصة.

منها قصة الحديبية :

ملخّصه: لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ قالوا: لا نقر بهذا، لو نعلم أنّك رسول لله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله، فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثمّ قال لعلي عليه السلام :

---

(1) صحيح البخاري: ج 2 ص 22 كتاب العلم، وأخرجه مسلم في آخر الوصايا في صحيحه: ج 2 ص 14، وأحمد في مسنده: ج 1 ص 325 وغيرهم من أعلام الأُمّة.

امح رسول الله، قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله ﷺ لا يدخل مكة السلاح إلّا السيف في القراب الخ [1].

وقد تمسك بظاهر الرواية « أبو الوليد الباجي » فادّعى أنّ النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة وانّ الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم :

برئت ممّن شرى دنيا بآخرة وقال إنّ رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير فاستظهر « الباجي » عليهم بما لديه من المعرفة وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لأنّه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وبعد أن تحققت أُمنيته وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أُخرى.

وذكر « ابن دحية » أنّ جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك منهم شيخه ابن أبي شيبة وعمر بن شبة من طريق مجاهد، عن عون بن عبد الله، قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ، قال مجاهد: فذكرته للشعبي فقال: صدق قد سمعت من يذكر ذلك [2].

الجواب عن الاستدلال بالرواية :

إنّ ما رواه البخاري وغيره ممّن جنح إليه على خلاف ما يرتئيه المستدل أدل، فإنّ

---

(1) صحيح البخاري: ج 5 باب عمرة القضاء ص 141، الكامل: ج 2 ص 138، مسند أحمد: ج 4 ص 298 ولفظه هكذا: فكتب مكان رسول الله، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله إلّا يدخل مكة السلاح إلّا في القراب.

(2) فتح الباري: ج 9 ص 44 وأضاف الباجي بأنّ في معرفة الكتاب بعد أُمّيته ﷺ معجزة أُخرى لكونها من غير تعليم، لاحظ مناهل العرفان: ج 1 ص 358.

قوله: « وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب » أصدق شاهد على أُميته.

أضـف إلى ذلك ما ورد في بعض الروايات من قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله لعلي: « أرني إيّاها » أو قوله: « فضع يدي عليها » فهو شاهد صدق على بقائه على ما كان عليه من الأُمّية.

ولأعلام الحديث والتاريخ كلمات ضـافية حول الرواية تميط السـتر عن وجه الحقيقة، فلنأت بما وقفنا عليه.

1. قال ابن حجر: إنّ النكتة في قوله: « فأخذ الكتاب وليس يحسـن أن يكتب » هو بيان قوله: « أرني إيّاها » فإنّه ما احتاج إلى أن يريه موضـع الكلمة التي امتنع علي عليه السلام من محوها، إلّا لكونه لا يحسن الكتابة.

على أنّ قوله بعد ذلك « فكتب » فيه حذف تقدير، أي فمحاها لعلي فكتب وبهذا جزم ابن التين وأطلق « كتب » بمعنى أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر وكتب إلى كسرى.

وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشـريف في ذلك اليوم وهو لا يحسـن الكتابة، أن يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أُمّياً فإنّ كثيراً ممّن لا يحسن الكتابة، يعرف تصوير بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده وخصوصاً الأسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً.

واحتمل أن يكون المراد: جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسـنها فخرج الكتاب على وفق المراد، فيكون معجزة أُخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً وبهذا أجاب أبو جعفر السـمناني أحد أئمّة الأُصـول من الأشـاعرة وتبعه « ابن الجوزي » وتعقب ذلك السـهيلي وغيره بأنّ هذا وإن كان ممكناً ويكون آية أُخرى لكنّه يناقض كونه أُمّياً لا يكتب وهي الآية التي قامت بها الحجة وأفحم الجاحد وان حسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال السـهيلي والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضـها بعضـاً، والحق أنّ معنى قوله فكتب: أي أمر علياً

أن يكتب [1].

2. قال الحلبي: تمسك بعضهم بظاهر الحديث وقال: إنّ النبي كتب بيده يوم الحديبية معجزة له، مع أنّه لا يقرأ ولا يكتب وجرى على ذلك أبو الوليد الباجي المالكي فشـــنع عليه علماء الأندلس في زمانه وقالوا: هذا مخالف للقرآن.

. إلى أن قال .: والجمهور على أنّ الروايات التي فيها « أنّه أخذ الكتاب بيده فكتب » محمول على المجاز أي أمر أن يكتب الكاتب [2].

أقول: إنّ لفظة « بيده » ليسـت في نسـخ صـحيح البخاري ونص على ذلك الحلبي أيضـاً وقوله: « ليس يحسن أن يكتب » الوارد في صحيحه وغيره من المصادر الأصلية [3] دال على ما نرتئيه في هذا المقال.

نعم رواه البخاري في كتاب الصـلح بصـورة أُخرى قال: « فلمّا كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ، فقالوا: لا نقرّ بها فلو نعلم أنّك رسول الله ما منعناك ـ إلى أن قال ـــ: ثم قال لعلي: امح رسول الله ﷺ قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح إلّا في القراب » [4].

إنّ تلك الواقعة قد رويت بصورتين أُخريين، رواهما أعلام السير والتاريخ.

الأولى: إنّ رسـول الله ﷺ أمر علياً أن يمحو لفظ « رسـول الله » فامتنع علي من محوه فقال رســول الله: أرنيه، فأراه علي، فمحاه بيده الشــريفة، ثم أمر علياً أن يكتب ودونك لفظ الرواية: أمر رسول الله ﷺ علياً أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ

---

(1) فتح الباري: ج 9 ص 45.

(2) السيرة الحلبية: ج 3 ص 24 وسيرة زيني دحلان في هامش السيرة: ج 2 ص 214 ولكن اللفظ للأخير.

(3) راجع الأموال: ص 158 ونقله عن المجلسي في بحاره: ج 20 ص 371.

(4) صحيح البخاري: ج 3 ص 185 فحذف قوله وليس يحسن يكتب.

سـهيل بن عمرو، فقال: فعلى مَ نقاتل ؟ اكتب اسمك واسـم أبيك، فقال: أنا رسـول الله وأنا محمد بن عبد الله، فأمر بمحوها فعند ذلك كثر الضـجيج واللغط وأشـاروا إلى السـيوف فقال علي عليه السلام ما أنا بالذي أمحوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ستدعى إلى هذا وأنت مضطهد مقهور [1] إلى أن قال: وضـج المسلمون وارتفعت الأصـوات وجعلوا يقولون لا نعطي هذه الدنية، وجعل رسـول الله يخفضـهم ويومي بيده إليهم أن اسكتوا ثمّ قال: أرنيه، فأراه عليٌّ عليه السلام فمحاه بيده الشـريفة ثمّ أمر علياً أن يكتبه.

نعم يظهر من البخاري أنّ النبي محاه من دون أن يريه عليّا عليه السلام وربّما يستدل به على تمكّنه من القراءة، فروى في كتاب الصلح: لما صالح رسول الله أهل الحديبية ـــ إلى أن قال: ـــ فقال لعلي: أمحه، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله بيده وصالحهم على أن يدخل ... [2].

ويحتمل أنّه تركه للاختصار، اعتماداً على ما نقله في كتاب « الجزية والموادعة مع أهل الحرب » وقد نقل القصـة فيه عن « البراء » هكذا ... فقالوا: لو علمنا أنّك رسـول الله لم نمنعك ولبايعناك ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ـ إلى أن قال: ـ فقال لعلي: امح رسول الله، فقال عليٌّ: لا أمحاه أبداً، قال: فأرنيه؟ قال: فأراه إيّاه، فمحاه النبي صلى الله عليه وآله بيده [3].

ومع هذا التصريح لا يعبأ بما نقله من دون هذه الزيادة.

---

(1) هذا من أعلام النبوّة فلاقى علي أمير المؤمنين يوم صـفين عندما رضـوا بالحكمين ما لاقاه رسـول الله في هذا اليوم، روى أهل السـير والتاريخ أنّ علياً أمر لكاتبه أن يكتب: هذا ما اصـطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك ولكن أكتب: هذا ما اصـطلح عليه علي بن أبي طالب، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : صـدق الله وصـدق رسـوله أخبرني رسـول الله صلى الله عليه وآله بذلك ثم كتب الكتاب، راجع السيرة الحلبية ج 3 ص 23.

(2) صحيح البخاري كتاب الصلح: ج 3 ص 184.

(3) صحيح البخاري كتاب الجزية: ج 4 ص 104.

وروى الشيخ الأكبر المفيد أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي: فضع يدي عليها، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال لأمير المؤمنين عليه السلام ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض ثم تمم أمير المؤمنين عليه السلام الكتاب [1].

وفي اعلام الورى: قال النبي ﷺ: امحها يا علي، فقال له: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة. قال: فضع يدي عليها فمحاها رسول الله بيده وقال لعلي: ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض [2].

روى أمين الإسلام الطبرسي القصة بطولها وقال: ثمّ قال رسول الله ﷺ امح رسول الله، فقال: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة، فأخذ رسول الله ﷺ فمحاه، ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله [3].

وعلى هذه الصورة من الرواية: أنّ رسول الله نفسه محا لفظة رسول الله، لكن علياً كتب الكتاب بأمره دون رسول الله.

الثانية: وهي تشترك مع الأُولى في التصريح بأنّ الكتاب كتبه علي عليه السلام من بدئه إلى ختمه بأمر رسول الله واملاء منه وتفترق عنها بأنّه ليس فيها عن محو لفظة رسول الله عين ولا أثر.

خلاصتها: أنّه عندما أحسّ الهدوء وانخفضت الأصوات بإيماء منه ﷺ أمر رسول الله علياً أن يكتب هذا ما صالح أو قاضى عليه محمد بن عبد الله ... فكتب على حسب ما املاه عليه رسول الله ﷺ ودونك نقل ما رواه الطبري في تاريخه.

قال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم اقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ﷺ

---

(1) السيرة الحلبية: ج 3 ص 24 وسيرة زيني دحلان: ج 2 ص 212، والارشاد: ص 6 واللفظ للأخير.

(2) اعلام الورى: ص 106.

(3) مجمع البيان: ج 9 ص 118 راجع تفسير القمي: ص 634.

وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب [1] وقريب منه ما رواه البخاري نفسه في موضع آخر [2] واليعقوبي في تاريخه [3] والواقدي في مغازيه [4] وابن هشام في سيرته [5] وغيرهم من أساطين التاريخ والحديث [6] ويقرب منه ما رواه الكليني في روضته حيث قال: قال رسول الله لعلي: اكتب: هذا ما قاضى رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: فعلى مَ نقاتلك يا محمد ؟ فقال ﷺ : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فقال له الناس أنت رسول الله، قال: اكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال له الناس: أنت رسول الله [7].

فبعد هذا الاتفاق والاصفاق من أعلام التاريخ والحديث والتفسير على أنّ الكتاب كتبه علي باملاء من النبي ﷺ من أوّله إلى آخره فهل يصح الركون إلى ما تفرد به البخاري وأحمد واعتمد عليهما الجزري في كامله، مع أنّ البخاري نقض ما نقله في باب « عمرة القضاء » في كتاب الصلح على ما عرّفناك.

على أنّ التضارب الصريح الذي نشاهده في نقل البخاري في المقام يمنع النفس عن الركون إليه، فقد اضطرب نقله وكلامه من وجوه :

1. تراه أنّه نقل القصة في موضع هكذا « أخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله » [8]، وفي الوقت نفسه ساقها في موضع آخر من كتابه بنفس اللفظ السابق، ولكنه حذف قوله: « وليس يحسن يكتب » [9].

2. تراه أنّه يصرح بأنّ النبي أمحا لقبه بإراءة علي عليه السلام حيث يقول: فقال لعلي: امحه، فقال علي عليه السلام لا أمحاه أبداً، قال: فأرينه ؟ قال: فأراه إيّاه فمحاه النبي بيده [10].

---

(1) تاريخ الطبري: ج 2 ص 281.
(2) صحيح البخاري كتاب الصلح: ج 3 ص 195.
(3) تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 45.
(4) المغازي: ج 2 ص 610.
(5) السيرة: ج 2 ص 317.
(6) راجع صحيح مسلم: ج 5 ص 174.
(7) روضة الكافي: ص 326.
(8) صحيح البخاري: ج 5 ص 141.
(9) نفس المصدر: ج 3 ص 185.
(10) صحيح البخاري: ج 4 ص 104.

ومع ذلك تراه ينقل امحاء النبي، من دون أن يشير بأنّه كان بإراءة من علي حيث قال: « فقال لعلي: امح رسول الله، فقال: ما أنا بالذي امحاه، فمحاه رسول الله بيده » [1].

3. يظهر منه في موضع أنّ علياً هو الذي كتب اسم النبي بعد امحائه ما امحاه حيث قال: « فقال النبي ﷺ: والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتب محمد بن عبد الله » [2].

منها كتاب النبي إلى العذار :

روى البخاري عن العذار بن خالد قال كتب لي النبي ﷺ: هذا ما اشترى محمد رسول الله من العذار بن خالد بيع المسلم المسلم لا داء ولا خبيئة ولا غائلة [3].

ودلالته على أنّه ﷺ، كتب الكتاب بنفسه ضعيفة، لا يمكن الركون إليه في هذه المسألة إذ كثيراً ما يسند الفعل إلى الأمراء والملوك ويراد منه التسبيب لا المباشرة.

كما أنّ الاستدلال على بقاء النبي على ما كانت عليه قبل الدعوة بقوله في الحديث المروي: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب، ليس بسديد إذ يكفي في صدق مضمونه كون أكثر من بعث إليه أُمّيون لا يكتبون ولا يحسنون.

فذلكة البحث :

ما سردناه لك من الأحاديث في هذه الصحائف، قد رواه الجمهور في صحاحهم، وقد وافاك عدم دلالة كثير منها على ما نرتئيه، غير حديث بدء الوحي ولو صح سنده واعتمدنا على ما تفردت بنقله « عائشة » فإنّما يدل على أنّه سبحانه مكّن عبده من قراءة اللوح الذي كان بيد أمين الوحي، ولم يكن ذاك اللوح، لوحاً مادياً

---

(1) المصدر السابق: ج 3 ص 185.

(2) راجع المصدر السابق: ج 3 ص 195.

(3) صحيح البخاري: ج 3 ص 7.

وصـــحيفة جســـمانية بل كان لوحاً برزخياً، ومن قدر على قراءة نقوش ذاك اللوح وحروفه وجمله يقدر على قراءة ما كتب في الألواح والصحائف المادية، ولكنّك قد وقفت على إرسال الرواية وأنّ الحديث غير موصول بالنبي صلى الله عليه وآله إلّا من ناحيتها.

بقيت في المقام روايات ضعاف ومراسيل، نقله بعض المتأخرين، ولا يمكن الاستدلال بها في مثل هذه المسألة، ودونك ما نقلوه :

قال القاضي الحافظ أبو الفضل بن عياض بن موسى بن عياض: انّه صلى الله عليه وآله كان لا يكتب، ولكنّه أُوتي علم كل شيء حتى قد وردت آثار بمعرفته بالخط وحسن تصويرها، كقوله لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم [1] رواه ابن شعبان [2] من طريق ابن عباس، وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنّه كان يكتب بين يديه صلى الله عليه وآله فقال له: الق الدواة [3] وحرف القلم [4] وأقم الباء [5] وفرق السين [6] إلى آخر ما نقله ... [7] والمظنون أنّ الحديث من ولائد النزعات الباطلة تزلّفاً للأُمويين.

عرض وتحقيق :

لا بأس بإكمال البحث بما وصل إلينا من الروايات من أئمّة أهل البيت مع ترجمة رجال اسنادها وتوضيح مضامينها على وجه الاجمال وقد نقل المجلسي منها كثيراً في بحاره في الباب السادس من الجزء السادس عشر المختص بحياة نبيّنا صلى الله عليه وآله [8].

---

(1) قال القارئ في شرحه: أي مد سينه من غير تبيّن روى الدارمي عن زيد بن السن إذا كتبت فبيّن السين.

(2) هو أبو إسحاق العصري المالكي له ترجمة في الميزان مات سنة خمسة وستين وثلاثمائة.

(3) أمر من الاق الدواة إذا جعل لها ليقة وأصلح لها مدادها.

(4) أي اجعل شقه الأيمن أزيد من الطرف الآخر قليلاً لأنّه أسرع في الكتابة وأبدع في اللطافة.

(5) أي طولها.

(6) أسنانها.

(7) راجع فتح الباري: ج 9 ص 44، شرح الشفاء: ج 1 ص 726 ـ 727.

(8) بحار الأنوار: ج 16 ص 131 ـ 135.

1. أخرج الصدوق في علل الشرائع عن ابن الوليد عن سعد [1] عن ابن عيسى [2] عن الحسين بن سعيد ومحمد البرقي عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان النبي يقرأ الكتاب ولا يكتب [3].

والحديث صحيح رجاله كلهم ثقاة بالاتفاق ولكنّه ظاهر، أو محمول على عهد الرسالة لما عرفت من تنصيص الكتاب العزيز على كونه أُمّياً قبل البعثة.

2. أخرج الصدوق في علله عن أبيه عن سعد [4] عن عيسى عن البزنطي عن أبان عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان مما منّ الله على نبيّه صلى الله عليه وآله أنّه كان أُمّياً لا يكتب ولا يقرأ الكتاب [5] والسند صحيح إلى البزنطي، نعم اختلفت كلماتهم في أبان ورمَوْه بالناووسية والنسبة غير محققة، والرجل من أصحاب الاجماع، والحسن الصيقل مهمل في كتب الرجال لم يوصف بالوثاقة ولم يرد فيه طعن، والحديث وإن لم يكن صحيحاً لكنّه يعتبر خصوصاً لنقل « أبان » الذي هو أحد أصحاب الاجماع عنه، والحديث نظير ما تقدم عليه في الحمل والظهور بل أظهر من سابقه في كونه راجعاً إلى أيام نبوّته وعهد رسالته صلى الله عليه وآله بقرينة قوله: « كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ به على نبيّه ».

3. أخرج الصدوق في علل الشرائع عن أبيه عن سعد عن معاوية بن الحكيم عن البزنطي عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ على رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلما توجه أبو سفيان إلى « أُحد » كتب العباس إلى النبي فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه، ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلما دخلوا المدينة أخبرهم [6] والخبر صحيح إلى البزنطي وهو

---

(1) المراد سعد بن عبد الله.

(2) أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي.

(3) علل الشرائع: ص 53.

(4) قد أوضحنا المراد منه ومن بعده في الحديث المتقدم.

(5) علل الشرائع: ص 53 ومعاني الأخبار: ص 20.

(6) علل الشرائع: ص 53.

من أصحاب الاجماع ورجاله كلهم ثقاة غير أنّ في آخره إجمالاً واهمالاً، يلحقه بالمراسيل نعم لا بأس بمضمونه فهو يؤيد ما قدمناه من الصحيحين، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ أحياناً في عهد الرسالة لكن نقله زيني دحلان في سيرته بصورة أُخرى ودونك نصه: كتب العباس للنبي صلى الله عليه وآله وأخبره بجمعهم وخروجهم وراودوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشيء من المال فجاء كتابه للنبي وهو بقبا وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بني غفار استأجره وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك، فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأُبي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أُبياً ثمّ نزل صلى الله عليه وآله على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس [1].

4. أخرج الشيخ الأقدم محمد بن الحسن الصفار عن الحسن بن علي عن أحمد بن هلال عن خلف بن حماد عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ النبي كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب [2] ويكفي في ضعف الحديث أنّه مروي عن أحمد بن هلال الذي خرج التوقيع عن الناحية المقدسة في لعنه ونقل الصدوق عن شيخه ابن الوليد عن سعد أنّه قال: ما سمعنا ورأينا بمتشيّع رجع عن تشيّعه إلى النصب إلّا أحمد بن هلال.

أضف إليه أنّه مخالف لما قدمناه من الصحيحين من أنّه صلى الله عليه وآله كان يقرأ ولا يكتب [3].

فاتضح أنّ ما يصح من هذه المأثورات إنّما هو الحديث الأوّل والثاني ويؤيدهما الثالث وهي بمجموعها تهدف إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ ولا يكتب أيام رسالته ورحاب دعوته ولا ضير في الالتزام به خصوصاً إذا كان غير متظاهر بالقراءة، مكتفياً بقدر الضرورة، ويؤيدها حديث بدء الرسالة.

---

(1) سيرة زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية: ج 2 ص 24.

(2) بصائر الدرجات: ص 62.

(3) راجع الحديث الأوّل والثاني.

5. أخرج الكليني في كتاب الحجة باسناده عن الحسن بن العباس الحريش عن أبي جعفر الثاني عليه السلام عن أبي عبد الله قال :

كان علي عليه السلام كثيراً ما يقول: ما اجتمع التيمي والعدوي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقرأ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ بتخشّع وبكاء فيقولان: ما أشد رقّتك لهذه السورة ؟ فيقول رسول الله لما رأت عيني ووعى قلبي، ولما يرى قلب هذا من بعدي فيقولان: وما الذي رأيت وما الذي يرى ؟ قال: فيكتب لهما في التراب: ﴿ تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال: ثمّ يقول: هل بقى شيء بعد قوله عزّ وجلّ: ﴿ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ فيقولان: لا، فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك ؟ فيقولان: أنت يا رسول الله، فيقول: نعم، فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي ؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها ؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: إلى من ؟ فيقولان: لا ندري، فيأخذ برأسي ويقول: إن لم تدريا فادريا هو هذا من بعدي، قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من شدة ما يداخلهما من الرعب [1].

وجه الدلالة: أنّ قوله عليه السلام : « فيكتب لهما في التراب » بصيغة المعلوم دال على أنّ النبي كان يكتب هذه الآيات في التراب.

ويؤسفنا أنّ الحديث ضعيف للغاية.

لأجل الحسن بن العباس بن الحريش، قال النجاشي: « أبو علي روى عن أبي جعفر الثاني ضعيف جداً له كتاب « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » وهو كتاب ردئ الحديث، مضطرب الألفاظ [2].

وقال الغضائري: « أبو محمد ضعيف جداً يروي عن أبي جعفر الثاني فضل « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » وله كتاب مصنف فاسد الألفاظ، تشهد مخائله على أنّه موضوع وهذا الرجل لا يلتفت إليه ولا يكتب من حديثه ».

---

(1) الكافي كتاب الحجة باب « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » وتفسيرها ص 249 طبع مكتبة الصدوق.

(2) فهرست النجاشي: ص 45 ط الهند.

قال المحقق التستري: « إن أردت أن تقف على صحة ما قاله النجاشي والغضائري في حق الرجل فراجع باب « فضل إنّا أنزلناه » من الكافي تجد صحة كلامهما فترى أنّه روى في ذاك الباب تسعة أخبار بسند واحد كلها عن الحسن بن عباس بن الحريش عن الجواد عليه السلام فلفظها فاسد ومعناها كاسد وهكذا راجع تفسير القمي في أول سورة محمد صلى الله عليه وآله [1].

ثم نقل بعض أحاديثه، ونقده نقداً نزيهاً.

حصيلة الكلام في أُمّية النبي صلى الله عليه وآله :

قد أصبحت أُمّية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قبل أن يختاره الله لإبلاغ رسالته أمراً واضحاً كوضوح شمس الضحى، لا يشك فيها ذو مسكة ومن له أدنى إلمام بتاريخ الجزيرة وحياة الأُمّة العربية، العائشة فيها وأمّا حديثها بعد البعثة فالامعان في ما نقلناه من حديث بدء الرسالة والصحيحين المرويين عن الإمام الصادق عليه السلام يعطي أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلو جاز الركون في مثل المقام إلى هذه النقول المروية بصورة الآحاد من الأخبار، فنحكم بمفادها، وإلّا فالحكم ببقائه على ما كان عليه من الأُمّية قبل البعثة أوثق وأسد، ويؤيد الأخير ما نقلناه في قصة الحديبية في بعض صورها التي عرفناك، والتعليل الوارد في الآية الكريمة أعني قوله سبحانه: ﴿ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ خصوصاً لو كان مراد القائل تظاهره صلى الله عليه وآله بصناعة القراءة والكتابة على أظهر الناس، ورؤوس الأشهاد، فإنّه يجر الشك إلى ما قبل الرسالة كما لا يخفى.

نحن وقساوسة الغرب والمستغربة :

بالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في الدور الجاهلي، ومحيطه البدوي على أُمّية النبي وعشيرته وأقربائه، نجد مغالطات وتشكيكات أثارتها قساوسة الغرب حول

---

(1) قاموس الرجال: ج 3 ص 182 ـ 183، راجع تنقيح المقال: ج 1 ص 286.

أُمّيته ﷺ وتبعهم بعض المستغربة في الشرق، الذين يتطفّلون على موائد الغربيين في كل شيء، حتى فيما يرجع إلى الإسلام والمسلمين، والشرق والشرقي، غير واقفين على نواياهم وما تكنه صدورهم وضمائرهم، من القضاء على الإسلام والمسلمين، والحقد والعداء للنبي الأعظم ورسالته، وما يستهدفون من بث هذه التشكيكات والمغالطات، التي لها طابع التحقيق، حول الرسول الأكرم وأُمّيته.

وفي الوقت نفسه، لا مصدر لهم في انكار أُمّيته إلّا مراسيل عن مجاهيل، أو انتحالات أعداء الدين، نظراء ابن أبي العوجاء و ... كل ذلك لبثّ الريب في قلوب البسطاء من المسلمين بالنسبة إلى رسالته، ودينه، وكتابه، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لانكار رسالته الالهية واتصاله بالعوالم الروحية حتى يصوّروا لهم، أنّ النبي كان قارئاً وكاتباً وأنّ ما جاء به من المعارف والأحكام هي انتاج عبقريته الفذة وشخصيته اللامعة، وسبره في الكتب وغوره فيها، شأن كل باحث متتبع.

غير أنّ جهلهم أو تجاهلهم الحقيقة ودعاياتهم الواسعة لا يؤثر شيئاً في قلوب المثقفين من الأُمّة، كيف وقد تسالمت عليها الأُمّة منذ ألف وقرون لم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، حتى جعل صاحب المنار وغيره « أُمّية » النبي أحد وجوه اعجاز القرآن وقالوا: إنّ الضمير في قوله سبحانه: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود إلى ـ المبلغ ـ بكسر اللام أي الرسول نفسه لا إلى القرآن، وقال في تفسير الآية: « فإن خفي عليكم الحق بذاته فهذه آية من أظهر آياته، وهي عجزكم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، من رجل أُمّي مثل الذي جاءكم به، وهو عبدنا ورسولنا محمد وإن عجزتم عن الاتيان بسورة من مثله، تساوي سورة في هدايتها وتضارعها في اسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة وعصركم أرقى عصور الفصاحة فاعلموا ما جاء به، بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلّا بوحي إلهي وامداد سماوي » [1].

وما ذكره من رجوع الضمير إلى النبي وإن كان خلاف ظاهر الآية، خصوصاً في

---

(1) المنار: ج 1 ص 191.

قوله ســـبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ــ 88) وفي قوله سبحانه: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود . 13) إلّا أنّه أحد وجوه اعجازه.

قال العلّامة الشهرستاني: « إنّ من وجوه اعجاز القرآن والاعجاب به صدوره من مثل محمد الأُمّي ربيب البادية، البعيد عن حضاير الفنون، البعيد عن حواضر الحكماء ومحاضر العلماء ــ إلى أن أوضح مقاله بمثال ــ وقال: الشعب الواثق بأنّ سفيره لا يقرأ ولا يكتب ولا يخون، ولا يكذب ولم يعهد منه الشعر ففي وضع راهن كهذا لو يفاجئهم سفيرهم بكتاب فذ في الكتابة والإنشاء والإملاء ... وادعى أنّه مرسل به من ناحية السلطان ... فإنّ الشعب ضروري ايمانه واذعانه له، وعدم اتهامه بأنّه المباشر لهذه الفرية ».

الفصل السادس

علم الغيب

في

الكتاب العزيز

أظنّك أيّها القارئ الكريم في غنى عن بيان معنى « الغيب » ومفاده، لغةً وعرفاً، فإنّ للغيب « أصلاً صحيحاً يدل على تستر الشيء عن العيون، ثم يقاس من ذلك الغيب ما غاب، ممّا لا يعلمه إلّا الله ».

« ويقال: غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً. وغاب الرجل عن بلده. وأغابت المرأة فهي مغيبة، إذا غاب بعلها، ووقعنا في غيبة وغيابة أي هبطة من الأرض يغاب فيها. قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الجُبِّ ﴾ والغابة: الاجمة والجمع غابات وغاب، وسمّيت لأنّه يغاب فيها » [1].

وقال الراغب: « الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين يقال: غاب عن كذا، قال تعالى: ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ واستعمل في كل غائب عن

---

(1) مقاييس اللغة: ج 4 ص 403.

الحاسة، وعما يغيب عن علم الانسان بمعنى الغائب قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ويقال: للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنّه لا يغيب عنه شيء كما لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه والغيب في: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنّما يعلم بخبر الأنبياء: [1].

توضيحه: أنّ الغيب يقابل الشهود، فما غاب عن حواسّنا وخرج عن حدودها، فهو غيب، سواء أكان أمراً مادياً، قابلاً للإدراك بالحواس، كالحوادث الواقعة في غابر الزمان، والمتكوّنة حالياً، الغائبة عن حواس المخبر، أو بعد لاي من الدهر، أم كان مما يمتنع إدراكه بالحس أو وقوعه في أفقه، كذاته تعالى، وحقيقة البعث والنشور، والحساب، ونفخ الصور، والميزان، وملائكة الله، وجنته وناره، ولقائه، وحقيقة الحياة، في النشأة الأخرى، والوحي والنبوّة إلى آخر ما يجب الإيمان به وتصديقه، كما يدل عليه قوله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: 3 ــ 4).

وقد أوضحه بعض الأعلام بقوله :

الغيب: في العرف العربي اسم لمعنى يقابل الحضور وضد الشهود، كما في القرآن: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وفي الحديث النبوي: « ألا فليبلغن الشاهد الغائب » وفي كلام الإمام علي عليه السلام : « شهود كالغيب ».

والشهود: كناية عن اتصال الحواس بالحاضر لديها وهو المراد من الحضور أيضاً فالغيب كالغائب، ما لا يتصل به الحس، وبه سمّي المسافر غائباً، وخلافه حاضراً، فالنبأ الغيبي، بناء على ما عرفت، هو النبأ الذي لا يتصل بالمحسوس لديك فعلاً، وإن

---

(1) مفردات الراغب: ص 366 . 367.

كان أصله محسوساً من قبل، ثم غاب كالمسافر أو بالعكس كالمولود الذي كان في غيابة الرحم، محجوباً عن الحواس ثمّ ولد بعد، فصار محسوساً بين الناس.

وربّ أُمم دوّخت الأقيال والأجيال في سالف الدهر، كجرهم وأياد، ثمّ بادت، وهم اليوم غيب، وأنباؤهم الخطيرة تعد في زوايا التاريخ من الغيوب، وربّ جراثيم الأمراض كانت محجوبة، أو لا تزال محجوبة عن الحواس، ثمّ في مستقبل الأجيال تقوى الآلات على استكشافها، فتصير محسوسة مشهودة، وربّ طعام يقصر عن شمّه حسّ الانسان والحيوان، إلّا النمل الذي فاق حسّه على غيره، فيهتدي إليه ولا يغيب عنها، أو كحبة خردل لا تغيب عن الغراب، لحدة بصره، بينما هي غائبة عن غيره، أو صوت متحرك في دياجير الظلام لا يغيب عن احساس الفرس، لقوّة سمعه بينما يغيب عن غيره ... [1].

وهذا البيان الضافي يوقفنا على أنّ الغيب على قسمين: مطلق واضافي، فالمطلق منه ما لا يقع في أُفق الحس أبداً ويمتنع إدراكه بالآلات والأدوات المادية كذاته سبحانه وصفاته وغيرهما ممّا عدّدناه، والاضافي ما يتفاوت بحسب الظروف والاشخاص، فربما يكون غيباً في ظرف، فجرثومة السل كانت غيباً في غابر الزمان، قبل أن يقف عليها مكتشفوها، ويروها تحت المجهر إلى أن عادت أمراً محسوساً في هذه الظروف التي كثرت فيها الأدوات العلمية، وسهل الوقوف على صغار الموجودات التي لا يدركها الطرف مجرداً عن الآلات الحديثة ...

وإلى ذلك يشير العلّامة الطباطبائي بقوله: الأشياء المجهولة، أي غير الواقعة تحت الحواس، غيب، ومن الحري أن نسمّيها عندئذ غيباً نسبياً، لأنّ هذا الوصف الطارئ عليها، وصف نسبي يختلف بالنسب والاضافات، كما أنّ ما في الدار مثلاً، من الشهادة بالنسبة إلى من فيها، ومن قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها، وكذا الأضواء والأكوان المحسوسة بحاسّة البصر، من الشهادة بالنسبة إلى البصر، ومن الغيب

---

(1) المعجزة الخالدة: ص 71 . 72.

بالنسبة إلى حاسّة السمع، والمسموعات التي ينالها السمع، شهادة بالنسبة إليه، وغيب بالنسبة إلى البصر، ومحسوساتهما جميعاً من الشهادة بالنسبة إلى الانسان الذي يملكهما في بدنه ومن الغيب بالنسبة إلى غيره من الاناسي [1].

وبذلك يصح لنا أن نصطلح ونعبّر عن الغيب البحت [2] بـ « الغيب عن العالم المادي » وعن الغيب النسبي بـ « الغيب في العالم ».

بما أنّ الغيب البحت، لا يخرج عن تحت الخباء، فلا يتفاوت حاله بحسب الظروف والأحوال، فالواجب على الانسان، الإيمان به، إذا قام الدليل على وجوده لامتناع شهودها، والتعرف على حقيقتها ما لم يخرق الانسان الحجب المادية، ولم يلق الستار عن مشاعره، حتى يتعرّف عليها كتعرّفه على المحسوسات ولا يحصل ذلك إلّا بالموت، والتحلل من الجسد، والتحرر من المادة حتى يصدق عليه قوله سبحانه :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: 21 ـ 22).

أنواع المغيبات في القرآن :

إنّ المغيبات الواردة في القرآن لا تزيد أُصولها على أقسام ثلاثة :

الأوّل :

الخبر عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته، والخبر عن الروحانيات وملائكته وتدبيره العوالم الأرضية، والسماوية، وشؤون الاحياء بعد الموت في البرزخ وحالة الأرواح قبل المعاد وبعده من نعيم أو جحيم، والقرآن يموج بهذه المعاني الغيبية المطلقة التي لا

---

(1) الميزان: ج 7 ص 128.

(2) ما أسميناه غيباً بحتاً فإنّما هو مجرد اصطلاح ليحصل الفرق بين القسمين وإلّا فإنّما هو غيب بحت بالنسبة إلى العالم المادي، وأمّا بالنسبة إلى نفسه أو ما يسانخه من الموجودات أو الواجب سبحانه فليس غيباً أصلاً.

يتعرف عليها الحس ولا تقع في أُفقه في هذا الظرف.

الثاني :

الإخبار عن أُمم قد خلت من قبل وطويت حياتها، فأصبحوا ممّا لا يرى حتى مساكنهم ومواطنهم، من دون أن يرجع إلى كتب السير والتاريخ والكهنة والربانيين أو يطالع كتاباً أو باباً خاصاً في هذا الموضوع. ومثله الخبر عن شؤون البشر في مستقبل أدواره وأطواره، والاشعار بملاحم وفتن وأحداث في مستقبل الزمن، كإخبار القرآن عن إنّ ابا لهب وامرأته يموتان كافرين، في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: 1 ـ 5)، وإخباره عن غلبة الروم، بعد بضع سنين في قوله سبحانه: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ... ﴾ (الروم: 1 ـ 4).

وتلحق بذلك الأُمور التي قيل اختص علمه بها سبحانه، كوقت الساعة: والمستور في ظلمات الارحام، ... الواردة في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان ـ 34).

وسوف نرجع إلى البحث عن هذه الآية وتقف على نظرنا فيها.

الثالث :

الإخبار عن بعض الموجودات أو النواميس السائدة في الكون، وقد كان مغيباً عند نزول الوحي عن ادراك الحواس المجردة عن الأدوات المخترعة في هذا الزمان، كإخباره سبحانه عن زوجية الأشياء عامة بقوله: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات ـــ 49) ووجود الدابة في السماوات بقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ

قَدِيرٌ ﴾ (الشوري . 29).

إلى غير ذلك من إخباراته عن الحقائق العلمية والنواميس المطردة في الكون.

ثمّ إنّ الزرقاني أرجع أُصـــول أنباء الغيب الواردة في القرآن إلى أُمور ثلاثة على وجه يقرب ممّا ذكرناه، قال: من ذلك قصص عن الماضي البعيد، المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء ــ إلى أن قال: ــ أمّا غيوب الماضي فكثيرة تتمثّل في تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنزيل ولم يكن لمحمد إليها من سبيل كقصـة نوح، وموسـى، ومريم، وأمّا غيب الحاضـر فنريد به ما يتصـل بالله تعالى والملائكة والجن والجنّة والنار ونحو ذلك ممّا لم يكن للرسـول ﷺ سـبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضـلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح.

ومن غيب الحاضـر أو الماضـي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادئ لم يكشـف عنها إلّا العلم الحديث، وأمّا غيب المستقبل فهو تنبّأ بحوادث وقعت كما أخبر ... [1].

نعم أرجع العلّامة الشـهرسـتاني أنواع المغيبات إلى ثمانية أقسـام [2] ويرجع أُصـولها إلى الوجوه الثلاثة التي أوضحناها.

ثمّ إنّ هذا التقسيم، إنّما هو بالنسبة إلى البشر المحدود، الذي تغيب الأشياء عنه، وأمّا بالنسبة إليه سـبحانه فالأشـياء كلّها حاضـرة لديه، بأعيانها الخارجية فالماضـي والحال والمسـتقبل عنده سـواسـية: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ ﴾ (يونس: 61) فهو المحيط بكل ما دق وجل، ولا يشـذ عن محيط علمه خبر خطير ولا صـغير ... إلّا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.

---

(1) مناهل العرفان: ج 2 ص 263 . 264.

(2) المعجزة الخالدة: ص 72.

الإخبار عن الغيب أحد وجوه إعجازه :

ثمّ إنّ المغيبات التي أشرنا إليها إجمالاً، دلّت قبل كلّ شيء على كون القرآن كتاباً سماوياً، أوحاه سبحانه إلى أحد سفرائه، فإنّ الإخبار عن المغيبات الكونية، والنواميس السائدة في الوجود، أو الإخبار عن الأُمم البائدة على النحو الذي ذكرناه أو الإخبار عن شؤون البشر في مستقبل أدواره، والإيماء إلى الملاحم والفتن، والتي لا يدل عليها ولا يرشد إليها الحس، أمر خارج عن طوق البشر، فلا مصدر لها إلّا كونها وحياً أو إلهاماً، من خالقه إلى مخلوقه ورسوله الذي ارتضاه فهو عالم الغيب والشهادة فلا يطلع على غيبه أحداً إلّا من ارتضاه من رسول، فمستند النبي في مثل هذه المغيبات هو الله علام الغيوب.

وقد عرفت أنّ الإخبار عن الغيب بأقسامه الثلاثة كثير في القرآن المجيد، وأنّ استقصاء الموضوع بعامّة نواحيه، يحوج الباحث إلى تأليف مفرد. وقد قام عدة من الفضلاء في عصرنا بجمع الآيات التي أخبرت عن النواميس السائدة على الكون من أسرار الخلقة ونواميس الطبيعة، مما كانت مختفية في عصر نزول القرآن، ولم يكن سبيل إلى استكشافها إلّا من طريق الوحي ففسرّوها وأوضحوا مداليلها [1] وبذلك أغنونا عن أفاضة القول في هذا القسم من الغيب، وأمّا غير هذا القسم من أقسام المغيبات التي جاءت في القرآن فمجمل القول فيه :

إنّ المتفحّص في ما أخبر القرآن به من أحوال الأُمم والحوادث الماضية، يجد من نفسه أنّ المصدر الوحيد لبيان تلك الحوادث هو الوحي الالهي ليس غير وأنّ النبي الأعظم ﷺ لم يتلقها من مثقفي عصره ولا من الكتب الدارجة في عهده، التي تنسب إلى الوحي وتعزى إلى الأنبياء، إذ لو فرضنا أنّه أخذ ما أتى به من القصص من أحبار اليهود وأساقفة النصارى وقسيسيهم وكهنة العرب والكتب الدينية الرائجة من التوراة

---

(1) راجع كتاب العلوم الطبيعية والقرآن، والقرآن والعلوم الحديثة وغيرهما.

والانجيل، لوجب أن تنعكس على كتابه ظلال مصـــادر علمه، ومآخذ نقله، ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدين في جميع النواحي عامة وفي ناحية القصص خاصة.

إنّ القرآن اشـترك في بعض القصـص مع التوراة الرائجة التي اتفق اليهود والنصـارى على أنّها كتاب الله المنزل على رسـوله « موسـى » عليه السلام فأوردت التوراة الدارجة تلك القصـص مملوءة بالخرافات وجاء في بيانها بجمل تشابه كلام المبتلى بالهذيان.

غير أنّ القرآن الكريم لما كان كلام الله القدوس، ووحيه، قد نقل كثيراً من قصـص الأُمم وتواريخها، بأبلغ العبارات وأحسـنها، وأنصـع الجمل وأسـدّها نزيهة عمّا يمس كرامة الله سـبحانه وكرامة أنبيائه ورسله، ولو صح ما ذكر من اختلاق النبي الأكرم للقرآن من جانب نفسه يجب أن يتأثر بمصـادر نقلها، وامتنع حسـب العادة أن لا يذكر شـيئاً من محتوياتها مع ما فيها من القعقعة التاريخية، والناقل لقصص العهدين يستحيل أن لا ينعكس على أفكاره وكلامه، ما يجده فيهما.

يجب على علماء المسـلمين ولاسـيما الاخصـائيين منهم في علم السـير والتاريخ القيام بتأليف موسوعة كبيرة [1] تتضمن عرض ما جاء في العهدين من القصص والحوادث على ما جاء في القرآن ثمّ القضـاء الصـحيح بين النقلين حتى يتبيّن أنّ ما يحتوي عليه القرآن من سمّو المعارف ورصـانة التعليم، لا يمكن أن يعزى إلّا إلى الوحي السماوي، وأنّ ما تشتمل عليه كتب العهدين من قصص الخرافة وأباطيل الأحاديث لا تلتئم مع البرهان، ولا تتمشّى مع المنطق الصحيح، وأنّ هذه الكتب قد دست وزورت

---

(1) نعم، قد قام لفيف من الفطاحل الأعلام فألّفوا في هذا المضمار كتباً ورسائل تسد جوع القارئ بعض السد فعالجوا بعض النواحي من هذه الاطروحة شكر الله مساعيهم، فراجع إلى « الهدى إلى دين المصطفى » و « الرحلة المدرسية » للعلامة الحجة البلاغي و « نفحات الاعجاز » و « البيان في تفسـير القرآن » لآية الله الخوئي و « الميزان في تفسـير القرآن » ج 3 تأليف المفكر الإسـلامي الكبير السـيد محمد حسـين الطباطبائي، ثمّ حكّم عقلك ووجدانك هل ترى أنّ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أخذ معارف كتابه واقتبس معارف قرآنه وقصصه من هذه الكتب.

وتطرّق إليها التحريف بيد أُناس لا خلاق لهم من الدين ولا الشرف الانساني.

بقي من أقسام الغيب الوارد في الكتاب العزيز أمران :

1. ما يرجع إلى الإخبار عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته والعوالم الروحية وغيرها التي يموج بها القرآن، فقد خصصنا لبيان هذه المعارف القسم الأوّل من كتابنا هذا فشرحنا لك هذه المعارف وما فيها من سمو ورصانة واحداً بعد واحد حسب الترتيب الذي وقفت عليه في مقدمة الكتاب.

2. ما يرجع إلى الخبر عن شؤون البشر في مستقبل أدواره وأطواره وما يلم به من ملاحم وفتن، فهذا هو الذي نبحث عنه في المقام على وجه الاختصار فنقول :

إنّ القرآن قد أخبر عن الحوادث التي كان التكهّن والفراسة يقتضيان خلافه من حيث النظر إلى الحال الحاضر وطغيان الشرك وضعف الدعوة الإسلامية، وما يجري من النكال والتشريد، والجفاء على ملبيها، مع أنّه صار صادقاً في جميع ما اخبر به ولم يخالف الواقع في شيء منها، ولا شك أنّه لم يكن له طريق في الإخبار بهذه المغيبات إلّا الوحي، هب أنّه تكهّن أو تفرّس في بعض إخباراته. وأجل نبي العظمة عن هذه الفرية الشائنة، فهل يمكن القول بأنّه تفرس في جميع ما اخبر به، وأنّه تنبأ معتمداً على علائم وإمارات كانت ترشده إليها، مع أنّ المفروض أنّ الأحوال الحاضرة في بعض إخباراته كانت تقتضي خلاف ما اخبر به كما سيوافيك بيانه، ونحن نأتي في المقام بكثير من الآيات التي تتضمن الإخبار عن الحوادث المستقبلية التي تحققت بعد إخبارها في زمن الرسول صلى الله عليه وآله أو بعد لحوقه بالرفيق الأعلى بيسير، وأمّا الاستقصاء في ذلك فلنتركه إلى من أراد الغور أكثر من ذلك.

نقول: هناك مغيبات عن ملاحم أحداث وفتن اخبر بها القرآن وظهر صدقها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله أو بعده بقليل، فهذه الأخبار تدل قبل كل شيء على صحة نبوّته وأنّ القرآن منزّل من عنده سبحانه، ولا يمكن حملها على ما يحدث بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهنة أو العرّافين والمنجمين فإنّ كذب هؤلاء أكثر من صدقهم

والناس لا يحصون عليهم أقوالهم، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم، وإنّما يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال، كتشنيع أبي تمام على المنجمين في زعمهم أنّ عمورية لا تفتح إلّا عند نضج التين والعنب في قصيدته المعروفة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

إلى أن يقول:

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

على أنّ دأب المنجمين هو أن يعبّروا عمّا يتوقعون من أحداث المستقبل بآرائهم وبقرائن الأحوال وأخبار الصحف الدورية، برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع بأهوائهم، وأمّا ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم المحرم ولا من علم الغيب في شيء [1].

---

(1) راجع المنار: ج 1 ص 204 . 205.

مغيبات القرآن

وأخباره الغيبية

1. تنبؤ القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله :

لقد تحدى القرآن في مواضع عديدة من آيات سوره تحدّياً يثير روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم، وتحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة حيث انقرضت طبقة المخاطبين ومضت أجيال من عرب وأعجام، وكلهم اعترفوا بالعجز عن المعارضة مع كثرة من تتطاول أعناقهم إلى هدم بناء الدين، وإبطال معجزة الإسلام الخالدة.

إنّ المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين إمّا نقصاً يعالجوه بالكمال أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه، وإذا فرضنا أنّ واحداً قد عجز عن هذا، فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة، وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أُمّة، وإذا عجزت أُمّة، فمن البعيد أن يعجز جيل، وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال، فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدّي عن رجل يعرف ما يقول فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن محمد أفضل المرسلين؟ وهل يمكن أن يفسر هذا التحدّي الجريء الطويل العريض، إلّا بأنّه استمداد من وحي السماء واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عن من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه [1].

---

(1) مناهل العرفان: ج 2 ص 268.

وقد نص بذلك التحدّي في موارد من آيات سوره.

منها قوله سبحانه :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: 23 ـ 24).

أخبر القرآن في بداية أمر النبي بمكة عن عجز البشر عن مباراة القرآن ومعارضته إلى يوم القيامة، وأنّ الناس لا يسعهم الاتيان بمثل هذا القرآن، مهما تظاهروا وتناصروا وحتى اليوم تنقضي على هذا التحدي والتنبؤ قرون وهو صادق في وعده وعهده وسيبقى التحدّي قائماً مادام القرآن، ويستمر عجز البشر عن مجابهة هذا التحدي.

قال الطبرسي: « ولن » في قوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ تنفي على التأبيد في المستقبل وفيه دلالة على صحة نبوّة نبيّنا ﷺ لأنّه يتضمن الإخبار عن حالهم في مستقبل الأوقات بأنّهم لا يأتون بمثله، فوافق المخبر عنه الخبر [1].

ويليها في التنبؤ بعجز البشر والجن عن معارضة القرآن، قوله سبحانه :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ـ 88).

وقد بلغ في تحدّيه إلى أن اكتفى من المتحدّي بإتيان عشر سور مثله، بل سورة واحدة من سوره.

قال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 63.

مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود . 13).

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس . 38).

ترى في هذه الآيات من التنبّؤ الواثق بعجز الانس والجن عن معارضة القرآن ولكن المستقبل كما يقال « غيب » لا يملكه النبي ولا الوصي ولا أي شخص سواهما غير أنّ النبي صار صادقاً في تنبّؤه هذا، ولا يزال صادقاً في الحال فعلى أي مصدر اعتمد هو في هذا التحدي الطويل العريض، غير الإيحاء إليه الذي لم يزل يصدر عنه في اخباره وتشريعه ؟

2. التنبّؤ بانتصار الرومان على الفرس :

قال سبحانه: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: 1 . 6).

وقد وقع ما أخبرت به الآية بأقل من عشر سنين، فغلب الروم ودخل جيشهم مملكة الفرس باجماع من أهل التاريخ، ودونك اجماله: انّ دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية بعد حروب طاحنة بينهما سنة 614 م فاغتمّ المسلمون بسبب أنّها هزيمة لدولة متديّنة أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين بشماتة: إنّ الروم يشهدون أنّهم أهل كتاب، وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أُنزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم.

فنزلت الآية الكريمة يبشّر الله فيها المسلمين: بأنّ هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار للمسلمين في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع، ولم يك مظنوناً وقت هذه البشارة، انّ الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها، لأنّ الحروب الطاحنة انهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل عليه النص الكريم: ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ ولأنّ دولة الفرس كانت

قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة، ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة 622 م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة.

واحتمل « الزرقاني » أنّ الآية الثانية حملت نبوءة أُخرى وهي البشارة بأنّ المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في الوقت الذي ينصر فيه الروم، وقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعاً في الظرف الذي ظفر الرومان، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم، كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة، لأنّهم كانوا أيامئذ في مكة في قلة وذلة يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم وإلّا ولا ذمة ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات [1].

غير أنّ من المحتمل أن يكون فرح المؤمنين لأجل انتصار الرومان على الفرس تفؤلاً بذلك حيث كان التدين بالله سبحانه وشرائعه السماوية يجمعهما في أمر واحد لا لأجل انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى.

نعم الآية محتملة لكل من الوجهين وإن أصر الكاتب على استفادة المعنى الأوّل منها.

3. اخباره عن صيانة النبي عن أذى الناس :

قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة ـ 67).

أصفقت صحاح السنّة [2]، وأحاديث الشيعة المتواترة [3] على أنّ الآية نزلت يوم

---

(1) مناهل العرفان: ج 2 ص 266.

(2) راجع الغدير: ج 1 ص 194 ـ 217.

(3) راجع غاية المرام: ص 335.

الغدير، حينما أمره سبحانه أن ينصب علياً عليه السلام إماماً للناس، وكان النبي على حذر من الناس في تنصيب علي للخلافة، فأخبره الله سبحانه بأنّه سيعصمه من أذى الناس وشرّهم، ولا يصلون إليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال شخصه الشريف وتحققت نبوءة القرآن وصدّق الخبر الخبر.

ولو فرضنا صحاح القوم ولم نعتقد بما أثبته المتواتر من الروايات، وقلنا إنّ المراد من الناس هم المشركون وأعداء الإسلام، الذين أضمروا في أنفسهم عداء لقائده، فالآية متضمنة للتنبّؤ بالغيب أيضاً، إذ لم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم، وكانوا يتربصون به الدوائر، ويتحيّنون به الفرص، للايقاع به والقضاء عليه، وعلى دعوته وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً، فمن الذي يملك هذا الوعد إذن، إلّا الله الذي يغلِب ولا يغلَب.

وقال سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: 94 ــ 96) أخبر سبحانه عن أنّه يكفيه عن أذى المستهزئين ومؤامراتهم، وقد كفاه الله أشرف كفاية لم تكن تتعلق بها الآمال بحسب العادة، وقد بان للمشركين وعلموا ما في قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

روى البزاز والطبراني عن أنس بن مالك أنّها نزلت عند مرور النبي صلى الله عليه وآله على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون هذا الذي يزعم أنّه نبي ومعه جبرئيل [1] فأخبرت الآية عن ظهور دعوة النبي، وانتصاره على أعدائه، وخذلانه للمشركين الذين ناووه واستهزأوا بنبوّته واستخفّوا بأمره، وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه على بال أحد من الناس، اندحار قريش، وانكسار شوكتهم وظهور النبي عليهم.

قال الطبرسي: أي كفيناك شر المستهزئين واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا

---

(1) لباب العقول: ص 133.

خمسة نفر من قريش أو ستة ثم ذكر أسماءهم وكيفية هلاكهم [1].

قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ (النساء ـ 113) والمراد من الإضرار هو القتل فالله سبحانه حافظه وناصره.

4. تنبّوءات حول المنافقين والمخلّفين من الأعراب :

تجد في سورة التوبة والفتح والحشر نماذج من هذا القسم، يقول سبحانه: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ ﴾ (التوبة . 83).

فأخبر عن قعودهم، وعدم خروجهم مع النبي، فقوله سبحانه: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ معناه لن يكون لكم شرف صحبة الإيمان، بالخروج معي إلى الجهاد في سبيل الله، ولا إلى غيره من النسك أبداً ما بقيت: ﴿ وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ من الأعداء لا بالخروج والسفر إليهم، ولا بغير ذلك.

ويتلوه ما جاء فيه من التنبّؤ بما يحلف به المنافقون كقوله سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة . 42).

فأخبر عن حلفهم في المستقبل القريب، وعن كذبهم في حلفهم هذا. قال: الطبرسي وفي هذه دلالة على على صحة نبوّة نبيّنا إذ أخبر أنّهم سيحلفون قبل وقوعه فحلفوا وكان خبره على ما أخبر به [2].

ومثله قوله سبحانه: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

---

(1) مجمع البيان: ج 3 ص 346.

(2) مجمع البيان: ج 3 ص 33.

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة ــ 95) وفي هذه السورة شيء كثير من هذا الضرب من التنبّؤ، فتدبّر في آياتها ومضامينها تجدها مملوءة من الإخبارات الغيبية، وقد نزلت في حق المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

ونظير تلكم الآيات ما ورد في سورة الفتح من التنبّؤ حول الأعراب الذين تخلّفوا عن النبي في الخروج إلى الحديبية ودونك بعض الآيات: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (الفتح ـ 11).

وقوله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلّا قَلِيلاً ﴾ (الفتح ـ 15).

وفي هاتين الآيتين إخبارات غيبية عن كثير مما تفوّه به المخلفون وعن ما يضمرون في أنفسهم، وما يصيبهم في المستقبل، يظهر ذلك لكل من أمعن النظر في مفاد الآيتين ودونك تفسيرهما :

لـمّا أراد النبي المسير إلى مكة عام « الحديبية » معتمراً وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة من القبائل إلى الخروج معه، وهم « غفار » و « أسلم » و « مزينة » و « جهينة » و « أشجع » و « الدئل »، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو بصد وهو أحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنّه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، فتخلّفوا عنه، واعتلوا بالشغل، فأخبر سبحانه عن العذيرة التي سوف يتشبّثون بها، عند رجوع النبي وأصحابه عن الحديبية بقوله: ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ كما أخبر عن أنّهم سوف يطلبون من النبي أن يستغفر لهم والحال أنّهم كاذبون في معذرتهم التي تمسّكوا بها، وفي ما يطلبون من النبي الأكرم ﷺ من الاستغفار لهم، وهم لا يبالون استغفر لهم النبي أم لم يستغفر.

ثمّ أخبر سبحانه عن أنّ النبي بعد منصرفه عن الحديبية بالصلح، سوف يتوجّه

إلى « خيبر » ويأخذ من أهلها مغانم، وأنّ هؤلاء المتخلّفين يطلبون من النبي أن يتبعوه حتى يشاركوا المسلمين في ما يأخذون من المغانم، وأنّ النبي يجيبهم بأنّكم: ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ ولأجل ذلك خصَّ النبي مغانم « خيبر » لمن شهد الحديبيّة.

ويظهر من قوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ ﴾ أنّ الله سبحانه كان قد أخبر نبيّه عن تخلفهم في الحديبية، أيضاً كما أخبره عن تخلّفهم في غزوة خيبر.

ونظير ما سبق قوله سبحانه: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح ـ 16).

فأخبر المتخلّفين عن غزوة الحديبية بأنّهم سيدعون إلى معركة عنيفة تدور بينهم وبين قوم أُولي بأس شديد، فدعاهم النبي بعد سنتين إلى المقاتلة مع قبائل هوازن وحنين وثقيف، وكانوا أقواماً ذوي نجدة وشدة حسب ما نقرأه في السير والتاريخ، ثمّ أخبر سبحانه عن أنّهم يأخذون مغانم كثيرة بقوله: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح: 19 ـ 20).

فقد أخذوا بعد غنائم خيبر التي أشار إليها بقوله: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ غنائم كثيرة في محاربة قبائل حنين وهوازن.

ثمّ إنّه أخبر عمّا أضمره المنافقون وأسرّوه من الكفر والعصيان وأنهم ليعدون وعداً ثمّ يخالفونه قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ (الحشر: 11 ـ 12).

وحاصل الآيات: أنّه سبحانه يخاطب النبي ويقول: ألم تر يا محمد إلى الذين نافقوا فأبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب يعني يهود بني النضير لئن اخرجتم من دياركم وبلادكم لنخرجن معكم مساعدين لكم ولا نطيع في قتالكم وفي مخاصمتكم أحداً أبداً أي محمداً وأصحابه، بل وعدوهم النصر بقولهم: وإن قوتلتم لننصرنكم، ثم كذبهما الله في ذلك بقوله: ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فإنّه لو خرج أهل الكتاب لا يخرج المنافقون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرهم هؤلاء المنافقون، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار وينهزمون.

وقد نقل المفسّرون أنّ الآية نزلت قبل إخراج بني النضير وأُخرجوا بعد ذلك فلم يخرج معهم منافق ولم ينصروهم [1].

وقال سبحانه في بني النضير من اليهود ومن مال إليهم من المنافقين: ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر . 14).

أخبر سبحانه عن أحوال المنافقين مخاطباً للمؤمنين، بأنّهم لا يقاتلونكم إلّا في قرى محصّنة لا يبرزون لحربكم وإنّما يقاتلونكم متحصّنين بالقرى أو من وراء جدر يرمونكم من ورائها بالنبل والحجر بأسهم بينهم شديد، فعداوة بعضهم لبعض شديدة فليسوا بمتّفقي القلوب تحسبهم جميعاً متجمعين في الظاهر وقلوبهم شتى، خذلهم الله باختلاف كلمتهم ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون.

والآية تنطبق كل الانطباق على بني النضير، فلاحظ سيرة ابن هشام ج 2 ص 191.

5. الإخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة :

قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

---

(1) مجمع البيان: ج 5 ص 263.

الشَّـــوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلّا بُشْـرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْـرُ إِلّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * ... إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال: 7 .(12 .

الآية نزلت في وقعة « بدر »، وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصـــر على عدوهم ويقطع دابرهم، والمؤمنون على ما هم عليه من قلة العدد والعدة، حتى أنّ الفارس فيهم كان المقداد أو هو والزبير بن العوام، والكافرون هم الكثيرون الشـديدون في القوة، وقد وصـفتهم الآية بأنّهم ذو شـوكة، وأنّ المؤمنين اشـــفقوا من قتالهم، ولكن الله يريد أن يحق الحق بكلماته، وقد وفى للمؤمنين بوعده، فنصرهم على أعدائهم وقطع دابر الكافرين.

« قال رسـول الله سـيروا على بركة الله فإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني ﴿ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ ولن يخلف الله وعده، والله لكأنّي أنظر إلى مصـرع أبي جهل بن هشـام وعتبة ابن ربيعة وشـيبة بن ربيعة وفلان وفلان، وأمر رسول الله بالرحيل وخرج إلى بدر » [1].

فأخبر سبحانه بقوله: ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ عن هزيمة المشركين وقتل أعوانهم واستئصال شأفتهم ومحق قوّتهم، فإنّ دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم، ولن يصل إليه الهلاك إلّا بهلاك من قبله من الجيش، وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر لما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة [2].

وليس تنبّؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركة بدر منحصرة بهذه الآية بل تنبّأ بذلك في آية أُخرى وهي قوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ

---

(1) مجمع البيان: ج 4 ص 522.

(2) المنار: ج 9 ص 601، والناظر الدقيق المتأمّل في مفاد هذه الآيات الســبع يجد فيها تنبّؤات كثيرة تحقّقت كلّها في غزوة بدر، فاقرأ سيرة النبي الأكرم ولاحظ مفاد هذه الآيات.

الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: 44 ـــــ 45) فأخبر عن انهزام جمع الكفار وتفرّقهم وقمع شوكتهم، وقد وقع هذا في يوم « بدر » أيضاً حين ضرب أبا جهل فرسه وتقدم نحو الصف الأوّل قائلاً: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فأباده الله وجمعه وأنار الحق ورفع مناره، وأعلى كلمته فانهزم الكافرون وظفر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتوهّم أحد بأنّ ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً ليس لهم عدة يظفرون فيها بجمع كبير تام العدة وافر العدد، وكيف يستفحل أمر أُولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير، حتى تذهب شوكته كرماد اشتدت به الريح [1].

6. التنبّؤ بصيانة القرآن عن التحريف :

تنبّأ القرآن بأنّه سيبقى مصوناً عن التحريف بعامة معانيه، فمع أنّ القرآن بل التاريخ يقصّان علينا تحريف الكثير من كتب الله ووحي السماء، ومع أنّ المستقبل مليء بشتيت الحوادث المرة والليالي حبالى مثقلات، جاء القرآن يخبر بوضوح بأنّ الأيدي الجائرة لا تتمكن من التلاعب به حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر ـ 9) والمراد من « الذكر » بقرينة قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر ـــ 6) هو القرآن لا النبي كما احتمله بعضهم، وبما أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يكن من الذين يطلبون المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة ويسيرون على الخيال، فلا مناص من أن تكون صادرة عن وحي سماوي، معبّرة عن رأي من يملك الأرض والسماء والماضي والمستقبل.

نعم نوقش في دلالة الآية على صيانة القرآن عن التحريف بوجوه زائفة لا قيمة لها في ميزان الانصاف [2].

---

(1) البيان: ص 52 ـ 53.

(2) راجع في الوقوف على تلكم الشبهات وأجوبتها، تفسير البيان: ص 144 ـ 146.

7. الاخبار عن نجاح الإسلام والرسول :

قال سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: 32 . 33 ويقرب منهما ما ورد في سورة الصف 8 . 9، باختلاف يسير) فأظهره على الدين كلّه أعزّ اظهار، أُرغمت به آناف المشركين، وقبض ولحق بالرفيق الأعلى، ولم يبق في الجزيرة العربية وثن ولا وثني، ولأعلام التفسير حول الآية كلمات تفسر الآية بغير ما ذكرناه.

قال صاحب المنار بعد ما حقّق وفصل أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لأن يكون عالمياً، ويظهر على الدين كلّه، وأنّه صح عن النبي صلى الله عليه وآله : « أنّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أُمتي ما زوى لي منها »، قال: ومن العلماء من يقول إنّ بعض البشارات هذه لا يتم إلّا في آخر الزمان عند ظهور المهدي وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء وإقامته لدين الإسلام [1].

وفسّر الطبرسي « الظهور » بالغلبة بالحجة والقهر معاً، وقال أي ليظهر دين الإسلام على جميع الأديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلّا مغلوباً، ولا يغلب أحد الإسلام بالحجة وأهل الإسلام يغلبون أهل سائر الأديان بالحجة، وأمّا الظهور بالغلبة فهو أنّ كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك ولحقهم قهر من جهتهم.

وقيل: أراد عند نزول عيسى بن مريم فانّه لا يبقى أهل دين إلّا أسلم أو أدّى الجزية، وقال أبو جعفر عليه السلام إنّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمد صلى الله عليه وآله ، وقال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام أمّا بعزّ عزيز وأمّا

---

(1) المنار: ج 10 ص 460.

بذل ذليل ... [1].

وقال في موضع آخر: وفي هذه دلالة على صحّة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ لأنّه سبحانه قد أشهر دينه على جميع الأديان بالاستعلاء والقهر واعلاء الشأن كما وعده ذلك في حال الضعف وقلّة الأعوان. روى عباية: أنّه سمع أمير المؤمنين يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أظهر بعد ذلك ؟ قالوا: نعم، قال: كلا، فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلّا وينادى فيها شهادة أن لا إله إلّا الله بكرة وعشياً [2].

نعم يمكن أن يقال: المراد من الظهور معناه الجامع العام أي الظهور والغلبة أعم من الغلبة بالبرهان والحجة والغلبة بالقدرة والسيطرة، ثم الظهور أعم من الظهور على الشرك والوثنية السائدة في الجزيرة العربية يوم نزول الآية، والظهور على الشرائع كلها، في مشارق الأرض ومغاربها، فللظهور مراتب ودرجات تحقق بعضها في عصر الرسول والبعض الآخر بعده ﷺ والدرجة العليا منها إنّما تتحقق بظهور المهدي من آل محمد « عجل الله تعالى فرجه ».

على أنّ هنا آيات تنبّأت بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً مثل قوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ (الرعد ـ 17).

فتنبّأ بأنّ الإسلام سيخلد ويبقى، وأنّ الباطل والوثنية سيذهب جفاء، أخبر بذلك في الوقت الذي كان فيه المسلمون في مكة مضطهدين مستضعفين يخافون أن يتخطّفهم الناس، وقريب منه قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: 24 ـــ 25) فالمراد من الكلمة الطيبة، هي كلمة التوحيد وما يتفرّع عنها من أحكام وفروع، فالاعتقاد بالله سبحانه ووحدانيّته هو

---

(1) مجمع البيان: ج 3 ص 24.

(2) مجمع البيان: ج 5 ص 280.

الأصـــل الثابت والمحفوظ من كل تغير وزوال، ومن طروء أي بطلان عليه، وتتفرّع عنها أحكام ونسـك وأخلاق زاكية وأعمال صـالحة يحي بها الانسـان، ويعمّر بها المجتمع، وتعطي أُكلها وثمارها التي هي عبارة عن صلاح المجتمع الانساني وتكامله كل حين.

فالآية تشير إلى أنّ العقائد الحقّة وما يتفرع عنها من الأحكام، كشجرة طيبة فكما هي تضرب عروقها في الأرض وتعلوا أغصـانها إلى السـماء، ويتظلّل بها الناس، ويسـتفيد من ثمارها القريب والبعيد، فهكذا الدين الحق والكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد والإسـلام، سـوف تسـتقر في قلوب الناس، وتضـرب عروقها في ضـمائرهم وقلوبهم، وترفع أغصـانها في مظاهر حياتهم، يتظلّل بها العرب والعجم ويستفيد من آثارها الداني والقاصي، وبها يستقر السلام العام وتأمن سعادة الناس، وبها يتكامل المجتمع البشري في مراحل الحياة ومظاهرها، فتبقى دائمة على مرّ الليالي والأيام.

فهذه الآية تنبّئ عن مستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً في وقت لم يكن من بواسم الآمال ما يلقى ضـوءً على نجاح هذا الدين، ولم يكن عند النبي من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح، وليس النبي بشـــهادة تاريخ حياته ورجاحة عقله واتزانه ودقته، من الذين يلقون القول على عواهنه غير متريّثين بما يقولون بل كان يثبت في كلامه، ويتحرّى في مقاله حتى اشـتهر بالصـدق والأمانة، ومع ذلك فقد أخبر بلغة الواثق فيما يقول، عن نجاح دينه في المستقبل وأنّه سوف يضرب بجرانه خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية إلى أقاصي الدنيا.

وأعطف على ذلك تنبّؤ القرآن بكل وعود تدل على نجاح الرســـل والمؤمنين في ميادين الحياة ومعارك التنازع، كقوله ســـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَـــبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَـــلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات: 171 ــ 173) وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (غافر ــ 51) وقوله ســـبحانه: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ لَيَسْـــتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور . 55) [1].

فهذه الوعود المؤكدة الكريمة وإن وردت بصورة عامة، لكنّها تعم النبي الأكرم والذين آمنوا به، فقد نصر النبي وجنده وغلبهم على مخالفيهم وأعدائهم، ومكّن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في أرضه واستخلفهم فيها، وبدل خوفهم أمناً حتى استطاعوا أن يعبدوه آمنين غير خائفين إلى يومنا هذا.

« إنّ الإسلام لقى من ضروب العنت مراراً وتكراراً في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافياً في محوه وزواله ولكنّه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتاً، يسامي الجبال، شامخاً يطاول السماء، على حين انّ سجّلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها، ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول وأتباعه في مكة والمدينة وقد رمتهم العرب بقوس واحدة، عندما نزلوا المدينة وكانوا لا يبيتون إلّا بالسلاح ولا يصبحون إلّا فيه، وقد وعدهم بالنصر والغلبة وهم يضطهدون، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي، رغم هذه الأحوال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم واستخلفهم في أقطار الأرض وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم بعد خوفهم آمناً، يا لها نبوءة تأبى عادة أن يتحدّث بها إلّا من يملك تحقيقها ويخرق إن شاء عادات الكون ونواميسه من أجلها، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ » [2].

كيف وهو لم يكتف بهذا بل تنبّأ في الوقت الذي لم يكن فيه من بواسم الآمال، ما يوجب اطمئنانه بنجاحه ونجاح دينه وبأنّه سيعود إلى معاده وموطنه في حين أنّ المسلمين كانوا بمكة في أذى وغلبة من أهلها، وكان هو بالجحفة أثناء هجرته إلى المدينة

---

(1) راجع ما أسلفاه حول الآيات المتقدمة من عمومية المعنى وأوسعيته وكونه ذا مراتب فلا ينافي تأويلها بخروج الإمام المنتظر.

(2) مناهل العرفان: ج 2 ص 270 . 271 بتصرف.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (القصص ـــ 85) فأخبر عن رجوعه إلى معاده من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر [1].

وانّك لتجد في سبرك الذكر الحكيم آيات أُخرى غير ما ذكرناه تبشر بنجاح الإسلام والمسلمين، وتعبّر عن غلبتهم على أعدائهم، وهذه الآيات الكثيرة الواردة في هذا القسم من المغيبات، قد تحققت كلها ولم تتخلّف منها واحدة ولو تخلّفت منها واحدة لزمرت وطبّلة على تلك السقطة أعداؤه وطفقوا يرقصون فرحاً بالخلاف الذي وجدوه في كتابه الذي به تحدّاهم فهدم كيانهم وسفه أحلامهم.

ولا بأس بذكر بعض ما يناسب المقام من الآيات التي تنبّأت بانتصار الرسول والمسلمين على أعدائهم وأنّهم سوف يدخلون مكة بل يفتحونها.

قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح ـ 27)، روى أصحاب السير والتاريخ: « إنّ الله تعالى أرى نبيّه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، انّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر بذلك أصحابه، وأنّهم سوف يدخلون مكة، فلمّا خرجوا من المدينة وبلغوا الحديبية، خرج منها رسول الله ﷺ في عدد من أصحابه حتى إذا كان بذي الحليفة بعث النبي ﷺ عيناً، وجاء فأخبره بأنّ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش طليعة، وبعد محادثات جرت بين المسلمين وقريش اصطلحوا على أن يضعوا الحرب عشر سنين وأن يرجع رسول الله ومن معه من أصحابه في عامه هذا فلا يدخل مكة إلّا من العام القابل، فيقيم بها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب والسيوف في القرب، ولا يدخلها بغيره، فلمّا أنصرف رسول الله ومن معه من أصحابه، قال المنافقون: ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية وأخبر أنّه أرى رسوله الصدق في منامه، لا

---

(1) مجمع البيان: ج 4 ص 269.

الباطل وأنّهم يدخلونه وأقسم على ذلك وقال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ ﴾ أي العام القابل وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة ولعلّ التقييد بالمشيئة لعلمه سبحانه بأنّ منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأنّ لا يقع في الخبر خلف [1].

ونختم هذا القسم بتنبّؤين :

1. تنبّؤ القرآن بانتصاره على أعدائه من قريش وفتحه عاصمة الوثنيين ودخول الناس في دين الإسلام فوجاً بعد فوج، قال سبحانه: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: 1 ـ 4) فأظفره الله على أعدائه وفتح مكة ودخل الناس في دين الإسلام زمرة بعد زمرة، ولأجل ذلك النصر العظيم أمره سبحانه بتنزيه الله عمّا لا يليق به، وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تنبّأ فيها القرآن الكريم بفتح مكة، بل تنبّأ بفتح مكة مرة أُخرى وهو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح ـ 1) فقد روي أنّ المسلمين رجعوا عن غزوة الحديبية وقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة إذ أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فأدرك الرسول السرور والفرح، ما شاء الله، ففتحت مكة بعد عامين من نزول السورة، ومعنى قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ إنّا قضينا لك بالفتح.

وقال سبحانه: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف ـــ 13) والمراد من « فتح قريب » أمّا فتح مكة أو فتح بلاد الفرس والروم [2].

2. تنبّؤ القرآن بأنّه لا يضر ارتداد من ارتد ممّن آمن به فانّ الله يأتي بقوم رحماء على المؤمنين أشدّاء على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله لاعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، حيث قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ

---

(1) سيرة ابن هشام: ج 2، ص 308 ـ 322، مجمع البيان: ج 5 ص 126.

(2) مجمع البيان: ج 5 ص 108 ـ 109 و 282.

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة ـ 54).

وروي أنّ النبي ﷺ سئل عن هذه الآية، فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: هذا وذووه ... ثمّ قال: لو كان الدين معلّقاً في الثريّا لتناوله رجال من أبناء فارس، ونقلت في هدف الآية أقوال أُخر [1].

8. التنبّؤ بأحداث جزئية :

ومن غرائب التنبّؤات الإخبار عن أحداث جزئية، تحققت بعد الإخبار كما أخبر، فأخبر بأنّ أبا لهب وامرأته يموتان على الكفر، ولا يحظيان بسعادة الإسلام الذي يكفّر عنهما آثام الشرك ويحط أوزارهما، فماتا على الكفر، كما أخبر به اخباراً حتمياً وذلك في قوله سبحانه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: 1 ــ 5)، فأخبر بأنّه يدخل ناراً عنيفة الاشتعال تلتهب عليه، وهي نار جهنم وجاء المخبر كما أخبر.

كما أخبر عن الوليد بن المغيرة ومصير أمره وعاقبة حياته، وأنّه يموت على الكفر، وأنّه سبحانه يدخله في عذاب لا راحة فيه، وذلك عندما اتهم النبي بأنّه ساحر، فأنزل الله سبحانه فيه الآيات التالية: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدثر: 11 ـ 30).

---

(1) مجمع البيان: ج 2 ص 208.

روي أنّ قريشـاً اجتمعت في دار الندوة فقال الوليد لهم أنّكم ذووا أحسـاب وذووا أحلام، وأنّ العرب يأتوكم، فتنطلقون من عندكم على أمر مختلف، فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: إنّه شـاعر، فعبس وقال: قد سمعنا الشـعر فما يشـبه قوله الشـعر، فقالوا: إنّه كاهن، قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدّث بما تحدّث به الكهنة، قالوا: إنّه لمجنون، فقال: إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً، قالوا: إنّه سـاحر، قال: وما السـاحر ؟ فقالوا: بشـر يحبب بين المتباغضـين ويبغض بين المتحابين، قال: فهو سـاحر، فخرجوا فكان لا يلاقي أحد منهم النبي إلّا قال: يا ساحر يا ساحر، واشتد ذلك فأنزل إليه هذه الآيات [1].

وهذا التنبّؤ صـدر عنه ﷺ في مكّة وكان في وسـع الرجل أن يقلب حاله ويصـلح باله ولكنّه بقي على ما كان عليه من كفره وعدائه للنبي والإسلام.

وقد تنبأ القرآن به بصـورة أُخرى وهو أنّه سـنجعل له علامة على أنفه يعرف بها، حيث قال سـبحانه: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّـاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَـاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (القلم: 10 ـــ 16) وقد حضـر الرجل في معركة بدر الكبرى فخطم أنفه بالسيف، وبقي أثر هذه الضـربة سمة وعلامة له كما هو أحد الوجوه في تفسـير قوله: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [2].

ولا ينحصـر تنبّؤ القرآن بعدم إيمان عمّه أو الوليد بل تنبأ في آية أُخرى عن عدم إيمان ثلة كبيرة من الكافرين فقال سـبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: 6).

وقال سبحانه: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يس ـــ 10). وليس المراد عموم الكافرين لبطلانه بالضرورة لدخول كثير منهم في الإسلام بل

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 387.

(2) الكشّاف: ج 4 ص 258.

المراد هم الذين كانوا يظاهرون بعدوانه.

قال الطبرسي: تدل الآية على أنّه يجوز أن يخاطب الله تعالى بالعام والمراد به الخاص لأنّا نعلم أنّ في الكفّار من آمن وانتفع بالانذار [1].

ومثله تنبّؤ القرآن بأنّ عدو النبي ﷺ (العاص بن وائل السهمي هو الأبتر) وأنّ الله سبحانه سيرزق نبيّه ذرية كثيرة حتى يصير نسبه أكثر من كل نسب، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [2]. قال في تفسير الفخر: إنّ هذه السورة إنّما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بني أُمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا: والنفس الزكية وأمثالهم.

كل ذلك دليل على أنّه لا مصدر لهذه التنبّؤات والإخبارات الغيبية إلّا الله سبحانه علاّم الغيوب.

9. تنبّؤ القرآن في مكّة بما سيصيب كفّار قريش :

تنبّأ القرآن بالمستقبل الأسود الذي كان ينتظر قريشاً، وذلك عندما دعا النبي على قومه لما كذبوه بقوله: اللّهمّ اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف، فأجدبت الأرض فأصابت قريشاً المجاعة، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام، ثمّ جاءوا إلى النبي وقالوا: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وقومك قد هلكوا فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة، فكشف عنهم ثم عادوا إلى الكفر [3] وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 43.

(2) لاحظ مجمع البيان: ج 5 ص 540 ومفاتيح الغيب: ج 8 ص 498.

(3) مجمع البيان: ج 5 ص 63، البرهان: ج 4، ص 160.

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان: 10 ـ 16).

فقد تنبّأ في هذه الآيات السبع عن عدة مغيبات هي :

1. الإخبار عن القحط الذي يقع بهم، وشدة الجوع الذي يغشاهم، إلى حد يتصوّر الرجل السماء كالدخان، لما به من شدة الجوع، حيث قال سبحانه: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

2. الإخبار بابتهالهم وتضرّعهم إلى الله سبحانه، عندما تلم بهم هذه الأزمة، ويحل بهم الجوع والغلاء، قال سبحانه: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾.

3. الإخبار برفع العذاب وكشفه عنهم قليلاً، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً ﴾.

4. الإخبار بعودهم إلى ما كانوا عليه من الكفر والإنكار، قال سبحانه: ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾.

5. الإخبار بأنّ الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى، وهو يوم بدر الكبرى حيث انتقم منهم وقتل من صناديد قريش، سبعون رجلاً وأسر منهم مثله وفرّ الآخرون.

وهذه الكثرة الوافرة من الأنباء الغيبية لم تتخلّف واحدة منها، بل تحققت كما أخبر بها، ولو لم يتحقق لنقل لتوفر الدواعي على نقله وتواتره.

نعم قيل إنّ الدخان الوارد في الآية من أشراط الساعة [1]، وهو بعد لم يأت وإنّما يأتي قبل يوم الساعة، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص، ويستمر ذلك أربعين يوماً. ولا يخفى أنّ المعنى الأوّل أظهر وأنسب لقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ

---

(1) مجمع البيان: ج 5 ص 62.

الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُـــولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ إذ لو كان الدخان الوارد في الآية من أشراط الساعة، لغشي الناس جميعاً، ولم يختص بكفار قريش وعند ذاك لا يصح لوم الجميع بقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُـــولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ فإنّ كثيراً من المحشورين في يوم القيامة، ليسوا من أُمّة نبيّنا « محمد » ولم يتولّوا عنه ولم يتّهموه بأنّه معلّم مجنون.

ثمّ إنّ القرآن كما تنبّأ في مكة بما يصـــيب كفار قريش لم يزل يتنبّأ أيضـــاً بعدما هبط النبي في المدينة وأخذ يتنبّأ بما سيصيب الكفار من المشركين واليهود ويخبر عن مؤامراتهم ضد الإسلام فقال :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ (آل عمران ـــ 12) فالآية أمّا نازلة في حق اليهود أو في مشـــركي مكة، وعلى كلّ حال فالآية صـــادقة في حق كلتا الطائفتين [1] وسيوافيك بيانها.

ومثل الآية قوله ســـبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُـــدُّوا عَن سَـــبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال . 36)، والآية تخبر عن مؤامرة المشـركين وانفاق أموالهم في معصـية الله، ثمّ ينكشـف لهم من ذلك الانفاق ما يكون حســـرة عليهم من حيث إنّهم لا ينتفعون بذلك الانفاق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يكون وبالاً عليهم ثمّ يغلبون في الحرب، فقد روى أنّها نزلت في أبي ســـفيان بن حرب الذي استأجر يوم أُحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي، سوى من استأجرهم من العرب.

وروي أيضاً غير ذلك [2].

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 413.

(2) مجمع البيان: ج 2 ص 541.

10 . التنبّؤ حول اليهود والنصارى :

من عجائب التنبؤات القرآنية وغرائبها، تحدّيه اليهود بأبسط الأشياء وأسهلها ومطالبته إيّاهم بما هو ميسور لهم في كلّ وقت وحين، وفي متناول قدرتهم، ودائرة استطاعتهم في كل زمان، ومع ذلك عجزوا عن تكذيبه وانصرفوا عن مخالفته، وهذا يدل قبل كلّ شيء على أنّ القرآن كلام من بيده القلوب والضمائر.

قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: 94 . 96).

لما زعم اليهود أنّهم الشعب المختار عند الله، وأنّ الدار الآخرة خالصة لهم كما تحكي عنه الآية ويدل عليه أيضاً قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة . 80).

عرض عليهم سبحانه، رداً على مقالهم (انّ نعيم الآخرة وقف على الشعب المختار، وانّ الدار الآخرة خالصة لهم) أن يتمنّوا الموت جناناً ولساناً وعملاً، فإنّ الانسان بفطرته إذا خيّر بين العيش الخالص عن التعب والألم، والعيش الممزوج بألوان العذب والكد، يختار الأوّل، ولا ريب أنّ عيش الآخرة هو العيش الخالص عن شائبة التعب، فلو أنّهم يزعمون أنّهم صادقون في ما يقولون بألسنتهم من أنّ لهم الدار الآخرة، وأنّهم الأُمّة المختارة من بين شعوب الناس بالحياة الدنيا، يجب أن لا يكونوا أحرص الناس على الحياة الدنيا، بل يلزم عليهم تمنّي الموت تمنّياً صادقاً، تظهر آثاره في حياتهم وتقلبهم بين الناس.

غير أنّ التاريخ والحس يقضيان بخلاف ما يدّعونه، وأنّهم أحرص الناس على

الحياة وكل واحد منهم يودّ لو يعمّر ألف سنة، وما تمنى ولن يتمنّى أحد منهم الموت أبداً تمنّياً تلوح منه آثار الصدق، لا أقول إنّهم ما تمنّوا تلفّظاً ولقلقة باللسان، بل تمنّياً من صميم الروح، تظهر آثاره على الجوارح والأفعال، ولذلك قال سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة: 6 . 7).

نعم إنّ الزرقاني فسّر الآية على وجه يشمل التمنّي باللسان وقال: « ولقد كان بمقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم نحن نتمنّى الموت كي تنهض حجّتهم على محمد ويسكتوه، لكنّهم صرفوا فلم يقولوا ولم يستطع أحد أن يقول: إنّي أتمنّى الموت » [1]، غير أنّ ما ذكره خلاف ظاهر الآية فإنّ التمنّي حالة نفسانية للنفس، واللفظ الدال عليه معبر عمّا في الضمير، ولا يطلب القرآن منهم التمنّي الكاذب ولا يدعوهم إليه بل التمنّي الصادق الكاشف عن الإرادة الجدية والطلب الحقيقي له، مع ظهور آثاره في حياة المتمنّي وسلوكه ...

ثمّ إنّ القرآن تنبّأ بانهزام اليهود في مضمار الحرب والنضال مع النبي والمسلمين قال سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ (آل عمران . 12).

قال الطبرسي: روى محمد بن يسار عن رجاله: لما أصاب رسول الله قريشاً ببدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثلما نزل بقريش يوم بدر، واسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم أنّي نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، فقالت اليهود: يا محمد لا يغرّنك أنّك لقيت قوماً اغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنّا والله لو قاتلناك لعرفت إنّا نحن الناس فأنزل الله هذه

---

(1) مناهل العرفان: ج 2 ص 276.

الآية [1]، ولقد صدق الخبر، الخبر، فغلب النبي على من في الجزيرة من اليهود فضلاً عن خصوص القانطين منهم في المدينة.

ثمّ إنّ في القرآن تنبّؤات بالمستقبل المظلم الأسود الذي لم يزل يواكب بعضها اليهود طيلة أربعة عشر قرناً من نزول القرآن إلى يومنا هذا، لم ينخرم أي واحد منها أبداً، وذلك قوله سبحانه: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: 111 ـ 112).

وفي هاتين الآيتين تنبّؤات :

1. إنّ هذا الشعب الماكر اللئيم، لا يمكنه القيام بحرب مواجهة ومقابلة الند للند، وإنّما يقع ضررهم على المسلمين عن طريق الغدر والمكر.

2. ولو قاتلوا المسلمين لولّوهم الأدبار.

3. ضرب عليهم الذل كضرب السكة على الدينار والخيمة على الانسان، نعم كتب عليهم الذل والهوان إلّا إذا تمسّكوا بحبل من الله ودخلوا في عهد منه أو عهد من الناس يستعينون بهم ويستظلّون بظلالهم.

4. ضربت عليهم المسكنة وهي زي الفقر والخوف منه، وفيهم من يملك آلاف الآلاف وليس فيه غنى النفس، فهم أشد الشعوب خوفاً من الفقر، وأشدها طمعاً وشرها في جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال، ولا يتورّعون عن الجري وراء الدنايا، بأحط الوسائل.

5. حلول غضب الله عليهم كما يعطيه قوله: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ﴾.

والمراد من الضمير المتصل من قوله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ﴾ وإن كان هو أهل الكتاب ،

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 413.

الوارد في الآية المتقدمة، غير أنّ المقصـــود منه هم اليهود بلا كلام لما في ذيل الآية التالية من تعليل ضرب الذل والمسكنة عليهم بقتلهم الأنبياء وهو من فعل اليهود.

ويؤيده قوله سبحانه، في شأن اليهود: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْـكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَـبٍ مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة ـــ 61) وبذلك يظهر أنّ ما يقال من عمومية الآية، لمطلق أهل الكتاب، أخذاً بمفاد الضـمير المتصـل، الراجع إلى أهل الكتاب، المذكور في الآية السابقة، ليس بسديد.

وقد تنبأ سبحانه بقوله: ﴿ لَن يَضُـرُّوكُمْ إِلّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ بما جرى بين المسـلمين وطوائف من اليهود من « بني النضـير وقريضـة وقينقاع » فحاربوا المسـلمين ولم يثبتوا بل استسـلموا، وهو تنبّؤ صـادق شـهد به التاريخ الصـحيح، بل يمكن أن يكون تنبّأ بعامة ما جرى بينه وبين اليهود أيام حياته ﷺ فهو قد طهّر الجزيرة العربية من هذه العناصـــر الماكرة، أعداء الله وأعداء الانسانية في مدة قليلة ولم ينصروا بعد قط.

والمراد من الاسـتثناء في قوله سـبحانه: ﴿ لَن يَضُـرُّوكُمْ إِلّا أَذًى ﴾ هو الضـرر اليسـير الذي ليس فيه كبير تأثير من ســب باللســان وخوض في النبي، وقد تحقق المخبر به كما أخبر في تطهير أرض المدينة وما حولها من الطوائف الثلاث الذي اسميناهم، فلم ينالوا من المســلمين إلّا ســبّاً باللسـان أو ضـرراً قليلاً كما هو الحال في غزوة خيبر على ما هو مسـطور في السـير والتاريخ، ومفاد الآية راجع إلى عصـر الرسـالة فقط كما أوضـحنا، ويفيده التدبر في الآية وفي الضـمائر الواردة فيها من قوله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ... ﴾ [1].

وأما الآية الثانية المتضـمّنة لضـرب الذلة والمسـكنة عليهم فربّما يحتمل اختصـاص مفادها بعصـر الرسالة غير أنّه محجوج بأمرين :

---

(1) قال الطبرسي ففي هذه الآية دلالة على صحة نبوّة نبينا ﷺ لوقوع مخبره على وفق خبره لأنّ يهود المدينة من بني قريضـة والنضـير وبني قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوا النبي والمسـلمين لم يثبتوا لهم قط وانهزموا (مجمع البيان: ج 1 ص 488).

الأوّل: إنّ المتبادر من قوله سبحانه: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ في كلتا الآيتين هو العموم والشمول وكأنّه يريد أن يقول: عجنت طينتهم بالذل والهوان والمسكنة ولا تنفك عن تلكم الطائفة في أي جيل وزمان.

الثاني: انّه سبحانه علّل ضرب الهوان والذل والمسكنة عليهم بأمرين: أحدهما: الكفر بآيات الله وهو مشترك بين الجميع. وثانيهما: وهو يرجع إلى أسلافهم وأجدادهم، من قتل الأنبياء ولكن اليهود المعاصرين لعصر الرسالة لما رضوا بفعالهم وعملهم الشنيع، صاروا مثلهم « فإنّ من رضي بفعل قوم فهو منهم » فأسند سبحانه الفعل إليهم أيضاً، فضرب الذلة على جميعهم من أوّلهم إلى آخرهم. ولو كان هذا هو الملاك لضرب الذل على يهود عهد الرسالة فهو بعينه موجود في الباقين بعده إلى زماننا هذا، ولا وجه لاختصاص الذل والمسكنة ببعضهم دون بعض، إذ ليس الهوان أو المسكنة، إلّا جزاءً ونكالاً من الله سبحانه بالنسبة إلى هذه الطائفة، فهم بين مقترف لأشد المعاصي وأهولها، وبين راض بما ارتكبه قومه من الجنايات الموبقة، فكل من الطائفتين يعاقب ويؤخذ بجزاء عمله كما قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: 181 . 182).

وقد أثبتت القرون والأجيال صدق ما تنبّأ به القرآن من لدن نزوله إلى عصرنا، ولكي نتحقق من ذلك لا بد من الرجوع إلى التاريخ: « فها هو « بخت نصر » دخل أورشليم وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك عام 587 ق.م وفي سنة 302 ق.م أثقل ملوك سوريا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم.

وأمّا إضطهادهم بعد الإسلام فكثير، فقد أجلى النبي « بني قينقاع » « وبني النضير » وقتل « بني قريظة » لما تآمروا عليه كما هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فلم يجدوا ملجأ إلّا الأندلس حيث أحاطهم أُمراء الإسلام بعطف خاص، لكن عندما احتل النصارى الأندلس أخذوا بتشريد اليهود وطردهم وإجبارهم على مغادرة البلاد الإسبانية، وقد

وقع كثير منهم في أيدي القراصنة الذي انتشروا حول الشواطئ فجرّدوهم من أموالهم واتخذوهم عبيداً ارقّاء.

هذا ما عدا الذين ماتوا جوعاً أو أُصيبوا بالطاعون فأهلكهم ثم لجأ ثمانون ألفاً إلى البرتغال ارتكاناً إلى وعد ملكها، لكن القساوسة الأسبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد ضدهم، وعمدوا إلى اقناع ملك البرتغال بعدم إيوائهم، فأصدر أمراً يقضي بابعاد جميع اليهود البالغين، أمّا الأولاد الذين لا تتجاوز سنهم أربعة عشر عاماً فقد انتزعوا من أحضان أُمّهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادئ الدين المسيحي.

ولم يقتصر الغربيّون على طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال فقط بل طردوا وشردوا من انجلترا، فرنسا، بلجيكا، هولندا، ايطاليا، ألمانيا، روسيا و ... » [1].

أي ذل وهوان أوضح من هذا الذي صادفوه طيلة القرون الغابرة إلى يومنا هذا، كل ذلك مضافاً إلى تنفّر الناس عن كل يهودي ماكر، وإسرائيلي لئيم، وابتعادهم عنهم في حلّهم وترحالهم، لما هم عليه من الغدر والمكر والشره والطمع وعدم اندماجهم مع غيرهم وعدم وفائهم للذين استضافوهم وآزروهم، لما يظنون أنّهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها، وأنّهم يحق لهم اغتصاب حقوق الغير أخذاً بتعاليم التلمود حيث يعبّر عن املاك غير اليهود بـ « أنّه كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يملكه ».

هذا وذاك أوجب بأن يعلن القرآن منذ أربعة عشر قرناً بأنّه سبحانه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأعراف . 167).

فقضى الله سبحانه أنّه ليسلّطنّ على بني إسرائيل إلى يوم القيامة من يذيقهم أشد العذاب، جزاء لهم على أعمالهم ونكالاً بهم، فكما هو سبحانه سريع الصفح عن ذنب التائب، فهو أيضاً سريع العقاب.

---

(1) راجع لمعرفة تفصيل ذلك كتاب « اليهود في القرآن » 94 . 96.

إجابة عن سؤال

إلى هنا يكون قد تبيّن صحة تنبّؤ القرآن حول اليهود، وأنّه ما تخلف طيلة أربعة عشر قرناً، قدر شعرة غير أنّ هنا سؤالاً، يوجهه الشباب حول الآية وهو أنّه كيف وصفهم الله بضرب الذل والهوان عليه مع أنّه استقرّت لهم السيادة في الأراضي المحتلّة فجمعوا من العدة والعدد ما أوجب نجاحهم في هذه المعارك الرهيبة لا سيّما في نكسة الخامس من حزيران، وتمكن الاجابة عن هذا السؤال بوجوه :

الجواب الأوّل :

إنّ مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تجري على وفق القوانين والسنّن الكونيّة ولا تختلف باختلاف الأُمم، فالعارف بفن السباحة ـ مثلاً ـ يعوم ويصل إلى شاطئ الأمان والجاهل بها يرسب ويكون عرضةً للهلاك، ومن زرع حصد ومن لم يزرع لم يحصد، والإيمان لا ينبت قمحاً والكفر لا ينبت شوكاً في هذه الحياة، وكذلك من أعدّ العدّة لعدوّه واحتاط له، ظفر به وإن كان ملحداً، إذا لم يكن الآخر على حذر واستعداد، ومن تقاعس وأهمل خسر، وإن كان من الأولياء والصدّيقين، قال تعالى مخاطباً أصحاب الرسول ﷺ بالآية 46 من الآنفال: ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وقال الإمام عليّ عليه السلام : « إنّ هؤلاء ـ يشير إلى أصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم وخذلتم ـ الخطاب لأصحابه ـ بتفرّقكم عن حقّكم »، إذن الحق لا ينتصر لمجرد أنّه حق، والباطل لا يخذل لمجرد أنّه باطل، بل هناك سنن في هذه الحياة تسير المجتمع، وتتحكّم به، والله سبحانه لا يسقطها ولا يعطّل سيرها، تماماً كما هو شأنه في سنن الطبيعة، انّ الله سبحانه قد خلق الحياة وجعل لها قوانين تحكمها، وتأبى هذه القوانين أن تمطر السماء نصراً على غير العاملين له.

وعليه فلا عجب أن تغتال الصهيونيّة جزءً من أرضنا بمعونة الإستعمار مادمنا في

غفلة عنها وعن مقاصد أعوانها منقسمين إلى دويْلات لا جامع بينها إلّا لفظ العرب والعربية [1].

إنّ للسعادة والشقاء والحضارة والتقدّم والتدهور والانحطاط، قوانين وسنن لا تنفك عنها آثارها ومسبباتها ومن دقَّ باباً ولجَّ ولج، من غير فرق بين أُمّة وأُمّة أو طائفة دون أُخرى، إنّ نكسة الخامس من حزيران والاحتلال الصهيوني للأراضي المقدسة الإسلامية، كان نتيجة عمل طويل واعداد متواصل من قبل اليهودية العالمية التي تلاقت أهدافها مع مصالح الاستعمار في الشرق الأوسط من جانب، ومع الفساد السياسي الاجتماعي الشامل الذي كان المسلمون يعيشون فيه من جانب آخر، فالعدوّ تمسّك بأقوى وسائل القهر والغلبة، وأعد نفسه للتقابل مع المسلمين في معارك صعبة قرابة قرن، وتحمّل في طريقه جهوداً وبذل من نفسه وماله الكثير، وأمّا المسلمون ففي القرن الذي كان العدوّ يجمع العدة والعدد، ويتجهّز بالعلم والصنعة وتربية الخبراء ومهرة الفن، كانوا يعيشون في فرقة ونفاق، يضطهد بعضهم بعضاً، مضافاً إلى ما يعانون من ميوعة وخيانة وإنحلال في الأخلاق، والمشي على المخططات التي رسمها لهم الأعداء المصبوغة بطابع الود والاحسان.

وعلى ذلك فلا غرو في أن يحتل العدو الغاشم جزءً كبيراً من أرضنا ويترصد لأخذ جزء آخر، وإذن الظهور والغلبة لهم والنكسة للعرب جاءت على وفق القوانين والسنن التي تحكم على الحياة.

إذا عرفت ما ذكر، فالجواب عن السؤال واضح بعد الإمعان في الآية التالية: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ﴾ (آل عمران . 112).

ترى أنّه سبحانه حكم بضرب الذل والهوان عليهم ثمّ استثنى عنه بقوله: ﴿ إِلّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ وفي الوقت نفسه حكم بضرب المسكنة عليهم بلا

---

(1) من هنا وهناك: ص 42 . 43.

استثناء.

وبعبارة أُخرى: ترى أنّه سبحانه استثنى من احاطة الذل والهوان صورتين: إذا تمسّكوا بحبل من الله، وإذا تمسّكوا بحبل من الناس، وبهذين السببين يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان، والمراد من الحبل هو العهد [1] فلو دخلوا في عهد الله وهو الإسلام ودفعوا الجزية وعملوا بشرائط الذمة وتركوا الغدر والحيلة مع المسلمين فسيعود لهم العز كسائر الذمّيين، ويعاملون بالمساواة، وتصان دماؤهم وأعراضهم وأموالهم، ويذاد عنهم كما يذاد عن غيرهم، ولو تمسّكوا بحبل من الناس واستعانوا باحدى الأُمم ممّن له منعة وقدرة يتيسر لهم بواسطتها أن يطردوا عن أنفسهم الذل والهوان، ويستحصلوا على العزّ والقدرة ما داموا كذلك.

ولا شك أنّ أُمّة اليهود ما احتلت أرضاً، وما كسبت سلطاناً، وما أدركت عزّاً إلّا بحبل من الناس ومساعدة من الأُمم الكبرى ممّن توافقت أهدافهم العالمية مع مصالح العدو الطريد [2].

« إنّ إسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الأسلحة الحديثة، أقامتها الولايات المتحدة، لحماية مصالحها في بلاد العرب، وأهمّها شركات البترول التي يحتاج بقاؤها والاحتفاظ بها، إلى نصف مليون جندي امريكي لولا وجود إسرائيل... فليس من المعقول أن تكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان ولا يكون إلى جانبها قاعدة حربية أو حلف عسكري يحميها من الثورات والحركات الوطنية، وقد وجدت في إسرائيل غنى عن القواعد والأحلاف » [3].

أضف إلى ذلك أنّ إسرائيل وإن أُسّست باسم الدين وصبغت بالصبغة الشريعة

---

(1) سمّي حبلاً لأنّه يعقد به الأمان كما يعقد الشيء بالحبل.

(2) قال الطبرسي في تفسير قوله: ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ ﴾ أي بعهد من الله وحبل من الناس أي وعهد من الناس على وجه الذمة وغيرها من وجوه الأمان، مجمع البيان: ج 1 ص 488.

(3) من هنا وهناك: ص 99.

إلاّ أنّ كثيراً منهم لا يمتون إلى الدين بشيء، ولا صلة بينهم وبين دين اليهود، فحكومتهم حكومة ذات نزعة عنصرية طائفية، مدفوعة بكونهم من أولاد إسرائيل واخلافهم سواء أكانوا مؤمنين بدينه أم كافرين به، ملتزمين بأحكام التوراة أم لا، وما تنبّأ به القرآن إنّما هو راجع إلى اليهود الذين آمنوا بشريعة إسرائيل وما بعده إلى موسى والتزموا بأُصول دينهم وفروعه، ووقفوا في وجه سائر الشرائع، متنسّكين بشريعة، وليست إسرائيل ومن يعيش في أرضها، يمثلون هؤلاء، فهي دولة مادية صبغة باسم الدين وطابعه كما هو واضح لمن لاحظ كتبهم وجرائدهم ومجلاّتهم، وعلى كل حال فخذلان بني إسرائيل التي يحتّمها القرآن إنّما تكون حتمية فيما لو وقفوا تجاه المسلمين بما هم يدينون بدين اليهود، لا بما أنّهم يتعصّبون إلى يهوديتهم تعصّباً عنصرياً أعمى من غير تدين.

الجواب الثاني :

ربّما يجاب عن الإشكال بوجه آخر وهو أنّ المراد من ضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ فإنّ ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أي تسلطوا عليهم، وهو يناسب الذلة التشريعية التي من آثارها الجزية فيؤول معنى الآية إلى أنّهم أذلاّء، بحسب حكم الشرع الإسلامي إلّا أن يدخلوا تحت الذمّة أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء [1].

غير أنّ هذا الجواب لا يلائم ظهور الآية فإنّ القضاء التشريعي بذلتهم لا يختص بتلكم الطائفة بل يعم أهل الكتاب جميعاً، وقد أوضحنا أنّ الآية مختصة باليهود.

الجواب الثالث :

إنّ القرآن وإن تنبّأ بضرب الذلّة والمسكنة على اليهود، غير أنّه تنبّأ أيضاً بعود القدرة والمنعة إليهم في فترة من الزمن، مرتين فيفسدون في الأرض، إلى أن يقيّض الله

---

(1) الميزان: ج 3 ص 384.

رجالاً أُولي بأس شديد، ينتقم منهم، ودونك الآيات في سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَـيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْـرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِـدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَـــدِيدٍ فَجَاسُـــوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾.

﴿ إِنْ أَحْسَـنتُمْ أَحْسَـنتُمْ لأَنفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُـوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (الإسراء: 4 . 8).

فإنّ الآيات تعرب عن افســاد الطائفة المذكورة في الأرض مرتين وانتقام الله ســبحانه منها بعد كل فساد تقوم به، ويدل على الفساد الأوّل قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ وعلى الفساد الثاني قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾.

أمّا الانتقام الأول فيدل عليه قوله ســبحانه: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَـــدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾.

أمّا الانتقام الثاني فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [1].

ثمّ إنّ المفسّـرين مالوا يميناً وشمالاً في تفسـير هذه الآيات ولم يأتوا بأمر مقنع تطمئن إليه النفس ودونك بعض ما ذكروه من الوجوه :

1. المراد من الفساد الأوّل قتل يحيى بن زكريا، ومن الانتقام غلبة بخت نصر مع

---

(1) الضمائر كلّها ترجع إلى « عباد أُولي بأس شديد » المحاربين لليهود.

النبطيين على بني اسـرائيل، والمراد من الفسـاد الثاني غلبة بني إسـرائيل على النبطيين مرة ثانية ولم يذكروا المراد من الانتقام الثاني.

2. الفساد الأوّل هو قتل زكريا والثاني هو قتل يحيى بن زكريا، والانتقام الأوّل تسلّط « سابور » ذي الاكتاف، والانتقام الثاني هجوم « بخت نصر » على اليهود.

3. المراد من الفساد الأوّل قتل زكريا وغيره من الأنبياء وبالانتقام الأوّل تسلّط « بخت نصر » على اليهود، والمراد من الفسـاد الثاني طغيان اليهود بعد اخذ اسـتقلالهم على يد كوروش، ومن الانتقام الثاني ما وقع بيد « انطياخوس » ملك الروم [1].

وهذه الوجوه وأضرابها مما يحصل من تركيب بعضها مع بعض لا يمكن الركون إليها فإنّها منقولة عن اناس كانوا يأخذون ما يقولونه عن أحبار اليهود وعلمائهم فهي قصـص اسـرائيلية يجب تنزيه القرآن عنها.

أضـف إلى ذلك أنّ لفظي: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ يعرب عن مكانة المنتقمين عند الله وأنّهم مبعوثون من جانبه سـبحانه وهم عباد ممدوحون له، وهل يمكن عد نظراء بخت نصـر، ذلك الكافر السفّاك الأثيم الذي اقترف من الجرائم ما لا يعد ولا يحصى، أو سابور ذي الاكتاف ذلك الرجل القاسـي المجرم الذي فعل مع العرب ما فعل، أو انطياخوس واضـرابه، من العباد الممدوحين وأنّهم كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه.

ويليه في الضعف ما يقال انّ المراد من الفساد الأوّل قتلهم أشعيا النبي، والانتقام الأوّل تسلط جالوت على بني اسرائيل، ومن الفساد الثاني هو غلبة بني إسرائيل على جالوت.

أو ما يقال من أنّ المراد من أحد الانتقامين ما جرى بيد ادولف هتلر من الأُمور القاسية، كما اختاره سيد قطب في ظلال القرآن.

إذ كيف يمكن أن يقال أنّ جالوت وعملاق ألمانيا أو غيرهم من الجبابرة كانوا

---

(1) تفسير الطبري: ج 15 ص 38، ومجلة الهادي العدد الثاني.

مبعوثين من جانبه سبحانه، فقد حارب جالوت داود ومن معه من صالحي بني إسرائيل وكما حارب طالوت الذي بعثه الله ملكاً، وأمّا عملاق ألمانيا فحدّث عن جرائمه ولا حرج.

وما يقال إنّه لما كان تسلّط بخت نصر وقهره لهم جزاء لهم على أعمالهم السيئة فأسنده سبحانه لنفسه وقال: بعثنا عليكم عباداً لنا [1] توجيه لا تركن إليه النفس، ونضيف إلى ما ذكر أنّ كل هذه الوجوه لا تلائم ظاهر الآية لاستلزامها التفكيك بين مراجع الضمائر إذ الظاهر أنّ الضمائر الغائبة في: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ وفي: ﴿ لِيَسُوءُوا ﴾ و: ﴿ لِيَدْخُلُوا ﴾ و: ﴿ دَخَلُوا ﴾ و: ﴿ لِيُتَبِّرُوا ﴾ يرجع إلى من وصفهم الله بقوله ثم: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ولازم ذلك اتحاد الفئة التي تحارب اليهود في المرة الأُولى مع الفئة المتغلبة عليهم في المرة الثانية، وإن هناك حربين تقعان بين اليهود وجماعة خاصة، لا أنّ كل واحد من الحربين تقع مع جماعة غير الجماعة الأُخرى.

وهذا الأمر غير موجود في الوجوه التي ذكروها إذ لم يقع أي إشتباك مجدد بين اليهود وبخت نصر، أو بينهم وبين سابور، ولم تصدر كرّة منهم عليهم مجدداً، أضف إلى ذلك أنّ ظاهر قوله سبحانه وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة أنّ المحاربين لليهود يدخلون المسجد مرتين ويتسلّطون على المسجد الأقصى كما يستفاد من تعريفه باللام، مرة بعد مرة، مع أنّ بخت نصر وسابور لم يتسلّطا على المسجد أكثر من مرة، وما دخلوه أكثر منها.

وعلى الجملة: إنّ هذه الوجوه لا تلائم ظاهر الآية ويحتمل أن تكون الآيات مشيرة إلى الأحداث الجارية في الأراضي المحتلة، ويعلم الله سبحانه أنّ أي واحد من الوعدين تحقق، وأنّ الوضع الحاضر يمثل أيّاً منهما ولا شك أنّهم مزوّدون بالأموال والبنين مضافاً إلى دعم الدول العالمية الكبرى لهم، وبعد ذلك كلّه فما ذكرناه إنّما هو أحد الآراء

---

(1) الميزان: ج 1 ص 40.

المذكورة حول الآية، ولسنا حاكمين بواحد من هذه الوجوه، والله سبحانه هو العالم.

وعلى أي حال فالتوفيق سهل بين ضرب الذلّة والهوان عليهم، وبين ما ترى فيهم من القوة والمنعة، والأوّل من هذه الوجوه هو الأولى.

ختامه مسك :

فلنختم البحث بتنبّؤات وردت في آية واحدة وهي قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾.

1. ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾.
2. ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ﴾.
3. ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة ـ 64).

ودونك بيانها على وجه الاجمال.

1. الظاهر أنّ الضمير في « بينهم » راجع إلى اليهود المذكورين في صدر الآية وما في المنار [1] من رجوعه إلى اليهود والنصارى المذكور في الآية الحادية والخمسين بعيد جداً بل كان الأولى له عندئذ أن يقول انّه راجع إلى أهل الكتاب الوارد ذكرهم في الآية التاسعة والخمسين، أي قوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ ... ﴾ فالآية حاكية عن تضارب اليهود بعضهم ببعض واختلافهم في المذاهب إلى يوم القيامة، ويفسره قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِن بَعْدِ

---

(1) ج 6 ص 457، ولو رجع الضمير إلى الأُمتين فلا مانع أيضاً أن يكون المراد تضارب بعض الفرق من كل أُمة مع الأُخرى كتضارب اليهود بعضهم ببعض وتضارب الفرقة الكاثوليكية مع البروتستانت، أو النسطورية والملكانية واليعقوبية من أُمّة المسيح بعضهم مع بعض.

مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـــي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الجاثية: 16 ـ 17).

والفرق بين العداوة والبغضـــاء أنّ الأُولى عبارة عن البغض الذي يظهر أثره في الخارج، وأمّا البغضاء فهو مطلق المنافرة وإن لم يستعقب شيئاً من العمل.

هذا إذا قلنا برجوع الضـــمير إلى اليهود فقط، وأمّا إذا قلنا بمقالة المنار من رجوعه إلى اليهود والنصارى فالعداوة بينهم غير منقطعة، وأوضحه صاحب المنار بقوله: « العدواة على أشدها في بلاد روسيا على أقلها في انكلترا وفرنسا والمانيا واليهود أغنى أهلها والمديرون لأرحية أعظم الأعمال المالية فيها، وهم على مكانتهم هذه مبغوضـون في جماهير النصـارى، فكم ألّفت كتب في فرنسـا وغيرها في التحريض عليهم، قال: « قد أخبرني ألماني من المستشرقين أنّهم لا يعدون اليهودي من بلاده منهم بل يقولون هذه يهودي وهذا ألماني » [1].

نعم تنبّأ القرآن في آية أُخرى باغراء الله سبحانه العداوة والبغضاء بين النصارى إلى يوم القيامة قال ســبحانه: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْـنَعُونَ ﴾ (المائدة ـ 14) والعداوة بين فرق النصارى أشد وأوضح لمن زاولهم وطالع كتبهم.

وفي الوقت نفســه فإنّ الآيتان تنبئان عن بقاء دينهم إلى يوم القيامة وهو تنبّؤ آخر تضـــمّنته الآيتان، فلاحظ.

2. قوله ســبحانه: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ ... ﴾ فالحرب ضــد الســلم وهو أعم من القتال والقتال يصدق بالاخلال بالأمن والنهب والسلب وتهييج الفتن والاغراء بالقتال، وقد أغرى اليهود المشركين بالنبي والمؤمنين وهم الذين حزّبوا الأحزاب على

---

(1) المنار: ج 6 ص 457.

رسـول الله، حتى قدموا على قريش مكة وقالوا: إنّا سـنكون معكم عليه، حتى نستأصـله، فقالت لهم قريش: يا معشـــر يهود، إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصـــبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم دينه ؟قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه [1].

بل منهم من ســـعى لتحريض الروم على غزوهم ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويأوي أعداءهم ويساعدهم ككعب الأشراف.

ويمكن أن تكون الآية ناظرة إلى الأعمال الإجرامية التي كانوا يرتكبونها قبل الميلاد وبعده ثم ضد المسلمين.

والمراد من الاطفاء خذلانهم في كل ما يكيدون لرسوله وللمؤمنين، امّا بخيبتهم في ما يسعون إليه من الاغراء والتحريض، وامّا بنصـر الله رسـوله والمؤمنين وعلى أي تقدير، المراد خيبة مسـاعيهم في الحروب التي يوجهونها على دين الله ورســـوله والمؤمنين، بما هم متدينون ومؤمنون بالله وآياته، وأمّا الحروب والنيران التي يوقدونها لا لحق الدين بل لأغراض سـياسـية، أو تغلب جنسـي، فهي خارجة عن مساق الآية.

قال الطبرسـي: وفي هذا دلالة ومعجزة لأنّ الله أخبر فوافق خبره المخبر عنه، فقد كانت اليهود أشـد أهل الحجاز بأسـاً وأمنعهم داراً حتى أنّ قريشـاً كانت تعتضـد بهم والأوس والخزرج تسـتبق إلى محالفتهم وتتكثر بنصرتهم، فأباد الله خضراءهم واستأصل شأفتهم واجتث أصلهم، فأجلى النبي بني النضـير وبني قينقاع وقتل بني قريظة وشـرّد أهل خيبر وغلب على فدك، ودان له أهل وادي القرى فمحى الله آثارهم صاغرين [2].

3. قوله سـبحانه: ﴿ وَيَسْـعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَـادًا ﴾ فليس الهدف من تقلبهم في البلاد، السعي وراء صالح الأعمال والأخلاق، أو اصلاح شؤون الاجتماع، بل لا

---

(1) سيرة ابن هشام: ج 1، ص 54 و 55 و 214.

(2) مجمع البيان: ج 2 ص 221.

يستهدفون إلّا منع خروج المسلمين من الأمية إلى العلم، ومن الوثنية إلى التوحيد، وهم يحسدونهم في ذلك حباً في دوام امتيازهم عليهم.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً غير أنّا نحسها في يومنا هذا بوضوح، فإنّ من مخططاتهم تقويض الأخلاق عند الغير، لأضعافه والسيطرة عليه، وهل الإباحية والخلاعة إلّا أحد مخططاتهم التي تتجلى في الأفلام السينمائية والمرابع والحانات وحتى في الساحات العامة.

وفسره سبحانه في آية أُخرى وقال: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ـ 62).

ملاحظة :

هذه هي الأخبار الغيبية الواردة في القرآن ولم نعرضها على وجه التفصيل والاستقصاء، وإنّما جئنا بها على وجه الاجمال وفي ما ذكرناه غنى وكفاية.

قل لي بربّك هل انخرم واحد من تلكم الأخبار أو تخلّف، أو كلّها غيب تحققت في المستقبل، كما أنّ ما سألوا عنه حول أصحاب الكهف وذي القرنين والروح غيب أما تحقق في الماضي أو جار فيه، وفي الحال كما في السؤال عن الروح وقد أجابهم عن ما سألوه ولم يكن عنده شيء يستند إليه سوى الوحي، ولم يكذّبوه فيما حدثهم.

وكل واحد من هذه الانباء معجزة كبرى ولو عددت كل ما ورد في الكتاب من الانباء الغيبية على أقسامها، تبين لك عدد تلكم المعجزات، ويزيدك اعجاباً بها إذا وقفت على أنّ المتحدث بها أُمّي ربيب البادية لم يحضر على أحد في شيء من تلكم الأخبار والمغيبات.

ويزيدك اعجاباً أكثر أنّ انجيل « متى » تنبّأ بأمر واحد حول المسيح وهو أنّه يبقى مدفوناً في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولكن ما برح انجيل « متى » أن كذّب في

أواخره هذا الإخبار فوافق الأناجيل الثلاثة الأُخر على أنّ المسيح في مساء ليلة السبت طلب بعض الناس جثته من بيلاطس فأنزلها عن الصليب وكفّنها ودفنها، وقبل الفجر من يوم الأحد قام المسيح من الموت، وخرج من قبره، وعلى ذلك لا يكون المسيح بقي في القبر إلّا ليلة السبت ونهاره وليلة الأحد، وذلك نهار وليلتان [1].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾.

---

(1) مقدمة آلاء الرحمن للعلّامة البلاغي.

الفصل السابع

اختصاص العلم بالغيب

بالله سبحانه

لقد ورد لفظ الغيب في الذكر الحكيم، مع بعض مشـــتقاته أربعاً وخمســـين مرة، وقد عرفت بما أســـلفناه ما هو المراد من الغيب، غير أنّا نريد في المقام أن نتحدث عن ناحية أُخرى لها تعلّق به، وهي أنّه هل الغيب مختص بالله سبحانه لا يعدو غيره أو غير مختص به ويتصف به سواه ؟!

والقول الفصل في المقام هو أنّ العلم بالغيب على ضربين :

أحدهما: ما هو مختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره، ولا يتجاوز إلى سواه، وأنّ ما جاء في الذكر الحكيم من الاشارة إلى علم الغيب، لا يراد منه إلّا هذا، فقوله سبحانه: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلّا اللهُ ﴾ (النمل ـ 65) لا يراد منه إلّا هذا المعنى المختص به تعالى كسائر أوصافه ونعوته.

ثانيهما: ما يتصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يظهره على غيبه، وهذا لا يصح اطلاقه على الله سبحانه، وهذا الانقسام كما يجري في علم الغيب كذلك

يجري في سائر نعوته وصفاته من قدرته وحياته و ... فما يجري منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه، ولا يصح اطلاقه عليه، وما يجري على من سواه لا يصح اطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق إلّا على غيره من المخلوقين، فلنذكر ما يدل على اختصاص العلم بالغيب بالمعنى الأول والذي يمكننا استفادته منه وجوه :

1. قصره على الله سبحانه في بعض الآيات :

فمن الآيات الدالّة على الحصر به قوله سبحانه: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلّا هُوَ ﴾ (الانعام ـ 59) وقوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلّا اللهُ ﴾ (النمل ـ 65).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ ﴾ (يونس ـ 20).

وقوله تعالى: ﴿ وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ (النحل ـــ 77) وقوله سبحانه: ﴿ وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ (هود ـ 123)، فلا يدل على مانحن بصدده.

إذ المقصود من قوله: ﴿ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ ﴾ هي الآيات الباهرات والمعجزات التي يستدل بها على نبوّة المدعي وصلته به سبحانه، وذلك ظاهر لمن أمعن النظر في سياق الآيات. وأمّا قوله سبحانه: ﴿ وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فالمراد منه: أنّ الحكومة المطلقة في السماوات والأرض غيبهما وشهادتهما، باطنهما وظاهرهما، لله سبحانه، وأنّه تعالى يملك غيب السماوات والأرض ملكاً لا حدود له، وله أن يتصرّف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتهما، وكيف لا وغيب الشيء لا يفارق شهادته وهو موجود ثابت معه، وله الخلق والأمر ؟!

ويؤيده ذيل الآية، وهو قوله: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ والمعنى أنّ الساعة الموجودة، ليست بأمر محال حتى لا تتعلّق بها قدرة، بل هي من غيب

السماوات والأرض، وحقيقتهما المستورة عن الافهام، في هذا الزمان، فهي مما استقر عليه ملكه تعالى، وله أن يتصرف فيه بالاخفاء تارة وبالاظهار أُخرى، وليست بصعبة عليه تعالى، فإنّما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لأنّ الله على كل شيء قدير.

ومن ذلك يظهر المقصود من قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ فإنّ الآيتين متقاربتان في المعنى والمقصد، ومفاد صدر الآية: يعني كونه سبحانه مالكاً لغيب السماوات، علّة لذيلها أعني قوله سبحانه: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ ورجوع الكل إليه، من غيب السماوات والأرض، ومن يملك غيبهما قادر على إرجاع الأُمور إليه.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الكهف ـ 26) والمعنى إذا كان سبحانه مالكاً لغيب السماوات والأرض بحقيقة معنى الملك، وله كمال البصر والسمع، فهو أعلم بما لبثوا !!.

2. ما يستفاد منه الحصر بمعونة القرائن :

وهناك آيات يستفاد منها الحصر بمعونة القرائن وهي كثيرة مثل قوله في بدء الخليقة عند تفنيد مزعم الملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة ــ 33) فالآية بصدد تنزيهه سبحانه عن الجهل وترفيعه على من سواه بصفة تختص به سبحانه ولا يشاركه فيها غيره، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (فاطر ـ 38) وقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة ــ 109) والصيغة في المقام للتكثير لا للمبالغة نظير قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران ــ 182) والمراد من اللفظين في كلا الموردين هو الانتساب إلى المبدأ أعني الغيب والظلم فيؤول المعنى إلى أنّه المنسوب إلى علم الغيب فقط دون غيره، أو أنّه لا صلة بينه وبين الظلم.

كقول امرؤ القيس:

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبال

أي وليس بصاحب نبل، ولا صلة ونسبة بينه وبين النبل أبداً.

وقد ورد توصيفه سبحانه بهذا اللفظ في الذكر الحكيم أربع مرات [1] ووزان هذا القسم من الآيات، وزان قوله سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾ (الأنعام ـ 73) وقوله: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (التوبة ـ 94) وقوله: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة ـ 105) إلى غير ذلك مما يبلغ توصيفه في الذكر بهذا النحو عشر مرات [2]، فإنّ الظاهر من هذا التوصيف بهذه الكثرة هو اختصاصه سبحانه بالعلم بالغيب والشهادة، على نحو لا يشاركه غيره.

3. سلب العلم بالغيب عن غيره :

هذا القسم من الآيات يدل بالملازمة العرفية على اختصاصه به سبحانه، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف ـ 188)، ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ (هود ـ 31) [3].

ومن هذه الوجوه الثلاثة يستفاد اختصاص العلم بالغيب به سبحانه وأنّه لا يشاركه فيه غيره، غير أنّ اختصاصه به سبحانه على الوجه اللائق بساحته لا ينافي إمكان إطلاع الغير على الغيب باذن منه سبحانه.

---

(1) المائدة: 109 و 116، التوبة: 78، سبأ: 48.

(2) الأنعام: 73، التوبة 94، و 105، الرعد: 9، المؤمنون: 92، السجدة: 6، الزمر: 46، الحشر: 22، الجمعة: 8، التغابن: 18.

(3) سيوافيك توضيح مفاد الآية وما يماثلها التي تسلب العلم بالغيب عن النبي ﷺ عن قريب فانتظر.

توضـــيحه: أنّ ما يجري على الله ســـبحانه من صـــفات ونعوت تختلف عمّا يجري على غيره ســـبحانه لا بمعنى أنّ للعلم معنيين مختلفين بأحدهما يجري على الواجب وبالمعنى الآخر يجري على الممكن، فإنّ ذلك باطل بالضرورة إذ ليس للعلم ولا لسائر أوصافه في اللغة والعرف إلّا معنى واحداً وهو في العلم انكشـاف المعلوم لدى العالم بطريق من الطرق، وكذا الحياة والقدرة والسـمع والبصـر بل المراد اختلاف المحمول عند الجري على الواجب والممكن من جانب آخر. وهو الاختلاف في كيفية الجري والاتصـاف، فإنّ العلم: منه واجب، ومنه ممكن منه ذاتي ومنه اكتسـابي، منه مطلق ومرسـل عن القيود، ومنه مقيّد محدود، منه ما هو عين الذات بلا تعدد بين الوصـف والموصـوف، ومنه زائد على الذات وعارض عليه، وهكذا واللائق من هذه الأقسـام بسـاحته تعالى هو القسـم الأوّل.

كما أنّ الصـــحيح عند الحمل على الموجود الممكن هو الثاني لما تحقق وثبت بالبراهين العلمية أنّ علمه سبحانه مطلقاً بذاته أو غيره، ذاتي له لا عرضي، مطلق لا مقيّد. مرسل لا محدود.

وعلى ذلك ـــ فعلمه سبحانه بكل شيء، عين ذاته، لا عارض عليه، فالذات هو نفس العلم والعلم هو عين الذات بلا تعدد ولا اثنينية بين الذات وعلمه ونظير المقام اطلاق علمه، فعلمه سـبحانه مطلق عن القيود، مرسـل عن الحدود، فلا يحدده كيف ولا يقيّده أين، مجرد عن الامكان وأحكامه، منزّه عن التجزئة والمقدار وآثاره إلى غير ذلك من أحكام الممكنات ولوازمها.

فهذه الآيات الدالة على اختصـــاص العلم بالغيب به ســـبحانه لا تهدف إلّا إلى ما يناســـب ساحته وهو العلم الواجب الذاتي المرسل المطلق عن الحدود، الذي لا يشاركه غيره، لا ما يمكن أن ينعت به الممكن ويتصـف به غير الواجب واتصـاف الغير بالعلم الامكاني الكسـبي منه سـبحانه، المحدود بالزمان والمكان وغيرها من الحدود، الزائد على ذات الموصـــوف، والعارض عليه، لا يعد نقضاً للحصر، بل لا يستلزم استثناء عن الحكم

استثناء حقيقياً متصلاً ولا يستلزم مشاركة الواجب والممكن في هذا الوصف، كاتصاف سائر الموجودات بالحياة والقدرة، والسمع والبصر وغيرهما من الصفات الثبوتية.

فالغيب المختص به سبحانه إنّما هو هذا النوع من العلم الذي لا يشاركه فيه شيء، بل يمتنع أن يشاركه فيه أحد لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب.

وعليه يحمل كل ما دلّ على أنّ علم الغيب مختص به سبحانه، فالعلم بالغيب الذي هو عين ذاته سبحانه الذي لا يحده شيء، ولا يقيده قيد، مخصوص به تعالى، لا يشاركه في هذا العلم أحد من خلقه، بل العلم بالشهادة على هذا الوجه أيضاً مختص به، كما قال سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾ (الأنعام ـــ 73) إلى غير ذلك ممّا يلمح إلى انحصار كلا العلمين فيه سبحانه.

وهذه قرينة واضحة على أنّ المقصود من الآيات الدالة على اختصاص علم الغيب به سبحانه، هو ما يليق بساحة الواجب الذي لا يشاركه فيه أحد، وإلّا فالعلم بالشهادة على غير الوجه الذاتي، وغير المطلق المرسل عن القيود، بأن يكون محدوداً ومقيداً وعرضياً، فغير مختص به، بل يوجد عند كل من أعطى له الإدراك والشعور، وقدرة الاتصال بالخارج، فما دل على انحصار كلا العلمين (العلم بالغيب والشهادة) فيه سبحانه إنّما يراد منه ما يليق بساحته عزّ وجلّ.

هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب :

إنّ في وسع المولى سبحانه أن يظهر على غيبه من شاء من عباده ويطلعه على ما حدث وغبر، أو يحدث ويتحقق من ملاحم وأحداث وفتن أو غيرها، في حين أو أحايين ويوقفه على ما لم يره ولم يشهده، وليس في ذلك أي تصادم مع اختصاصه بالله، فهو يعلم الغيب بالأصالة، وغيره بتعلّم منه ومن طريق التبعية.

قال الشيخ الرئيس في إشاراته ما هذا لفظه: « التجربة والقياس متطابقان على أنّ للنفس الانسانية أن تنال من الغيب نيلاً ما، في حالة المنام، فلا مانع من أن يقع مثل

ذلك النيل في حال اليقظة إلّا ما كان إلى زواله سبيل، ولارتفاعه إمكان، أمّا التجربة فالتسامح والتعارف يشهدان به، وليس أحد من الناس إلّا وقد جرب ذلك في نفسه، تجارب ألهمته التصديق اللّهمّ إلّا أن يكون أحدهم فاسد المزاج، نائم قوي التخيل والتذكر، وأمّا القياس فاستبصر فيه من تنبيهات » ثمّ ذكر بعض التنبيهات لاثبات ما ارتآه [1].

وقد صرّح بذلك في آيات :

الأولى: قوله سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (الجن: 26 ـ 28) فمعناه أن الغيب كلّه مختص به، لا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فيظهر رسوله على ما شاء من الغيب، فهذه الآية إذا انضمت إلى قوله سبحانه: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلّا اللهُ ﴾ (النمل ـ 65) يتضح أنّ الهدف من الآية، اختصاصه به على وجه الأصالة والذاتية، واطلاع الغير بتعليم منه سبحانه وليس ابطالاً له بل استثناء منه يشبه الاستثناء المنقطع، فإنّ علمه بالأشياء بالأصالة وعلم غيره بالتبعية، والعلم التبعي الاستنادي، لم يكن داخلاً فيه، حتى يحتاج إلى اخراجه إلّا بضرب من التأويل، لتشابه بين العلمين من بعض الجهات وإن افترقا من جهات شتى، فصح أن يقال: إنّ العلم بالغيب مختص به سبحانه وفي الوقت نفسه يظهر على غيبه بعض عباده من دون أن يمس كرامة اختصاصه به.

ونظير المقام قوله سبحانه: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر ـــ 42) فهو ظاهر في أنّ التوفّي منحصر في الله سبحانه مع أنّه سبحانه أسنده إلى ملك الموت في مورد وإلى رسله في مورد آخر، وقال: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (السجدة ـــ 11) فالتوفّي وأخذ الأرواح والنفوس، من فعل الله سبحانه على وجه

---

(1) راجع الاشارات والتنبيهات النمط العاشر: ج 3 ص 399.

الأصالة ومن فعل غيره على وجه التسبيب والتبعية، ومع ذلك لا ينافي اختصاصه به سبحانه على الاطلاق لاختلاف الفعلين من جهة وتشابههما من جهة أُخرى.

نعم ما يظهره على رسوله من الغيب لما كان في مظنة التغيير لم يكتف بنفس الاظهار والاعلام بل عين له رصداً وحفظة يحفظون ما يلقى إليه، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾.

ولمّا كان علم الرسول بالغيب محاطاً بعلمه سبحانه قال: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي ما لدى الأنبياء والخلائق وهم لا يحيطون إلّا بما يطلعهم الله عليه فقد: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾.

ثمّ إنّه وإن خصّص العام في هذه الآية بالرسول حيث قال: ﴿ إلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ إلّا أنّه لا يأبى عن ورود مخصّص آخر عليه فإنّه سبحانه كما أظهر غيبه على رسله، أظهره على أنبيائه الآخرين حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ (النساء ـ 163) والوحي أحد مصاديق الغيب على ما عرفناك.

هذا إذا قلنا باختلاف الرسول والنبي في المصداق وأنّ بين اللفظين حسب المصداق عموم مطلق أو عموم من وجه، أمّا إذا قلنا باختلافهما في المفهوم وتساويهما في المصداق كما هو غير بعيد، فلا يلزم تخصيص آخر.

ومن هنا يظهر الحال في علم خلفاء الرسول بالغيب فإنّهم: لما جعلوا مصدر علمهم بالغيب، التعلّم من ذي علم وهو الرسول والوراثة منه [1] لا يلزم عندئذ تخصيص آخر على الآية، غير أنّ كون مصدر علمهم منحصراً فيها لا يخلو من غموض لما سيوافيك من كونهم: محدثين ـــ بالفتح ـ فانتظر.

وربّما يقال: انّ المراد من الغيب في قوله سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن ـ 26 ـ 27) وهكذا في نظائره ممّا استدل به على جواز تعرّف النبي ﷺ على الغيب، هو الوحي القرآني الذي نزل على قلب

---

(1) وقد عقد الكليني في أُصوله باباً لذلك فراجع: ج 1 ص 223.

النبي ﷺ ، وهذا ممّا لا خلاف فيه، وإنّما الخلاف في تعرّفهم على الغيب، من غير هذا الطريق، وممّا يدل على ما استظهر، قوله سبحانه في عدة مواضع من القرآن: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فلاحظ (آل عمران . 44، ويوسف . 102، وهود . 49).

والاجابة عنه سهلة بعد الوقوف على معنى الغيب في اللغة والعرف ومصطلح القرآن في غير هذه المواضع ويتضح الجواب بملاحظة أُمور :

1. أنّ الغيب يطلق في اللغة على الأمر الغائب عن الحس في مقابل الشهود الذي يطلق على المعنى المحسوس بأحد الحواس، وإذا أُطلق على الوحي كلمة الغيب فإنّما هو بسبب خفاءه عن حواسنا كالحوادث الغائبة عن حواسنا الواقعة في هذا الكون وعندئذ فما هو المبرر لتخصيص كلمة الغيب بالوحي فقط.

إنّ القرآن الكريم يجعل أحد علائم المتقين في كتابه هو (الإيمان بالغيب) حيث يقول: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ فهل يسوغ المعترض لنفسه تفسير الغيب في الآية بالوحي فحسب ؟ في حين أنّ الغيب هنا يحمل معنى واسعاً يكون الإيمان بالقيامة والوعد والوعيد أحد مصاديقه أيضاً، التي يؤمن بها المتقون رغم عدم إدراكهم لها بالحواس، أضف إلى ذلك أنّ الغيب في اللغة بمعنى الأمر الغائب عن الحس مقابل (الشهادة)، ومن هنا يقول القرآن في وصفه سبحانه: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وليس المراد منه خصوص الوحي قطعاً، واطلاق الغيب على الوحي، ليس لأنّ الوحي هو معناه، بل لأنّ الوحي هو من بعض مصاديقه باعتبار عدم ادراكنا له بالحس أيضاً، فهذا الاشتباه من قبيل اشتباه المصداق بالمفهوم في مصطلح العلماء، وقد تصور المعترض أنّ الغيب بمعنى الوحي فقط بينما ليس الوحي إلّا أحد مصاديق الغيب حسبما عرفنا الآن، وقد ورد لفظ الغيب في القرآن الكريم أربعاً وخمسين مرّة ولم يقصد فيه إلّا الأُمور الغائبة عن الحس أيضاً حتى الآيات التي استدل بها المعترض على ما يقوله من تفسير الغيب بالوحي فقط.

إنّ هذه الآيات تشير إلى قصص مريم ويوسف ونوح التي لم تكن معروفة عند

الناس بشكلها الصحيح، فبيّنها القرآن لهم بالشكل المطلوب الصحيح، وفي الواقع كان الوحي هنا أحد طرق معرفة الغيب، لا أنّ الغيب موضوع للوحي خاصة، ولعلك لا تعثر في القرآن كلّه على موضع واحد أُطلق فيه لفظ الغيب وأُريد منه الوحي فقط وإليك بعض النماذج :

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (البقرة ـــ 33)، ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ (الأنعام ـ 59)، ﴿ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ المُهِينِ ﴾ (سبأ ـ 14) .[1]

2. إنّ كلمة (الغيب) في قوله سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (الجن ـ 26) بمعنى الأُمور الغائبة عن الحس كما قدمناه وليست بمعنى الوحي كالقرآن مثلاً، وذلك لأنّ الآية السابقة [2] قد عرضت موضوع اطّلاع النبي ﷺ على موعد القيامة وكانت الآية قد نفت ـــ بلسان النبي ﷺ ـــ مثل هذا الاطّلاع عنه ﷺ ، وحين يأتي بعد هذا النفي المباشر قوله سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾.

يكون موضوع القيامة داخلاً في اطار كلمة (الغيب) المستعملة في الآية أيضاً وتكون الآية الأخيرة بمثابة تعليل لما تقدم في الآية السابقة من نفي العلم بموعد القيامة عن النبي ﷺ بجعلها من علم الغيب المختص بالله سبحانه ولا يمكننا بعد ذلك تفسير (الغيب) في الآية بخصوص الوحي، لأنّ سياق الآية يمنع من إخراج العلم بموعد القيامة عن مورد الآية. وإذا كان العلم بموعد القيامة ممّا تتضمنه الآية أيضاً حسب السياق، لا يمكننا استثناء سائر المواضيع الغيبية من هذه الآية، وحينئذ يكون معنى الآية كما يلي :

﴿ أنّ الله عَالِمُ الْغَيْبِ ـ كل من غاب عن الحس من وحي وغيره ـ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾. وتكون الآية دليلاً واضحاً على اطّلاع

---

(1) راجع المعجم المفهرس.

(2) تقول الآية السابقة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ ... ﴾.

النبي ﷺ على الغيب من وحي وغيره بأمر من الله تعالى.

3. إنّ المفسّرين فسّروا الغيب في الآية المبحوث عنها من (سورة الجن) بالأُمور الغائبة عن الحس، وأيدوا بها اطّلاع الأنبياء على هذه الأُمور، ويعلل طائفة من هؤلاء المفسرين كالطبرسي والقرطبي وصاحب (روح البيان) اطّلاع الأنبياء على الغيب بأنّ ذلك دليل متمّم على صدق رسالتهم، ومعجزة لهم، حيث إنّ علمهم بالغيب سبب لوثوق الناس بهم، ودليل على ارتباطهم بالسماء. وبعد هذا هل يمكن تخطئة جميع هؤلاء المفسرين وتصحيح ما قاله المعترض فقط ؟!

إنّنا راجعنا التفاسير التالية فوجدناها جميعاً تفسر (الغيب) بكل أمر غاب عن الحس مطلقاً ولم يفسر أحد منهم الغيب بالوحي خاصة وإليك أسماء التفاسير التي راجعناها مع أرقام الصفحات والمجلدات: تفسير التبيان للشيخ الطوسي 10 / 158، ومجمع البيان للطبرسي 10 / 374، تفسير ابن كثير 4 / 433، تفسير القاضي البيضاوي ص 445 الطبعة الحجرية، تفسير جوامع الجوامع للطبرسي ص 514، الكشاف 4 / 633، زاد المسير لابن الجوزي 7 / 385، تفسير القرطبي 10 / 6819، تفسير الجلالين ص 766، الطنطاوي 24 / 281، المراغي 29 / 106 تفسير گازر 10 / 191، في ظلال القرآن 29 / 162، تفسير القمي ص 700، الصافي 2 / 753، تفسير شبر ص 1164، مقتنيات الدرر 11 / 273، منهج الصادقين 10 / 4، روح البيان 10 / 201.

الثانية: قوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران ــ 179) فهو بظاهره يفيد أنّ الله سبحانه لا يظهر على غيبه أحداً من الناس ليعلم ما في قلوب الآخرين، ويميز المؤمن من المنافق، ولكن يختار من يشاء من رسله فيوقفه على الغيب ويطلعه عليه.

ولا يتوهّم أنّ المقصود من الغيب هو الوحي القرآني فإنّه لا يناسب مفاد الآية إذ

المقصـــود من ﴿ الخَبِيثَ ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما أنّ المقصـــود من ﴿ الطَّيِّبِ ﴾ هم المؤمنون الحقيقيون.

إنّ الله تعالى يلفت أنظار الأُمّة في مطلع هذه الآية بأنّه تعالى سوف لا يدع الأُمّة بهذا الشكل المختلط من المؤمنين والمنافقين بل أنّه تعالى سيميز بين الفريقين بأحد الطريقين التاليين :

1. فرض الامتحان والابتلاء عليهم جميعاً وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان فيعرف المؤمن من المنافق.

2. عن طريق علم الغيب وذلك بأن يطلع نبيه على شـؤون المؤمنين والمنافقين والفوارق بينهما، ولكن هذا الطريق مختص بالنبي والأنبياء فقط، وليس كل الأنبياء، بل أُولئك الذين يجتبيهم الله من أنبيائه ورسـله. ولقد أشـار الى هذه الحقيقة بقوله: ﴿ مَا كَانَ اللهُ ﴾. ويتضـح من ذلك كلّه أنّ ليس المقصـــود من الغيب في هذه الآية هو الوحي المصـــطلح، بل معناه الاطّلاع على المواضـــيع الخارجية مثل تمييز المنافق من المؤمن، لأنّه لو كان المراد منه الوحي المصـــطلح ما كان هناك داع لتخصيصه بطائفة من الرسل، في حين أنّ جميع الأنبياء ينزل عليهم مثل هذا الوحي.

أضف إلى ذلك أنّ الهدف من اطّلاع الأنبياء على الغيب هنا، حسبما يدل عليه السياق هو تمييز المؤمن من المنافق، ولا يكون هذا إلّا بأن يطّلع النبي ﷺ على كل شـــؤون المنافقين ويعرف كل فرد منهم، والقرآن وإن بين بعض صـفات المنافقين على وجه العموم، ولكنّه لم يعرفهم بشـكل تفصـــيلي يؤدي إلى التمييز بينهم وبين المؤمنين، والدليل على أنّ المقصـــود من الآية هو معرفة المنافقين تفصـــيلياً هو ما يرويه التاريخ من أنّ النبي ﷺ عرف جميع المنافقين يوم تبوك وعرّفهم لحذيفة [1] أيضـاً. ولقد تحقق مفهوم هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ بمعرفة النبي ﷺ للمنافقين، عن طريق تحقق

---

(1) لاحظ المصـــادر التالية: تاريخ بغداد: ج 1 ص 161، أُســـد الغابة: ج 1 ص 319، الاســـتيعاب: ج 1 ص 277، الدرجات الرفيعة: ص 284 وغيرها وقد عرف حذيفة بأنّه صاحب سر رسول الله ﷺ .

محتوى هذه الآية.

إنّ من يمعن النظر في الآية يذعن بأنّه ليس المقصـــود من « الغيب » فيها وحي الســـماء بل المقصود هو: معرفة الخبيث (المنافق) من الطيب (المؤمن) الحقيقي، ومثل هذه المعرفة التفصيلية لا تحصـــل عن طريق الأُمور الكلية والعامة، بل لا بد من طريق آخر يعرّفهم النبي ثم يعرّفهم للآخرين.

الثالثة: قوله ســـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَـــنِينٍ ﴾ (التكوير: 23 ـ 24)، المراد من « الغيب » هو الوحي النازل عليه والمعنى أنّه لا يبخل بشيء مما يوحى إليه، فلا يكتمه ولا يحبســـه ولا يغيره، بل يبلّغ الناس على النحو الذي أُمر بابلاغه فتدل الآية على اطّلاعه على الغيب.

الرابعة: قوله ســـبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ وقد تكررت الآية في الذكر الحكيم فراجع آل عمران ـ 44، يوسف ـ 102، وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ (هود ـــ 49) وعلى أي تقدير فتدل هذه الآيات الأربعة على أنّه سبحانه يظهر غيبه على رسوله ويطلعه عليه، وعلى الأنباء الغيبية مما لم يكن يعلمه لا هو ولا قومه.

وقد اســـتدل في بعض الروايات على اطّلاع النبي والأئمة على الغيب بقوله ســـبحانه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (الدخان: 3 ـ 5)، وبقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... ﴾ (القدر: 1 ـ 5).

ونقلها الكليني في أُصـوله [1] عن الحسـن بن العباس بن الحريش وقد عرفت حال الرجل وأنّه لا يلتفت إليه ولا يكتب حديثه وأنّه ... [2].

---

(1) الكافي: ج 1 ص 245 ـ 249.

(2) راجع ما أسلفناه ص 342 ـــ 343 من كتابنا هذا، وجامع الرواة: ج 1 ص 205 وقاموس الرجال: ج 3 ص 182 ـ 183.

نعم استدل بعض الأكابر [1] على عموم علم النبي والأئمة من أهل بيته لكل غابر وحادث بل على فعلية علومهم بكل شيء بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب ـ 33)، وبقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـ 33).

حيث قال: « إنّ عموم إذهاب الرجس والتطهير والاصطفاء، الظاهري والباطني والتنزيه عن شوائب الكدر، وظلمات الجهل والسهو دال على كلّ من المطلوبين من عموم علمهم وفعليته » لكن في دلالة الآيتين على المطلوب خفاءً.

أمّا الأُولى: فإنّ دلالتها على اعتصام أهل البيت بالعصمة الالهية في غاية الظهور على ما هو مقرر في محله، وأمّا دلالتها على سعة علمهم وفعليته ففيه خفاء تام، فإنّ الرجس هو الشيء القذر يقال: رجل رجس، ورجال أرجاس، والقذارة أمر وجودي توجب تنفر النفس من الشيء المتلبس بها وهي إمّا بحسب ظاهر الشيء كما في الخنزير كقوله سبحانه: ﴿ إِلّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام ـ 145)، أو بحسب باطنه وهي القذارة المعنوية كالشرك والكفر ومساوئ الأخلاق والخمر والميسر بما لهما من الآثار الموبقة، قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة ـ 125)، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ـ 125)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة ــ 90). والمتفحص في موارد استعماله يذعن بأنّه أمر وجودي في الشيء إمّا بحسب ظاهره مما يدركه الناس أو باطنه مما يجب أن ينبه عليه من جانب العقل أو الشرع، والغاية من إذهاب الرجس عنهم هو إزالة كل صفة خبيثة في النفس، تدعو إلى الاعتقاد الباطل أو العمل السيء في مقابل العصمة الالهية، التي هي هيئة

---

(1) السيد عبد الحسين النجفي الشيرازي.

علمية نفسانية، تصون الانسان عن الزلل في الرأي والقول والعمل.

أمّا الجهل بالشيء مطلقاً خصوصاً الجهل بالفتن وملاحم أحداث وكل ما يجري في الكون من نوازل أو ملمات أو ما يحكم فيه من نواميس وقوانين فليس أمراً وجودياً أو هيئة في النفس، يورث التنفّر والتجنب، حتى يدل إذهاب الرجس على إذهابه فلو جهل الانسان بنواميس الكون والقوانين السائدة في الأفلاك لا يعد جهله هذا رجساً، أترى من نفسك أن جهل الفقيه بالمعادلات الجبرية والقوانين الطبية رجس، أو جهل الأديب بفنون الصنايع رجس ؟

وأمّا عد الإلحاد والشرك من الرجس، فليس لأجل كون الملحد والمشرك جاهلاً بالله سبحانه وصفاته بل لأجل تعلق قلبه بأمر باطل لا يعدو كونه أمراً وجودياً وإن كان يجتمع مع الجهل أيضاً [1].

وأمّا الآية الثانية: فلأنّ المراد من الاصطفاء هو أخذ صفوة الشيء وتخليصه ممّا يكدر، فالمناسب له، هو اصطفاؤهم من الزلل في الرأي والقول والعمل الذي هو عبارة عن العصمة الالهية وهي الجهة الجامعة الوحيدة بين المصطفين أعني آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، فإنّ المراد من آل إبراهيم هم الطيبون من ذريته كإسحاق وإسماعيل والطاهرون من ذريتهما، كما أنّ المراد من آل عمران هي مريم وابنها المسيح أو هما وزوجة عمران بقرينة ذكر قصة امرأة عمران ومريم ابنته بعد الآيتين. وعلى أي تقدير فالمراد اصطفاؤهم من كدر الشرك وقذارة الذنوب وتطهيرهم من مساوئ الأعمال وقبائحها ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ـ 42).

نعم إنّ الله سبحانه وإن اصطفى آدم بتعليمه الأسماء حين قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة ـ 31) لكنّه اصطفاه بأُمور أُخرى أيضاً فهو أوّل خليقة وطأ الأرض من النوع الانساني قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

---

(1) راجع المفردات للراغب: ص 188 والميزان: ج 16 ص 330.

فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة ـ 30)، وأول من اجتباه بقبول توبته قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه ـ 122) إلى غير ذلك من خصائص ومناقب، كما أنّه اصطفى نوحاً بجعله أوّل الخمسة من أُولي العزم أصحاب العزائم القوية والشريعة لقوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ (الشورى ـــ 13) إلى غير ذلك، واصطفى إبراهيم وآله بأُمور وخصال يجدها المتفحص في سيرتهم المذكورة في القرآن.

لكن الجهة الجامعة المشتركة بين الجميع في الآية، التي يمكن أن يكون الاصطفاء لأجلها ليست إلّا العصمة الالهية، أعني التطهير من الذنوب وكدر الشرك أو هي مع النبوّة في غير مريم، لا ما يختص بكل واحد منهم من صفات وخصال كتعليم الأسماء لآدم مثلاً حتى تكون الآية ناظرة إلى اصطفاء المذكورين في الآية بتعليمهم كل شيء واطلاعهم على كل أمر، ويدل بالنتيجة على اطلاع النبي وآله على الغيب.

القرآن يدل على تحقق التنبّؤ من الأنبياء والصالحين :

ما مر عليك من الآيات تدل بصورة كلية على أنّ رجال الوحي يمكنهم الاطّلاع على الغيب والتطلع على ما ليس بمشهود لغيرهم، هلم معي نتدبر في الآيات التي تدل على تحقق التنبّؤ عنهم في مواقف شتى.

ولنقدم كلمة، وهي: أنّ كل ما أتى به الرسول ﷺ من أُصول وفروع وقصص و ... كلّها أنباء غيبية أظهره الله عليها قال سبحانه في شأن النبي الأعظم: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود ـ 49) فأي غيب أعلى وأجلى ممّا أظهر نبيه عليه من القرآن المبين الذي يعد بنفسه نبأً غيبياً ويحتوي من الإخبار بالمغيبات الوافرة ما لا يعد ولا يحصى، فكل ما جاء به في مجالات مختلفة، غيب بلفظه ومعناه أطلعه الله عليه وأوحاه إليه بصورته ومادته، إذ المفروض أنّ القرآن معجز بلفظه ومعناه والمعجزات احدى المغيبات.

وعلى كل تقدير أنّ القرآن يدل بفضل نصوصه على أخبار غيبية، تنبّأت بها ثلّة

جليلة من عباده المخلصين من انبيائه ورسله وخيار عباده وان الله أظهر من علمه المكنون ما كان خفياً، على بعض رسله وانبيائه وثلّة من أوليائه ودونك ما وقفنا عليه عند التدبر في الذكر الحكيم.

1. النبي آدم عليه السلام والاطلاع على الغيب :

قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: 31 ـ 33).

والنظر الدقيق في هذه الآيات الثلاث يقودنا إلى أنّه سبحانه أطلع نبيه آدم عليه السلام على جملة من الحقائق كان يغيب علمها عن الملائكة وقد أخبر آدم ـ بأمر من الله ـ الملائكة عن هذه الحقائق التي عبر عنها القرآن بالأسماء، وليس المراد من الأسماء في الآية: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ أسماء الأشياء فقط فإنّ معرفة الأسماء لا تعد فضيلة لآدم عليه السلام .

وإنّما المقصود منها مسمّياتها ـــ أي حقائق الأشياء ـــ وعلى هذا علمه سبحانه أسرار الخليقة فاطّلع على خواص الأشياء وآثارها فصارت نتيجة تعليم الأسماء لآدم عليه السلام هو نصب الحقائق الكونية بين يديه وإخباره عن واقع الحياة [1]. والاتيان بضمير الجمع المذكر العاقل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ ﴾ دون الاتيان بضمير المفرد المؤنث يدل على ما قلناه فلو كان الهدف تعليم نفس الأسماء لآدم عليه السلام فحسب لكان ضمير المفرد المؤنث جديراً بالمقام. وهذه الآيات الكريمة دلّت على وجود علم الغيب الفعلي عند آدم عليه السلام وذلك لأنّ الاطّلاع على الغيب

---

(1) قد نقل العلّامة الطبرسي في مجمع البيان: ج 1 ص 76 طبع صيدا، أقوال المفسّرين حول المراد من الأسماء واختار ما ذكرناه.

والإخبار عن شؤون البشر في المستقبل، والايحاء إلى الملاحم والفتن ليس بأعلى من الوقوف على حقائق المسمّيات التي كلت دون إدراكها ملائكة الله سبحانه حتى أنبأهم وأطلعهم عليها.

2. تنبّؤ نوح عليه السلام :

قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: 26 . 27).

لقد سار شيخ الأنبياء نوح عليه السلام بأُمته سيراً سجحاً وتحمّل في سبيل دعوته المحن والكوارث، وجابه ضوضاء الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يئس من إيمانهم، فدعا ربّه بإهلاكهم وإبادتهم مخبراً عن مآل قومه ومن يرثهم وذلك كما تقدم في الآية، أوليس هذا إخباراً عن عواقب أُمورهم وأخلافهم، وأنّه لن يؤمن أحد منهم ولا من أخلافهم ؟

ولعل المعترض يقول: إنّ نوحاً بعد أن قضى ردحاً مديداً من الزمن مع قومه، رأى أنّ البيئة الاجتماعية أصبحت منحرفة إلى درجة لا تسمح مطلقاً بمقتضى علمه العادي أن يوجد فيها فرداً صالح وهذا أمر متصور. أو أنّه وقف على مآل أمر قومه، بعد إخباره سبحانه بذلك كما قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلّا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (هود . 36).

أقول: هب أنّه فهم مآل قومه من القرائن أو من اخباره سبحانه لكنّه من أين وقف على أحوال خلفهم وإن من يرثهم لا يكون إلّا فاجراً كفاراً ؟ وليس ذلك إلّا بتعليم من الله واظهاره على نبيه باحدى الطرق.

3. إبراهيم عليه السلام وملكوت السماوات والأرض :

إنّ القرآن يصف إبراهيم بصفات كثيرة ويشرح أمره في بدء الدعوة ويقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام ـ 75).

فالملكوت هو الملك كالطاغوت والجبروت وإن كان آكد بالنسبة إلى الملك كما أنّ الطاغوت والجبروت آكد بالنسبة إلى الطغيان والجبر والجبران.

والمراد من اراءة ملكوت السماوات والأرض لإبراهيم هو توجيه نفسه الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه استناداً لا يقبل الشرك بحيث عاد إبراهيم بعد تلك الاراءة فحكم أنّ ليس في صفحة الوجود ربّ غيره سبحانه يتولى تدبير النظام وإدارة الأُمور حتى صار من الموقنين.

وهذه الاراءة لا تقل عن علم الغيب بما هو خارج عن إطار الحس لو لم يكن أشرف منه.

وللبحث حول قصة إبراهيم ودلائله الباهرة في إبطال ربوبية الأجرام السماوية والأرضية مجال آخر قدمنا بعضه في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة [1].

4. اطّلاع لوط عليه السلام على الغيب :

هذا هو لوط أحد الأنبياء، المعاصر لإبراهيم فقد اطّلع على مسير قومه وهلاكهم في وقت الصبح عن طريق جنود ربّه ورسله قال سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود . 81).

فلو أخبر هذا النبي الكريم بطانته الصالحين بأنّ قومه سيهلكون في الصبح وأنّ موعدهم هو ذاك الوقت، يصح أن يقال: إنّه مخبر عن الغيب وعالم به وإن كان علمه

---

(1) لاحظ الجزء الأول: ص 132 . 143.

محدوداً ومتناهياً، مكتسباً غير ذاتي.

5. تنبّؤ يعقوب عليه السلام :

قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـــاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُـــصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـــحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: 4 . 6).

تدل الآيات على أنّ يعقوب عليه السلام فسر رؤيا ولده يوسف، مخبراً عن حقيقة مستورة من خلال تلكم الرؤيا وكانت تلك الحقيقة وصول ولده يوسف إلى المقام الشامخ في الدنيا، والاطلاع على الواقع من خلال الرؤيا وهو لون من الاطّلاع على الغيب، خص تعالى بعض عباده بهذا الفضل.

لما طلب اخوة يوسف من أبيهم يعقوب أن يرسل يوسف حتى يرتع ويلعب معهم، أجابهم يعقوب بقوله: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (يوسف ـــ 13)، أفليس قوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ تنبّؤً بفكرتهم الشيطانية في حق يوسف كيف وقد حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (يوسف . 17).

ثمّ إنّ يعقوب لـــمّا سمع تقولهم في حق أخيهم عاد يكذّبهم بقوله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف ـــ 18) قائلاً: بأنّ يوسف حي يرزق ولم يأكله الذئب أوليس هذا إخباراً عن ما وراء الحس ؟

ولا غرو في ذلك فإنّ الله يصف نبيه يعقوب بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف . 68).

ولأجل تلك المكانة لما أخبر الاخوة بأنّ ابنه (أخا يوسف) سرق، كذّبهم أو كذّب

الخبر بأنّه: ﴿ سَـوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُـكُمْ أَمْرًا فَصَـبْرٌ جَمِيلٌ عَسَـى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ (يوسف . 83).

ولما اعترض أولاده على بكائه بقولهم: ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُـفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًـا أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾ أجابهم بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: 85 . 87).

هذه تنبّؤات نبي الله يعقوب فيعرب عن صدق قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ كما يدل على صدق قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

أفبعد هذه التنبّؤات يصح لقائل أن ينفي علمه بالغيب بتاتاً.

أضف إلى ذلك قوله: ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (يوسف . 83).

مخبراً عن حياة يوسف وأخيه وأنّه وأخاه سوف يأتي الله بهما.

وهكذا قوله سبحانه :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ *ولـمّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ (يوسف: 93 . 94).

فلو لم يك يعقوب عليه السلام عالماً بمصير يوسف ولم يدر عما بلغ إليه ولده من جلال وعظمة، ولم يك مطلعاً على تعرف الاخوة على أخيهم ورجوعهم بخبره السار، كيف يقول: ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أليس هذا علماً بالغيب وهبه الله لنبيه المبتلى يعقوب ؟

6. تنبّؤ يوسف عليه السلام :

قال سبحانه: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْـلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـالِحِينَ ﴾ (يوسـف . 101).

والآية تصرح بأنّ الله سبحانه علم نبيه يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا وتأويلها وذلك قسم من علم الغيب.

وقال سبحانه: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّـجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِـرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِـي خُبْزًا تَـأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْـهُ نَبِّئْنَـا بِتَـأْوِيلِـهِ إِنَّـا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * ... يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِـيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف: 36 ـ 41) وتحقق الأمر الذي أخبر عنه يوسف عليه السلام فنجى أحدهما وأصبح ساقي البلاط بينما أُعدم الثاني ومن الوضوح بمكان أنّ هذا اللون من التفسير للرؤيا هو قسم من الغيب الذي نطق به يوسف عليه السلام .

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَـبْعَ بَقَرَاتٍ سِـمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجَافٌ وَسَـبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْـغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ ... * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِـنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَـدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُـنبُلِهِ إِلاّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَـبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف: 43 ـ 49).

وفي هذه القصة يخبر يوسف عليه السلام عن ثلاثة أُمور غيبية وذلك ضمن تفسيره لرؤيا الملك وهذه الأُمور هي: 1. ينعمون بسبع سنوات مليئة بالبركات والخيرات ويتحسن وضعهم الزراعي. 2. يصابون بعدها بسبع سنوات جدب حيث تغلق عنهم أبواب الرحمة. 3. وفي الخامسة عشر من هذه السنين تعود إليهم النعم والخيرات من جديد وتفتح عليهم أبواب الرحمة.

7. صالح عليه السلام والتنبّؤ بالغيب :

قال سبحانه: ﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: 64 . 65).

أخبر نبي الله صالح عليه السلام بمصير قومه السيء إذا مسوا الناقة بسوء، تلك الناقة التي كانت تمثل معجزته حين دعاهم إلى الله وإلى التصديق بنبوته، وهكذا يتحقق ما أخبر به هذا النبي عن مصير قومه بعد أن عقروا الناقة فيأتيهم البلاء بعد ثلاثة أيام فقط كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (الذاريات: 43 . 44) وأي غيب أعظم من هذا يا ترى ؟

8. اطّلاع سليمان عليه السلام بالغيب :

قال سبحانه: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (النمل ـــ 16) وهل معرفة داود وسليمان منطق الطير إلّا قسماً من الغيب ؟

وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ (النمل: 18 . 19).

ألا يعد اطّلاع سليمان على لسان النمل من علم الغيب ؟ ثمّ ألا يكون هذا خرقاً للعادة البشرية ؟

وقال سبحانه: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * ... فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل: 20 . 22).

وهل الاطّلاع على لسان الهدهد إلّا اطّلاع على الغيب ؟

9. المسيح عليه السلام والتنبّؤ بالغيب :

قال سبحانه: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران ـ 49).

طفق المسيح عليه السلام ينبئ قومه ـ بإذنه سبحانه ـ بأسرارهم وما كانوا يدّخرون في الصيف لشتائهم بمقداره ولونه وحقيقته. وكان ذلك إحدى معجزاته.

وكذا قوله :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف ـ 6).

أليس في إخبار عيسى عليه السلام وتبشيره بقدوم النبي محمد صلى الله عليه وآله بعد ستمائة عام إخباراً عن الغيب ؟

ونظيره ما ورد في العهدين حول نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله من ذكر أسمائه وصفاته وما يحل به وبأولاده وأُمته وغلبة دينه على جميع الشرائع، فإنّ تلكم البشارات الواردة فيها مع تحقق مضمونها تعتبر دليلاً على أنّ المبشرين بها كانوا يعلمون الغيب وهم إمّا أنبياء الأُمم السالفة أو أوصياؤهم.

10. انباء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالغيب :

قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (التحريم ـ 3).

قال الطبرسي: إنّ النبي صلى الله عليه وآله أسرّ إلى حفصة حديثاً، أمرها باخفائه لكن حفصة أخبرت غيرها به، فأفشت سره صلى الله عليه وآله واطلع الله نبيه على ما جرى من افشاء سره فعرّف رسول الله صلى الله عليه وآله حفصة ببعض ما ذكرت وأفشت، وأعرض عن بعض ما ذكرت فلم يخبر

بجميع ما أخبرت به، فسألته عن أنّه كيف اطّلع على اخبارها وافشائها سره فقال: نبّأني العليم الخبير بسرائر الصدور [1]، وهو يدل على أنّ الله أطلع نبيه على الغيب عن طريق القرآن.

هذه الآيات التي مرّت حتى الآن ذكرت لنا بعض المواضع التي أخبر فيها أنبياء الله عن الغيب، مثل آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وصالح وداود وسليمان وعيسى وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله . وهناك آيات قرآنية أُخرى دلّت على أنّ أشخاصاً غير الأنبياء أيضاً أخبروا عن الغيب، ويتضح من هذا أنّ موضوع الاطّلاع على الغيب لا ينحصر بطبقة الأنبياء بل هو فضل الله يخص به من يشاء من عباده الصالحين وإليك الآن بعض هذه الآيات :

11. اطّلاع مريم عليها السلام على الغيب :

قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: 45 . 46).

وهل يدخل ادراك مريم بانّها سترزق ولداً رغم عدم تزوجها ثم علمها باسمه وخصائص شخصيته إلّا في قائمة الأُمور الغيبية ؟

12. الغيب وامرأة إبراهيم :

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ ... * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: 69 . 73)

---

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 316.

أمّا تعرّفت زوجة إبراهيم بأنّ الله سبحانه وتعالى سيرزقها ولداً عند كبر سنها عن طريق الغيب ؟ إنّ مثل هذه المواضيع التي ينحصر معرفتها عن طريق الملائكة يعرفها أناس ليسوا بأنبياء وهل نستطيع أن نفسّر معرفتهم لها عن غير طريق الغيب ؟

13. الغيب وأُم موسى :

قال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص ـــ 7). ويظهر من هذه الآية أنّ أُم موسى عرفت عن طريق الغيب مستقبل ولدها وأنّ الله تعالى سيحفظه إلى أن يعيده إليها سالماً، فنحن هنا لا نجد أي فرق بين اطلاعها على الغيب أو اطلاع أحد من الأنبياء والأوصياء عليه.

14. الغيب وصاحب موسى :

هذا صاحب موسى الذي آتاه الله رحمة وعلماً من عنده، قد أحاط بما لم يحط به موسى عليه السلام فخرق السفينة، علماً منه بأنّ وراء السفينة ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً، فخرقها حتى لا يرغب فيها، وقتل غلاماً كان أبواه مؤمنين فخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً وأقام جداراً يريد أن ينقض لعلمه بأنّ تحته كنزاً لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحاً، فأراد ستره وصيانته عن أعين الناس حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، ثم أسند علمه وعمله هذا إلى الله تعالى وقال: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (الكهف: 60 ـ 82).

فدلّ هذا على أنّ الله تعالى هو الذي أخبره عن هذه الأسرار الغيبية. والنظرة الموضوعية في هذه الأدلة الكافية من القرآن الكريم لا تدع للباحث مجالاً للشك أو التردد في هذه المسألة.

والحقيقة التي نصل إليها بعد كل هذا: أنّه لا يمكن لمن آمن بالقرآن أن ينفي

(علم الغيب) عن البشر لأنّ القرآن أثبت ـــ كما رأينا ـــ هذا العلم للأنبياء ولغيرهم من بعض الصالحين، وأمّا الآيات القرآنية التي دلّت بظاهرها على اختصاص علم الغيب بالله ونفيه عن البشر فقد أوضحنا المقصود منه، فلاحظ.

ولا بأس ختاماً للبحث أن نذكر بعض الآيات الأُخرى التي استدل بها علماؤنا الإمامية في هذا المجال وإن كان للمناقشة مجال في بعضها :

15. النبي شهيد على الأُمّة :

إنّ النبي صلى الله عليه وآله شهيد على الأُمّة بنص القرآن العظيم والشهادة على الشيء فرع العلم به وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة ـ 143) وقوله سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء ـ 41).

وليس المراد من الشهادة في الآيتين وغيرهما الشهادة على صور الأعمال والأفعال حتى يكتفي فيه بالحواس العادية والقوى الكامنة في البدن بل الشهادة على حقائق الأعمال والمعاني القلبية من الكفر والإيمان والإخلاص والرياء وغيرها وهي مما لا تكفيه الحواس العادية بل يحتاج إلى احساس آخر وراء الاحساس العادي.

16. المؤمنون شهداء على المنافقين :

ما دل على أنّ الله ورسوله بل المؤمنون يرون عمل المنافقين وذلك في قوله سبحانه: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة ـ 94).

ونظير قوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة ـ 105).

لكن في دلالة الآيتين على تعرّف النبي والمؤمنين على الغيب تأملاً لأنّ المتبادر في بادئ النظر من رؤية الأعمال هو شهودها بأنفسها أو شهودها بآثارها ونتائجها والآية الأولى تهدف إلى أنّ العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير وهو لا يخفى بعد على الله ورسوله، والمتبادر من الآية الثانية هو ذاك أيضاً لأنّه عطف على قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ أي أعملوا لدنياكم وآخرتكم وهو لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على الناس وهو ممّا تكفي فيه الحواس الظاهرية ولا يتوقف على العلم بالغيب.

ورؤية الأعمال بهذا المعنى وإن كانت لا تختص بالمؤمنين بل تعم الناس جميعاً غير أنّه لـمّا كان البحث والحوار في الآية دائراً بين المؤمنين والمنافقين خص الله سبحانه المؤمنين بالذكر وأعرض عن غيرهم.

نعم ربّما يستظهر أنّ المراد من رؤية عملهم هو الوقوف على حقائق الأعمال ومقاصدهم من أعمالهم وهو مما لا يمكن الاطّلاع عليها من طريق الآثار والنتائج بل يتوقف على ادراك غيبي وعند ذاك يكون المراد من المؤمنين شهداء الأعمال لا كلّهم.

حصيلة البحث :

ليس هناك أي مانع من أن يعلم الله أحد أوليائه بشيء من غيبه المكتوم وسره المخفي مما كتمه على غيره وستره عنه.

نعم لا يجب على كل من اطلع على الغيب، اعلام الناس به أو العمل به فلا يستلزم العلم بالشيء، العمل به أو إخباره الناس بذلك فإنّ هناك مراحل ثلاث مرحلة الاطّلاع، مرحلة العمل، ومرحلة الاعلام، ولكلّ مقتضيات وشرائط وموانع تجب رعايتها نظير القاضي إذ ليس له إلّا الحكم على وفق ما سمع واقيمت عنده البينة لا على وفق ما علم.

وسيوافيك توضيح هذا الأمر عند الأجابة عن التساؤلات الموجودة حول علم الغيب.

ما هو مفاد الآيات النافية

لعلم الغيب عن النبي ﷺ ؟

ثمّ إنّ هناك آيات تسـلب بصـراحة العلم بالغيب عن النبي ﷺ فما مفادها وكيف يجتمع مفادها مع الآيات المثبتة وإليك الآيات :

1. ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُـلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأحقاف . 9).

2. ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام . 50).

3. ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِـهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود . 31).

4. ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف . 188).

5. ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا

تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة . 101).

6. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء . 109).

7. ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة . 109).

8. ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (ص: 69 . 70).

فما مفاد هذه الآيات النافية لعلم الغيب عن النبي ﷺ بصراحة إزاء ما دلّت آيات أُخرى على وجود علم الغيب عند الأنبياء، بل عند بعض الصالحين أيضاً وكيف تفسّر هذه الآيات ؟

الجواب :

إنّ الوقوف على مفاد هذه الآيات النافية سهل بعد الوقوف على ما ذكرناه من أنّ علم الغيب الثابت للنبي، غير الثابت لله سبحانه، وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في الجزء الأوّل وقلنا: بأنّ القرآن بينما يثبت فعلاً لله سبحانه على وجه الحصر في مورد، يثبته لغيره أيضاً، فمثلا عندما يقول: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على وجه الحصر نافياً طلب العون من غيره سبحانه، يأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة وهما غيره سبحانه حيث يقول: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ (البقرة . 45).

فعندما يقول: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر ـ 42) ويجعل التوفّي فعلاً مختص بالله سبحانه، يثبته لغيره كالملائكة حيث يقول: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ﴾ (النحل . 32).

إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة التي بينما ينسب فيه الفعل إليه سبحانه على وجه الحصر، ينسب إلى غيره أيضاً، والحل في الجميع واحد وهو أنّ اللائق بساحته الأقدس

والمنسوب إليه سبحانه، غير الثابت لغيره، فالثابت هو الفعل الاستقلالي غير المتكئ على أحد، إلّا ذاته سبحانه، والمنفي عن عباده هو ذاك الفعل الاستقلالي أو الثابت لهم هو الفعل التبعي القائم بالله سبحانه، وبالوقوف على ما ذكرناه ينفتح عليك باب من أبواب معرفة الذكر الحكيم، وقد أوعزنا إلى ذلك الأمر في هذه الموسوعة غير مرّة [1].

ولأجل إيضاح مفاد هذه الآيات النافية، نبحث عن كل واحدة بحثاً مستقلاً، ليتضح الحق بأجلى مظاهره فنقول :

أمّا الآية الأُولى فهي مكّونة من أربع فقرات، ولمعرفة دلالة الآية بصورة صحيحة لابد من معرفة دلالة كل فقرة من هذه الفقرات الأربع المكوّنة للآية بشكل كامل وهذه الفقرات هي :

1. ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾.
2. ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾.
3. ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾.
4. ﴿ وَمَا أَنَا إِلّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

تشير الفقرة الأُولى إلى خطأ المشركين في ظنهم بأنّ النبي ﷺ يجب أن يستثنى من سائر البشر العاديين، ولا يشابههم في عادتهم من أكل وشرب ونوم وما شاكل ذلك، وكانوا يقولون لو كان محمد نبياً حقاً لما كان مثل الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فلا يمكن أن يكون نبياً. حسب زعمهم ـــ إلّا أن يتنزّه من تلكم الصفات الموجودة في البشر عادة، وقد أشار القرآن إلى زعمهم بقوله: ﴿ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان ـ 7).

وقد كشف القرآن عن خطأهم في هذه الفقرة من الآية حيث قال: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ ومعناها أنّ هذا النبي الجديد لا يختلف عن الأنبياء السابقين في هذه

---

(1) لاحظ الجزء الأوّل: ص 362 ـ 364.

الصفات البشرية من أكل الطعام ومشي في الأسواق، وهذه الصفات ليست أمراً جديداً في هذا النبي بل أنّها صفات دائمة لكل نبي بعثه الله تعالى.

كما كشف في سورة الفرقان أيضاً وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان ـ 20).

ويفهم من هاتين الآيتين أنّ المشركين كانوا يتوقعون من النبي ﷺ أُموراً هي فوق طبيعة البشر، حيث زعموا عدم اجتماع النبوّة مع أكل الطعام والمشي في الأسواق.

بل كانوا معتقدين بلزوم وجود قدرة غير متناهية عند النبي المبعوث يختلف بها عن غيره من البشر، وبذلك انتظروا من النبي ﷺ أن يعلم الغيب ذاتياً دون ارتباط بالله تعالى، يعلمه وكأنّ الأمر قد فوّض إليه.

إنّ الله تبارك وتعالى خاطب نبيّه مبطلاً هذا الزعم بقوله: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد إنّني بشر ولا يستطيع أحد من البشر أن يتنبّأ بمصيره أو مصائر الآخرين دون إلهام من الله تعالى. فالآية الكريمة اذن تنفي ذلك اللون من علم الغيب الذي يتصوره بشكل ذاتي، وبصورة تفويض مطلق من غير ارتباط بالله تعالى، وهو الأمر الذي طلبه المشركون، وهو لا يصطدم ـ أبداً ـ بما أثبتناه نحن من وجود علم الغيب عند الأنبياء بتعليم من الله.

ولأجل نقد هذه المزعمة يقول في الفقرة الثالثة: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ وقد وقفت على أنّ الوحي أحد الطرق التي يطلع الله بها أنبياءه على الأُمور الغائبة عن الحس والأشياء الخفية.

ولو كانت الآية الكريمة تريد نفي (علم الغيب) عن النبي ﷺ اطلاقاً استقلالاً وتبعاً ذاتياً واكتسابياً لكانت الآية مناقضة لنفسها، حيث أثبتت قسماً من الغيب للنبي وهو الغيب الذي يأتي عن طريق الوحي وذلك في الفقرة الثالثة، ولو كانت الفقرة الثالثة من الآية قد جاءت عن طريقة الاستثناء لأمكننا تصديقه بأنّها جاءت على وجه الاستثناء، ولكنّها لم تأت على طريقة الاستثناء كما هو واضح.

فقد اتضح مما ذكرناه أنّ الفقرة الثانية من الآية لا تنفي عن النبي إلّا علم الغيب بشكله الذاتي بينما أثبتت الفقرة الثالثة منها للنبي ﷺ علم الغيب عن طريق الوحي بشـــكله التبعي، والفقرة الرابعة من الآية توضح ما وصلنا إليه أيضاً حيث تقول: ﴿ وَمَا أَنَا إِلّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعناها: أنّ ما ترتقبونه منّي من علم غيب ذاتي ليس إلّا عبثاً، إنّما أنا نبي نذير أُخبركم عمّا أطلع عليه عن طريق الوحي فقط، ولا أعرف شيئاً دون تعليم الله تعالى.

أمّا الآية الثانية أعني قوله ســـبحانه: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الأنعام ـ 50) فبالنظر إلى ما ذكرناه من التصورات الخاطئة التي حملها المشركون في أذهانهم عن الأنبياء، يتضح مفهوم هذه الآية أيضاً، إذ أنّهم ترقبوا من النبي ﷺ أن يعلم الغيب من عند نفسه ودون سابق ارتباط بالله، ولكن الآية ترد عليهم هذا الارتقاب غير الصحيح بقولها: ﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي لا أعلم الغيب إلّا من الله، والفقرة الأخيرة من الآية تدل على ذلك: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي انّي عن طريق الوحي أطلع على الغيب.

أمّا الآية الثالثة أعني قوله سبحانه: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ (هود . 31).

فغنية عن التوضيح إذ أنّها لا تختلف عن الآية الثانية لفظاً ومفاداً.

أمّا الآية الرابعة أعني قوله سبحانه: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف . 188).

فيتضح مفهومها بملاحظة ما قدمناه حول الآية الأُولى حيث أنّها تبطل ما يحمله المشركون في أذهانهم اتّجاه النبي ﷺ من تصورات خاطئة من قبيل أنّ النبي ﷺ يجب أن يحظى بقدرة فائقة وسلطة عريضة في هذا الكون دون اتصال بالله تعالى، فيجلب ــ استناداً لهذه القدرة الفائقة ــ كل خير إلى نفسه ويبعد كل شر مرتقب عنه، ثمّ يخبر عن

الغيب أيضاً.

فيأمر الله تعالى نبيّه أن ينفي عن نفسه أيّة قدرة أو علم دون الإرتباط بالله تعالى والاستمداد منه، وذلك تفنيداً لمزاعم المشركين الباطلة.

وتأتي جملة: ﴿ إلّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ في الآية الكريمة دليلاً آخر على أنّ الآية ليست في مقام نفي القدرة والعلم عن النبي صلى الله عليه وآله بصورة مطلقة، بل أنّها نفت عنه صلى الله عليه وآله ذلك اللون من العلم والقدرة اللّذين يتصور أنّ النبي واجد لهما استقلالاً وبصورة التفويض، ولأجل ذلك فالآية لم تنف عن النبي صلى الله عليه وآله العلم والقدرة اللّذين يقتبسهما من الله، بل أثبتت ذلك له حسب الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ إلّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾.

وبالتالي يتضح لنا مفهوم الفقرة الأُخرى من الآية وهي قوله: ﴿ لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ الخ.

ومعناها: لو كنت أعلم الغيب دون إلهام من الله تعالى لحصلت على الخير الكثير ودفعت عن نفسي الشر الكثير، ولكن لا أستطيع ذلك لأنّ علم الغيب ليس وصفاً ذاتياً لي، بل هو فيض من الله، يعطيني ذلك حين يشاء، وفي جانب قدرة التصرف في هذا الكون أحظى بمقدار ما يشاء.

أما الآية الخامسة أعني قوله سبحانه: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة ـ 101).

فالآية الكريمة وإن كانت تدلّ ـ بحكم كلمة ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ ﴾ ـ على وجود منافقين في المدينة لا يعرفهم النبي صلى الله عليه وآله ، وهو لا يتفق مع ما يدعى له صلى الله عليه وآله من علم الغيب ؟ إلّا أنّ الآية لا تدل على أكثر من نفي العلم عن النبي بالنسبة للمنافقين في ظرف نزول الآية فقط، ولا يعني هذا نفي العلم عن النبي صلى الله عليه وآله تجاه المنافقين في كل الظروف والأحوال، ولا شك في أنّ الله تعالى أخفى عن نبيّه بعض الحوادث عند وقوعها، وكان منها وضع المنافقين المؤسف في المدينة لما يحمل في طياته من ألم عميق للنبي صلى الله عليه وآله .

ولكن هذا الأمر يختلف من أن نقول: إنّ الله أخفى عن نبيّه أحوال المنافقين حتى آخر عمره.

وثانياً: في الوقت الذي يخاطب الله نبيّه بقوله: ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ ﴾ في مورد المنافقين، يخاطبه في موضع آخر بقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد ــ 30) فهذه الآية الثانية تعرفنا امكان معرفة النبي للمنافقين عن طريق أقوالهم.

وثالثاً: لم يكن المنافقون مجهولين للنبي ﷺ دائماً كيف وقد عرفهم القرآن بذكر الأوصاف المختلفة لهم كما في الآية التالية: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون ـ 4).

لقد وصفوا في هذه الآية بالأوصاف التالية :

1. أعطوا بسطة في الجسم.
2. يمثّلون في ظاهرهم الحق والدين.
3. إنّهم كالخشب المسندة التي أُسندت إلى جدار [1].

وهناك آيات أُخرى تعرف المنافقين في نفس هذه السورة (المنافقون) وهي ظاهرة لمن نظر إليها بدقة بل كشف النقاب عن المنافقين وعرفهم بصورة واضحة في صورة التوبة بقوله سبحانه: ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة ـ 54) وهكذا سائر الآيات الواردة في هذه السورة.

ورابعاً: إنّ الله يأمر نبيّه بمحاربة الكفّار والمنافقين وعدم اتباع أقوالهم كما في قوله :

---

(1) والمقصود من هذا التشبيه: أنّ آيات القرآن وكلمات النبي ﷺ الحكيمة لم تؤثر فيهم الأثر الحسن المطلوب، ولم يظهر منهم أي رد فعل ايجابي تجاه تلكم الأقوال الهادية، فهم كالخشب المسندة أجسام لا روح فيها.

1. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ (التوبة . 73).

2. ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (الأحزاب . 48).

فهل يمكن أن يأمر الله نبيّه محمداً ﷺ بجهاد المنافقين والغلظة عليهم ثمّ لا يعرّفهم له طيلة عمره ﷺ ؟ إنّ هذه الآيات تدل ــ على سبيل الملازمة ــ على أنّ كتمان أمر بعض المنافقين عن النبي ﷺ لم يك بصورة دائمية وإنّما كان حكماً مؤقتاً.

ويخاطب الله نبيّه أيضاً بقوله: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (التوبة ـ 84) والآية نازلة في حق المنافقين انّ هذه الآيات وغيرها تحكي لنا معرفة النبي ﷺ بالمنافقين، ولم يكن النبي وحده الذي يعرف المنافقين بل كان قد أودع أسماءهم وأوصافهم عند (حذيفة) [1] الصحابي الشهير. ومن هنا كان الخليفة الثاني لا يصلّي على أحد يشك في نفاقه إلّا أن يسأل حذيفة عنه، وهذا أمر مذكور في سيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء والصحابة من بعده.

أمّا الآية السادسة أعني قوله سبحانه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء . 109).

فالجواب عن الاستدلال بها واضح إذ البحث في أصل ثبوت علم الغيب للنبي والإمام لا في المقدار الذي يتحمّله صدر النبي أو الإمام من علم الغيب.

وإذا كان النبي ﷺ قد نفى في موضوع ما عن نفسه علم الغيب فإنّ ذلك لا يتنافى أبداً مع ما نحن فيه من اثبات علم الغيب له، وهناك نقطة جديرة بالذكر في هذه

---

(1) راجع أسد الغابة: 1 / 391 وسائر الكتب التي تترجم الصحابة ونص كلام (أُسد الغابة) كما يلي: « وحذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين لم يعلمهم أحداً إلّا حذيفة أعلمهم له رسول الله ﷺ وسأله عمر: أفي عمّالي أحد من المنافقين ؟ قال: نعم، أحد، قال: من هو؟ قال: لا أذكره، قال حذيفة: فعزله كأنّما دل عليه، كان (عمر بن الخطاب) إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلّى عليه وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضره عمر.

الآية وهي :

انّ النبي ﷺ حين ينفي عن نفسه علم الغيب هنا فهو ينفيه عن موضوع يختص علمه بالله تعالى وذلك هو يوم القيامة، ووقت تحقق الوعد والوعيد اللّذين أنذر بهما عباده.

وسيوافيك أنّ العلم بالساعة وبموعد القيامة من الموضع أو المواضيع التي خص الله به نفسه ولم يطلع عليها أحداً، والآيات القرآنية في هذا الموضوع صريحة إلى حد لا يمكن تصوّر خلافها، ولا مانع أن يخبر الله نبيّه عمّا مضى ويأتي من الحوادث ولكنّه يخص علم الساعة لنفسه، وإليكم بعض الآيات القرآنية التي صرحت بأنّ علم الساعة من مختصاته تعالى :

1. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلّا هُوَ ﴾ (الأعراف . 187).
2. ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه . 15).
3. ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (لقمان . 34).
4. ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (الأحزاب . 63).
5. ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (فصلت . 47).
6. ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (الزخرف . 85).

دلّت هذه الآيات بصورة واضحة على أنّ علم الساعة ممّا استأثر الله بعلمها لحكمة يعلمها سبحانه وعدم اطلاع النبي على وقت الساعة لا يستلزم أبداً عدم اطلاعه على أُمور أُخرى ولكلّ الأشياء.

ولقد ورد هذا المعنى أيضاً في آية أُخرى من سورة الجن، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا

تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن: 24 ـ 27).

إنّ النبي صلى الله عليه وآله ـ في هذه الآيات كما نرى ـ ينفي عن نفسه العلم بموعد القيامة لأنّ العلم بذلك من مختصاته سبحانه كما تصرح هذه الآيات.

وأمّا الآية السابعة أعني قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة ـــ 109) فقد استدل بها على نفي علم الغيب عن الأنبياء لأنّهم ينفون عن أنفسهم أي شكل من أشكال الغيب ويصفون الله بأنّه: ﴿ علاّم الغيوب ﴾ ولكن الاجابة عن الاستدلال واضحة بعد معرفة موارد استعمال « لا » النافية للجنس، فإنّها وإن كانت لنفي الجنس ولكنّها تأتي على وجهين :

1. نفي الجنس حقيقة وبصورة واقعية مثل قولنا: « لا إله إلّا الله » وقوله سبحانه: ﴿ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام ـــــ 59) وقولنا: لا رجل في الدار، حين لا يوجد رجل في الدار صغيراً كان أم كبيراً، صحيحاً أم سقيماً.

2. نفي الجنس على سبيل التجوز فتقول: « لا أحد هنا » حين يطرق الباب طارق فيسأل هل يوجد أحد هنا ؟ فرغم وجود شيخ كبير، أو انسان لا طاقة له على الحركة في الدار، ولكنّك تنفي وجود أحد في الدار مجازاً لأنّ ذلك الشيخ الكبير أو المريض لا يفيدان السائل بشيء، فاعتبرت وجودهما كالعدم بالنسبة إلى السائل فنفيت الجنس مجازاً. ومن هذا القبيل كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام التي خاطب بها أصحابه المتخاذلين، والذين كانوا يجعلون من الحر والبرد وسيلة للتقاعس عن ساحة الحرب والجلوس عن مجاهدة البغاة معاوية وأمثاله، حيث قال: يا أشباه الرجال ولا رجال [1].

ونظير قوله عليه السلام: « لا صلاة لجار المسجد إلّا في المسجد ». والآية الكريمة من هذا القبيل، فإنّ الأنبياء حين ما يقيسون علمهم المحدود الاكتسابي إلى علم الله تعالى اللامحدود واللامتناهي والذاتي، يرون ضآلة ما عندهم من العلم تجاه ما عند الله

---

(1) نهج البلاغة الخطبة 26 طبع عبده.

تعالى، حتى العلم المحدود الموجود عندهم الذي هو مظهر من مظاهر فيضـــه تعالى عليهم، وعند ذاك ينفون عن أنفسهم العلم أمام المولى خضوعاً وتسليماً ويقولون: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ ويدل على ما ذكرناه من التفسير وجوه :

1. إنّ الآيات الوارادة في موضوع شهادة النبي والشهداء الآخرين تصرح بأنّ الأنبياء سوف يدعون في الآخرة لأداء الشهادة قال سبحانه: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ (الزمر ـــ 69) وهل يمكن أن يشهد الأنبياء والشهداء الآخرون في المحكمة الإلهية العادلة دون علمهم بشيء من أحوال المشهود عليهم. إنّ آيات الشهادة في القرآن وخاصة قوله سبحانه: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء ـ 41) وقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (غافر ـ 51) تدفعنا إلى أنّ المراد من قوله سبحانه: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا ﴾ عن لسان الأنبياء يوم القيامة هو ما قدمناه من التفسير.

2. إنّ سلب العلم عن الأنبياء لأحوال أُممهم على وجه الاطلاق يتنافى مع ما يحكيه الله تعالى عن لسان نبيّه يوم القيامة وذلك عند تجمع الأنبياء وقيام المحكمة الالهية العادلة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان ـــ 30) وسياق الآيات الأُخر مثل قوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ (الفرقان ـ 27) يوضح أنّ شكوى النبي صلى الله عليه وآله على قومه تكون يوم القيامة.

3. كيف يمكن نسبة عدم العلم إلى الأنبياء يوم القيامة بصورة كلية وهم الذين يعرفون المحسنين والمسيئين على الأعراف بسيماهم كما يقول القرآن: ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (الأعراف ـ 46). ثمّ إنّ نبياً ينزل عليه الوحي فيخبره عن غدر الوليد [1] وخيانته في قضية مشهورة، أو تنزل عليه آيات قرآنية في كشف حقيقة أبي لهب، أقول إنّ نبيّاً بهذه المنزلة هل يمكن أن يقول يوم القيامة: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا ﴾ على سبيل الحقيقة ؟ دون قصد أهداف أُخرى من هذا الكلام وهو الخضوع أمام عظمة المولى جل شأنه.

---

(1) الحجرات ـ 6 ولاحظ ما ورد حولها من الأخبار في التفاسير.

إنّ هذه الوجوه تشـــير إلى الحقيقة التي قدمناها الآن وهي: أنّ الهدف من هذا النفي في قوله تعالى: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا ﴾ ليس إلّا التأدّب أمام المولى واستعمال كل أسلوب يدل على الخضوع التام أمام علم الله اللامتناهي، وليس المراد به نفي العلم عن الأنبياء على سبيل الحقيقة والواقع.

4. يصرح القرآن بتوجيه السؤال يوم القيامة إلى كل من الأنبياء والأُمم فيقول: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف ــ 6). ودلّت آيات أُخرى من القرآن على علم المجرمين والعاصين بأحوالهم الماضية في الدنيا وما تجره في ذلك اليوم إليهم من آلام، حيث يبدون أسفهم على ما قدموا وتكون كلمة (ليت ولعل) طوع ألسنتهم يقول تعالى: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان ـــ 27) ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴾ (الفرقان . 28) ﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة . 12).

ترى كم يملك نصيباً من الصحة القول: بأنّ الأُمّة تعلم يومذاك عن مرارة أوضاعها وسوء مصائرها فتطرق برؤوسها متمنية العودة إلى الحياة الدنيا لتستأنف العمل في حين ينفي الأنبياء . الذين عاصروا أُممهم فترات طويلة من الزمن ــ عن أنفسهم يوم القيامة أي لون من ألوان العلم على سبيل الحقيقة ؟

وبالنظر إلى كل ما قدمناه يتضح مفهوم الآية ونعلم جيداً أنّها لا تختلف أبداً عن الآيات التي تثبت علم الغيب للنبي ﷺ .

وأمّا الآية الثامنة أعني قوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (ص: 69 ـــ 70) المراد من الخصومة في الآية هي خصومة الملائكة في موضوع خلق الانسان، وقد جاءت واضحة في سورة البقرة ضمن الآية (30 . 33).

ويؤكد كون المراد من الخصومة ذلك، قوله سبحانه بعد الآيتين: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَـاجِدِينَ ﴾ (ص: 71 ـــ 72) هذا وأنّ التعرف على مفاد الآية يتوقّف على الاطلاع على موارد استعمال لفظة (ما كان) في القرآن الكريم وكيفية استعمالها قال سبحانه :

1. ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة ـ 143).
2. ﴿ مَا كَانَ لِبَشَـرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي ﴾ (آل عمران ـ 79).
3. ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (آل عمران ـ 145).
4. ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ (الأنفال ـ 67).
5. ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ (التوبة ـ 17).
6. ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ ﴾ (يونس ـ 37).
7. ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (الرعد ـ 38).

إنّ التعمّق في هذه الآيات ونظائرها يعطي أنّ الهدف من هذا النفي هو نفي الاقتضـــاء الذاتي لمضمون الجملة، ومعناه أنّ الموضوع لا يقتضي مثل هذا الأمر ذاتياً، ولكن مثل هذا النفي ينقسم إلى قسمين :

1. النفي الأبدي حيث لا يحتمل التغيير والخلاف في موضـــوعه أبداً مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِـيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ فليس من شـأن الله تضـييع جزاء الأعمال لأنّ تضـييع جزاء الأعمال لون من ألوان الظلم وتخلف عن الوعد، وهو منزّه عنهما.

2. النفي غير الأبدي: وهو ما يمكن تغيير موضـوعه أو مضـمونه في ظل عنوان آخر كما في الآية التالية: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (الرعد ـ 38).

والهدف من هذه الآية هو: أنّ أي رســـول من قبل الله لا يملك القدرة على الاتيان بمعجزة، ولكن عدم تمكن الرســـول من نفســـه لا يعني عدم تمكنه على الاتيان بالمعجزة على الاطلاق فإنّ ذلك ممكن له في ظلال قدرة الله تعالى.

إذا وقفت على ما ذكرناه يتضح لك مفهوم الآية المبحوث عنها، أنّها تقول: ما

كان لي من علم من جانب نفسي وذاتي بالخصومة التي وقعت بالملأ الأعلى. وهذا العلم الذاتي ليس من شأن البشر.

ولكن هذا لا يدل على عدم العلم على الاطلاق ليشمل عدم علمه عن طريق الوحي أيضاً أو في المستقبل مثلاً، وأحسن دليل على هذا الموضوع هو الآية التالية لها حيث تقول: ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فتدل الآية على أن ترقب علم الغيب الذاتي من النبي ﷺ عبث، إنّما هو نذير، لا يوجد عند نظير مثله ما يتوقعون ولا يمكنه الاطلاع على الغيب بغير إيحاء منه سبحانه ولكنه لا يمنع من اطلاعه عليه عن طريق الكسب كما تقدم، وكونه نذيراً لا يمنع أن يطلعه الله على بعض الأُمور الغيبية التي تعزز هدفه، وتؤيده في الطريق، حيث يتمكن بواسطة بث الأُمور الغيبية للناس إدخال خوف الله إلى قلوبهم فيكون نذيراً حقاً.

وإذا كان النبي ﷺ قد نفى عن نفسه في هذا الموضع العلم بخصومة الملأ الأعلى، نجده ﷺ في مواضع أُخرى من القرآن يذكر هذه الخصومة بصورة تفصيلية، ألا يدل ذلك النفي وهذا الاثبات على ما قلناه من أنّ هدف النفي في الموضع الأوّل هو نفي العلم الاستقلالي عن نفسه لا التبعي ؟

تساؤلات

حول علم النبي بالغيب

السؤال الأول :

إنّ علمه سبحانه بالأشياء وإن كان مطلقاً ومرسلاً غير محدود وذاتياً له غير مفاض، على ما دلّت عليه البراهين الكلامية والفلسفية إلّا أنّ ذلك لا يصحح حمل الآيات على هذه المعاني البعيدة عن مستوى الافهام، وكون علمه سبحانه عين ذاته وعلم غيره زائداً عليها أمر معلوم من الخارج، ولا يكون مثل هذا العلم كقرينة على تفسير ما دلّ على اختصاص العلم بالغيب له سبحانه، فكيف تحمل هذه الآيات على العلم الذاتي، المحيط بكل شيء، المرسل عن كل شيء ؟!

الجواب: انّ من لاحظ سياق الآيات والقرائن الحافة بها، وسبر التاريخ والحديث يقف على أنّ المتبادر من « العلم بالغيب » في عصر الرسالة وبعده كان هو العلم الذاتي لا العرضي ولأجل ذلك كان الأئمة من أهل البيت مع ما أُخبروا من المغيبات ما لا يحصى يتحاشون عن توصيفهم بأنّهم عالمون بالغيب ناسبين علومهم ومعارفهم وما يخبرون به من ملاحم وأحداث وفتن، إلى التعلّم من ذي علم [1] والوراثة من الرسول [2] ويصف هشام بن الحكم الإمام الصادق وهو من أكابر أصحابه، بأنّه يخبرنا بأخبار

---

(1) نهج البلاغة خطبة 124 وسيوافيك لفظ الإمام.

(2) كما في الحديث عن الإمام الطاهر موسى الكاظم عليه السلام وسيوافيك لفظه.

السماء وراثة عن أب وجد، وهذا أقوى دليل على أنّ المتبادر في عصر الرسالة وبعده، من العلم بالغيب هو القسم اللائق بساحته سبحانه.

وكون العلم اكتسابياً أو غير اكتسابي ليس من المفاهيم الغامضة التي لا ينقدح في الافهام الوسطى فضلاً عن العليا، فإنّ الانسان العارف بالله، مهما تنازل وبعد عن المعارف، يقف على أنّ هنا موجوداً غنياً من جميع الذات والغنى نفسه وذاته فوجوده وعلمه وقدرته وحياته ثابت له من دون استناد إلى غيرها، وانّ هنا موجوداً فقيراً ومخلوقاً لغيره يعتمد في كل كمال وجمال إلى خالقه وبارئه ولا نعني من الذاتي والاكتسابي غير هذا.

وإلى ما ذكرنا يشير شيخ الأُمّة الشيخ المفيد ﵀ بقوله :

« إنّ الأئمة من آل محمد ﷺ قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، يعرفون ما يكون قبل كونه، وليس بواجب في صفاته ولا شرطاً في إمامتهم وإنّما أكرمهم الله تعالى وأعلمهم إياه للطف في طاعتهم والتمسك بإمامتهم وليس ذلك بواجب عقلاً ولكنه وجب لهم من جهة السماع، فأمّا اطلاق القول عليهم بأنّهم « يعلمون الغيب »، فهو منكر بيّن الفساد، لأنّ الوصف بذلك إنّما يستحقه من علم الأشياء بنفسه، لا بعلم مستفاد وهذا لا يكون إلّا لله عزّ وجلّ وعلى قولي هذا جماعة أهل الإمامة إلّا من شذ عنهم من المفوضة ومن انتمى إليهم من الغلاة » [1].

فالتوفيق بين قوله: « اطلاق القول عليهم بأنّهم يعلمون الغيب بيّن الفساد » وقوله ﵇ : « بأنّهم يعلمون ما في الضمائر » لا يحصل إلّا بما ذكرنا، بل هو صريح كلامه لمن أمعن فيه النظر.

قال رشيد الدين محمد بن شهر آشوب [2]: النبي والإمام يجب أن يعلما علوم

---

(1) أوائل المقالات: ص 38.

(2) أحد أقطاب التفسير والحديث في القرن السادس توفّي عام 588، وله المناقب وأسباب نزول القرآن، ومتشابهات القرآن كما صرح به في معالمه.

الدين والشـريعة ولا يجب أن يعلما الغيب وما كان وما يكون لأنّ ذلك يؤدي إلى أنّهما مشـاركان للقديم تعالى في جميع معلوماته التي لا تتناهى وإنّما يجب أن يكونا عالمين لأنفسـهما [1]، وقد ثبت أنّهما عالمان بعلم محدث، والعلم لا يتعلّق على التفصـيل إلّا بمعلوم واحد. ولو علما ما لا يتناهى لوجب أن يعلما وجود ما لا يتناهى من المعلومات وذلك محال، ويجوز أن يعلما الغائبات والكائنات الماضيات أو المستقبلات باعلام الله تعالى لهما شيئاً منها [2].

فإنّ الظاهر من كلامه أنّ الشـرك إنّما يلزم من أمرين: « الأوّل » القول بعدم تناهي علومهم، « الثاني » كون علومهم مستندة إلى أنفسـهما لا باعلام منه سبحانه والمنفي في كلامه هو العلم الذاتي غير المتناهي، أما المتناهي المستند إلى الله عزّ وجلّ فهو ثابت لهم.

السؤال الثاني :

لو كان النبي عالماً بالغيب بعلم مستفاد ومفاض منه سبحانه لما مسّه السوء والشر مع أنّه كان يمسّه السوء بنص منه سبحانه حيث قال: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ (الأعراف ـــ 188) فإنّ الانسان إذا وقف على أنّ في ركوب أمر خطراً على نفسه وماله، أو أنّ في هذا الغذاء سمّاً لاجتنب عنهما وتركهما بتاتاً سواء أوقف عليها من جانب نفســه أم باطلاع غيره فمس السـوء وفوت الخير، دليلان على عدم اطلاعه على الغيب لا من جانب نفسه ولا من ناحية غيره مطلقاً.

الجواب من وجوه: الجواب الأوّل :

إنّ السؤال موجه إذا قلنا بسعة علم النبي ﷺ بعامة الحوادث القادمة مع تفاصيلها وجزئياتها، وأنّ علمه ﷺ بغابر الأمور وقادمها غير محدود بشيء من التحديد ،

---

(1) كذا في النسخة والصحيح لا لأنفسهما كما هو واضح لمن أمعن النظر.

(2) متشابهات القرآن ومختلفه: ج 1 ص 211.

غير كونه علماً إمكانياً مفاضاً ومستفاداً منه سبحانه، فعند ذاك يتوجه السؤال ويقال :

بأنّه لو كان النبي عالماً بما سيقع من الحوادث كلّها، يجب أن لا يمسّه السوء أبداً ويحترز من كل شـر، قبل إصـابته وأمّا إذا حددناه بشـيء من التحديد وقلنا إنّ علمه بالحوادث ليس بهذه المثابة كما يدل عليه قوله عليه السلام : « إنّ لله علمين: علم مخزون لا يعلمه إلّا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علّمه ملائكته ورسـله وأنبياءه فنحن نعلمه » [1]، وقوله عليه السلام : « لولا آية في كتاب الله لحدّثتكم بما يكون إلى يوم القيامة » فقلت أيّة آية؟ قال: « قول الله: ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ » [2] فالسؤال غير وجيه جداً لأنّه إذا كان علمه بالحوادث المستقبلة، محدوداً بشـيء من هذه الحدود، لا ينافيه مس السـوء وعدم اسـتكثار الخير في بعض الأحايين، لإمكان أن يكون المورد من العلم المكنون الذي لم يطلع عليه أحد، أو من الأُمور التي تحقق فيها البداء بمعناه الصحيح الذي نصّت عليه الأحاديث.

روى معمر بن خلاد قال: سـأل أبا الحسـن عليه السلام رجل من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب ؟ فقال: قال أبو جعفر: يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنّا فلا نعلم، فقال: سرّ الله عزّ وجلّ أسرّه إلى جبرئيل، وأسرّه جبرئيل إلى محمد وأسرّه محمد إلى من شاء الله [3]، وبهذا المضمون روايات وأحاديث، واختاره لفيف من مشايخ الإمامية [4].

نعم هذا الجواب ربّما لا يلائم ما دلّت عليه بعض الأحاديث التي نقلها الكليني في كافيه وعقد له باباً بـ « أنّهم: يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شيء ».

---

(1) الكافي: ج 1 ص 147 وتضافرت الروايات بهذا المضمون وقد جمعها العلّامة المجلسي في بحاره في الباب الثاني من كتاب توحيده فراجع: ج 2 ص 47 ـ 92.

(2) بحار الأنوار: ج 4 باب البداء والنسخ ص 118، الحديث 52.

(3) الكافي: ج 1 ص 256.

(4) كالشيخ الصدوق وأمين الإسلام الطبرسي وغيرهما ممّن لا يقولون بعموم علمهم بكل شيء.

غير أنّ ابداء الرأي القاطع في سعة علومهم واطلاعهم على المغيبات يحتاج إلى امعان النظر في أحاديث الباب كلّها فإنّها ليست على صعيد واحد بل تختلف مضامينها وبما أنّ الاسهاب يوجب الخروج عن الهدف من هذا الفصل فنرجئ البحث عنه إلى مقام آخر.

الجواب الثاني :

لو كان علمهم: بالمغيبات علماً بالفعل بحضورها لديهم تفصيلاً بدقائقها وتفاصيلها فلا يجتمع ذاك مع مفاد الآية، وأمّا إذا قلنا بأنّ علمهم بالغيب على حسب مشيئتهم بحيث لو شاؤوا علموا، ولو لم يشاؤوا لم يعلموا [1] فينقطع الإشكال من أصله فإنّ مثلهم بالنسبة إلى الحوادث القادمة: كمثل الذي أُلقي عليه سؤال وبيده كتاب، فيه جوابه لو رجع إليه علم، وإذا لم يرجع إليه لم يعلم، أو مثل الفقيه الذي له ملكة الاجتهاد، واستنباط الأحكام عن أدلّتها، أو الطبيب البارع الذي له قدرة التشخيص والعلاج، أو العالم الرياضي القادر على حل المعادلات الجبرية فإنّهم إذا شاؤوا علموا وأجابوا عن السؤال، ورفعوا الستار عن مجهولهم بالرجوع إلى ملكاتهم العلمية، فلا ينافي عدم استحضارهم جواب السؤال، مع امكان اطلاعهم عليه إذا شاؤوا، وعلى ذلك فكل ما أصابهم شر وكل ما فاتهم خير فيمكن أن يكون ممّا لم يشاؤوا أن يعلموه.

قال العلّامة الطباطبائي: « قد ورد في بعض الأخبار، وسياق التفسير لسائرها أنّهم: إذا شاؤوا علموا، وإذا لم يشاؤوا لم يعلموا، ويتحصل منه أنّ لهم بحسب مقام نورانيتهم علماً بالفعل بكل شيء، وأمّا بحسب الوجود العنصري الدنيوي فهم إذا شاؤوا علموا، بفضل الاتصال بمقام النورانية باذن الله، وأمّا إذا لم يشاؤوا لم يعلموا.

---

(1) وقد عقد الكليني باباً خاصاً لأحاديثه، غير أنّ ما رواه في هذا الباب ضعيف السند لاحظ الكافي: ج 1 ص 258.

وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض القصص والسير المأثورة عنهم ممّا ظاهره أنّهم ما كانوا على علم بما كان يستقبلهم من الحوادث فلا تغفل » [1].

الجواب الثالث :

ما تفضل به سيدنا العلّامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) عندما عرضنا عليه هذا السؤال، فألّف في جوابه رسالة موجزة في ثمان صفحات على القطع الصغير باستدعاء منّا، ونحن نقتطف منه مايلي بتصرّف يسير :

لـــمّا كان علمهم: هذا بالحوادث علماً بها بما أنّها واجبة التحقق، ضرورية الوقوع، لا تقبل بداء، ولا تحتمل تخلفاً، كما في الأخبار، فلا تأثير لهذا العلم الذي هذا شأنه في فعل الانسان، وتوضيحه يكون ببيان أُمور :

1. انّ من المقرر عقلاً، وقد صدّقه الكتاب والسنّة، أنّ كل ظاهرة وحادثة تحتاج في تحققها إلى علّة، ثمّ إنّ العلّة التي يتوقّف عليها وجود الشيء، تنقسم إلى ناقصة وتامة، والتامة منها ما يتوقف عليه وجود الشيء، بحيث يجب وجوده بوجودها، وعدمه بعدمها، والناقصة منها، وإن كان يتوقف عليه وجود الشيء أيضاً، ويجب عدمه بعدمها، إلّا أنّه لا يجب وجود الشيء بوجودها.

2. إنّ الحادثة لا تتحقق إلّا وهي موجبة بإيجاب علّتها التامة ومحتمة بحتمية منها، وكذا الكلام في علتها حتى ينتهي إلى الواجب بالذات تبارك وتعالى. فالعالم مؤلّف من سلسلة من الحوادث، كل حلقة من حلقاتها واجبة الوجود، بعلّة تسبقها وإن كانت ممكنة بالقياس إلى أحد أجزاء علّتها العرضية أو أحد عللها الطولية.

3. هذه الوجوبات المترتبة، الواقعة في سلسلة الحوادث هي نظام القضاء الحتمي الذي ينسبه الله سبحانه إلى نفسه ويقول: ﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ (الأنفال . 42)، وقال: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم . 21).

---

(1) عن رسالة خطية له ﷺ نحتفظ بنسخة منها.

4. إنّ للعلم أثراً في انتخاب أحد الأمرين من الفعل والترك وجلب النفع ودفع الضرر، فالانسان الفاعل بالعلم والإرادة، إنّما يقصد ما علم أنّه يفيده، ويهرب ممّا علم أنّه يضره، فللعلم تأثير في انتخاب أحد الفعلين وفي فعل شيء أو تركه.

5. علم الانسان بالخير والنفع وكذا علمه بالشر والضرر في الحوادث المستقبلة إنّما يؤثّر إذا تعلّق بأمر ممكن غير مقضي، وذلك مثل أن يعلم الانسان أنّه لو حضر مكاناً كذا، في ساعة كذا، من يوم كذا، قتل قطعاً، فلهذا العلم تأثير خاص في ترك الحضور في المكان المعين، تحرّزاً من القتل، وأمّا إذا تعلّق العلم بالضرر مثلاً من جهة كونه ضروري الوقوع واجب التحقق، كما إذا علم أنّه في مكان كذا، ساعة كذا، من يوم كذا، مقتول لا محالة بحيث لا ينفع في دفع القتل عنه عمل، ولا تحول دونه حيلة، فإنّ مثل هذا العلم، لا يؤثر في الانسان شيئاً ولا يبعثه إلى نوع من التحرز والالتقاء لفرض علمه بأنّه لا ينفع فيه شيء من العمل فهذا الانسان مع علمه بالضرر المستقبل، يجري في العمل مجرى الجاهل بالضرر.

إذا علمت ذلك ثمّ راجعت الأخبار الناصة على أنّ الذي علمهم الله تعالى من العلم بالحوادث التي لا بداء فيه ولا تخلف، ظهر لك اندفاع ما أورد على القول بعلمهم بعامة الحوادث، من أنّه لو كان لهم علم بذلك لاحترزوا مما وقعوا فيه من الشر، كالشهادة قتلاً بالسيف أو بالسم، لحرمة إلقاء النفس في التهلكة.

وجه الاندفاع أنّ علمهم بالحوادث علم بها من جهة ضرورتها كما هو صريح نفي البداء عن علمهم [1] والعلم الذي هذا شأنه لا أثر له في فعل الانسان ببعثه إلى نوع من التحرز، وإذا كان الشر بحيث لا يقبل الدفع بوجه من الوجوه، فالابتلاء به وقوع في التهلكة لا القاء فيها، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ

---

(1) يشير رحمه الله إلى ما روي عن أبي جعفر عليه السلام: العلم علمان فعلم مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه، وعلم علّمه ملائكته ورسله فما علّمه ملائكته ورسله، فإنّه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء الكافي باب البداء: ج 1 ص 148.

الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران ـ 154).

ولمّا كان ما ذكره في مقام الاجابة موجزاً كمال الايجاز أوضحنا ما أفاده بأمرين :

1. ما سمعناه منه رضوان الله عليه شفاهاً.

2. ما حرّره بقلمه حول السؤال في رسالة فارسية فها نحن نقدم ما سمعناه منه شفاهاً ثمّ نتبعه بما جاء في رسالته الخاصة.

أمّا الأوّل فنقول :

إنّ علم النبي بالمغيبات لو كان من عند نفسه يجب أن يكون مستنداً إلى امارات وقرائن تثير في نفسه القطع والعلم بأنّه لو شرب هذا السم يهلك قطعاً فالعلم في هذا القسم يتعلق بقضية شرطية، بحيث لو تحقق الشرط لتحقق الجزاء، فإذا وقف الانسان على علم هذا شأنه، لاحترز عن اقترافه بحكم الغريزة الانسانية وليدفع عن نفسه السوء والشر، فأصبح خلوّاً من كلّ مكروه.

وإن شئت قلت إنّ العلم في هذا النوع يتعلّق بالحوادث من جهة امكانها لا من جهة ضرورتها، كما مثل به ﷺ: « من أنّه لو حضر مكاناً كذا، في ساعة كذا من يوم كذا لقتل » وعند ذاك يختار ترك الحضور أخذاً بواحد من طرفي الامكان وهو الذي فيه نجاته ونجاحه.

وأمّا إذا كان علمه ﷺ مفاضاً ومستفاداً من جانبه سبحانه فبما أنّ ما علمهم الله لا بداء فيه ولا تخلف، وهو ممّا يتحقق قطعاً فلا محالة يسير النبي حسب ما أوحى الله إليه ولا يقدر أن يتخلّف عنه قدر شعرة فيصيبه من الخير والشر ما قضي عليه بضرورة وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ من عند نفسي ﴿ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ﴾ واخترت أنفع الأُمور وأصلحها ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ واحترزت عن اقتراف المضار، بحكم الغريزة الانسانية التي تدعو إلى صيانة النفس عما يضرّها ويؤذيها ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَىٰ ﴾ فأسير، حسب ما أُوحي إليّ، وهو ليس خبراً

يقبل الكذب أو الخطأ، بل هو خبر قطعي الثبوت فيصيبني من الخير والشر ما قضى وقدر [1].

وعلى ذلك، لا يكون، مس السوء دليلاً على عدم علمه بالغيب، فإنّه لا أثر للعلم وعدمه في هذا النوع في الاجتناب والاتقاء.

غير أنّ القارئ الكريم بعد ما أمعن النظر في هذا الجواب يجب عليه أن يلاحظ أمرين :

1. أنّ العلم العادي كما يمكن أن يتعلق بالقضية من ناحية امكانها ـ فيصح فعل الشيء وتركه .كذلك يمكن أن يتعلق بها من جهة ضرورتها، كأن ينكشف له بأحد الأسباب بأنّه يموت في وقت كذا، ويهلك في زمن كذا فلا ينحصر العلم غير المفاض على قسم واحد ولعله رحمه الله يلتزم بذلك.

2. إنّ القول بأنّ علمهم بالحوادث ممّا لا بداء فيه ولا تخلف، وإن دلّت عليه بعض الأحاديث ولكن يظهر من كثير منها وقوع البداء في ما وصل إليهم علمه أيضاً.

ثمّ إنّ الاستاذ عمل رسالة خاصة باللغة الفارسية قد أوضح فيها ما قصده من الجواب ونحن نقتطف منها ما يمس بالمقام :

1. إنّ علم الإمام الخاص ليس له أثر في أعماله ولا يرتبط بتكاليفه الخاصة لأنّ كل شيء تعلّق به القضاء الحتمي، وكان ضروري الوقوع لا يتعلق به الأمر والنهي ولا الإرادة والقصد من تلك الجهة، نعم يكون هذا الشيء الذي تعلق به القضاء الحتم مورداً لرضا العبد بهذا القضاء الالهي وذلك كما قال الحسين عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته وهو صريع على الأرض، مضمّخ بالدم: « رضى بقضائك وتسليماً لأمرك لا معبود سواك » وكما قال عليه السلام حين أراد الخروج من مكّة: « رضا الله رضانا أهل البيت الخ ».

2. من الممكن أن يتصور البعض بأنّ العلم القطعي بالحوادث التي لا تقبل

---

(1) ما أوضحناه به كلامه، سمعناه منه شفاهاً.

التغيير والتبديل يستلزم القول بالجبر في الأفعال، فلو فرض أنّ الإمام عليه السلام علم أنّ شخصاً معيناً سيقتله في ظرف معين، بحيث لا يقبل هذا الحدث التغيير أبداً، فلازم هذا الفرض أن لا يكون للقاتل اختياراً على تر ك القتل، فهو إذن مجبور على قتل هذا الإمام، فلا تكليف ولا عقاب حينئذ على هذا القاتل، ولكن هذا التصور باطل لما يلي :

أ. إنّ هذا الإشكال في الواقع ليس إلّا إشكالاً على شمول القضاء الالهي لأفعال الانسان الاختيارية أيضاً، وليس هو إشكالاً على علم الإمام بالغيب، ولأجل ذلك الإشكال منع المعتزلة شمول القضاء الالهي للأفعال الاختيارية للانسان زاعمين أنّ الانسان هو الذي يخلق أفعاله استقلالاً وبالتالي فهو خالق لأفعاله والله تعالى خالق بقية الأشياء، في حين نجد النص القرآني والأخبار المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت تعتبر كل الموجودات وكل الحوادث الكونية بلا استثناء مشمولة لقضاء الله وقدره، كما أنّ هذا الأمر ثابت من طريق العمل أيضاً، وإن كنّا لا نستطيع بحثه في هذا المقال المختصر لسعة أطرافه.

والذي نستطيع أن نقوله بإجمال هو: أنّه لا يوجد شيء في هذا الكون إلّا بمشيئة الله تعالى وإذنه، وحتى أفعال الانسان الاختيارية تعلّقت بها المشيئة على أن تصدر بإرادة نفس الانسان واختياره، فمثلاً: انّ الله أراد أن يصدر فعل معين من انسان مخصوص ولكنّه تعالى أراد في نفس الوقت صدور هذا الفعل المعيّن من الانسان المخصوص باختيار من الانسان وإرادة، ومن البديهي أنّ هذا الفعل المعيّن مع وصفه الخاص ضروري الوقوع، رغم أنّه اختياري للانسان لأنّه لو لم يكن اختيارياً لتخلفت إرادته تعالى عن مرادها: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ب. ومع غض النظر عمّا تقدم الآن فإنّ الله تعالى ـ كما نعلم جميعاً ـ خلق لوحاً محفوظاً أثبت فيه جميع الحوادث الماضية والقادمة للعالم ولا مجال للتغيير فيه أبداً، فإذا كان علم الله تعالى السابق بهذه الحوادث كما أثبتها اللوح المحفوظ لا تستلزم أن يكون الانسان مجبوراً في أفعاله، فكيف يكون علم الإمام السابق ببعض هذه الحوادث أو

بجميعها مستلزماً لأن يكون الانسان مجبوراً في أفعاله الاختيارية والتي منها عملية قتل الإمام المعينة مثلاً ؟

3. بعض الأعمال التي تصدر من الإمام وهي موافقة للأسباب الظاهرية لا يمكن أن نعتبرها دليلاً على جهل الإمام بالواقع وفقدانه لموهبة العلم التي أثبتناها له كأن يقال :

لو كان الحسين عليه السلام يعلم حقاً مستقبل أمره فلماذا بعث مسلماً إلى الكوفة رسولاً عنه ؟

ولماذا أرسل مع الصيداوي كتاباً إلى أهل الكوفة ؟ ولماذا خرج من مكة متوجهاً نحو الكوفة ؟ ولماذا ألقى بنفسه في التهلكة ؟ والله تعالى يقول: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ولماذا ؟ والخ.

وتتضح الاجابة عن كل علائم الاستفهام هذه بالحقيقة التي ذكرناها قبل لحظات وهي: أنّ الإمام لم يعمل في هذه المواضع ونظائرها إلّا بالعلم الذي يحصل لديه بالوسائل العادية وعن طريق الأدلة والشواهد الظاهرية، فلم يبذل أي جهد لدفع الخطر الواقعي المعلوم عن نفسه لأنّه علم أنّ أي جهد من هذا القبيل هو عبث لأنّ القضاء الحتمي قد تعلق بهذا الأمر كما يقول تعالى في سورة آل عمران في شأن اولئك الذين قالوا في حق أصحابهم يوم أُحد: ﴿ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران ـ 156) يقول الله في حقهم: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران . 154).

القسم الثاني من علم الإمام . العلم العادي :

إنّ النبي أو الإمام من العترة الطاهرة ليسوا إلّا بشراً حسب نص القرآن الكريم والأعمال التي تصدر من الإمام هي كالأعمال التي تصدر من غيره من الناس تستند إلى اختياره وعلى أساس علمه العادي، أنّ الإمام كغيره يميّز الخير والشر، ومدى النفع والضرر في الأعمال عن طريق الأسباب الطبيعية والوسائل العادية ثم تحدث عنده إرادة

العمل الذي يراه صـــالحاً ونافعاً، ثمّ يســـعى للقيام به وتحقيقه، فحين تكون العوامل الخارجية مســاعدة، ومنســجمة مع بعضــها يســتطيع تحقيق الأمر الذي يريده، وبغير ذلك يخفق في تحقيق الهدف الذي يريده (وقد مرّ أنّ وقوف الإمام على جميع الحوادث الجزئية ما مضـــى منها وما يأتي باذن الله لا تؤثّر في مجرى أعماله الاختيارية) أنّ الإمام كسـائر الناس العاديين عند الله وهو مثلهم مكلّف بالتكاليف الدينية من قبل الله تعالى ونظراً لمنصـــبه القيادي الذي أُعطى من قبل الله يجب عليه أن يعمل بتكاليفه المقررة عليه من قبل الله كإمام، وفقاً للموازين العادية للبشـر، ويبذل كل ما في وسعه لإحياء كلمة الحق واقامة منهج الدين والعدل.

الجواب الرابع :

إنّ الأنبياء والأئمة مع تميّزهم عن الغير بشخصياتهم الربّانية وقوّة الولاية التي منحت لهم (ذلك أنّ شـطراً من شـخصـياتهم قائمة على المواهب الالهية والشـطر الآخر حصـل نتيجة الجهود التي بذلوها للقرب من المولى تعالى) أنّهم مع ذلك كانوا يعملون وفقاً لعلومهم العادية حيث يواجهون حوادث الحياة المختلفة، على صعيد شخصي، أو على صعيد اجتماعي كمسائل القضاء والحكم بين الناس مثلاً، أنّهم مع علمهم الكامل بالحوادث الجزئية في ظلال موهبة الولاية، ومعرفتهم بعلل الحوادث وتفاصيلها لارتباطهم بما وراء الطبيعة، أقول: إنّهم مع ذلك لم يستفيدوا من علومهم تلك في قضاياهم الشخصية ولا في الأُمور التي ترتبط بالمجتمع وذلك لمصالح وحكم خاصة.

وبتعبير آخر: لم يحل النبي والإمام مشاكلهما الحياتية عن طريق الانتفاع من سلاح الغيب، ولم يقطعا دابر الحوادث المرّة بالقضـــاء على عللها التي اطلعوا عليها عن طريق الغيب، كذلك ولم يحلاّ خلافات الناس وخصـوماتهم بالعلم الغيبي، لقد أُخبر النبي صلى الله عليه وآله وهو في المسـجد عن شـدة مرض ابنه العزيز إبراهيم فعاد إلى البيت ليحتضن

ولده العزيز ويحدق في وجهه النظر قائلاً: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون [1].

كان النبي ﷺ يملك ثلاثة ألوان من سلاح الغيب في كل أدوار رسالته وكان يتمكن بواسطتها من تغيير الوضع كيفما يريد، عند مواجهته للمصاعب، وعند حدوث اللحظات الخطيرة ولكنّه لم يستعمل هذا السلاح في أغلب الأوقات، وكانت ألوان السلاح الغيبي متمثلة في الأمور التالية: 1. المعجزة. 2. استجابة دعائه. 3. علم الغيب.

كان النبي الكريم ﷺ يتمكن عن طريق الاعجاز والولاية التكوينية التي ملكها من قبل الله تعالى أن يهب السلامة والعافية لولده العزيز إبراهيم (وذلك كالولاية التكوينية التي ملكها عيسى عليه السلام وكان بها يحي الميت ويبرئ الأكمه والأبرص) وكان يستطيع أيضاً ببركة دعائه المستجاب الذي منح له من قبل الله تعالى أن يدعو الله ويغيّر حالة ولده، وينقذه من الموت، وكان يقدر كذلك ـ عن طريق معرفته بالغيب ـ أن يمنع من عوامل المرض قبل أن تتسرب إلى جسم ولده العزيز لئلاّ يبتلى ولده بالمرض، أو يختار لولده الأدوية الناجعة لتخليصه من المرض وذلك عن طريق اطلاعه على الغيب. كان يتمكن ﷺ على هذا ومثله ولكنّه رغم ذاك لم يستفد من هذه الأسلحة الغيبية التي كانت في يده لدفع الأضرار المرتقبة عنه وعن اسرته ولم يخط إلّا في ظل المجاري الطبيعية للحياة، ذلك لأنّ هذه الأسلحة، أو الأسباب الغيبية إنّما أُعطيت للنبي ﷺ ليستفيد منها في اثبات رسالته وولايته الالهية حين يقتضي الأمر ذلك، وإمّا الاستفادة منها في غير ذلك المجال فغير مأذون.

ومن المحتمل أن يكون أحد الأسباب التي تمنع النبي أو الإمام من الانتفاع من هذه السبل لجلب الخير أو لدفع الشر هو: أنّ استعمال هذه الأسباب الغيبية يقضي على الآثار العملية لدعوتهم، لأنّه لا شك أنّ حياة القادة بما تحمل في طياتها من صبر وتحمّل

---

(1) راجع بحار الأنوار: ج 22 ص 157 والسيرة الحلبية: ج 3.

للمشاق، واستقامة وفداء في ساحة الجهاد، منار ساطع لأتباعهم.

فإذا افترضنا أنّ النبي أو الإمام يدفع عن نفسه وعن اسرته الأخطار في معترك الحوادث بواسطة الإعجاز أو الدعوة المستجابة أو معرفته بما وراء الطبيعة، فيهب السلامة لولده ــ مثلاً ــ عن طريق الإعجاز أو يستفيد من دعائه المستجاب أو معرفته الغيبية لاعادة السلامة إلى ولده، فإنّه حينئذ لا يستطيع أن يمنح الآخرين من أتباعه النصح على تحمل المصائب والتسليم لقضاء الله تعالى، ولو أنّه استفاد من هذه الأسباب الغيبية في ساحة الجهاد في سبيل الله فحصّن نفسه عن وصول سهام العدو إليه وأبعد كل خطر مرتقب عن نفسه وعن أهل بيته المقرّبين بواسطة تلكم الأسباب فحينذاك لا يمكنه أن يدعو الناس إلى تحمل الألم والعناء في سبيل الله لأنّهم ـــ حتماً ـــ سيعرضون عليه قائلين: إنّ الشخص الذي يدعونا إلى هذه المناهج الخلاّقة والمبدعة يجب أن يكون نفسه مثالاً رائعاً لهذه المناهج الرائعة. انّ الشخص الذي لا مفهوم عنده للألم والعناء، ولا تمسّه الكوارث طيلة حياته لا يستطيع أن يكون قدوة الأُمم ومنار الحياة للآخرين.

ولهذا ـ ولجهات أُخرى ليس هنا مجال عرضها ـ نجد أنّ الشخصيات الالهية كغيرهم يبذلون شتى الوسائل الطبيعية، ويسعون جاهدين لدفع الأخطار والمصائب عن أنفسهم، عند ما يواجهونها، وقد يخفقون في سعيهم بسبب عدم وجود الوسائل الطبيعية بالقدر المطلوب. إنّنا حين نرى عدم الاختلاف بين سلوك المعصومين في الحياة وسلوك الناس العاديين، أي أنّهم كانوا حين يمرضون يستعملون الدواء للعلاج ولاعادة السلامة كالآخرين، ويستعملون كل الوسائل الطبيعية والعلوم العادية في القضايا الاجتماعية وفي ساحة الجهاد كغيرهم، ويعينون أشخاصاً لنقل مختلف الأخبار إليهم وإلى غير ذلك. كل ذلك لأنّ الأسباب الغيبية ما كان يجوز لهم استعمالها إلّا في مواضع خاصة.

وهناك شواهد تؤيّد ما قلناه، فقد روي أنّ عبيد الله بن أبي رافع كان مديراً لبيت المال أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحين أرسل الإمام عليه السلام (أبا موسى

الأشعري) إلى دومة الجندل للحكم في ق ـــ ضية الحكمين يوم صفّين أوصاه الإمام عليه السلام قائلاً: « احكم بكتاب الله ولا تجاوزه »، فلمّا أدبر قال عليه السلام : « وكأنّي به وقد خدع ». يقول ابن أبي رافع: قلت للإمام عليه السلام : فلمَ توجهه وأنت تعلم أنّه مخدوع ؟ فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: يا بني لو عمل الله في خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرسل [1] أنّه تعالى كان يعلم أنّ طائفة من الناس يستوي عندهم بعث الأنبياء وعدم بعثهم، أنّهم لا يؤمنون سواء أأرسل إليهم رسول أم لا ومع ذلك فقد أرسل إليهم أنبياء. انّ الإمام عليه السلام حين يشير في جوابه هذا إلى علم الله غير القابل للخطأ كأنّه يبيّن هذه النقطة وهي: على أن أعمل في الحياة بمقتضى العلل والعوامل الطبيعية، ولست أعمل وفقاً لما أعلمه من الغيب.

وهكذا نرى الأئمّة: في الأحاديث المنقولة عنهم يؤكدون على أنّ طريق قضائهم وحكمهم بين الناس هي الأسباب العادية كالشهادة واليمين لا علومهم الغيبية وذلك كما يروي الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله : « إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان »، وأمّا ما ورد في بعض الروايات من جواز أن يحكم الإمام بعلمه في مجال اجراء الحدود فالمقصود منه هو العلم الذي يحصل عليه من الطرق العادية والأسباب الظاهرية كأن يرى الإمام بعينه شخصاً يشرب الخمر، لا حظوا الرواية التالية: « الواجب على الإمام إذا نظر إلى رجل يزني أو يشرب خمراً أن يقيم عليه الحد ولا يحتاج إلى بيّنة مع نظره لأنّه أمين الله في خلقه » [2] هذه الرواية تدلّ على أنّ المقصود من عمل الإمام بعلمه هو علمه العادي والطبيعي كما دلّت عليه لفظة « نظر » في الرواية. وإذا لاحظنا أيضاً المسائل القضائية التي وقعت في عصر الإمام أمير المؤمنين لرأينا بوضوح أنّ الإمام عليه السلام لم يحكم بين الناس استناداً إلى علمه الخاص عن القضية أبداً بل

---

(1) المناقب لابن شهر آشوب: ج 2 ص 261.

(2) وسائل الشيعة: ج 18 ص 344، نعم للإمام أن يحكم بعلمه العادي في الحقوق الالهية فقط ويقيم الحد على مرتكب الجريمة، ولا يجوز له العمل بعلمه في حقوق الناس كأن يرى شخصاً يسرق من آخر والمسألة معنونة في الفقه فراجع الجواهر.

كان يسعى سعياً حثيثاً معداً بعض المقدّمات التي تجعل الخصمين المدّعي والمنكر يعترفان بالواقع أمامه ثم يقضي بينهما.

ويقول السيد الطباطبائي في (ملحقات العروة الوثقى) حين يقول: يجوز للقاضي أن يعمل بعلمه في حل دعاوى المتخاصمين نقصد بذلك العلم الحاصل عن الطرق العادية لا العلم الحاصل عن طريق الرمل والجفر وغيرهما [1].

ولكن الذي يستفاد من الروايات أنّ الإمام المهدي (عج) هو الذي يحكم بين الناس بعلمه حين ظهوره فقط وذلك كما حكم نبي الله داود عليه السلام ويقول الإمام الباقر عليه السلام في هذا الصدد: « إذا قام قائم آل محمد حكم بحكم داود عليه السلام لا يسأل عن بيّنة » [2].

هذا وقد طال بنا الوقوف في المقام وذلك لقلع جذور الشبهة عن أذهان الشباب، وإن كان أعداء آل البيت يبثّون كل يوم جذور الشك ولكن نور المعرفة لا يفتأ متبلجاً، والحقائق الراهنة لا تزال متأرجة وسحب الشبه وإن أطلّت على الأُمّة ردحاً من الزمن، لكنّها تكتسح بشمس المعرفة.

أراها وإن طالت علينا فإنّها سحابة صيف عن قليل تقشع

نعم قام لفيف من علمائنا بتأليف كتب ثمينة حول علم النبي والإمام سدوا بها الفراغ بعض السد ودونك ما وقفنا عليه :

1. المعارف السلمانية بمراتب الخلفاء الرحمانية، طبع بإيران على الحجر عام 1313 هجرية قمرية للعلّامة السيّد عبد الحسين النجفي الشيرازي (قدّس الله سرّه) له ترجمة ضافية في طبقات أعلام الشيعة ج 3 ص 1048.

2. الالهام في علم الإمام، للعلّامة الشيخ محمد علي الحائري السنقري طبع في

---

(1) ملحقات العروة: ج 2 ص 31.

(2) وسائل الشيعة: ج 18 ص 168.

النجف عام 1370.

3. علم الإمام، للعلّامة الحجة المغفور له الشيخ محمد الحسين المظفر طبع بالنجف 1380 هـ أضف إلى ذلك ما أفاده العلّامة المجلسي في بحاره في غير موضع من مباحث الإمامة، شكر الله مساعيهم.

4. رسالة فارسية في علم الإمام، صنّفها المفكّر الإسلامي السيد محمد حسين الطباطبائي وانتشر سنة 1391 هـ وله رسالة عربية صغيرة في هذا الموضوع أيضاً مخطوطة نحتفظ منها بنسخة.

السؤال الثالث :

مشكلة المشاركة مع الله :

تمسك بهذه الشبهة في سلب العلم بالغيب من غيره سبحانه « عبد الله القصيمي » فقال رداً على عقيدة الشيعة في علم الأئمّة بالغيب: « فالأئمّة يشاركون الله في هذه الصفة صفة علم الغيب وعلم ما كان وما سيكون، وأنّه لا يخفى عليهم شيء والمسلمون كلهم يعلمون أنّ الأنبياء والمرسلين أنفسهم لم يكونوا يشاركون الله في هذه الصفة والنصوص في الكتاب والسنّة وعن الأئمّة في أنّه لا يعلم الغيب إلّا الله متواترة لا يستطاع حصرها في كتاب، وهذا غني عن الإدلاء بشواهده، ومن المؤسف المخجل لعمر الله أن يزعموا أنّ الأئمّة يعلمون الغيب » [1].

الجواب :

هذه شبهة تافهة لا تستحق الرد والبحث، وكتابه هذا مملوء بالسب والطعن لأعلام الشيعة بما ينزه اليراع عن نقله ونحن نمرّ عليه مرّ الكرام وخفي عليه أنّ بين العلمين بوناً شاسعاً فإنّ الله سبحانه عالم بالغيب بذاته، وغيره مطلع عليه باظهار منه

---

(1) الصراع بين الإسلام والوثنية: ج 1 أنظر المقدمة.

وأي تجانس بين العرضي والذاتي والمحدود وغير المحدود وأي صلة بين الأصيل في علمه، المرسل في إدراكه وبين المتدلي في ذاته وعلمه، الفقير في كلّ شأن من شؤونه حتى في علمه هذا فلو استلزم ذلك شركاً لزم أن يكون توصيف الممكن بالحياة والقدرة والسمع والبصر مما يجري على الله سبحانه أيضاً شركاً.

السؤال الرابع :

إنّ ما تقدم من الآيات لا تدل على أكثر من اطلاع النبي الأكرم ﷺ على الغيب، فما الدليل على اطلاع غيره على الغيب ؟

الجواب :

انّ هناك روايات متضافرة تدلّ على أنّ لأئمّة أهل البيت: حظاً وافراً في هذا المجال، ويدل على ذلك :

أوّلاً: الأخبار الغيبية التي وردت في نهج البلاغة وسيوافيك بعضها في هذه الصحائف وهي تدل بوضوح على معرفة علي عليه السلام واطلاعه على الغيب.

ثانياً: الأخبار الغيبية الواردة عن أئمّة أهل البيت التي ملأت كتب علمائنا الأبرار فهذا هو الشيخ الحرّ العاملي أتى في كتابه القيم « إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات » كثيراً من الأخبار الغيبية المروية عن الأئمّة عليهم السلام ، ودونك احصاء ما نقله عن الحسن السبط المجتبى وغيره من الأئمّة حتى ينتهي إلى الإمام الثاني عشر فقد نقل عن الحسن بن علي المجتبى عليه السلام أزيد من عشرة أحاديث ومثله عن الإمام السبط الحسين عليه السلام ، ونقل عن الإمام سيد الساجدين عشرين حديثاً وعن الإمام الباقر عليه السلام خمسين حديثاً، وعن الإمام الصادق عليه السلام مائة وخمسين حديثاً، وعن الإمام الكاظم عليه السلام ثمانين حديثاً، وعن الإمام الرضا عليه السلام مائة وثلاثين حديثاً، وعن الإمام الجواد عليه السلام أزيد من ثلاثين حديثاً، وعن الإمام الهادي

عليه السلام قرابة خمسين حديثاً، وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أزيد من ثمانين حديثاً، وعن الإمام القائم عليه السلام أزيد من مائة حديث.

نعم لقد تكرر مضـــمون بعض الروايات ومع ذلك فإنّ الباقي يشـــكل مجموعة كبيرة من الإخبارات الغيبية التي فيها الكفاية لمن تأمّل.

ثالثاً: إنّ الروايات تضافرت عنهم: بأنّ الأئمّة ورثوا علم النبي صلى الله عليه وآله وجميع الأنبياء والأوصياء الذين سبقوهم [1].

وأنت إذا لاحظت كتاب الحجة من الكافي في مختلف أبوابها تقف على أنّ الأئمّة: وقفوا على علوم غيبية لم يعرفها غيرهم فلاحظ الأبواب التالية :

1. انّ الأئمّة شهداء الله على خلقه.
2. انّ الأئمّة قد أُوتوا العلم وأُثبت في صدورهم.
3. انّ الأئمّة اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه.
4. انّ الأئمّة معدن العلم وشجرة النبوّة.
5. انّ الأئمّة ورثة العلم يرث بعضهم بعضاً العلم.
6. انّ الأئمّة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصـــياء الذين من قبلهم إلى غير ذلك من الأبواب التي وردت فيها كيفية علومهم وكميتها.

فعلى القارئ الكريم أن يرجع إلى هذه الأبواب.

السؤال الخامس :

لا شـــك أنّ النبي الأعظم والأئمّة من أهل البيت، قد تنبّأوا بكثير من المغيبات التي كانت الفراسـة والتكهن تقتضـيان خلافها، غير انّا نراهم في بعض المقامات يتحاشـون عن نسـبة العلم بالغيب إليهم، فما وجه ذلك ؟

---

(1) لاحظ الكافي: ج 1 ص 223 ـ 226.

الجواب :

إنّ الناظر في هذه الروايات يقف على أنّ المتبادر من العلم بالغيب في تلك العصـــور كان هو العلم الاستقلالي الذاتي الذي يختص بالله سبحانه، فهم: لصيانة شيعتهم عن الغلو والشرك، أو لدفع أعدائهم، صرّحوا بأنّ ما يخبرون عنه من الفتن وملاحم أحداث ليس بعلم غيب بل وراثة من رسول الله أو تعلّم من ذي علم إلى غير ذلك ممّا لا ينافي ما أثبتناه من تحقق اطلاعهم على الغيب بعلم مفاض واعلام منه سبحانه، ودونك ما وقفنا عليه من تلكم الروايات :

1. هذا أمير المؤمنين، قد أماط الستر عن المسألة، وعن علمه وعلم الأئمّة من بعده بالغيب، وقد أخبر عن ملاحم [1] تحدث بالبصرة، فاعترض بعض أصحابه وقال: « لقد أُعيطت يا أمير المؤمنين علم الغيب » ؟ فضحك عليه السلام وقال للرجل ـ وكان كلبياً ـ: « يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب وإنّما هو تعلّم من ذي علم، وإنّما علم الغيب علم الســاعة، وما عدده الله بقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ الآية.

فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر وأُنثى وقبيح وجميل، وسخي وبخيل، وشقي وسعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا الله، وما سوى ذلك، فعلم علّمه الله تعالى نبيّه، فعلّمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي » [2].

وهذا البيان من مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لا يدع لقائل شــبهة، ويعطي أنّ العلم بالمغيبات، إذا كان على وجه التعلّم من الغير ليس هو علم الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله بل ليس علماً بالغيب وإنّما هو إظهار من الغير.

2. هذا الإمام الطاهر موسى الكاظم عليه السلام قد كشف النقاب عن وجه الحقيقة حينما سأله يحيى بن عبد الله بن الحسن عن علمه بالغيب وقال: « جعلت فداك

---

(1) سوف يوافيك لفظه.

(2) نهج البلاغة الخطبة 124.

انّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب » ؟ فقال: « سبحان الله، ضع يدك على رأسي، فوالله ما بقيت في جسدي شعرة ولا في رأسي إلّا قامت، ثم قال: لا والله، ما هي إلّا وراثة عن رسول الله » [1].

3. ما روي عن الإمام الصادق: أنّه خرج وهو مغضب فلمّا أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلّا الله عزّ وجلّ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت منّي، فما علمت في أي بيوت الدار » [2]، فهذه الرواية محمولة ومفسرة بما أوضحناه، وما سيوافيك من الأحاديث فالمقصود نفي العلم الاصالي القائم بذاتهم غير المستند إلى غيرهم، وأمّا أنّه عليه السلام همّ بضرب جاريته فهربت فما علم مكانها، فيوجّه بوجوه :

أ. ما أسلفناه من كون علومهم على حسب مشيئتم وإنّهم إذا شاؤوا علموا.

ب. ما وافاك من أنّ هنا مراحل ثلاثة، مرحلة الاطلاع، مرحلة العمل، مرحلة الإعلام ولكلّ منها، مقتضيات وشرائط وموانع، وأنّه لا يستلزم العلم بالشيء العمل به، فلعلّه عليه السلام أراد أن يطلع على مكانها من الطرق العادية لا غيرها.

أضف إلى ذلك أنّ ذيل الرواية تفصح عمّا ذكرناه بوضوح، ويعطي للإمام منزلة عظيمة ومكانة أرقى ممّن كان عنده علم من الكتاب ودونك لفظه: « قال سدير فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب ؟ قال: فقال: يا سدير ألم تقرأ القرآن ؟ قلت: بلى، قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾؟ (النمل ـ 40).

---

(1) رجال الكشي: ص 352 ـــ 353 ط الأعلمي، ورواه شيخنا المفيد في أماليه في المجلس الثالث ص 114 بأدنى تفاوت.

(2) الكافي: ج 1 ص 257.

قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت الرجل ؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب ؟ قال: قلت: اخبرني به ؟ قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضـــر فما يكون ذلك من علم الكتاب ؟ قال: قلت: جعلت فداك ما أقل هذا، فقال: يا سـدير ما أكثر هذا، أن ينسبه الله عزّ وجلّ إلى العلم الذي أخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ أيضـاً: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَـهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ؟ (الرعد . 43).

قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم، أم من عنده علم الكتاب بعضـــه ؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأومأ بيده إلى صـــدره وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا.

ج. أن يكون صـدر الرواية وارداً على وجه التقية من النصـاب والمخالفين لهم ولشـيعتهم، كما أنّهم ببغضــهم وحســدهم على أمير المؤمنين، إذا سمعوا ما لا يحتملونه ربّما اعترضــوا بالســؤال عنه، فيصـدّهم بقوله: « إنّما هو تعلّم من ذي علم » كما نقلناه عن علي عليه السلام عند اخباره عن الفتن والملاحم في البصـرة، فإنّ طريق علمهم بالحوادث وغيرها ليس منحصـراً بالوراثة، كما هو ظاهر لمن راجع الأحاديث الواردة في باب علومهم، وإنّما الوراثة أحد هذه الطرق، غير أنّ إسناد علمهم عند الاخبار بما لا تحتمله عامّة الناس إليها كان يصدهم عن الاعتراض عليه.

ثمّ إنّ العلّامة الشـيخ محمد الحســين المظفر، أجاب عن حادثة الجارية وإنكاره عليه السلام على من يقول بأنّهم يعلمون الغيب بوجهين: ثانيها ما قدمناه أخيراً قال: « إنّهم: أعلم الناس بالناس وأعرفهم بضـــعف عقولهم، وعدم تحملهم فلو إنّهم كانوا يتظاهرون دوماً، بما منحوا من ذلك العلم، لأعتقد بهم أهل الضعف بأنّهم أرباب أو غير ذلك ممّا يؤوّل إلى الشرك، ولقد اعتقد بهم ذلك، كثير من الناس، من البدء حتى اليوم، على أنّهم كانوا ينفون عنهم تلك المقدرة وذلك العلم أحياناً ولم يكونوا بأهل السلطة ليقيموا أود الناس بالتأديب بعد الوعظ والزجر كما سبق لأمير المؤمنين

عليه السلام مع بعض أصحابه ».

وقال: « بل كانوا غرضـــاً لفراعنة أيامهم، وهدفاً لنبالهم ولم يكونوا بذلك المظهر عندهم، فلو تظاهروا بتلك الخلة، كيف ترى يحمل الحســد أُولئك الطواغيت، على الفتك بهم وهم المحســودون على ما آتاهم الله من فضـله وأي حائل يحجز عمّا يريدونه بهم وبأوليائهم، وأنّهم لم يطلعوا أعدائهم ولا سواد أوليائهم على جميع ما رزقوا من ذلك الفضل، وقد لاقوا من المصائب والنوائب والحوادث والكوارث والوقائع والفجائع، ما تشيخ منه شم الجبال وتشيب من هوله الرضّع، ولو لم يكونوا رزقوا ذلك الجلد والصبر على قدر ما رزقوا من الفضل، لما استطاع أن يحمل ـــ ما تحمّلوه ـــ بشر وهل مات أحد منهم حتف أنفه، دون أن يتجرع غصــص الســم النقيع، أو يصــافح حدود الصــوارم ويعتنق قدود الرماح، هذا فوق ما يرونه من الهتك للحرمات وتســيير العقائل والســب والســلب والغصب للحقوق والتلاعب بالدين، وتضييع أحكام الشريعة.

نعم لا يظهر بتلك المنح الالهية جميعها إلّا الإمام المنتظر عجل الله فرجه، لأنّه لا يخشــى ذلك التسـرّب إلى ضـعاف البصـائر، لو صـارح بما وهب من الفضـل لقدرته على الردع والتأديب، ولا يخاف حسد حاسد أو سطوة ظالم، وهو صاحب السلطة والسيف » [1].

4. ما رواه الكشي عن عنبسة بن مصعب قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أي شيء سمعت من أبي خطاب ؟ قال: سمعته يقول: إنّك وضــعت يدك على صــدرك وقلت له عه ولا تنس. وأنّك تعلم الغيب و ...، قال عليه السلام: والله ما مس شــيء من جســدي إلّا يده، وأمّا قوله: إنّي قلت أعلم الغيب فوالله الذي لا إله إلّا هو ما أعلم الغيب فلا آجرني الله في أموالي ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له [2].

5. ما أخبره صائب البصائر عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله: جعلت فداك أي شيء هو العلم عندكم ؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر، والشيء بعد

---

(1) علم الإمام: ص 48 ـ 49.

(2) رجال الكشي: ص 188.

الشيء إلى يوم القيامة [1] والحديث بصدد نفي العلم القديم عنهم عليهم السلام.

6. ما نقله صاحب البصائر باسناده عن ضريس قال: كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر عليه السلام فقال له أبو بصير: بما يعلم عالمكم، جعلت فداك ؟ قال: يا أبا محمد إنّ عالمنا لا يعلم الغيب ولو وكّل الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث إليه ساعة بعد ساعة [2] وظهور الحديث فيما نرتئيه أغنانا عن البحث حوله.

7. ما خرج عن صاحب الزمان عليه السلام ردّاً على الغلاة من التوقيع جواباً لكتاب إليه على يدي محمد بن علي بن هلال الكرخي: يا محمد بن علي، تعالى الله عزّ وجلّ عمّا يصفونه سبحانه وبحمده لسنا نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللهُ ﴾ إلى أن قال: ... أشهدك وأشهد كلّ من سمع كتابي هذا أنّي برئ إلى الله وإلى رسوله ممّن يقول: إنّا نعلم أو نشارك الله في ملكه أو علينا محلاً سوى المحل الذي نصّبه الله وخلقنا له [3].

وفي التوقيع قرائن كثيرة تدل على أنّ المقصود من نفي علم الغيب هو العلم الاصالي الموجب لكونهم شركاء لله في علمه وملكه وقد أكد في التوقيع بأنّهم وجميع الأنبياء والمرسلين كلّهم عبيد لله عزّ وجلّ فراجع إلى غير ذلك ممّا يمكن أن يقف عليه المتتبع الخبير.

خاتمة المطاف :

قد سبق منّا في أوليات الفصل السابق [4] أنّ كلّ ما غاب عن الحس والشهود فهو غيب لا يقف عليه أحد إلّا بإذن خاص من الله عزّ وجلّ وهو لا يظهره على أحد

---

(1) بصائر الدرجات: ص 94 ونقله المجلسي في بحاره: ج 26 ص 60.
(2) بصائر الدرجات: ص 94، راجع البحار: ج 26 ص 61.
(3) الاحتجاج: ج 2 ص 288 ط النجف.
(4) راجع ص 347 . 350 من هذا الجزء.

إلّا من إرتضاه قال سبحانه: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إلّا بِمَا شَاءَ ﴾ (البقرة ـ 255).

غير أنّ الغيب الذي يتوقف على اذنه ومشيئته الخاصة، هو التعرّف عليه من دون أن يتوسل بعلل وأسباب عادية كما هو الحال في علم الرسول وخلفائه، وأمّا الاطلاع على الغيب بطرقه العادية وأسبابه الطبيعية، كاخبار المنجّم عن خسوف القمر في ليلة مقمرة، وكسوف الشمس في يوم معيّن، بالاعتماد على الجداول العلمية والمحاسبات الرياضية، فهو وإن كان علماً بالغيب وتعرّفاً على ما هو غائب عن حس العامة غير أنّه ليس علماً بالغيب في مصطلح القرآن والاخبار.

وإن أبيت إلّا دخوله في علم الغيب في مصطلح الذكر الحكيم فنقول: إنّ الاطلاع على الغيب بأسبابه العادية من المغيبات التي أذن الله لكل أحد أن يطلع عليها إذا طرقها من أبوابها ونظر إليها في ضوء العلم والتجربة.

فقد أذن لكل من تداول علم النجوم ومارس الطب والطبابة أن يعرف وقت التربيع والخسوف والكسوف وأوضاع الكواكب وأحوالها بفضل الجداول والقوانين الرياضية، وأن يقف على مستقبل المريض وحالاته بل واوان موته، كما أذن لكل من درس علم الفلاحة ومارسها، أن يعرف الشجرة ونتاجها، والوردة وآوان تفتحها والتربة ومدى صلاحها، وقابليتها للزراعة إلى غير ذلك ممّا يدور في حقله، فالتنبّؤ بهذه الأُمور الغائبة ونظائرها يتحقق في ظل دراسات ومسبقات علمية، ولا يعد ذلك آية ومعجزة ودليلاً على صلة المخبر بالله والعوالم الغيبية بل إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على نبوغه وتوغّله في فنّه الذي تخصص فيه.

ثمّ إنّ الرسول إذ كان ممّن ارتضاه الله سبحانه للتعرف على الغيب والاطلاع عليه، فللّه سبحانه أن يظهره على غيبه عن طريق كتابه وقرآنه، وقد وقفت على نماذج من ذلك، كما أنّ له أن يوقفه عليه بغير هذا الطريق بقذف في روعه وتحديث من ملائكته أو غير ذلك من الطرق الغيبية فلا نرى عند ذاك فرقاً بين أن يتنبّأ بفضل كتابه المنزّل عليه

أو بطريق آخر، فالتنبّؤ في كلا الموردين آية معجزة ودليل على صلته بالله سبحانه غير أنّ القرآن وحي بلفظه ومعناه، وغيره وحي بمعناه دون لفظه وكلاهما حق لا ينطق بهما النبي إلّا عن وحي يوحى.

وقد شغلت بال المحدّثين تلك التنبّؤات التي صدرت عن النبي عن طريق غير الوحي القرآني فعقدوا لبيانها باباً أو أبواباً، بل ألّفوا حولها كتباً ورسالات [1].

ونحن نذكر هنا بالرغم على ما تثيره العناصر المعاندة لأهل البيت والعادية عليهم من انكار تعرّفهم على الغيب واطلاعهم عليه، معشار ما وقفنا عليه في صحاح القوم ومسانيدهم وكتب الحديث والتاريخ حتى يلمس القارئ خلاله ما هو الحق في المقام.

تنبّؤات نبوية :

1. تنبّأ الرسول بغلبة المسلمين على كسرى وفتح كنوزه واستقرار السلام العام في مناطقهم وبيئاتهم. قال عدي بن حاتم: بينا أنا عند النبي إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثمّ أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال يا عدي: هل رأيت الحيرة ؟ قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها، قال: فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلّا الله ... ولئن طالت بك حياة لنفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز ؟ قال: نعم، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملئ كفّه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله ... قال عدي: رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، رواه البخاري [2].

---

(1) أجمع كتاب أُلّف في هذا الموضوع لدى الشيعة ما ألّفه المحدث السيد هاشم البحراني وأسماه مدينة المعاجز، وهو مجلد كبير طبع بإيران ويليه ما ألّفه المحدّث الحر العاملي وأسماه بـ « اثبات الهداة بالبيّنات والمعجزات » وقد طبع في مجلدات سبع وقد مرّ الايعاز إلى ما ورد فيه من الأخبار الغيبية.

(2) راجع التاج: ج 3 ص 256.

2. قد شكا خباب بن الارت إلى النبي وكان هو متوسّد بردة له في ظل الكعبة فقال له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ فقال النبي ـــ مشيراً إلى ألوان التعذيب التي كانت تحل بالمؤمنين في الأمم السالفة ـــ: « والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير المراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه ولكنّكم تستعجلون » رواه البخاري وأبو داود في الجهاد وبهذا المضمون أحاديث كثيرة [1].

3. تنبّأ النبي بالمستقبل المظلم الذي يواجهه الخويصرة رئيس الخوارج والمارقين وهو الذي قال لرسول الله: « اعدل » فقال رسول الله: ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه ؟ قال: دعه فإنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء [2] وللحديث صور أُخرى نقلها في التاج [3].

4. وقد تنبّأ صلى الله عليه وآله بكذّاب ثقيف وقتال الروم وفتح القسطنطينية وغيره من علامات خروج المهدي وقد جمعها صاحب التاج في كتاب الفتن، فراجع الجزء الخامس ص 296 ـــ 326 تجد فيها من التنبّؤات ما لا يحصى.

5. تنبّأ رسول الله بقتل علي بسيف أشقى الأوّلين والآخرين وهو يبكي، فقال علي: يا رسول الله ما يبكيك ؟ فقال: يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر كأنّي بك وأنت تصلّي لربّك وقد انبعث أشقى الأوّلين والآخرين شقيق عاقر ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك [4] وهو أخبر في كلامه هذا عن عدة مغيبات من أنّ علياً لا يموت بحتف أنفه، بل يقتل في شهر رمضان، في حال الصلاة، بالسيف ،

---

(1) راجع التاج: الجزء الثالث ص 257.

(2) المصدر نفسه: ج 5 ص 286 كتاب الفتن.

(3) المصدر نفسه: ج 5 ص 295.

(4) عيون أخبار الرضا: ج 1 ص 297، تاريخ بغداد: ج 1 ص 135 الكامل للمبرد: ج 2ص 132، نهج البلاغة، عبده، الخطبة 151.

ويصيب السيف بقرنه، وتخضب منها لحيته، وانّ قاتله شقيق عاقر ثمود في الشقاء.

6. أخبر في غزوة تبوك عن موت أبي ذر وحده بفلات من الأرض وذلك عندما أبطأ على أبي بذر بعيره فتركه وأخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله أنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال: رسول الله ﷺ كن أبا ذر، فلمّا تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

ولما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة مات هناك، ولم يكن معه إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفّناني ثمّ ضعاني على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه، وقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق وقام إليهم الغلام فأخبرهم بما أمر، فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثمّ نزل هو وأصحابه فواروه، ثمّ حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال رسول الله في مسيره إلى تبوك [1].

7. وقد خاطب ﷺ عائشة بقوله: يا حميراء كأنّي بك تنبحك كلاب الحوأب تقاتلين علياً وأنت ظالمة، يا حميراء إيّاك أن تكوني أنت [2].

8. كان رسول الله يحث أصحابه على نصرة أمير المؤمنين في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وقال أمير المؤمنين: أمرني رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين [3].

9. تنبّأ النبي بما يجري على الأُمّة من بني أُميّة وقال كما قال أبو ذر لعثمان: سمعت رسول الله يقول: إذا كملت بنو أُميّة ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله

---

(1) سيرة ابن هشام: ج 2 ص 523.

(2) العقد الفريد: ج 2 ص 283، مستدرك الحاكم: ج 3 ص 194.

(3) تاريخ الخطيب: ج 8 ص 340 وغيره.

خولاً، ودين الله دغلاً، فارتجّ الخليفة بسماعه فبعث إلى علي بن أبي طالب فأتاه فقال: يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ما حكاه أبو ذر وقص عليه الخبر، فقال علي: نعم [1].

يحدثنا التاريخ عن سيرة الخليفة في الغنائم والأموال وعن اقتناء جماعة من أصحاب الفتن والثورات من آل العاص وبني أُميّة ضياعاً عامرة ودوراً فخمة وقصوراً شاهقة، وثروة طائلة وأسس الخليفة حكومة أُموية قاهرة في الحواضر الإسلامية وسلّطهم على رقاب الناس وأدلى الأمر، في المراكز الحساسة إلى أغلمة بني أُمية وشبابهم وأشياخهم وذلّل لهم السبل وكسح عن مسيرهم العراقيل إلى غير ذلك من أحداث موبقة جرت الويلات على الأُمّة الإسلامية في أمصارها إلى أن قتل من جرائها.

وإلى ذلك يشير النبي بقوله: سيكون أُمراء بعدي يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون [2].

10. ما أخبر به عمار إذ دخل عليه وقد أثقلوه باللبن فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون علي ما لا يحملون بقوله: ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلوك إنّما تقتلك الفئة الباغية، وأنّ آخر رزقك من الدنيا صاع من لبن أو مذقة من لبن، وقد طلب عمار شربة فأُتي بشربة لبن، فقال: انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: آخر شربة تشربها في الدنيا شربة لبن وشربها ثمّ قاتل حتى قتل [3].

11. تنبّأ النبي بقتال الزبير مع أمير المؤمنين وقد برز علي، قبل وقوع الحرب يوم الجمل وأراد أن يستفيئه إلى طاعته، وقال ليبرز إليَّ الزبير فبرز إليه مدججاً، فقيل لعائشة: قد برز الزبير إلى علي عليه السلام فصاحت: وازبيراه، فقيل لها: لا بأس عليه منه، أنّه حاسر والزبير دارع، فقال له علي ـ بعد كلام دار بينه وبين الزبير ـ: ناشدتك الله أتذكر يوماً مررت بي ورسول الله صلى الله عليه وآله متّكئ على يدك وهو جاء من بني عمرو بن

---

(1) تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 162 ط النجف وغيره من المصادر الوافرة.
(2) مسند أحمد: ج 1 ص 456.
(3) سيرة ابن هشام: ج 1 ص 497، أُسد الغابة: ج 4 ص 46.

عوف فسلّم علي وضحك في وجهي فضحكت إليه لم ازده على ذلك فقلت: لا يترك ابن أبي طالب يا رسول الله زهوه، فقال لك: مه أنّه ليس بذي زهو أما أنّك ستقاتله وأنت له ظالم. فاسترجع الزبير وقال: لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه ... [1].

12. تنبّأ النبي بقتال علي عليه السلام على تأويل القرآن، روى أبو سعيد قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فانقطعت نعله فتخلّف علي يخصفها فمشى قليلاً ثمّ قال: « إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر وقال أبو بكر: يعني علياً، فأتيناه فبشرناه فلم يرجع به رأسه كأنّه قد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله [2].

13. أخبر النبي بقتل كسرى وأنّ الله سلّط ابنه « شيرويه » عليه، فقتله في شهر كذا وليلة كذا، وذلك عندما كتب كسرى إلى « باذان » وهو باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث باذان « بابويه » وكان كاتباً حاسباً ورجلاً آخر من الفرس فأعلما النبي بما قدما له، فقال لهما رسول الله: أرجعا حتى تأتيان غداً، فلمّا أتيا تنبّأ بقتل كسرى وأمر بهما أن يقولا لباذان: « ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر » [3].

14. تنبّأ النبي بأنّه لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة وقد روى حصين عن أبيه جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي سمعته يقول: أنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، قال ثمّ تكلم بكلام خفي علي، فقلت لأبي: ما قال ؟ قال: كلّهم من قريش [4].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير ممّا يقف عليه المتتبع في مسانيد الحديث

---

(1) مستدرك الحاكم: ج 3 ص 366.

(2) مستدرك الحاكم: ج 3 ص 23.

(3) الطبقات الكبرى: ج 1 ص 260، تاريخ الكامل: ج 2 ص 146، السيرة الحلبية: ج 3 ص 278.

(4) صحيح مسلم: ج 2 ص 191، ورواه غيره بصور متقاربة.

وصحاحه وجوامع التاريخ أتينا بها، ليكون القارئ على بصيرة من الأمر ولا يصغي لدعوة العناصر المعاندة من رماة القول على عواهنه.

وأنت أيّها القارئ الكريم إذا درست حقيقة النبوّة وما أكرم الله سبحانه به أنبيائه من نفسيات وملكات كالعصمة والقداسة الروحية والنزاهة النفسية، والعلم الذي لا يضلّون معه في شيء، إلى كثير من كرائم وفضائل، حتى جعلهم أكمل البشر خلقاً وخُلقاً، وأصدقهم قولاً وأحاطهم بالرعاية، وشملهم بالعناية، كما قال سبحانه مخاطباً نبيّه الأكرم: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور ــ 48)، لوقفت أنّ التنبّؤ بالغيب والاخبار عن غابر الحوادث وطارئها ليس أمراً عجيباً في جنب ما منح الله لهم من عظائم المواهب، وكرائم الفضائل.

فعند ذاك فلا غرو فيما اخبروا عن غابر الأمور وطارئها مما نقلناه وما لم ننقله فإنّ النبوّة منصب إلهي خطير لا يستحقه إلّا الأمثل فالأمثل من الناس وأفضلهم وأجمعهم للكمالات وأعلمهم بالحقائق والأمور، ممّن شملته العناية الالهية وتعلّم منه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه كما قال: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران ـ 48).

وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ (هود ـ 49)، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (يوسف ـ 68)، وقال: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ـــ 96)، فعند ذاك فلا عجب إذا أخبروا بغابر الأمور وطارئها، أو بكل ما كان وما يكون من الحوادث باذن من الله سبحانه فـ ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾.

تنبّؤات علوية :

هذا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صنو النبي، وباب علمه ووارثه، قد تنبّأ بملاحم أحداث وفتن في حياته وأيام امارته أخذها من منهلها العذب ونميرها الصافي ،

فصدق الخبر الخبر، فتحقق بعضها بعد مئات السنين، ولم يكن تنبّؤ الوصي عن تكهّن وتخرّص ولا عن فراسة ومحاسبات عادية، وشتّان بين تخرّص متخرّص، أو كهانة متكهّن، أو تفرّس متفرّس، وما تنبّأ به الوصي على صهوات المنابر في الحواضر الإسلامية وميادين الحروب الطاحنة وأندية الوعظ والتبليغ معلناً بأنّ ما ذكره وراثة عن رسول الله ﷺ وعلم وصل إليه منه، ودونك نماذج ممّا وقفنا عليه :

قام خطيباً في البصرة مخاطباً أهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال :

1. كأنيّ بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها [1].

وقد وقع المخبر به، فإنّ البصرة غرقت مرتين في أيام القادر بالله، ومرّة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلّا مسجدها الجامع، بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام فقد جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها، وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها [2].

2. قوله: وكأنيّ وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنّها أقدام النعام [3].

3. قوله: وكأنيّ أراها قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرقة، يلبسون السرق والديباج، يعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل، حتى يعيش المجروح على المقتول، ويكون المفلت، أقل من المأسور [4].

---

(1) نهج البلاغة، الخطبة 12.

(2) الشرح الحديدي: ج 1 ص 253.

(3) نهج البلاغة الخطبة 124، قال الشريف الرضي: يومي بذلك إلى صاحب الزنج، وقد ذكر أخباره الطبري في تاريخه: ج 3 ص 1743 طبع أوربا، والمسعودي في مروج الذهب: ج 4 ص 194، ونقله الشارح المعتزلي في شرح النهج: ج 8 ص 126 . 214.

(4) نهج البلاغة الخطبة 124.

يومي به إلى فتنة التتار وجيشه العرمرم الذي أعدّه رئيسها لغزو المسلمين وهدم بلادهم ونهب أموالهم وقتل صغيرهم وكبيرهم، وقد ذكر ابن الاثير، هذه الحادثة المؤلمة في تاريخه (في حوادث سنة 617 وما بعدها ج 9 ص 329 ـ 387).

وقال في أوّلها: ولقد بقيت عدّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأُخّر أُخرى، فمن الذي يسهل عليه، أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟ من ذا الذي يهون عليه ذكره، فياليت أُمّي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً، إلّا أنّه حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثمّ رأيت أنّ ترك ذلك لا يجدي نفعاً.

وقد نقل الشارح الحديدي ج 8 ص 218 ـ 241 اجمال هذه الملحمة أيضاً، فراجع.

4. ومثل إخباره عمّا يجري بعد وفاته على الأُمّة وتعرفهم على شخصيته البارزة بعد ما كانت مجهولة كقوله: « غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي » [1].

5. ومثل إخباره عن ملك بني أُمية وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض حيث قال: « أقسم ثمّ أقسم لتنخمنها [2] أُمية من بعدي كما تلفظ النخامة ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ماكر الجديدان » [3].

6. وقوله مخبراً عن تسلّط معاوية على العراق والزامه الناس بسب علي عليه السلام والبراءة منه كما يقول: « أمّا أنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ; ولن تقتلوه ألا وإنّه سيأمركم بسبّي

---

(1) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة 145.

(2) نخم ـ كفرح ـ أخرج النخامة من صدره فألقاها، والنخامة ـ بالضم ـ ما يلف ـ ظه الصدر أو الدماغ من المواد المخاطية.

(3) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة 153.

والبرائة منّي، أمّا السب فسبّوني فإنّه لي زكاة ولكم نجاة، وأمّا البراءة فلا تتبرّأوا منّي فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة » [1].

قال الشارح الحديدي: وكثيراً من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً وكثير منهم يقول: أنّه عنى الحجاج وقال قوم: أنّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي: معاوية لأنّه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل وكان بطيناً يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه ـ إلى أن قال ـ: وتظافرت الأخبار بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعى على معاوية لما بعث إليه يستدعيه فوجده يأكل ثم بعث فوجده يأكل فقال اللّهمّ لا تشبع بطنه وقال الشاعر :

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأنّ في أحشائه معاوية [2]

7. ما يومى إلى سلطة الحجاج: لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه، إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتندمون على أنفسكم ـ إلى أن قال: ـ أما والله ليسلّطنّ عليكم غلام ثقيف الذيال الميال، يأكل خضركم ويذيب شحمتكم إيه أبا وذحة [3].

8. تنبّأ بما ستلقى الأُمّة من مروان وولده بقوله ـ لما أُخذ مروان أسيراً يوم الجمل ـ: « أما أنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه [4]، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقي الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر » [5] وفسّروا الأكبش الأربعة بولد عبد الملك بن مروان وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام الذين سوّدوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الانسانية بجناياتهم الموبقة

---

(1) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة 56.

(2) الشرح الحديدي: ج 4 ص 54 ـ 55.

(3) نهج البلاغة الخطبة 112: الوذح ما يتعلق بذنب الشاة من البعار فيجف، والمراد هنا الخنفساء وقد لسعت يد الحجاج فورمت يده وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته، ولا يخفى أنّ في هذا الكلام القصير تنبّؤات.

(4) تصوير عن قصر مدتها، وكانت تسعة أشهر، وهذا تنبّؤ آخر.

(5) نهج البلاغة ط عبده ص 70.

وخزاياتهم المهلكة.

9. هذا « عرفة » الأزدي وهو من أصحاب النبي و « الصفة » وقد دعا له النبي أن يبارك له في صفقته يقول: دخلني شك في شأن علي عليه السلام فخرجت معه على شاطئ الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله، فقال ـ مشيراً بيده ـ: « هذا موضع رواحلهم، ومناخ ركابهم، ومهراق دمائهم بأبي من لا ناصر له في الأرض ولا في السماء إلّا الله »، فلمّا قتل الحسين، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه، فإذا هو الحال ما أخطأ شيئاً، قال: فاستغفرت الله مما كان من الشك وعلمت أنّ علياً عليه السلام كان على حق لم يقدم إلّا بما عهد إليه منه [1].

10. ما تنبأ به عليه السلام عندما عزم على حرب الخوارج، قيل له: إنّ القوم قد عبروا جسر النهروان، قال: مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.

قال الرضي: يعني بالنطفة ماء النهر وهي أفصح كناية عن الماء وقال الشارح الحديدي: هذا الخبر من الأخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب.

والاخبار على قسمين :

أحدهما: الأخبار المجملة ولا اعجاز فيها: نحو أن يقول الرجل لأصحابه: انّكم ستنتصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً، فإن نصر، جعل ذلك حجة له عند أصحابه وسماها معجزة، وإن لم ينصره قال: تغيّرت نيّاتكم وشككتم في قولي، فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول، ولأنّه قد جرت العادة على أنّ الملوك والرؤساء يعدّون أصحابهم بالظفر والنصر، ويمنّونهم الدول، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على إخبار عن غيب يتضمّن اعجازاً.

والقسم الثاني: في الأخبار المفصلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر فإنّه لا يحتمل

---

(1) أسد الغابة: ج 4 ص 169.

التلبيس، لتقييده بالعدد المعيّن في أصـــحابه وفي الخوارج ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه، من غير زيادة ولا نقصـان وذلك أمر إلهي عرفه من جهة رسـول الله صلى الله عليه وآله وعرفه رسـول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سـبحانه، والقوّة البشـرية تقصـر عن ادراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره.

وبمقتضـى ما شـاهد الناس من معجزاته، وأحواله المنافية لقوى البشـر غلا فيه من غلا، حتى نسـب إلى أنّ الجوهر الإلهي حلّ في بدنه كما قالت النصـارى في عيسـى عليه السلام وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك فقال: « يهلك فيك رجلان محبّ غال ومبغض قال ».

وقال له تارة أُخرى: « والذي نفسـي بيده لولا أنّي أشـفق أن تقول طوائف من أُمّتي فيك ما قالت النصـارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من الناس إلّا اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » [1].

ثمّ قال: وإعلم انّا ننكر أن يكون في نوع البشـر أشـخاص يخبرون عن الغيوب ولكن كل ذلك مسـتند إلى البارئ سـبحانه باقداره وتمكينه وتهيئة أسـبابه، فإن كان المخبر عن الغيوب ممن يدّعي النبوّة، لم يجز أن يكون ذلك إلّا بإذن الله سـبحانه وتمكينه، وأن يريد به تعالى اسـتدلال المكلّفين على صدق مدّعى النبوّة.

وأمّا إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوّة، نظر في حاله، فإن كان ذلك من الصـالحين الأتقياء نسـب ذلك إلى أنّه كرامة أظهرها الله تعالى على يده أبانة له وتمييزاً عن غيره، كما في حقّ علي عليه السلام وإن لم يكن كذلك أمكن أن يكون ساحراً أو كاهناً، أو نحو ذلك.

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية أفضل وأشرف ممّن لا يكون فيه من حيث اختصاصه بها فإن كان للانسان العاري منها مزية أُخرى يختص بها توازيها أو تزيد عليها، فنرجع إلى التمثيل والترجيح بينهما، وإلّا فالمختص بهذه الخاصية أرجح وأعظم

---

(1) الشرح الحديدي: ج 5 ص 4.

من الخالي منها على جميع الأحوال [1].

11. لمّا قتل الخوارج وقيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم فأجابهم :

كلاّ والله، إنّهم نطف في أصـــلاب الرجال وقرارات النســـاء [2] كلّما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً [3] سلاّبين.

قوله عليه السلام : « كلّما نجم منهم قرن قطع » اســـتعارة حســـنة، يريد: كلّما ظهر منهم قوم استؤصلوا، فعبّر عن ذلك بلفظة « قرن » كما يقطع قرن الشاة إذا نجم، وقد صح إخباره عليه السلام عنهم انّهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان وأنّها دعوة ســـيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد، وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلاّبين، فإنّ دعوة الخوارج اضمحلّت ورجالها فنيت حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطّاع طرق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

وممّن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيباني في أيام الرشيد بن المهدي فأشخص إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله وحمل رأسه إلى الرشيد.

ثم خرج في أيام المتوكل، ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق وأخاف الســـبيل، وتســـمّى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي.

وقد خرجت بعد هذين جماعة من الخوارج، وكلّهم بمعزل عن طرائق ســـلفهم وإنّما وكدهم وقصدهم إخافة السبيل والفساد في الأرض واكتساب الأموال من غير حلّها [4].

12. وقد أماط الإمام الستر عن وجه الحقيقة وعن كمية علمه وكيفيته في بعض خطبه وأقسم فيه بالله الذي نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين

---

(1) المصدر نفسه: ص 12 . 13.

(2) قرارات النساء كناية عن الأرحام.

(3) نهج البلاغة الخطبة 59.

(4) الشرح الحديدي: ج 5 ص 73 . 77.

القيامة إلّا أخبرهم به وأنّه ما صـح من طائفة من الناس، يهتدي بها مائة وتضـل بها مائة إلّا وهو مخبر لهم إن سألوه برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها موتاً، حيث قال بعد أنّ فرغ من قتال الخوارج :

« أيّها الناس فإنّي فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها.

فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده، لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة، إلّا أنبأتكم [1] بناعقها وقائدها، وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً.

ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأُمور، وحوازب الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسـؤولين، وذلك إذا قلصـت حربكم، وشمرت عن سـاق، وكانت الدنيا عليكم ضـيقاً تستطيلون أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم.

انّ الفتن إذا أقبلت شـبهت، وإذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حول الرياح، يصبن بلداً، ويخطئن بلداً.

ألا وأنّ أخوف الفتن عندي عليكم، فتنة بني أُمية، فإنّها فتنة عمياء مظلمة ! عمت خطتها، وخصت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها.

وأيم الله لتجدن بني أُمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم، إلّا نافعاً لهم، أو غير ضائر بهم.

ولا يزال بلاؤهم عنكم، حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلّا كانتصار العبد

---

(1) مخطوطة النهج: « نبّأتكم ».

من ربّه، والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منها منار هدى ولا علم يرى.

نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة، ثمّ يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلّا السيف، ولا يحلسهم إلّا الخوف، فعند ذاك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطونيه » [1].

قال ابن أبي الحديد: ولقد امتحنّا اخباره فوجدناها موافقة، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كاخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، واخباره عن قتل الحسين ابنه عليه السلام، وما قاله في كربلاء حيث مرّ بها، واخباره بملك معاوية الأمر من بعده واخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبره به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لـمّا شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير وقوله فيه: « خب ضب يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لإصطياد الدنيا وهو بعد مصلوب قريش ».

وكاخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة أُخرى بالزنج وهو الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكاخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق، (بتقديم المهملة) وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية ،

---

(1) نهج البلاغة الخطبة 89، قال الشارح الحديدي: وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة مستفيضة، خطب بها علي عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان وفيها ألفاظ لم يوردها الرضي من ذلك قوله: « سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي ميّت عن قريب أو مقتول، بل قتلاً، ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم » وضرب بيده إلى لحيته. لاحظ نهج البلاغة: ج 7 ص 57.

وكاخباره عن الأئمّة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله عليه السلام: « وإنّ لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم باذن الله فيدعوا إلى دين الله ».

وكاخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله: « إنّه يقتل عند احجار الزيت » وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة [1]: « يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر » وقوله أيضاً: يأتيه سهم غرب [2] يكون فيه منيته فيا بؤساً للرامي شلّت يده ووهن عضده » واخباره عن قتلى « وج » وقوله فيهم: « هم خير أهل الأرض ».

وكاخباره عن المملكة العلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلم، وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أوّلهم ثمّ يظهر صاحب القيروان الغض البض، ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذي البداء، المسجى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن، تار [3] الأطراف، وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهم السلام وهو المسجّى بالرداء لأنّ أباه أبا عبد الله جعفر أسجاه برداءه لما مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدوه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكاخباره عن بني بويه وقوله فيهم: « ويخرج من ديلمان بنو الصياد » اشارة إليهم وكان أبوهم صياد السمك، يصيد منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم، وكقوله عليه السلام فيهم: « ثمّ يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل: فكم مدته يا أمير المؤمنين ؟ فقال: « مائة أو تزيد قليلاً » وكقوله فيهم: والمترف ابن

---

(1) كذا في النسخة وكتب الينا المحقق الشيخ محمد تقي التستري أن الصحيح: « بباخرى ».

(2) سهم غرب، أي لا يدرى راميه.

(3) التار: الممتلئ جسمه وعظمه ريا.

الأجدم يقتله ابن عمه على دجلة وهو إشـــارة إلى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحســـين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار، مترفاً صاحب لهو وشرب، وقتله عضد الدولة فنّاخسرو، ابن عمه، بقصر الجص على دجلة في الحرب، وســلبه ملكه، فأمّا خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المســتكفي ورتب عوضــه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة، خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام.

وكاخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده فإنّ علي بن عبد الله لما ولد، أخرجه أبوه « عبد الله » إلى علي عليه السلام فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمرة، قد لاكها، ودفعه إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك، هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها أبو العباس المبرد في كتاب « الكامل » [1] وليســت الرواية التي يذكر فيها العدد بصــحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه.

وكم له من الاخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، ممّا لو أردنا اسـتقصـاءه لكرّسـنا له كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة [2].

13. قوله عليه السلام في خطبة تســمّى القاصــعة ... ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإســلام غير رسـول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسـالة وأشـم ريح النبوّة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟! فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبي ولكنّك وزير [3].

قال الشارح الحديدي: روي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال كان

---

(1) الكامل: 2: 217.

(2) شرح النهج: ج 7 ص 48 ـ 50.

(3) نهج البلاغة طبعة عبده: ج 2 ص 182 ـ 183.

علي عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصي نبي ووارثه بل أنت سيد الأوصياء وإمام الاتقياء » [1].

ولا دليل على حمل قوله: « انّك تسمع ما أسمع » على سماع خصوص رنّة الشيطان بل هو ظاهر في العموم حسب ما يظهر من الإمام الصادق عليه السلام .

14. مثل اخباره عن فتنة صاحب الزنج وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس حيث جمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ في نواحي البصرة وخرج بهم على المهتدي العباسي في سنة خمسة وخمسين ومائتين واستفحل أمره وانتشر أصحابه في أطراف البلاد للسلب والنهب إلى أن قتله الموفق أخو الخليفة المعتمد سنة سبعين ومائتين.

« فتن كقطع الليل المظلم، ولا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها ويجدها راكبها أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلّة عند المتكبرين، في الأرض مجهولين وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة، عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر » [2].

قال الشارح الحديدي فسّر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج، وهو بعيد لأنّ جيشه كان ذا حس ورهج ولأنّه أنذر البصرة بهذا الجيش ألا تراه قال: « فويل لك يا بصرة » ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام [3].

---

(1) الشرح الحديدي: ج 13 ص 210.

(2) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة 98.

(3) شرح النهج: ج 7 ص 104.

هذه أربعة عشر خبراً غيبياً من روائع نصوص الإمام تدل على وقوفه على ما غاب عن الحس بإذن من الله سبحانه. وقد نقل الشارح الحديدي كثيراً من أخباره الغيبية في أجزاء كتابه، وقد نقلنا بعضها في ما تقدم فلاحظ بعضها في الجزء الثاني من شرحه ص 286 ـــ 295 ترى فيه أخباراً غيبية كثيرة كيف وقد روي عنه عليه السلام إخبارات غيبية مبثوثة في كتب الحديث والتاريخ بحيث لو جمعها جامع لخرج بسفر جليل وضخم وفيما نقلناه كفاية للقارئ الكريم.

عثرة لا تقال :

هذا هو الحق الذي أحق أن يتبع، وقد صدقه كتاب الله العزيز وأيّدته النصوص المستفيضة وأطبقت عليه الأعلام في العصور المختلفة.

غير أنّ هذه المسألة قد أثارت في عصرنا قلقاً واضطراباً في الأوساط الدينية فحامت حولها الشبهات، واكتنفتها أجواء تثير السخط والاستياء، من أُناس ابتلوا بعقدة النقص أو جنون العظمة، مع أنّ كتاب الله بين ظهرانيهم والنصوص المتضافرة بين أيديهم، فلو رجعوا إلى ذينك المصدرين، بقلب سليم وفكر مستقيم لعرفوا الحق واتبعوه، والحق أحق أن يتبع.

وقد وقفت بعدما كتبت هذا الفصل على « كتيب » لبعض من يضمر لأئمّة أهل البيت حقداً وعداءاً، ويحارب كل فضيلة تثبتها النصوص لهم، ويمتلئ صدره بالتعصب المقيت وقد أعاد فيه ما ذكره ابن تيمية ونظراؤه من الذين أكل عليهم الدهر وشرب حيث أنكر علم النبي وأوصياؤه بالغيب على وجه الاطلاق وعزاه إلى جمهور الإمامية وفطاحلهم، قائلاً بأنّ فكرة علمهم بالغيب، اسطورة حدثت في الآونة الأخيرة بيد الغلاة. واستشهد على ذلك بما ذكره أمين الإسلام في كتابه، حيث قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾

(المائدة ـ 109) ما هذا لفظه :

وذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره: انّها تدل على بطلان قول الإمامية: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب وأقول: إنّ هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم، فإنّا لا نعلم أحداً منهم بل أحداً من أهل الإسلام يصف أحداً من الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإمامية براء من هذا القول ومن نسبهم إلى ذلك فالله ما بينه وبينهم [1].

غير أنّه عزب عن هذا المسكين أنّ ما ذكره « أمين الإسلام » لا يمثّل رأي الشيعة الإمامية في الموضوع، وإنّما هو رأي واحد منهم ولا يمثّل رأي الجميع ولا يؤخذ الجمع بفعل الواحد ورأيه.

أضف إلى ذلك: أنّ ما ذكره أمين الإسلام لا يهدف إلّا إلى ما ذكرناه، وانّ الممنوع توصيفهم باطلاعهم على الغيب على غرار علمه سبحانه، بشهادة قوله: « ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين » إذ أي صلة بين مفارقة الدين والقول بأنّ الله سبحانه أظهر غيبه لأحد أوليائه، واطلع هو على الغيب من تلك الناحية وتعرف بتعليم منه سبحانه.

ولو رجع الكاتب إلى موضع آخر من كتابه ولم يقصر نظره على موضع واحد منه، لوقف على مغزى ما رامه فإنّه قدّس الله سرّه قد حقّق المسألة في موضع آخر من كتابه.

قال في تفسير قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود ـ 123) ما هذا لفظه: وجدت بعض المشايخ ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيع قد ظلم الشيعة الإمامية في هذا الموضع من تفسيره فقال: « هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب » ولا شك أنّه عنى بذلك من يقول بإمامة

---

(1) مجمع البيان: ج 2 ص 261 ط صيدا.

الاثنى عشر ويدين بأنّهم أفضل الانام بعد النبي صلى الله عليه وآله فإنّ هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، فإنّما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين ومن اعتقد أنّ غير الله سبحانه يشاركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملّة الإسلام.

فأمّا ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ورواه عنه الخاص والعام من الأخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله وهو يومي به إلى صاحب الزنج، كأنّي يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام النعام.

وقوله يشير إلى مروان أمّا أنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقي الأمّة منه ومن ولده موتاً أحمر، وما نقل من هذا الفن عن أئمّة الهدى: من أولاده مثل ما قاله أبو عبد الله عليه السلام لعبد الله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً، والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنّها لهم وأشار إلى العباسيين وأنّ ابنيك لمقتولان، ثمّ نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له: أرأيت صاحب الرداء الأصفر ؟ ـــ يعني أبا جعفر المنصور ـ قال: نعم، فقال: إنّا والله نجده يقتله. فكان كما قال.

ومثل قول الرضا عليه السلام: بورك قبر طوس وقبران ببغداد، فقيل له: قد عرفنا واحداً فما الآخر ؟ قال: ستعرفونه، ثمّ قال: قبري وقبر هارون هكذا ـــ وضم أصبعيه ـــ [1] وقوله في القصة المشهورة لأبي حبيب النباحي وقد ناوله قبضة من التمر لو زادك رسول

---

(1) نظير قوله لموسى بن مهران في مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب: أترونني وإياه ندفن في بيت واحد، عيون أخبار الرضا: ج 2 ص 226.

الله ﷺ لزدناك، وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة: « معك حلّة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً » والحديث مشهور إلى غير ذلك ممّا روي عنهم عليهم السلام . فإنّ ذلك متلقّى عن النبي ﷺ ممّا أطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة من روي عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنّه يعتقد كونهم عالمين بالغيب، وهل هذا إلّا سب قبيح وتضليل لهم بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير [1].

هل استأثر الله بعلم هذه الأمور ؟

قد اشتهر بين المفسّرين أنّ هناك أُمور خمسة استأثر الله بعلمها وحده، لا يجليها لغيره واستندوا في ذلك إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان . 34) ويؤيده ما روي من اختصاص العلم بهذه الأُمور الخمسة بالله تعالى وأنّ غيره لا يطلع عليها أبداً وقد جرت مشيئة الله على كتمان العلم بهذه الأُمور عن خلقه.

ولقائل أن يقول: لا محيص عن صحة ما ذكروه في الأربعة التالية: علم الساعة، العلم بما في الأرحام، العلم بما يكسبه الانسان في مستقبل أيامه، وعلمه بالأرض التي يموت فيها الانسان، وأمّا اختصاص العلم بوقت نزول الغيث به سبحانه فلا تفيده الآية إذ أنّه تعالى يقول: ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾، ولم يقل: وعنده علم نزول الغيث.

ويدفع بأنّ العلم بوقت نزول الغيث لو لم يكن مثل الأربعة الباقية لكان الاتيان

---

(1) مجمع البيان: ج 3 ص 205 وقوله للمأمون عندما ذاكره بقوله: ندخل بغداد إن شاء الله فنعمل كذا وكذا، فقال له الرضا: تدخل أنت بغداد يا أمير المؤمنين، ثم سأله أحد أصحابه عن ذلك، فقال: (وما أنا وبغداد ؟! لا أرى بغداد ولا تراني) عيون أخبار الرضا: ج 2 ص 225.

به عندئذ اقتضاباً بلا جهة وعطفاً بلا مناسبة فلأي وجه أورده في هذه الآية في عداد الأُمور التي سلّمنا اختصاص علمها به سبحانه وليس هو منها، فلأجل الالتزام بوجود المناسبة بين المتعاطفات لا مفر من القول باختصاص علمه به سبحانه أيضاً.

دفع شبهة :

ربّما يتخيل بل يقال: كيف استأثر الله بعلم هذه الأُمور، والنشرات الجوية، لدائرة الأنواء الجوية تعيّن أوقات نزول الغيث والوفر والاختبارات الطبية تبين وضع الجنين وأنّه ذكر أو أُنثى، ولكنّها مدفوعة بما يلي :

1. إنّ الله سبحانه واقف على وضع الجنين من بدء تكونه في رحم أُمّه، حينما يكون خليّة فيها، ليس لها من الصور المعتورة عليه شيء، إلى أن تضعه أُمّه، فهو سبحانه يعلم حين ما هو خليّة في رحمها، أنّه ذكر أو أُنثى، وليس ذلك مقدوراً للبشر وإن أطل بنظره عليها بأشعة قوية كهربائية أو باختبارات طبية، فالعلم بذكورة الجنين أو أُنوثته، من بدء وجوده إلى ختامه، مخصوص به سبحانه، ولا يشاركه في هذا الحد الوسيع أحد من البشر.

2. إنّ تخصيص قوله سبحانه: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ بأحد الوصفين المذكورين (الذكورة والانوثة) مخالف لاطلاق كلامه، فإنّ الظاهر منه أنّه سبحانه يعلم جميع حالات ما في الأرحام، وأنّه ذكر أو أُنثى، قبيح أو جميل، سخي أو بخيل، شجاع أو جبان، سعيد أو شقي، مرافق النبيين في الجنان أو حطب لنار جهنّم إلى غير ذلك من الصفات والروحيات التي لا يتمكّن البشر من الوقوف عليها عندما كان صاحب الصفات جنيناً في رحم أُمّه، وهذا التعميم وشمول الآية للصفات الظاهرية والباطنية صريح كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة [1].

---

(1) راجع نهج البلاغة الخطبة 126.

وأمّا النشـرات الجوية التي تصـدرها دائرة الأنواء الجوية الدارجة في الحضـارة الفعلية، فهي أنباء ظنية على أُصول وتجارب واستطلاع على أوضاع تكتسبها دائرة الأنواء الجوية من مختلف البلدان قريبها وبعيدها ـ ومع ذلك ـ فلا تخرج عن دائرة الحدس والظن، وليست مصونة عن الخطأ كما هو الشاهد لكل من يصغي إليها ثمّ يرجع إلى فسيح الكون ويطبّقها عليه.

توضـيحه: أنّ لكل من الأُمم عبر الأجيال والقرون، تجارب في هذا الباب كانوا يسـتكشـفون بها على سبيل الظن والتخرّص، مواقع نزول المطر والثلج، حتى أنّ القرويين والبدو، كانوا يستطيعون التنبّؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر، وما أشبه ذلك من بعض الظواهر الجوية كإتجاه الريح مثلاً. بل كانوا يستكشفون بغير ذلك من نزول الكلب من سطح البيت إلى داخله وقد حكي أنّ نصير الدين الطوسي (ذلك الفلكي العظيم) نزل في بعض أسفاره على طحان له طاحونة خارج بعض البلاد فلمّا دخل المنزل صـعد السـطح لحرارة الهواء، فقال له صـاحب البيت: أنزل ونم في داخل البيت لأجل نزول المطر فنظر « نصـير الدين » إلى الأوضـاع الفلكية، فلم ير شـيئاً يورث الظن بنزول المطر، فقال له الطحّان: أنّ لي كلباً ينزل في كل ليلة يحس بأنّ المطر سـينزل فيها إلى البيت، فلم يقبل ذلك منه المحقّق، وبات فوق السـطح فأدركه المطر أثناء الليل وتعجّب المحقق الطوسي [1].

نعم الأدوات الحديثة لتعيين درجة الحرارة في الجو وارتباط مختلف البلدان بعضها ببعض، بواسطة أجهزة البرق السـلكية واللاسـلكية، وتبادل المعلومات فيما بينها عن الحالة الجوية سـاعة فسـاعة، هذه الأدوات احتلّت مكان التجارب السـالفة وسـاعد على امكان التنبّؤ بتقلّبات الطقس بالاستنتاج والتخمين.

ومع ذلك فإنّ استنتاجات دائرة الأنواء الجوية لا تكون صائبة دائماً فكثيراً ما

---

(1) مكاسب الشيخ الأنصاري: ص 25.

تخطئ في تخمينها، ولا تخبر عما تخبر إلّا بالظن والترديد، بل على نحو الاجمال في جانب والاهمال في جانب آخر، ولاتستطيع أن تحدد وقت نزول المطر ومحال نزوله دقيقاً، وأنّه في أي ساعة أو على أي مكان من الأرض العظيمة ينزل.

وأعجب منه أنّه إذا شوهد منها التخلف حتى في مجمل ما أخبرته تراها تتمسّك باعذار كاشفة عن قصور باعها وعدم احاطتها بما في الجو الفسيح، من الأحوال والأوضاع.

وأمّا الاختبارات الطبّية، فاعطف نظرك إلى بعض ما ذكره بعض الاخصائيين في المقام لتقف على أنّ تحديد نوع المولود يرجع في جوهره إلى الصدفة، أو إلى الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبّؤ بها قال [1] :

توجد في كل فرد غدتان تناسليتان وتختلف الغدد الذكرية عن الغدد الأُنثوية في مكانها التشريحي بالجسم، وفي وظائفها الأوّلية والثانوية وفي تأثيرها على شخصية الفرد. وتؤثر هذه الغدد، بهرموناتها المختلفة في التفرقة بين الذكر والأنثى، ولهذه الفروق الجنسية أثر قوي في سرعة النمو، وفي تباين اختلاف مظاهره.

هذا وتنشأ الاختلافات الجنسية منذ اللحظة الأُولى التي تتكوّن فيها البويضة المخصبة أي عندما تلتقي الصبغيات الذكرية بالصبغيات الأُنثوية في نواة البويضة وتتميز البويضة بأنّها تحتوي على صبغة خاصة بالجنس، توجد دائماً بصورة واحدة نرمز لها بالرمز (س) ويتميّز الحي المنوي بوجود صبغى خاص بالجنس يوجد أحياناً، بصورة تماثل صورة الصبغة الأُنثوية ولذلك يرمز لها بالرمز (س) أيضاً ويوجد أحياناً بصورة أُخرى يرمز لها بالرمز (ص) فإذا احتوت البويضة المخصبة على الصبغيين (س س) كان الجنين أُنثى. وإذا احتوت على الصبغيين (س ص) كان الجنين ذكراً، وهكذا يتحدد الجنس منذ اللحظة الأُولى في تكوين البويضة المخصبة وبذلك يسيطر الحي المنوي على

---

(1) الأُسس النفسية للنمو تأليف الدكتور فؤاد البهي مدرّس علم النفس بجامعة عين الشمس.

نوع الجنس، أي أنّ الجنس ذكراً كان أم أُنثى يرجع في جوهره إلى الرجل لا إلى المرأة وإذا عرفنا أنّ عدد الحيوانات المنوية الذكرية في كل نطفة يربو على 200/000/000 حي ذكري عرفنا بعد ذلك أنّ تحديد نوع المولود يرجع في جوهره إلى الصدفة أو الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبّؤ بها.

نظرنا في الموضوع :

إلى هنا جرينا على مسلك المفسّرين في تفسير الآية ودفعنا عنهم ما أُشكل عليهم وقد أرسلوه إرسال المسلّمات وأيّدوها بروايات سوف نوضّح حالها، ومدى صحتها، غير أنّ هنا احتمالاً آخر، ربّما يكون أقرب إلى ظاهر الآية ممّا ذكروه ودونك بيانه :

انّ لسان الآية في بيان علمه سبحانه بهذه الأشياء الخمسة، ليس على نسق واحد بل على وجوه ثلاثة :

1. لسان الحصر: وهذا يختص بالعلم بوقت الساعة من الأُمور الخمسة، فتراه يقول: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ بتقديم الظرف على المبتدأ وهو يفيد الحصر ولا تجد هذا السياق من الكلام في الأربعة الباقية، ولأجل ذلك تراه غير أسلوب الكلام عندما أراد أن يبيّن تعلّق علمه بغير الساعة وقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَ ... ﴾.

وعلى هذا لا بأس بما ذكروه في هذا القسم، فإنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ العلم بوقت الساعة مختص به سبحانه لا يعدو غيره.

وتؤيّده آيات أُخر، وردت في هذا المضمار قال سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلّا هُوَ ﴾ (الأعراف ـــ 187) وقال: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ﴾ (الأحزاب ـــ 63) وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلّا بِعِلْمِهِ ﴾ (فصلت: 47) ترى أنّه سبحانه في هذه الآية الأخيرة عندما أنهى غرضه عن

رد علم الساعة إليه، غيّر أُسلوب كلامه من الحصر، إلى أُسلوب لا يفيد سوى علمه بهذه الأُمور، وأنّه لا تخرج ثمرة من أوعيتها وغلفها، ولا تحمل أُنثى، ولا تضـــع أُنثى، إلّا في الوقت الذي يعلم سبحانه أنّه تخرج منها أو تحمل وتضع فيه.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (الزخرف ـــ 85) وقوله: ﴿ يَسْـــأَلُونَكَ عَنِ السَّـــاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـــاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ (النازعات: 42 ـ 44) وقد فسّر الطبرسي قوله: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ بقوله: أي لست في شيء من علمها وذكراها.

ولأجل اختصاص علمه بالله سبحانه، لما سئل عن وقت الساعة وتعيين تاريخها أعرض سبحانه عنه، وأخذ ببيان علائمها وأشراطها كما في قوله سبحانه: ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَـرُ * وَخَسَـفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّـمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَـانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ ﴾ (القيامة: 6 ـ 10).

فإذا أمعنا النظر في هذه الآيات وما فيها من السياق الواحد المفيد للحصر والقصر، لا نشك في صحة ما ذكره المفسّرون في جريان مشيئته سبحانه على كتمان العلم بوقتها عن غيره ولعلّ هنا من يفرّق بين قوله: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّـــاعَةِ ﴾ وقوله: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللهُ ﴾ حيث حملنا الثاني على العلم الأزلي الذاتي، وقلنا إنّ المختص بالله سبحانه، هو هذا القسم دون العلم المستفاد المفاض منه، سبحانه إلى عباده، وأنّ الآية لا تشمل ما كان من العلم اكتسـابياً، وعلى فرض عمومه لكلا القسـمين، يمكن تخصـيصـها بما دلّ على اطلاع الرسول على الغيب نظير قوله سبحانه: ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن: 26 ـ 27).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فلأنّ تضافر الآيات على حصر خصوص العلم بالسـاعة به سـبحانه والتصـريح به في كل مورد تحدث عنه، باسـلوب يغاير اسـلوب ما عداه كما عرفت فيما تقدم من الآيات، ربّما يؤكد نظر المفسرين من أنّه

ممّا استأثر بعلمه لنفسه، نعم امكان اطلاع النبي على وقتها بمكان من الامكان إلّا أنّ البحث في وقوعه لا في امكانه [1].

هذا كله راجع إلى صدر الآية وهو القسم الأوّل من سياقها وإليك بيان الثاني والثالث منه.

الثاني: اثبات علمه بوقت نزول الغيث وما في الأرحام من دون قصر العلم بهما عليه سبحانه.

الثالث: التصريح بجهل البشر بما يكسب غداً وبالأرض التي فيها تموت ولكن استفادة الاستئثار من هذين القسمين، لا يخلو من غموض وخفاء بل لا يدل عليه فإنّ أقصى ما يستفاد منها عدم اطلاع البشر عليها من عند نفسه، وهذا لا ينافي اطلاعه عليها بتعليم من الله سبحانه كسائر الأُمور الغيبية، وتخصيص هذه الموارد بالذكر مع كون الجميع كذلك، للحث على علم الواجب سبحانه بجلائل الأُمور ودقائقها وجهل البشر بما يهمّه ولا يدل على جريان مشيئة الله على كتمانها عن كل بشر وعدم اعلامها لأحد.

بل يمكن أن يقال: إنّ نفي العلم عن الانسان بهذه الأُمور الأربعة كما لا ينافي امكان اطلاعه عليها بإذن الله واعلامه، فهكذا لا ينافي امكان وقوف البشر عليها في ظل النواميس الكونية التي تم اكتشافها، والأدوات العلمية التي تم اختراعها، فإنّ مثل هذا العلم خارج عن مرمى الآية على احتمال قوي، بل هي ناظرة إلى أنّ البشر، بما هو هو من غير أن يستعين بشيء لا يتمكن من الوقوف على هذه الأُمور. وهذا لا ينافي امكان اطلاعه عليها بتعليمه سبحانه أو باتصاله بعوالم روحية أو باستخدام وسائل وأدوات

---

(1) ومع ذلك كلّه فيمكن أن يقال: إنّه لو لم يكن هنا سوى قوله سبحانه: ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ لم يصح لنا الحكم البات بأنّه ممّا استأثر بعلمه لنفسه، وإنّما يصح الحكم بعد ملاحظة ما ورد في المقام من الآيات التي عرفتها فلاحظ.

تورث الظن أو العلم بأوضاعها.

انّ الطبيب ربّما يحدس أو يخبر على سبيل القطع عن حال مريضه، وأنّ الموت سوف ينشب أظفاره في وقت كذا، ويصيب في اخباره هذا، فكما أنّ هذا النحو من العلم لاستناده إلى الامارات والعلائم والأدوات الطبية، المورثة للظن أو العلم، خارج عن مفاد الآية، فهكذا ما يستند إليه الانسان في كشف المغيبات من الوسائل والاختبارات.

ولأجل ذلك نرى النبي والخلفاء من بعده، تنبّأوا بمستقبل أحوالهم، وما يحل بهم من نعمة ونقمة وعن زمان موتهم ومكانه.

وقد رأينا بعض المخلصين من عباده، تنبّأوا بزمان موتهم ومكانه، وما يحل بهم من أزمة وأزمات ونقل ذلك أيضاً عن كثير من الصلحاء، فكيف يمكن القول بأنّه سبحانه استأثر بهذه الأُمور، أو ما أخبر يوسف عما يكسبه صاحباه غداً فقال: ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ (يوسف ـــ 41) وأي فرق بين العلم بما يكسبه الانسان نفسه وما يكسبه الغير.

وما ربّما يقال: من تخصيص ظاهر الآية بما ثبت من تنبؤ بعض المعصومين بما يحل بهم ومكان موتهم وزمانه لا طائل تحته، فإنّ لازم هذا التخصيص هو طرح تلكم الروايات لا تخصيصها لأنّه عندئذ ينتقض الاختصاص ولا يصدق الاستئثار أبداً فإنّ الاستئثار يتوقف على كتمان العلم بها عن كل أحد إلى يوم القيامة.

أضف إلى ذلك: أنّ من الممكن القريب أن تصبح الوسائل العلمية دقيقة فنطلع على مواقع نزول المطر ونعرف الجنين أهو ذكر أو أُنثى.

عرض وتحليل :

اعتمد المشهور في تفسير الآية على روايات لم يصح أكثرها ولم تثبت صحة اسنادها ودونك بيان ما وقفنا عليه :

1. روى الصدوق في خصاله عن ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن هاشم، عن عبد الرحمان بن حماد، عن إبراهيم بن عبد الحميد بن أبي أُسـامة، عن أبي عبد الله قال: قال لي أبي: ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه ؟ قلت: بلى، قال: « إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ... » [1].

ورجال الحديث كلّهم ثقات غير عبد الرحمان بن حماد وعبد الحميد فإنّ الأوّل مهمل لم يتضح حاله بوثاقة أو ضعف، وأمّا عبد الحميد بن أبي أُسامة فإنّه مختلف فيه وإن رجّح شيخنا العلّامة التستري في قاموسه وثاقته.

2. روى صاحب البصائر عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن أبي الجارود عن الأصبغ بن نباتة قال سمعت أمير المؤمنين يقول: إنّ لله علمين علم استأثر به في غيبه فلم يطّلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته وذلك قول الله تعالى: ﴿ إنّ الله عنده علم الساعة ... ﴾ [2] والحديث ضعيف الاسناد لأجل « محمد بن سنان » فقد ضعّفه كثير من علماء الرجال وأمّا أبو الجارود فهو زيدي.

3. ما رواه القمي في تفسيره [3] مرسلاً عن الصادق ومضمونه قريب ممّا رواه الصدوق في خصاله.

وأمّا ما رواه الحافظ جلال الدين السيوطي في الدر المنثور عن عكرمة أنّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟فنزلت الآية [4] فلا ينطبق على ظاهر الآية

---

(1) الخصال: ص 290 طبع مكتبة الصدوق.

(2) بصائر الدرجات: ص 31.

(3) تفسير علي بن إبراهيم القمي: ص 510 وقد جمع أحاديث الباب العلّامة المجلسي في بحاره راجع ج 26 ص 101 . 103.

(4) الدر المنثور: ج 5 ص 169.

فإنّ المتبادر من قوله: ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ هو العلم بخصـــوصـــية الجنين لا العلم بوقت ولادته كما هو ظاهر الحديث مضـافاً إلى ما في سـنده من الضـعف الظاهر لانحراف عكرمة عن أمير المؤمنين، وأخذه الحديث من أُناس لا خلاق لهم من الدين.

هذه الأحاديث لا يصـــح الاعتماد عليها إلّا على ما نقله الرضـــي في نهج البلاغة عن الإمام عليه السلام من أنّ علم الغيب علم الساعة، وما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا الله [1].

وهو مما يجب تأويله وتوجيهه على وجه لا ينافي ما تواتر من الروايات من تنبؤ المخلصـين بزمان موتهم ومكانه، وما يلم بهم من خير وشـر خصـوصـاً إذا وقفنا على أنّ الإمام ألقى كلامه هذا تجاه النواصب والمخالفين الذين سمعوا من الإمام في البصرة من الأسرار ما لا يتحملون، فاعترضـوا عليه بأنّه تنبؤ بالغيب، فأجابهم وصـــد اعتراضـــهم بأنّه ليس بعلم الغيب، بل تعلم من ذي علم، وإنّما الغيب هو الساعة، وما عدده سبحانه ... ».

وبما أنّ الكلام ورد في مقام اســـكات الخصـــم يمكن تأويله باحدى الوجوه التي ذكرها العلّامة المجلسي في بحاره [2].

وأوضـــحها: أن يكون العلم الحتمي بها مختصـــاً به تعالى وكل ما أخبر الله به من ذلك كان محتملاً للبداء والغرض من تخصـــيص هذه الموارد بالذكر مع أنّ الجميع كذلك لأجل الحث على جهل البشر بما يهمّه، والله سبحانه هو العالم بحقائق كتابه.

وإليك نص عبارته :

الأوّل: أن يكون المراد أنّ تلك الأُمور لا يعلمها على التعيين والخصوص إلّا الله تعالى فإنّهم إذا اخبروا بموت شخص في اليوم الفلاني فيمكن أن لا يعلموا خصوص

---

(1) قد أسلفنا لفظ الحديث فراجع صفحة 458 من كتابنا.

(2) بحار الأنوار: ج 26 ص 103 ـ 104.

الدقيقة التي تفارق الروح الجسد فيها مثلاً، ويحتمل أن يكون ملك الموت أيضاً لا يعلم ذلك.

الثاني: انّ العلم الحتمي بها مختصاً به تعالى، وكل ما اخبر الله به من ذلك كان محتملاً للبداء.

الثالث: أن يكون المراد عدم علم غيره تعالى بها إلّا من قبله فيكون كسائر الغيوب ويكون التخصيص بها لظهور الأمر فيها أو لغيره.

الرابع: ما أومأنا إليه سابقاً وهو أنّ الله تعالى لم يطلع على تلك الأُمور كلية أحداً من الخلق على وجه لا بداء فيه، بل يرسل علمها على وجه الحتم في زمان قريب من حصولها كليلة القدر أو أقرب من ذلك، وهذا وجه قريب تدل عليه الأخبار الكثيرة إذ لابد من علم ملك الموت بخصوص الوقت كما ورد في الأخبار، وكذا ملائكة السحاب والمطر بوقت نزول المطر، وكذا المدبرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث.

الفصل الثامن

سيرة النبي الأعظم

وصفاته وأسماؤه

في القرآن الكريم

بالرغم من أنّ جوانب حياة النبي ﷺ واسعة المدى، فسيحة الأرجاء، متعددة الجهات، مختلفة النواحي، فقد عني المسلمون منذ فجر الإسلام وانبثاق الدعوى الالهية في ربوع العالم، بضبط ما يرجع إلى حياته ﷺ ممّا دق وجل من قول ولفظ، وفعل وعمل، وما في تاريخه من نوادر وطرائف ونقاط، فما صدر منه كلام إلّا نقلوه، أو فعل إلّا ضبطوه، أو سنّة إلّا سجلوها، وقد بلغوا الغاية في ذلك حتى دوّنوا حياة أصحابه وتابعيه وما ينسب إليه وإليهم بأدنى مناسبة. فترى في غضون المعاجم والسير كثيراً ممّا يرجع إليه ﷺ من الأُمور التي قلّما تخطر على بال بشر أن يصفها أو يسجلها كتوصيف نعله، وسواكه، ومشطه، ومكحلته، ومرآته، وقدحه، وسيوفه، ودروعه، وتروسه، ورماحه، وسوطه، ورايته، ومغفره، وأعلام خيوله، وابله، وبغلته، وحماره، ومنايحه من الغنم، ومواليه وحجر أزواجه، وفسطاطه، وقصعته، وقعبه، وعمامته، وخاتمه، وأصناف لباسه، وطولها، وعرضها، وشعره، وشيبه، وكيفية خضابه، ونومه، ومأكله والطعام الذي يعجبه ،

حتى سجلوا الأبار التي شرب منها، والخمرة التي كان يصلّي عليها، إلى غير ذلك من نوادر الأُمور التي لا يهتم بذكرها وضبطها بالنسبة إلى البشر العاديين.

كل ذلك دليل على شـــدة ما كان يتمتع به النبي من ود وحب عريق، إلى حد قيض همة ثلة جليلة من فطاحل المسلمين وأكابرهم لضبط وتسجيل كل ما يرجع إليه كبيراً أو صغيراً شرعياً أو عرفياً [1].

فألّفوا في كل ناحية من نواحي حياته كتباً زاخرة ورسـائل طافحة أو عقدوا لها فصـولاً في كتب السـير والتاريخ، ولقد زخرت المكتبة الإسـلامية بأثار هذا النشـاط بل زخرت مكتبات أُخرى في لغات وأُمم أُخرى بكتب ورسـائل في هذا المضـمار إلى حد يقف العقل أمامها حائراً مشـدوهاً يخالجه مزيج من الاعجاب والمهابة.

والعجب أنّ الركب بعد سـائر لم يقف، ولم يفتر، وهذه الكتب مع كثرتها لم تشـبع نهمتهم، وما قضـت وطرهم في تحليل حياة النبي، حتى انّنا نرى الأكابر من العلماء في كل عصـر وجيل إلى عصـرنا هذا، يكتبون كتباً زاخرة في حياة النبي ويؤلّفون رسـائل طافحة بالتحقيق والتحليل، حتى يغنوا بذلك الناشئ الجديد عن أساطين التاريخ وأفانين الرواية ورسائل المستشرقين ويقدمون له ما يسد جوعته ويجعل المسلم الحر يرتشف من المنهل العذب.

وعلى ضـوء هذه الكتب والجهود الجبارة التي تحمّلها لفيف من علماء المسـلمين بل فئة كبيرة منهم، لم يتركوا في حياة النبي مبهمة إلّا كشفوا أستارها ورفعوا النقاب عن وجهها، أو جانباً مجهولاً إلّا حدّدوه وعيّنوه بأدق وجه وأنصع بيان.

عناية القرآن ببيان صفات النبي ﷺ :

ولم تكن عناية القرآن ببيان نواح من حياة النبي الجليلة وشؤونه الدقيقة بأقل من

---

(1) راجع الطبقات الكبرى: ج 1 ص 360 وتاريخ الطبري ج 1 ص 417 ـ 428 وبحار الأنوار: ج 16 ص 82 . 229 وغير ذلك من المجاميع التاريخية والحديثية.

عناية المسلمين ضبطاً وتسجيلاً، فإنّ القارئ يجد في مختلف السور والآيات، صوراً واضحة رائعة من صفات النبي وفضائل أخلاقه وكرائم نعوته إلى حد يقف الانسان على روحياته ونفسياته ومختلف أقواله وأفعاله، ويقدر مع التدبر التام فيما نزل في حقه من الآيات على الاحاطة بمراحل حياته منذ بعث بل منذ نعومة أظفاره إلى أن فارقها إلى الرفيق الأعلى، ولعلنا نرجع إلى ذلك في مستقبل الأيام [1].

فالرجوع إلى نفس القرآن واستخراج سيرة النبي وصفاته ونفسياته وأفعاله من خلال آياته الكريمة، أوثق وأسد الطرق لدراسة شخصية النبي الأعظم، فالتدبر في هذا القسم من الآيات، يعطي لنا صورة واضحة عن حياة النبي وشخصيته الفذة، وعبقريته النادرة، وما أودعه الله فيها من مواهب وقوى خلقية ونفسية وعقلية، بلغت الذروة والروعة والعظمة، ويغنينا عن المبالغات التي يعمد إليها بعض فرق المسلمين من غير سند وثيق.

إنّ تلكم الآيات تصلح أن تكون رداً حاسماً وقوياً على الموقف المنكر الذي يقفه المغرضون من المبشرين والمستشرقين من أخلاق النبي وفضائله، إذ يتجاهلون أو يغفلون عن ما في القرآن من نصوص، ويتمسكون دونها بالروايات التي ربّما تكون مخترعة أو مدسوسة ومزوّرة، فينسبون إلى ساحة النبي الأكرم ما هو بري منه، في حين أنّ في القرآن من الآيات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه من الرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتحلّي بالمثل العليا واعطاءه القدوة الحسنى لذلك كله.

فقد أشار سبحانه إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه، وأنّه لا يصلح دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً بقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

---

(1) وقد وقفنا بعد ما كتبنا هذا الفصل على ما ألفه « محمد عزة دروزة » في هذا المضمار وأسماه « سيرة الرسول » وهي صورة مقتبسة من القرآن الكريم وذكر في مقدمة الكتاب، الحوافز التي دفعته إلى تأليف كتابه وقد طبع في مطبعة الاستقامة بالقاهرة في جزءين وقد راجعنا هذا الكتاب بعض المراجعة عند تقديم هذا الفصل إلى الطبع.

النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: 2) وبقوله سبحانه: ﴿ لاَّ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور ـــ 63)، وإلى حرمة التسرّع في ابداء الرأي والبدء في العمل بقوله عزّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات ـــ 1).

وإلى تأثّره وغمّه وهمّه وحزنه من عدم استجابة قومه لدعوته واهتدائهم بهداه بقوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف ـــ 6)، وبقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ إِلّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء ـــ 3)، وإلى تحمسه وثباته في المعارك الطاحنة وما فيه من شجاعة وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح، وإلى موقفه أمام العدو حين ما دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وتفرّق كثير من أعيانهم وأبطالهم، ووقف النبي وثبت في ميدان المعركة، ومعه من لا يتجاوز عدد الأصابع بقوله سبحانه: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران . 153).

فكان النبي قطب الرحى في هذا الموقف العصيب إذ ثبت ثبات الجبال، رابط الجأش، مطمئن النفس، فصار اسوة حسنة للمؤمنين.

وإلى أنّه بلغ من الكمال إلى حد، صار إماماً وقدوة للمؤمنين يتأسون به في قيمه الروحيه ومثله العليا بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب . 21).

وإلى أنّه قد رزق الكوثر والخير الكثير من كل جوانب الحياة ومظاهرها فرزقه الله من بنت واحدة، ما ملأ الخافقين بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر ـــ 1) وغيرها من الخيرات التي لا تعد ولا تحصى فلمّا رماه خصمه بأنّه الابتر، فرمى شانئه بأنّه أولى بذلك لا نبي العظمة.

وقد بلغ من العظمة موقفاً إلى أنّ الله وملائكته يصـــلّون عليه، فأمر الله ســـبحانه المؤمنين أن يصـلّوا عليه ويسـلّموا تسـليماً وقال سـبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَـلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب ـ 56).

روى الشـافعي عن أبي هريرة أنّه قال لرسـول الله كيف نصـلّي عليك ؟ قال: « تقولون: اللّهمّ صـلّ على محمد وآل محمد كما صـلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ثمّ تسلمون عليّ » [1].

قال ابن حجر صح عن كعب بن عجرة قال: لـــمّا نزلت هذه الآية قلنا: يا رسـول الله قد عرفنا كيف نسلّم عليك فكيف نصلّي عليك ؟ قال: قولوا اللّهم صلّ على محمد وآل محمد ــ إلى أن قال ـــ وروي عنه ﷺ أنّه قال: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء ؟ قال: تقولون: اللّهمّ صلّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد ﷺ [2].

وقد نسب الزرقاني هذين البيتين إلى الإمام الشافعي :

يا آل بـيـت رسـول الله حـبّـكـم فـرض مـن الله في الـقـرآن أنـزلـه
كـفـاكـم مـن عـظـيـم الـقـدر أنّـكـم من لم يصـلّ عليكم لا صـلاة لـه [3]

وإلى أنّه وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس ورجاحة العقل بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ـ 4).

غير أنّ من المحتمل أن يكون « الخلق » بمعنى الدين، أي أنّك على دين عظيم كما عليه قوله سبحانه: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء ــ 137) فالمقصود اكبار الدين الذي بعث النبي لبيانه وابلاغه، ويؤيده قوله سبحانه بعده: ﴿ فَسَتُبْصِرُ

---

(1) مسند الشافعي: ج 2 ص 97.
(2) الصواعق: ص 144.
(3) شرح المواهب: ص 7.

وَيُبْصِـــرُونَ * بِأَييِّكُمُ المَفْتُونُ ﴾ أي فســـترى يا محمد ويرون الذين رموك بالجنون ﴿ بِأَييِّكُمُ المَفْتُونُ ﴾ أي أيكم المجنون الذي فتن بالجنون أأنت أم هم، وحيث إنّك على دين عظيم يؤيدك الله وينصرك عليهم [1].

وإلى دماثة خلقه وحسن معاشرته ورأفته وعطفه على أعدائه، وتنزهه عن فظاظة الخلق، وغلظة القلب بقول ســـبحانه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّـــوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران ـ 159).

وإلى ما رزق من قلب نقي وسريرة طيّبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم بقوله: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ (التوبة ـ 61).

وإلى حيائه وصبره على ما يؤذي نفسه من أصحابه وتجنّبه من كسر قلوبهم وجرح عواطفهم بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ﴾ (الأحزاب ـ 53).

وإلى ما فطر من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه وشعوره بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق، وما يلقي من جهد وعنت في سبيل ازالة آلامهم وتخفيف ما يشق عليهم، واشتياقه إلى ارشاد الناس وهدايتهم واشفاقه ورأفته بالمؤمنين وعطفه عليهم بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة ـ 128).

وإلى غزارة علمه بقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء ـ 113).

وإلى طهارة روحه وأهل بيته من الرجس ودرن الشرك والمعاصي بقوله سبحانه :

---

(1) راجع مجمع البيان: ج 5 ص 233.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب ـ 33).

وإلى عكوفه على عبادة ربّه وتهجّده في الليل وسهره في طريق طاعة الله بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْـــفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ (المزمل ـ 20).

وإلى أنّه رســـول الله إلى الناس كافة وخاتم النبيين وأنّ الله ســـبحانه حافظ لدينه وكتابه إلى يوم القيامة بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ ــ 28)، وبقوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب ـــ 40)، وبقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر ـ 9).

وإلى أنّه مصدق لما بين يديه من الكتب بقوله: ﴿ولـــمّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (البقرة ـ 101).

وإلى صبره في طريق هداية الأُمّة بقوله: ﴿ وَاصْـبِرْ وَمَا صَـبْرُكَ إِلّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل ـ 127).

وإلى أجره عند الله سبحانه بقوله :﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ (القلم ـ 3).

وإلى قربه منه ســـبحانه، وتأثير اســـتغفاره في حق الأُمّة، وأنّهم لو طلبوا منه أن يســـتغفر لهم، لوجدوا الله تواباً وغافراً لذنوبهم بقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء ـ 64).

إلى أن عاد القرآن فأشار إلى عظمة قدره وجلالة شأنه بتوصيفه بأنّه: رسول نبي أُمّي، مكتوب اسمه في التوراة والانجيل، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم الاصر، ويرفع عنهم الاغلال حيث قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الخَبَائِثَ وَيَضَـــعُ عَنْهُمْ إِصْـــرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف . 157).

كما وصفه بأنّه ﷺ ، شاهد، مبشر، نذير، داع إلى الله، سراج منير، ورحمة للعالمين، وأنّه أحد الأمانين في الأرض، وأنّه سبحانه لا يعذّب الناس وهو فيهم تجد كل هاتيك الصفات والثناء في الآيات التالية :

﴿ إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِـرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45 . 46).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء . 107).

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال . 33).

وفي الوقت نفسه لا يقتصر القرآن على بيان روحياته ونفسياته فقط بل يطري النبي ويصفه كوصف محب متجلد فيوجه نظره السامي إلى تسمية أعضائه الظاهرة المهمة.

فيصف بصره بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (النجم . 17).

ووجهه بقوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّـمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَـاهَا ﴾ (البقرة . 144).

وقلبه بقوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (البقرة . 97).

وفؤاده بقوله: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (النجم . 11).

وصدره بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (الانشراح: 1 . 3).

وصوته بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات ـ 2).

إلى أن يعود القرآن فيحلف بعمره ويقول: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر ـ 72).

ويصف سيره وعروجه في الليل إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السموات العلى بقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (الإسراء ـ 1) [1].

ويبين نهاية سيره وأنّه قد بلغ إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم: 13 ـ 18).

ويصف أوليات حياته وأنّه لم يزل محروساً بعين الله سبحانه ومشمولاً لعنايته، قال سبحانه: ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: 1 ـ 11).

كما يصف شرح صدره لتحمل عبء النبوّة، ورفع الوزر الذي انقض صدره فقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (الشرح: 1 ـ 8).

ويشير إلى نزول الوحي عليه وأنّ معلّمه شديد القوى إذ قال سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴾ (النجم: 1 ـ 7)

---

(1) راجع في قصة المعراج إلى سورة النجم الآية السادسة إلى الثامنة عشر.

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران ـ 44).

وإلى براءته من كل ما يلصق به من تهمة، فقال سبحانه: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ (التكوير: 15 ـ 25).

وإلى لزوم الاستجابة لدعوته وإنّ فيها حياتهم، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال ـ 24) وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران ـ 31).

أسماؤه في القرآن :

إنّ القرآن يتفنّن في توصيف النبي وذكره بل في تسميته والايماء إليه، فتارة يشير إليه بإحدى الصفات العامة الشاملة لكل انسان كما في قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (النجم ـ 10) غير أنّ في إضافة العبد إلى نفسه الماعاً إلى تكريمه وتقربّه منه سبحانه: وأُخرى يخاطبه بالألقاب الخاصة بأنبيائه ورسله ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ (الأنفال ـ 65)، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة ـ 67) [1].

وثالثة يخصّه باسميه اللذين كان يدعى بهما في الإسلام أعني محمداً وأحمد، أمّا الأوّل فقد جاء في مواضع أربعة من القرآن :

1. ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ

---

(1) نعم جاء في بعض الوثائق التاريخية والمجاميع الحديثية أنّ أسماءه ﷺ يس، طه، ن، غير أنّه لم يحقق ذلك إذ من المحتمل جداً أن تكون من الحروف المقطعة كما عليه أعلام التفسير.

النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب . 40).

2. ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران . 144).

3. ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ (محمد . 2).

4. ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح . 29).

وأما الثاني فقد جاء في موضع واحد حيث يقول سبحانه: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف . 6).

وليس الرسول ﷺ بدعاً من بين الرسل في كونه ذا اسمين فقد سبقه في ذلك ثلّة من الأنبياء كيوشع بن نون وهو ذو الكفل في القرآن ويعقوب بن إسحاق وهو إسرائيل ويونس وهو ذو النون وعيسى وهو المسيح [1] وعلى ذلك فلا إشكال في أن يكون للرسول الأعظم إسمان: محمد وأحمد، ويظهر من الروايات المتظافرة أنّ اسمه في السماء أحمد، فقد جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ ومما سأله أنّه لم سمّيت محمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً ؟ فقال النبي: « أمّا محمد فإنّي محمود في الأرض، وأمّا أحمد فإنّي محمود في السماء » [2] .

ولعلّ المراد من السماء عالم الوحي ويطابق مضمونه ما تعطيه آية الصف من تبشير المسيح بمجي نبي اسمه أحمد. وروى أهل السير والتاريخ عن الباقر عليه السلام : انّ « آمنة » أُم النبي أُمرت في المنام وهي حامل برسول الله أن تسميه أحمد وسماه جده محمداً بالهام من الله تفاؤلاً بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها، وإلى ذلك يشير أبو طالب بقوله :

وشقّ له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(1) سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام عن ستة من الأنبياء لهم أسمان فأجاب بما ذكرناه وأضاف الخضر وهو حلقيا ومحمد ﷺ وهو أحمد صلوات الله عليهم. عيون أخبار الرضا: ص 136، بحار الأنوار: ج 16 ص 90.

(2) أمالي الصدوق: ص 112، علل الشرائع: ص 53، معاني الأخبار: ص 19، بحار الأنوار: ج 16ص 94.

وفي الخصائص الصغرى: « أحمد » ولم يسم به أحد قبله [1] فإنّ العرب كانوا مأنوسين بلفظ « محمد » لأنّه سمّي به في زمن النبي وقد عد بعضهم من سمّي بمحمد ستة عشر ونظمهم بقوله :

انّ الذين سمّوا باسم محمد من قبل خير الخلق ضعف ثمان

وأمّا أحمد فلم يسم به أحد قبله بل منع الله بحكمته أن يتسمّى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي خلال حياته الشريفة حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب، وأوّل من سمّي بأحمد في الإسلام ولد جعفر بن أبي طالب [2]. وكذلك محمداً أيضاً لم يسم به أحد قبل وجوده ﷺ وميلاده ولم يتحقق ذلك إلّا بعد أن شاع أنّ نبياً يبعث في الحجاز اسمه محمد وقد قرب زمنه فسمّى بعضهم حينئذ أبناءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء من أن يدعي أحد النبوّة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه شيء من سماتها إلى أن تحققت دعوة النبي [3].

لا ريب أنّ أحمداً أحد أسمائه المعروفة ولا يتردد في تسميته بهذا الأسم من له أدنى تتبع في سيرته وتاريخ حياته، وما قيل في حقه من المدائح في الإسلام وقبله يوضح أنّه كان يدعى بهذا الإسم منذ نعومة أظفاره.

وهذا أبو طالب شيخ الأباطح حامي النبي وكفيله يذكره في أشعاره بهذا الاسم ويسمّيه به ومثله حسان به ثابت شاعر الرسول في عهد الرسالة، ومادحه وغيرهما من الشعراء المخضرمين، تراهم أصفقوا على تسميته بأحمد من دون تردد ولا ريب، كل ذلك يدل على أنّ البيت الذي ولد ونشأ فيه النبي ﷺ قد أسماه بهذا، والبيئة التي شب وترعرع فيها، كان تعرفه به.

---

(1) السيرة الحلبية: ج 1 ص 93.

(2) كتب إلينا المحقّق التستري في ملاحظاته على الكتاب أنّه لم يجد بأحمد بل كانوا مسمين بـ « عون » و « عبد الله » و « محمد ».

(3) المصدر نفسه: ص 95 ـ 97 بتلخيص منّا.

شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة :

إنّ الغرب بعد أن تمَّ غزوه لبلاد الشـــرق واحتلّها بالحديد والنار، طفق يغزو الأفكار ويبث الشبهات وقد بعث رجال التبشير إلى هذه البلاد لتحريف أفكار شباب الإسلام منه ثمّ توجيههم إلى المسيحية أوّلاً واللادينية ثانياً، حتى يسهل اصطيادهم وسحق حقوقهم ونهب منابعهم وأموالهم، ومن الشبهات التافهة التي نشرها بعض رجال الكنيسة في بلادنا قولهم :

إنّ المسيح بشّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد غير أنّه لا ينطبق على نبي الإسلام فإن إسمه « محمد » بنص القرآن الكريم واتفاق المسلمين وغيرهم، والذي بشّر به المسيح إنّما هو أحمد، وحينئذ فإنّ ما بشّـــر به هو غير ذاك، ونحن نتربص بفارغ الصـــبر مجيء نبي آخر اسمه أحمد، يكون خاتم الأنبياء والمرسلين.

وتلك شـــبهة لا تحتاج إلى الجواب، ولا غرو من مبدعها فإنّ من يعمد إلى تغيير الشـــرائع بالتحريف، لا يتعفف عن تحويل الأسماء عن مســـمياتها إلى غيرها مما يرشـــده إليه هواه، إذ من الضروري أنّ أحمد أحد أسماء نبيّنا ﷺ وكانت الحجاز والحرم والبيت ومن يعيش فيها، تعرفه بهذا الاسم كما كانت تعرفه باسمه الآخر.

أضف إلى ذلك أنّه لما نزل قوله سبحانه: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ لم يعترض على النبي أحد من المسيحيين ولا من غيرهم، بل لم ينبس أحد ببنت شفة، بأنّ من بشّر بمجيئه المسيح إنّما هو أحمد، وأي صلة بينك وبين هذه البشارة، بل سكتوا عنه وتلقّوه أمراً مسلماً وهذا دليل على أنّه ﷺ كان معروفاً بهذا الاسم يوم ذاك بل منذ ولادته ونعومة أظفاره [1].

ودونك نماذج مما وقفت عليه من شعر عمّه وغيره ممن ذكروا النبي في أشعارهم

---

(1) والأوهن من تلك الشـــبهة ما حســـبه بعض المغفلين من أنّ الآية اخبار عن نبوّة غلام أحمد القادياني ذلك المتنبئ المشعوذ الذي خدم الاستعمار البريطاني عند احتلال الهند.

بهذا الاسم وسمّوه به، ونكتفي من الكثير بالقليل، حذراً من الاطالة :

قال أبو طالب رحمة الله عليه :

ألا إنّ خير الناس نفساً ووالداً ... إذا عدّ سادات البرية أحمد [1]

وقال :

إن يكن ما أتى به أحمد اليوم ... سناء وكان في الحشر ديناً [2]

وقال:

وقوله [3] لأحمد أنت امرء ... خلوف الحديث [4] ضعيف النسب

وإن كان [5] أحمد قد جاءهم ... بحق ولم يأتهم بالكذب [6]

وقال :

تنالون أحمد أو تصطلوا ... ظباة الرماح وحد القضيب [7]

وقال :

أرادوا قتل أحمد ظالموه ... وليس بقتلهم فيهم زعيم [8]

وقال :

فلسنا وبيت الله نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب [9]

---

(1) ديون أبي طالب: ص 13.

(2) المصدر نفسه: ص 19.

(3) وفي مجمع البيان: وقالوا.

(4) وفي المجمع: اللسان.

(5) وفي المجمع: « إلّا أن ».

(6) مجمع البيان: ج 2 ص 287 ط صيدا.

(7) المصدر نفسه: ص 26.

(8) المصدر السابق: ص 29.

(9) المصدر نفسه: ص 20 وتجد بعض تلكم العسجدية مبثوثة في طيات الكتب والمعاجم ونرى المقام غنياً عن الاشارة لمصادرها غير إنّا أخذناها من ديوانه المطبوع بالنجف الأشرف في المطبعة الحيدرية وجامع ديوانه هو عبد الله بن مهزم البصري كما صرح به النجاشي في فهرسته ص 151 وذكر طريق روايته إليه، وذكره شيخنا في الذريعة: ج 14 ص 195.

وقال :

لـقـد أكـرم الله الـنـبي محـمـداً فـأكـرم خـلـق الله في الـنـاس أحمـد

وشـقّ لـه مـن اسمـه لـيـجـلـه فـذو الـعـرش محـمـود وهـذا محـمـد [1]

قال الديار بكري: أنشأ أبو طالب في مدح النبي أبياتاً منها هذا البيت.

وشقّ له من اسمه ليجله ...

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا فقال :

ألم تـر أنّ الله أرسـل عـبـده بآياتـه والله أعـلـى وأمجـد

وشقّ له من اسمه ليجله ...

قال ابن هشام: ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من أنّه غير مسلّم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه. ومن تلك القصيدة قوله :

لـعـمـري لـقـد كـلـفـت وجـداً بأحمـد واحـبـبـتـه حـب الحـبـيـب المـواصـل

فـلا زال في الـدنـيـا جمـالاً لأهـلـهـا وزيـنـاً لمـن والاه رب المشـاكـل

فـأصـبـح فـيـنـا أحمـد في أرومـة تـقـصـر عـنـه سـورة المـتـطـاول [2]

روى ابن الأثير: أنّ أبا طالب رأى النبي وعلي يصلّيان، وعلي على يمينه فقال لجعفر ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ: صل جناح ابن عمك وصلّ على يساره، وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه علي بقليل، وقال أبو طالب :

فصـبراً أبا يـعـلـي عـلـى ديـن أحمـد وكـن مـظـهـراً لـلـديـن وفـقـت صـابـراً

---

(1) تاريخ ابن كثير: ج 1 ص 266، الإصابة: ج 4 ص 115، تاريخ الخميس: ج 1 ص 254.

(2) سيرة ابن هشام: ج 1 ص 272 وشرح النهج: ج 14 ص 79.

وباد قـــريشـــــاً بالـــذي أتـــيـــتـــه جهـاراً وقـل مـا كـان أحمـد ســـــاحراً [1]

روى شيخنا أبو الفتوح الرازي في تفسيره :

زعـــمـــت قـــريـــش أنّ أحمـــد ســـــاحـــر كـــذبـوا ورب الـراقصـــــات الى الحـرم [2]

إلى غير ذلك مما نقل وأثر منه سـلام الله عليه، ولو اسـقصـينا ما نقل عنه من الشـعر في هذا الباب لخرجنا عن المقصود، وقد نقل السيد الفخار عنه هذين البيتين في ضمن أبيات :

وانصـــــر أحمـــداً فـــإنّ مـــن الله رداء عـــلـــيـــه غـــير مـــدال

فـــخـــير بـــني هـــاشـــــم أحمـــد رســـــول الالـــه عـــلـــى فـــترة [3]

وقال :

يا شـــــاهـــد الله عـــلـــي فـــاشـــــهـــد انّي عـــلـــى ديـــن الـــنـــبي أحمـــد [4]

وقد أثر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قد أمره والده أبو طالب بالصـــبر في الدفاع عن النبي بقوله :

أصـــــبرن يا بـــني فـــالصـــــبر أحـــجـــى كـــل حـــي بصـــــبره مشـــــعـــوب

فأجاب علي عليه السلام بقوله :

أتأمـــرني بالصـــــبر في ديـــن أحمـــد ووالله مـــا قلـــت الـــذي قلـــت جـــازعـــاً

---

(1) أسـد الغابة: ج 1 ص 287، كما في الغدير: ج 7 ص 358، بحار الأنوار: ج 18 ص 221، مجمع البيان: ج 2 ص 287، وفي الأخير: يحض أبو طالب أخاه حمزة على اتباع النبي صلى الله عليه وآله .

(2) تفســـير أبي الفتوح: ج 4 ص 212 ونقله أبو علي شمس الدين الســـيد فخار بن محمد الموســـوي المتوفّى 630 صاحب كتاب الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب ص 72.

(3) كتاب الحجة: ص 74.

(4) شرح النهج: ج 14ص 78، وقال وقد يروى لعلي في ديوانه، ولكنّه موجود في ديوان أبي طالب ص 75 ولم نذكر في عداد ما نقلناه عن ديوانه لمكان هذا الترديد.

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً [1]

وأمّا ما نقل عن غير أبي طالب متضمناً تسمية النبي بأحمد، فكثير جداً تصعب الاحاطة به ويطول الكلام بنقل ما وقفنا عليه في مجاميع التاريخ والأدب ولنكتفي بما يلي :

قال حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في رثاه :

مفجعة قد شفها فقد أحمد فظلّت لآلاه الرسول تعدد

أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد [2]

وقال أيضاً في رثاه صلى الله عليه وآله :

صلّى الاله ومن يحيق بعرشه والطيّبون على المبارك أحمد [3]

وقال :

فمن كان أو يكون كأحمد نظام الحق أو نكال لملحد

وقال في رثاه جعفر الطيار :

بها ليل منهم وابن أُمّه علي ومنهم أحمد المتخير

وقال يرثي زيد بن حارثة :

ذاكم أحمد الذي لا سواه ذاك حزني معا له وسروي [4]

وقال حسان :

---

(1) شرح النهج الحديدي: ج 14 ص 64.

(2) نقلها ابن هشام في سيرته: ج 2 ص 667 و 669، ونقل الثاني منهما ابن سعد في طبقاته: ج 2 ص 323.

(3) نقلها ابن هشام في سيرته: ج 2 ص 667 و 669، ونقل الثاني منهما ابن سعد في طبقاته: ج 2 ص 323.

(4) أخذنا ما نقلناه إلى هنا من شاعر عهد الرسالة من مواضع مختلفة من ديوانه راجع: ص 59، 63، 65، 102، 109 ط بيروت، تحقيق محمد عزت نصر الله، مضافاً إلى المصادر الأُخرى التي أوعزنا إليها.

فـمـن كـف أحمـد قـد فـجـرت عـيـون مـن المـاء يـوم الـظـمـأ [1]

وقال :

فـفـي كـف أحمـد قـد سـبّـحـت بـتـقـديـس ربي صـغـار الحصـى [2]

وقال كعب بن مالك :

فـهـذا نـبي الله أحمـد سـبّـحـت صـغـار الحصـى في كفّـه بالـترنم [3]

وقد نقل عن ورقة بن نوفل أنّه بعد ما اطلع على أمر النبي ﷺ وأنّه ينزل عليه الناموس الأكبر الذي كان ينزل على موسى وعيسى أنشأ يقول :

فـإن يـك حق يا خـديجـة فـاعـلـمي حـديـثـك أيانا فـأحمـد مـرسـل [4]

وقال :

بأنّ أحمـد يأتـيـه فـيـخـبره جبريـل أنّـك مبعوث إلى البشـر [5]

وقال :

وانّ ابـن عـبـد الله أحمـد مـرسـل إلى كـل من ضـمّـت عليـه الأباطح [6]

وقال أحد بني عامر رداً على حسان في افتخاره بالأنصار :

بسـيف ابن عبـد الله أحمـد في الوغى بكـف عـلـي نـلـتم ذاك فـاقصـروا [7]

وقال حمزة حين أسلم، أبياتاً منها :

إذا تـلـيـت رسـائـلـه عـلـيـنـا تهـدر دمـع ذي الـلـهـب الحصـيـف

رسـائـل جـاء أحمـد مـن هـداهـا بآيات مـبـيّـنـة الحـروف [8]

(1 و 2 و 3) بحار الأنوار: ج 16 ص 413 و 414 و 415.

(4 و 5 و 6) بحار الأنوار: ج 18 ص 195 و 196 وراجع بلوغ الارب: ج 2 ص 274 و 275.

(7) بحار الأنوار: ج 20 ص 259.

(8) سيرة ابن هشام: ج 1 ص 293.

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب ترثي النبي صلى الله عليه وآله :

يا عين جودي ما بقيت بعبرة سحاً على خير البرية أحمد [1]

ونقل المجلسي عن الخرائج: انّ تبع بن حسان سار إلى يثرب وقتل من اليهود ثلاثمائة وخمسين رجلاً بالصبر وأراد خرابها، فقام إليه رجل من اليهود وقال: إنّك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية، قال: ولِمَ ؟ قال: لأنّه يخرج منها من ولد اسماعيل نبي يظهر من هذه البنية، يعني البيت الحرام، فكف « تبع » ومضى يريد مكة ومعه اليهود وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل :

شهدت على أحمد أنّه رسول من الله باري النسم [2]

وقالت صفية في تزويجه صلى الله عليه وآله :

ثمّ السعود لأحمد والسعد عنه ما برح

بخديجة بنت الكمال وبحر أناملها طفح [3]

واجتمع سادة قريش وأكابرها في اليوم الثالث كعادتهم، ونهض العباس وهو يقول :

شاع في الناس فضلكم وعلا في المراتب

قد فخرتم بأحمد زين كل الاطائب

أحمد سيد الورى خير ماش وراكب [4]

وقال بعض المسلمين عند اجلاء بني النضير وربّما ينسب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام :

---

(1) الطبقات الكبرى: ج 2 ص 326.

(2) بحار الأنوار: ج 15 ص 214.

(3) بحار الأنوار: ج 16 ص 75.

(4) بحار الأنوار: ج 16 ص 72.

رســـــائــل تــدرس في المــؤمــنــين بهـن اصـــطـفـى أحمـد المصـــطـفـى

إلى أن قال :

وقـــلـــن لأحمـــد ذرنا قـــلـــيـــلا فـإنّا مـن الـنـوح لم نشـــتـــف [1]

خاتمة المطاف :

ولنختم البحث بذكر ما ورد حول أسمائه فانّ صـــريح الأحاديث أنّ أسماءه في القرآن أكثر من هذين، فقد روى الصـدوق في خصـاله [2] أنّ لرسـول الله عشـرة أسماء: خمسـة منها في القرآن، وخمسـة ليسـت في القرآن، فأمّا التي في القرآن: محمد، أحمد، عبد الله، يس، ن، وأمّا التي ليسـت في القرآن: فالفاتح، الخاتم، الكاف، المقفي، الحاشر.

روى الشـــيخ الأكبر عن الكلبي [3] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: كم لمحمد اســـم في القرآن ؟ قال: قلت: اسمان أو ثلاثة، فقال: يا كلبي له عشرة أسماء ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾، ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾، ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْـــقَىٰ ﴾، ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾، ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْـــطُرُونَ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ ﴾، ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ ﴾، فالذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر، فسل يا كلبي عمّا بدا لك ؟

ومفهوم الحديثين واضح فانّ المراد من الاسم فيها أعم من الصريح والمؤوّل ومن العلم والوصف فانّ بعض ما عد اسماً له صلى الله عليه وآله لا يعدو عن كونه وصـــفاً له كالمدثر والمزمل كما أنّ عد الحروف المقطعة علماً له إنّما هو بالتأويل المخصوص علمه لهم عليهم السلام ، فلاحظ.

---

(1) سيرة ابن هشام: ج 2 ص 197.

(2) الخصال: ج 2 ص 48.

(3) بصائر الدرجات: ص 159.

وقال الشيخ الطوسي في التبيان: روي عن علي عليه السلام: سمّى الله تعالى النبي في القرآن بسبعة أسماء [1].

هذه سيرة النبي الأكرم وهذه صفاته ونعوته وأسماؤه، وما قدمناه خطوة رائدة للتعرف على نفسياته وسيرته من أُفق القرآن المبين، أو نواة طيبة يمكن البناء عليها، وهو باجماله يمثل شخصيته اللامعة، ومكانته المرموقة، التي قرن الله طاعته بطاعته وقال سبحانه: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ (النساء ـــ 80) ومحبّته بمحبّته وقال سبحانه: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ (آل عمران . 31).

وبيعته ببيعته وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ (الفتح ـــــ 10) إلى غير ذلك.

وما أردت أن ألمح إلى جميع ما ورد في حقه صلى الله عليه وآله في القرآن المجيد فإنّ استخراجه عمل ضخم لا تسعه طاقة انسان واحد.

وإنّما الذي استهدفت هو أن أشير إلى نماذج حتى يكون فتحاً للباب واستنهاضاً للهمم وتقديماً للاسوة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾.

وآخر دعوانا

أن الحمد لله ربّ العالمين

---

(1) التبيان: ج 2 ص 475.

فهرس مصادر الكتاب

1. القرآن الكريم

حرف الألف

2. إبانة المختار: شيخ الشريعة الأصفهاني (1266 ـ 1339 هـ) دار القرآن، قم.

3. إثبات الهداة: الحرّ العاملي: محمد بن الحسن (م 1104 هـ) المطبعة العلمية، قم.

4. الإحتجاج: أبو منصور: أحمد بن علي الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ 1403 هـ.

5. إحقاق الحق: الشهيد السيد نور الله الحسيني التستري (1091 هـ) المكتبة الإسلامية، طهران.

6. الاختصاص: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (336 ـــ 413 هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة.

7. الإرشاد: له أيضاً 1 قم المقدّسة ـ 1402 هـ.

8. إرشاد القلوب: الديلمي: أبو محمد: الحسن بن محمّد (من أعلام القرن الثامن الهجري) منشورات الرضي، قم المشرفة.

9. الاستيعاب: أبو عمر: يوسف بن عبد الله بن عبد البر (م 456 هـ)، دار نهضة مصر ،

القاهرة.
10. أُســـد الغابة: ابن الأثير: أبو الحســـن: علي بن أبي الكرم (م 630 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
11. الأسس النفسية للنمو: الدكتور فؤاد البهي مدرس علم النفس بجامعة عين شمس.
12. الإشارات: الشيخ الرئيس ابن سينا (م 428 هـ) طبع طهران.
13. إشراقات: عبد الحميد خاوري.
14. الإصابة: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (م 852 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ 1358 هـ.
15. أصل الشيعة وأُصولها: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (1295 ـ 1373 هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ 1355 هـ.
16. أُصـول الفلسـفة: العلّامة السـيد محمد حسـين الطباطبائي (1402 هـ) منشـورات المؤسسة الثقافية، النجف الأشرف ـ 1385 هـ.
17. أعلام الورى: الطبرسي: أمين الإسلام الفضل بن الحسن (471 ـــ 548 هـ) طبع إيران.
18. الإقبال: ابن طاووس: علي بن موسى الحلّي (م 664 هـ) طبع تبريز.
19. إكمال الدين: الشـــيخ الصـــدوق: محمد بن بابويه القمي (م 381 هـ) طهران ـ 1405 هـ.
20. الأمالي: له أيضاً ﷺ المكتبة الإسلامية، طهران.
21. الأمالي: الطوسي: محمّد بن الحسن (385 ـــ 460 هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ 1401 هـ.
22. الأمالي: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م 413 هـ) قم ـ 1404 هـ.
23. أوائل المقالات: له أيضاً ﷺ مكتبة الحقيقة، تبريز ـ 1371 هـ.
24. ايقان: عبد الحميد خاوري.

حرف الباء

25. بحار الأنوار: محمّد باقر المجلسي (م 1110 هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ 1403 هـ.

26. بديع: حسين علي النوري.

27. بصائر الدرجات: الصفار: محمد بن الحسن (م 290 هـ) تحقيق الميرزا محسن كوچه باغي، الطبعة الثانية، إيران ـ 1391 هـ.

28. بلوغ الارب: السيد محمود الآلوسي (م 1270 هـ).

حرف التاء

29. التاج: أبو عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ (م 255 هـ) مطبعة تابان ـ 1349 هـ.

30. التاج الجامع للأُصول: الشيخ منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت ـ 1406 هـ.

31. تاريخ ابن كثير المسمى (البداية والنهاية): ابن كثير الشامي (م 774 هـ) دار الفكر، بيروت ـ 1402 هـ.

32. تاريخ الإسلام السياسي: الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ 1967 م.

33. تاريخ بغداد: أبو بكر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي (م 463 هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

34. تاريخ بيهق: ابن فندق (م 565 هـ) تعليق الأُستاذ بهمنيار، ط. طهران.

35. تاريخ حصر الاجتهاد: آقا بزرگ الطهراني (1293 ـــ 1389 هـ) مدرسة الإمام المهدي ـ عج ـ خونسار، إيران ـ 1401 هـ.

36. تاريخ الخميس: الديار بكري: الشيخ حسين بن محمّد، مؤسسة شعبان، بيروت.

37. تاريخ الطبري المسمّى (تاريخ الأُمم والملوك): أبو جعفر محمّد بن جرير (م 310 هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.

38. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من علماء القرن الثالث الهجري) المكتبة

الحيدرية، النجف الأشرف ـ 1384 هـ.
39. التبيان في اعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (م 616).
40. تجريد الاعتقاد: نصير الدين الطوسي (م 672 هـ).
41. تحفة الزائر: العلّامة محمّد باقر المجلسي (1110 هـ) طبعة حجر، إيران.
42. تذكرة الفقهاء: العلّامة الحلّي (م 726 هـ) المكتبة الرضوية، تبريز، طبعة حجر.
43. تعاليق الأسفار الأربعة: الحكيم السبزواري.
44. تفسير ابو الفتوح المسمّى (روح الجنان): أبو الفتوح الرازي، طهران ـ 1394 هـ.
45. تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر البيضاوي، طبع مصر.
46. تفسير البرهان: السيد هاشم التوبلي البحراني (م 1107 هـ) قم ـ 1375 هـ.
47. تفسير البيان: السيد أبو القاسم الخوئي (1317 ـــ 1413 هـ) مطبعة الآداب، النجف الأشرف.
48. تفسير التبيان: الطوسي: محمّد بن الحسن (385 ـــ 460 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
49. تفسير الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (849 ـــ 911 هـ) دار الفكر، بيروت ـ 1403 هـ.
50. تفسير الرازي: الفخر محمّد بن عمر الخطيب (544 ـــ 606 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
51. تفسير فرات: أبوالقاسم: فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (من أعلام الغيبة الصغرى) طهران ـ 1410 هـ.
52. تفسير الكشاف: الزمخشري: محمود بن عمر (م 538 هـ) مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ـ 1367 هـ.
53. تفسير مجمع البيان: الطبرسي: الفضل بن الحسن (471 ـ 548 هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ 1354 هـ.
54. تفسير المنار: محمد رشيد رضا (م 1354 هـ) دار المنار، مصر ـ 1373 هـ.

55. تفسير الميزان: العلّامة محمّد حسين الطباطبائي (1321 ـــ 1402 هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ 1403 هـ.
56. تفسير النعماني: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم.
57. تنبيه الأُمّة وتنزيه الملّة: الميرزا النائيني.
58. تنقيح المقال: عبد الله المامقاني (1290 ـ 1351 هـ) النجف الأشرف ـ 1350 هـ.
59. تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (م 460 هـ) النجف الأشرف 1378 هـ.
60. تهذيب الوصول إلى علم الأُصول: العلّامة الحلّي (م 726 هـ) طبعة حجر.
61. التيسير في علم التفسير: عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني (612 ـ 694 هـ).

حرف الجيم

62. جامع الأُصول: الترمذي.
63. جامع الرواة: الأردبيلي، محمّد بن علي الغروي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدّسة ـ 1403 هـ.
64. جامع السعادات: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (849 ـ 911 هـ) دار الفكر، بيروت.
65. الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (849 ـ 911 هـ).

حرف الحاء

66. الحجة الذاهب إلى تكفير أبي طالب: أبو علي: شمس الدين فخار بن محمد الموسوي (م 630 هـ).
67. حق اليقين: السيد عبد الله شبر (م 1188 ـــ 1242 هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

68. حلية الأولياء: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الإصـــبهاني (م 430 هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ 1387 هـ.

حرف الخاء

69. الخاتمية: علي أمير پور، منظمة مرجان للمطبوعات، طهران ـ 1385 هـ.

70. الخرائج والجرائح: قطب الدين الرواندي (م 573 هـ) مؤســـسـة الإمام المهدي، قم ـ 1409 هـ.

71. الخصال: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م 381 هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ 1403 هـ.

72. الخطط المقريزية: تقي الدين المقريزي (م 845 هـ) دار صادر، بيروت.

حرف الدال

73. الدرجات الرفيعة: صـــدر الدين الســـيد علي خان المدني الحســـيني (م 1120 هـ) منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ 1381 هـ.

74. الدعوة إلى الإسلام: السير توماس ارنولد.

75. ديوان أبي طالب: الجامع علي بن حمزة البصـــري التميمي المكنّي بأبي نعيم (م 375 هـ).

حرف الذال

76. الذريعة: آقا بزرگ الطهراني (1293 ـ 1389 هـ) دار الأضواء، بيروت ـ 1403 هـ.

حرف الراء

77. الرجال: الكشـــي: أبو عمرو (من علماء القرن الرابع الهجري) مؤســـســـة اللأعلمي، كربلاء، العراق.

حرف الزاي

78. زاد المعاد: العلّامة محمد باقر المجلسي (1110 هـ) طبعة حجر، إيران.

حرف السين

79. السرائر: ابن إدريس الحلي (م 598 هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم. 1410 هـ.

80. سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (1294 ـــ 1359 هـ) طبعة حجر، النجف الأشرف.

81. السنن: ابن ماجة: أبو عبد الله: محمد بن يزيد القزويني (207 ـــ 275 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت. 1395 هـ.

82. السنن: الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمان (181 ـــ 255 هـ) دار إحياء السنة النبويّة.

83. السيرة النبويّة: ابن هشام: أبو محمد: عبد الملك بن أيوب الحميري (م 213 أو 218 هـ) دار التراث العربي، بيروت.

84. السيرة الحلبيّة: الحلبي: برهان الدين علي بن إبراهيم (م 1044 هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.

85. السيرة الدحلانية على هامش السيرة: السيد أحمد زيني دحلان، المكتبة الإسلامية، بيروت.

حرف الشين

86. الشرائع: المحقق الحلّي: أبو القاسم: جعفر بن الحسن (602 ـــ 676 هـ) دار الأضواء، بيروت. 1403 هـ.

87. شـرح ابن عقيل: عبد الله بن عقيل الهمداني المصـري (698 ـــ 769 هـ) المكتبة التجاريّة الكبرى، بيروت ـ 1403 هـ.

88. شـــرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (م 655 هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ 1378 هـ.

89. شرح المواهب: الزرقاني.

90. الشفاء: الشيخ الرئيس ابن سينا (م 428 هـ) منشورات بيدار، إيران.

حرف الصاد

91. الصحيح: البخاري: محمد بن إسماعيل (م 256 هـ) مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر ـ 1314 هـ.

92. الصحيح: مسلم بن الحجاج القشيري (م 261 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

93. الصـحيفة السـجادية الجامعة: الإمام زين العابدين: علي بن الحسـين عليهما السلام مؤسـسـة الإمام المهدي ـ عج ـ قم المقدّسة ـ 1411 هـ.

94. الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: الشيخ إبراهيم بن محسن الكاشاني.

95. الصراع بين الإسلام والوثينة: عبد الله القصيمي.

96. الصواعق المحرقة: أحمد بن حجر الهيتمي (م 974 هـ) مكتبة القاهرة، مصر ـ 1385 هـ.

حرف الطاء

97. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (م 230 هـ) دار صادر، بيروت ـ 1380 هـ.

حرف العين

98. العرب: الأستاذ عمر أبو النصر.

99. عقائد الإمامية: الشيخ محمد رضا المظفر.
100. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي (246 ـ 328 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ 1404 هـ.
101. علل الشرائع: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م 381 هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ 1408 هـ.
102. علم الإمام: الشيخ محمد حسين المظفر: النجف الأشرف ـ 1380 هـ.
103. عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (م 381 هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ 1404 هـ.

حرف الغين

104. غاية المرام: السيد هاشم البحراني (م 1107 هـ) طبعة حجر، إيران.
105. الغدير: العلّامة الأميني: عبد الحسين أحمد النجفي (1320 ـــ 1390 هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ 1387 هـ.

حرف الفاء

106. فتح الباري: ابن حجر: شهاب الدين أحمد العسقلاني (م 852 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
107. فتوح البلدان: البلاذري: أبو الحسن (م 279 هـ) المكتبة التجارية، مصر ـ 1959 م.
108. الفرائد: الشيخ الأنصاري (1212 ـ 1281 هـ) طبعة حجر، إيران.
109. فرحة الغري: عبد الكريم بن طاووس، النجف الأشرف ـ 1368 هـ.
110. فلا السائل: علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (م 664 هـ) منشورات دفتر تبليغات إسلامي التابع للحوزة العلمية، قم المقدّسة.
111. الفهرست: النجاشي: أبو العباس (م 450 هـ) طبع بومبي.

حرف القاف

112. قاموس الرجال: محمد تقي التستري (المعاصر، تولد 1320 هـ) طهران ـــ 1397 هـ.

113. القرآن والكتاب: الحداد.

114. قرب الإسناد: الحميري القمي: عبد الله بن جعفر (من أعلام القرن الثالث الهجري) مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

حرف الكاف

115. الكافي: الكليني: محمد بن يعقوب (م 329 هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران. 1388 هـ.

116. كامل الزيارات: ابن قولويه: جعفر بن محمد (367 هـ) منشورات ميقات، طهران. 1406 هـ.

117. الكامل في الأدب: المبرد النحوي: أبو العباس: محمد بن يزيد (م 285 هـ) مكتبة المعارف، بيروت.

118. الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري: محمد بن محمد (م 630 هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

119. كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي (م 90 هـ) مؤسسة البعثة، طهران. 1407 هـ.

120. كشف الغمّة: الأربلي: علي بن عيسى (م 693 هـ) دار الأضواء، بيروت. 1405 هـ.

121. كشف المراد: العلّامة الحلّي: الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر (م 726 هـ) مطبعة العرفان، صيدا. 1353 هـ.

122. كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين: العلّامة الحلّي (م 726 هـ) طهران.

1411 هـ.

123. كنز الفوائد: الكراجكي: محمد بن علي بن عثمان (م 449 هـ) دار الأضـــواء، بيروت . 1405 هـ.

حرف اللام

124. لباب المنفول في أسباب النزول: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (849 ـ 911 هـ) دار إحياء العلوم، بيروت . 1403 هـ.

125. اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية: جمال الدين مقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلّي (م 826 هـ) مطبعة شفق، تبريز . 1397 هـ.

حرف الميم

126. المبسوط: الشيخ الطوسي (م 460 هـ) طبع طهران . 1387 هـ.

127. متشابهات القرآن ومختلفه: ابن شهر آشوب (488 ـــ 588 هـ) مطبعة شركت سهامي طبع كتاب، ايران.

128. مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (661 ـ 728 هـ) مصر . 1385 هـ.

129. المحاسن: البرقي: أحمد بن محمد (م 274 هـ) طبع طهران . 1370 هـ.

130. المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي: الدكتور عبد الرحمان الصابوني، المطبعة الجديدة، دمشق . 1399 هـ.

131. مروج الذهب: المســعودي: علي بن الحســين (م 345 هـ) منشــورات الجامعة اللبنانية، بيروت . 1965 م.

132. المزار الكبير: ابن المشــهدي، مخطوط، مكتبة آية الله العظمى المرعشــي النجفي، قم المشرّفة.

133. المستدرك: الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله (م 405 هـ) دار المعرفة، بيروت.

134. مستدرك الوسائل: النوري الطبرسي: الحسين بن محمد تقي (1254 ـ 1320 هـ) مؤسسة آل البيت، قم ـ 1407 هـ.

135. المسند: أحمد بن حنبل (م 241 هـ) دار الفكر، بيروت.

136. المسند: الشافعي.

137. مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (م 460 هـ) بإشراف إسماعيل الزنجاني، إيران.

138. معاني الأخبار: الصـدوق: محمد بن بابويه القمي (م 381 هـ) دار المعرفة، بيروت 1399 هـ.

139. المعجزة الخالدة: العلّامة الشهرستاني.

140. المغازي: الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (130 ــ 207 هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

141. مفاتيح الغيب: صدر المتألّهين.

142. المفردات: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم: الحسين بن محمد (م 502 هـ) مطبعة الميمنية، القاهرة ـ 1324 هـ.

143. مقاييس اللغة: أبو الحســين: أحمد بن فارس بن زكريا (م 395 هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ 1366 هـ.

144. مقباس المصابيح: العلّامة محمد باقر المجلسي (م 1110 هـ).

145. المقتل: الخوارزمي: موفق بن أحمد المكي (م 568 هـ) مطبعة الزهراء، النجف الأشرف ـ 1367 هـ.

146. المقدّمة: ابن خلدون: عبد الرحمان بن محمد (م 808 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ 1398 هـ.

147. مكاتيب الأئمة: العلّامة محمد بن المحسن بن المرتضى الكاشاني (1039 ـ 1115 هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم 1407 هـ.

148. مكاتيب الرسول: علي بن حسين علي الأحمدي (المعاصر) المطبعة العلمية، قم ـ

1379 هـ.

149. مكارم الأخلاق: الطبرسي: الحسن بن الفضل (من أعلام القرن السادس الهجري) منشورات الشريف الرضي، قم ـ 1408 هـ.

150. المكاسب: الشيخ مرتضى الأنصاري، منشورات علاّمة، قم ـ 1408 هـ.

151. ملحقات العروة الوثقى: السيد الطباطبائي.

152. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: أبو جعفر: رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني (488 ـ 588 هـ) المطبعة العلمية، قم، إيران.

153. مناهل العرفان: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت ـ 1408 هـ.

154. من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق: محمد بن علي بن بابويه القمي (م 381 هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ 1390 هـ.

155. من هنا وهناك: محمد جواد مغنية، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ 1388 هـ.

156. الموطأ: مالك بن أنس (م 179 هـ) دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ 1403 هـ.

حرف النون

157. نظرية السياسة والحكم في الإسلام: العلّامة الطباطبائي (م 1402 هـ) طهران ـ 1402 هـ.

158. نهاية الدراية: السيد حسن الصدر (1272 ـ 1354 هـ) الهند، لكهنو ـ 1324 هـ.

159. نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (359 ـ 404 هـ) بيروت ـ 1387 هـ.

160. نهج السعادة: العروسي الحويزي: عبد علي بن جمعة (م 1112 هـ) مطبعة الحكمة، قم المقدّسة، إيران.

161. نور الثقلين: العروسي الحويزي: عبد علي بن جمعة (م 1112 هـ) مطبعة الحكمة قم المقدّسة، إيران.

حرف الهاء

162. هدية الزائرين: الشيخ عباس القمي (1294 ـ 1359 هـ) طبعة حجر.

حرف الواو

163. الوافي: الفيض الكاشـــاني (م 1091 هـ) منشـــورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين، اصفهان ـ 1406 هـ.

164. الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا (م 1354 هـ) طبع مصر.

165. وسائل الشيعة: الحرّ العاملي: محمد بن الحسن (1033 ــ 1104 هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ 1403 هـ.

166. ولاية الفقيه: الإمام روح الله الخميني (م 1409 هـ) منشورات ناس، طهران.

حرف الياء

167. اليهود في القرآن: عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1386 هـ.

168. ينابيع المودة: القندوزي: ســـليمان بن إبراهيم البلخي (م 1294 هـ) مطبعة اختر، اسلامبول ـ 1301 هـ.

فهرس المواضيع

كليمة قيّمة للعلّامة الطباطبائي 1 3

إكبار وتقدير من الشيخ محمد تقي التستري 4

التفاتة كريمة من الشيخ محمد الكرمي 5

عواطف خالصة من فضيلة الشيخ حسن طراد العاملي 7

مقدّمة الطبعة الثالثة 9

مقدمة الطبعة الثانية: القرآن كتاب القرون والأجيال 11

القرآن معجزة خالدة 11

أوجه الإعجاز القرآني 12

لزوم الاهتمام بالمعارف الإلهية 14

تقديم مباحث النبوّة على الصفات 16

مباحث النبوّة 18

مقدمة الطبعة الأولى: منهج متكامل في علام التفسير 21

القرآن وآفاقه اللامتناهية 22

التفسير في مختلف الاتجاهات 24
المنهج الصحيح في التفسير 25
1. تفسير القرآن بالقرآن: 26
2. على ضوء الأحاديث الإسلامية الصحيحة: 28
تأثير الحضارة الغربية في المنهج التفسيري 29
نزول القرآن نجوماً 30
الجمود فى التفسير 33
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم 34
أوّليات الطريقة الموضوعية في التفسير 35
منهجنا في هذا الكتاب 37

الفصل الأوّل

عالمية الإسلام على ضوء القرآن الكريم

تأثير تلكم الكتب: 44
النصوص القرآنية في عالمية رسالته: 45
البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر: 49
الدعوة إلى الفطرة، أساس الأحكام الإسلامية: 54
الإسلام يكافح المبادئ الرجعية: 55
نظرة في الآيات المشعرة بعدم العمومية 59
1. آيات الانذار: 59
2. عد بعض أهل الكتاب من الصالحين: 61
3. تخصيص الانذار بأُمّ القرى ومن حولها: 63
4. كلّ نبي مبعوث بلسان قومه 70

مغالطة أُخرى حول الآية 71
هل كانت نبوّة نوح والكليم والمسيح عالمية ؟ 73
هل رسالة نوح كانت مختصّة بقومه ؟ 74
هل كانت نبوّة الكليم عالمية ؟ 78
موقف دعوة الكليم من القبطيين 79
موقف دعوة الكليم من غير القبطيين 83
المقام الثاني في عموم شريعته 86
أسئلة وأجوبة 90
هل كانت نبوّة المسيح عالمية ؟ 97
ما المراد بأُولي العزم من الرسل 102
من هم أُولي العزم من الرسل ؟ 105
شبهة واهية في المقام: 110

الفصل الثاني

الخاتمية في الذكر الحكيم

النصوص القرآنية الدالّة على ختم النبوّة 117
الخاتم وما يراد منه 118
تشكيكان حول دلالة الآية على كون نبي الإسلام خاتماً 123
التشكيك الأوّل 124
التشكيك الثاني 127
التنصيص الثاني على الخاتمية: 129

النص الثالث من القرآن على الخاتمية: 133
النص الرابع من القرآن على خاتمية الرسول 6: 135
النص الخامس على الخاتمية: 135
النص السادس على الخاتمية: 136
اشارات قرآنية إلى الخاتمية: 137
الخاتمية في الأحاديث الإسلامية 140
تنصيص الرسول الأكرم 6 على الخاتمية 140
تنصيص الإمام أمير المؤمنين 7 على الخاتمية 148
تنصيص فاطمة الزهراء 3 على الخاتمية: 152
تنصيص السبط المجتبى على الخاتمية: 152
تنصيص الإمام سيد الشهداء 7 على الخاتمية 153
تنصيص الإمام زين العابدين 7 على الخاتمية 153
تنصيص الإمام الباقر 7 على الخاتمية 154
تنصيص الإمام الصادق 7 على الخاتمية 155
تنصيص الإمام موسى بن جعفر 8 على الخاتمية 159
تنصيص الإمام الرضا 7 على الخاتمية 159
ابهام وايضاح: 160
تنصيص الإمام أبي محمد الجواد 7 على الخاتمية 162
تنصيص الإمام الهادي 7 على الخاتمية 162
تنصيص الإمام العسكري 7 على الخاتمية 163
تنصيص الإمام الحجة المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) على الخاتمية 163
روايات أُخرى 164

الفصل الثالث

شبهات حول الخاتمية

الشبهة الأُولى: الاستدلال بلآية: (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ ...) لنفي الخاتمية 171
الجواب عن الشبهة: 171
دحض الشبهة بوجه آخر: 176
نقل كلام عن العلمين: 178
الشبهة الثانية: الاستدلال بالآية: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ...) لنفي الخاتمية 181
الجواب: 181
الشبهة الثالثة: بالآيتان: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ...) و (قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا ...) لنفي الخاتمية 184
الجواب: 184
القرآن يتوسّع في استعمال الأُمّة: 186
الأُمّة: الطريقة والدين: 187
نظرة في موارد استعمال الأجل في القرآن: 189
سؤال من المستدل: 190
الاكذوبة التي نسبها إلى رسول الله: 191
الشبهة الرابعة: الاستدلال بالآية: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ ...) لنفي الخاتمية 193
الجواب: 193
الشبهة الخامسة: الاستدلال بالآية: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ ...) لنفي الخاتمية 194
الجواب: 195
حصيلة البحث: 197
مشكلة المفتتح والمختتم: 199

الشبهة السادسة: استدلالهم بأن القرآن أقرّ استمرار جميع الشرائع السماوية واحتفاظها بشرعيتها 200
الحديث يبيّن هدف الآية: 203
جواب آخر: 204
1. فكرة الشعب المختار: 204
2. الأسماء لا تنقذ انساناً: 205
3. ليست الهداية في اعتناق اليهودية والمسيحية: 206
خاتمة المطاف: 214

الفصل الرابع

أسئلة حول الخاتمية 217
السؤال الأول: إذا اختمت النبوة التشريعية، فلماذا ختمت التبليغية منها ؟ 217
دور أهل البيت في إكمال الدين وختم الرسالة: 221
السؤال الثاني: لماذا حرم الخلف من الأُمم من المكاشفة الغيبية ؟ 226
الاسفار المعنوية الأربعة: 234
مثل الفضيلة والأخلاق 237
السؤال الثالث: لاتجد في الكون المادي أمراً خالداً عبر الأجيال، فكيف يكون الإسلام أمراً ثابتاً ؟ 241
السؤال الرابع: لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة 246
المقررات المتطوّرة في الإسلام: 249
الإسلام والتطوّر الزمني: 257
بين الجمود والجهل: 258
النسخ غير المرونة: 258

السؤال الخامس: ادعاء النقص في التشريع الإسلامي 260
الأمر الأوّل: التشريع ذو مادة حيوية خلاقة للنفاصيل 262
الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة 262
إنّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد: 267
التشريع الإسلامي ذو مادة حيوية 269
تشريع الاجتهاد 271
الحقيقة بنت البحث: 281
شبهة حول الاجتهاد الدارج في عصرنا: 283
الجواب عن الشبهة: 283
حقوق الحاكم الإسلامي: 288
الأمر الثاني: مرونة أحكامه 290
1. الإسلام دين جامع والأُمّة الإسلامية أُمة وسط: 290
2. النظر إلى المعاني، لا المظاهر: 292
3. الأحكام التي لها دور التحديد: 294
خاتمة المطاف: 294

الفصل الخامس

النبي الأُمّي في الذكر الحكيم

النص الأوّل: قوله سبحانه: (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ ...) 297
نظريات شاذة للدكتور الهندي 300
النص الثاني: من القرآن على كونه أُمّياً: 302
الآراء الشاذة في تفسير الأُمي: 305

الرأي الأول: الأُمّي منسوب إلى أُم القرى 305
الرأي الثاني: الأُمي من لم يعرف المتون السامية 308
بحث وتنقيب 311
أمر النبي 6 بعد بزوغ دعوته 316
1. الوجوه التي اعتمد عليها شيخنا المفيد: 317
2. الاستدلال بمفهوم الآية: (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ ...) 320
تأملات وملاحظات 321
3. الاستدلال بقوله سبحانه: (يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً) 323
4. الاستدلال بقوله سبحانه: (اكْتَتَبَهَا) 324
5. الاستدلال بالأولوية: 326
6. التجارة تتوقّف على الكتابة: 326
أُمّية النبي في الأحاديث: 328
منها: حديث بدء الوحي 328
كلمة حول سند الحديث: 329
توضيح مفاد الرواية: 330
منها: حديث المطالبة بالقلم والدواة: 333
منها قصة الحديبية: 333
الجواب عن الاستدلال بالرواية: 334
منها كتاب النبي إلى العذار: 340
فذلكة البحث: 340
عرض وتحقيق: 341
حصيلة الكلام في أُمّية النبي 6: 345
نحن وقساوسة الغرب والمستغربة: 345

الفصل السادس

علم الغيب في الكتاب العزيز

أنواع المغيبات في القرآن: 352

الإخبار عن الغيب أحد وجوه إعجازه: 355

مغيبات القرآن وأخباره الغيبية 359

1. تنبؤ القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله: 359

2. التنبّؤ بانتصار الرومان على الفرس: 361

3. اخباره عن صيانة النبي عن أذى الناس: 362

4. تنبّؤات حول المنافقين والمخلّفين من الأعراب: 364

5. الإخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة: 367

6. التنبّؤ بصيانة القرآن عن التحريف: 369

7. الاخبار عن نجاح الإسلام والرسول: 370

8. التنبّؤ بأحداث جزئية: 376

9. تنبّؤ القرآن في مكّة بما سيصيب كفّار قريش: 378

10. التنبّؤ حول اليهود والنصارى: 381

إجابة عن سؤال 387

ختامه مسك: 394

الفصل السابع

اختصاص العلم بالغيب بالله سبحانه

1. قصره على الله سبحانه في بعض الآيات: 400

2. ما يستفاد منه الحصر بمعونة القرائن: 401
3. سلب العلم بالغيب عن غيره: 402
هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب: 404
القرآن يدل على تحقق التنبّؤ من الأنبياء والصالحين: 414
1. النبي آدم 7 والاطلاع على الغيب: 415
2. تنبّؤ نوح 7: 416
3. إبراهيم 7 وملكوت السماوات والأرض: 416
4. اطّلاع لوط 7 على الغيب: 417
5. تنبّؤ يعقوب 7: 418
6. تنبّؤ يوسف 7: 419
7. صالح 7 والتنبّؤ بالغيب: 421
8. اطّلاع سليمان 7 بالغيب: 421
9. المسيح 7 والتنبّؤ بالغيب: 422
10. انباء النبي الأكرم 6 بالغيب: 422
11. اطّلاع مريم على الغيب: 423
12. الغيب وامرأة إبراهيم: 423
13. الغيب وأُم موسى: 424
14. الغيب وصاحب موسى: 424
15. النبي شهيد على الأُمّة: 425
16. المؤمنون شهداء على المنافقين: 425
حصيلة البحث: 426
ما هو مفاد الآيات النافية لعلم الغيب عن النبي 427
تساؤلات حول علم النبي بالغيب 441
السؤال الأول: كيف تحمل الآيات الدالة على علم النبي بالغيب على العلم

الذاتي، المحيد بكل شيء، المريسل عن كل شيء ؟ 441
السؤال الثاني: لوكان النبي 6 عالماً بالغيب بعلم من الله لما مسّه السوء 443
السؤال الثالث: مشكلة المشاركة مع الله 457
السؤال الرابع: علم الغيب مختص بالرسول 6 دون الأئمّة : 458
السؤال الخامس: سبب تحاشي الرسول 6 والأئمة: نسبة العلم بالغيب إليهم 459
خاتمة المطاف: 464
تنبّؤات نبوية: 466
تنبّؤات علوية: 471
عثرة لا تقال: 483
هل استأثر الله بعلم هذه الأمور ؟ 486
دفع شبهة: 487
نظرنا في الموضوع: 480
عرض وتحليل: 493

الفصل الثامن

سيرة النبي الأعظم وصفاته وأسماؤه في القرآن الكريم

عناية القرآن ببيان صفات النبي 6: 498
أسماؤه في القرآن: 506
شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة: 509
خاتمة المطاف: 516
فهرس مصادر الكتاب 519
فهرس المواضيع 533